الطريق إلى السعادة
The Path to Happiness

طريق السعادة

Path of Happiness

تساؤلات حائرة وفلسفة حياة

رواية

عبدالله بن سالم باهمام

الطبعة الأولى: ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

رواية
طريق السعادة
تساؤلات حائرة وفلسفة حياة
د.عبدالله باهمام

طريق السعادة

تساؤلات حائرة.. وفلسفة حياة

بسم الله الرحمن الرحيم

ح عبدالله سالم عمر باهمام ، ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باهمام ، عبدالله سالم عمر

طريق السعادة تساؤلات حائرة.. وفلسفة حياة /عبدالله سالم عمر باهمام.- الرياض، ١٤٣٣هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٣- ١٠٥١- ٠١- ٦٠٣- ٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٣/٨٩٦٢

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٩٦٢

ردمك: ٣- ١٠٥١- ٠١- ٦٠٣- ٩٧٨

العجوز

١ العجوز

العجوز

(١)

عزم أمره إثر اكتئاب حاد بات يلازمه كثيرًا، فأخرج ورقة وكَتَب:

«حبيبتي كاترينا أنا ذاهب ولن أعود، سأنهي شقائي الذي لا ينفك عنّي، أقولها بصراحة: سأنهي حياتي، فاعذريني، وليعذرني أطفالي».

ومضى في طريقه..

كان متردّدًا، رغم أنّه راجع نفسه كثيرًا، ولم يجد مخرجًا ممّا هو فيه إلا بالانتحار، كان يمشي بخطواتٍ بطيئة يحدّث نفسه: تُرى هل أنا مريض حقًّا؟ كاترينا تقول ذلك دائمًا! دائمًا تحثّني على الإيمان واليقين، وتكرر لي:

- الشك مرض يا جورج، لا تستسلم له.

حتّى أبوه كان يراه مريضًا، كان يردد أمامه أنّ مرض الشك مرض وراثيّ، قد انتقل إليه من عائلة أمّه، وينصحه بالتوقّف لئلا يؤول به الحال إلى مصحّة نفسية! وكذلك مديره في العمل كاخ اليهودي، يضحك عليه كثيرًا، ويقول له بنبرة متعاطفة وساخرة:

- عزيزي جورج، أنا مستاء لك كثيرًا، أنت تشغل نفسك بلا فائدة، فالذي تفكر فيه لا يزيد مالك، بل ويحرمك من الاستمتاع بالحياة.

جورج ابن ثماني وثلاثين سنة، تزوّج من كاترينا البريطانيّة مثله، لكنّها ذات أصول هنديّة، يعود زواجهما إلى عشر سنين، رزقا فيها بثلاثة أطفال: ماري الكبرى (يفترض أن عمرها عشر سنوات، لكنها توفيت وعمرها سبع سنوات)، مايكل (ثمان سنوات)، سالي (ستّ سنوات). ومنذ أن توفيت ابنته الكبرى ماري إثر حادث طريق، وبسبب تفكيره المتواصل في معنى الحياة والموت، وبسبب حبه للفلسفة وحدة ذكائه كثرت التساؤلات عليه، فقد كان جورج قارئًا نهمًا، يحب القراءة في الفلسفة والتاريخ والأديان، ولعلّ هذا ما دفعه إلى الزواج من كاترينا الكاثوليكيّة، مُدرّسة علم اللاهوت.

كان جورج يجد لديها من الإيمان واليقين ما يفتقده هو بالرغم من كونه بروتستانتيًّا، فبينما هو يكاد يرتاب ويشكّ في كلّ الأمور ويُكثر من التساؤل، كان يعجب كثيرًا من قبولها لشكوكه بالتسليم والتفويض، لكنّه يبرّر لنفسه دائمًا بأنّه يمتلك من الذكاء والعقل والمنطق ما لا تدركه كاترينا المؤمنة. تحاور معها كثيرًا، كانت هذه الحوارات تبدو له حوارات بين العقل الذي يمثّله هو، والإيمان والتسليم الذي تمثّله هي، أو بين واقعيّته الحقيقيّة ومثاليّتها الموهومة. فيما كانت تبدو لكاترينا حوارات بين التسليم واليقين الذي تمثّله هي، وبين الشكّ والمرض الذي يمثّله هو. ودائمًا ما تنتهي تلك الحوارات بالصمت الطويل، ولولا المحبّة التي تجمعهما لانفصلا منذ مدّة طويلة.

لكنّ ازدياد الشكّ مع جورج بعد وفاة ابنته جعل تلك الحوارات بينهما أكثر حدّة وضيقًا، أصبحت الأسئلة الكبرى: لماذا خلقنا؟ ولماذا نعيش؟ وإلى أين المصير؟ تسيطر على تفكيره وتستحوذ عليه، فهذه الأسئلة تبدو بسيطة وسهلة، لكنّها معقّدة جدًّا، ولذلك خاض فيها الفلاسفة الأذكياء الذين صاغوا مفاهيم الحياة والوجود. وكان يرى أنّ الإجابة على هذه الأسئلة يَعني استقرار الإنسان وطمأنينته وسعادته.

فيما كان يمشي في طريقه للانتحار كانت مشاهد كثيرة من حياته تمرّ بين عينيه، تذكر ابنته وهي تصارع الموت وهي في إسعاف المستشفى، لكنه صرعها وأخذ منها جمالها وحياتها وأخذ كذلك روحه معها، تذكر ابنه مايكل الذي سأله يومًا وهو منهك من ضغوطات العمل:

- بابا لماذا تذهب للعمل كلّ يوم؟
- من أجل أن يكون لي رسالة في الحياة، ولأوفر لك ما تحتاجه وتحبّه.
- ماذا تعني برسالتك في الحياة؟!
- خدمة الناس ونفع البشريّة.
- لماذا؟!

تنهّد جورج وهو يشعر بأن السؤال يزلزله من الداخل، ثم أجابه:

- لأمر عظيم ربّما لا تعرفه أنت.. ولا أنا!
- أنت كبير يا بابا، ولا تعرف هذا الأمر! عندما أكبر سأعرف كلّ شيء، ولن أترك شيئا عظيما دون أن أعرفه.
- مايكل.. انسَ حبيبي..

ثمّ ضحك وقال في نفسه: هذه هي الوصية التي تقال لي يوميًّا: «انسَ هذه التساؤلات واستمتع بحياتك»، وأردف لابنه:

- لا تخف، سأجيبك يومًا ما.

- بابا أنت أنهيت دراستك، وتقرأ كثيرًا، ولا تعرف!
- حبيبي هل أنهيت واجباتك؟
- نعم.
- إذن تصبح على خير.

ظلّ يكلّم نفسه وهو يسير بخطوات مثقلة: يبدو أنّني مريض كما تقول كاترينا، أو أبله مضيّع لحياتي كما يقول كاخ، أو موسوس كما يقول أبي، أو... أو جاهل كما يقول مايكل! ربّما مايكل على حقّ، ولكنّ المضحك أنّني أجبته بما يجيبني الآخرون: انسَ، يبدو أنّي تعلمت الهروب إلى الأمام كغيري من الناس!

وهو في طريقه متجهٌ إلى المكان الذي يريد الانتحار فيه تذكر ذلك اليوم الذي أصابته فيه حالة اكتئاب شديدة؛ فشرب الخمر حتّى ثمل، وخرج يقود سيارته فارتطم بجدار، فخرج من سيارته مترنّحًا وممسكًا بكتاب أخذه معه بعنوان: (فلسفة السعادة)، فأمسكه رجل المرور، قائلا له:

- هذه فلسفة السعادة أم فلسفة الانتحار؟! ألا تعرف مخالفة قيادة المخمور؟!

وأخرجته كاترينا بكفالة من شرطة المرور، وقالت له:

- ما كان ينبغي أن تقود سيارتك وأنت مخمور.

أجابها ساخرًا:

- أليست هذه وصيتك لي: أن أنسى؟
- ليس بهذه الطريقة.
- ولماذا أنت تسهرين وتشربين كلّ يوم؟
- أنا أشرب وأحتفل في مراسم خدمة المسيح في الكنيسة.

قال لها بخبث:

- كأس مقدّسة وهلوسة مباركة، أم هروب بشكل آخر؟!
- لقد أصبح الحوار معك متعبًا؛ لأنّك تخافين التفكير، وتهربين إلى الكأس والسهر كما فعلت أنا، ولكنك تُلبسين ذلك ثوبًا مقدّسًا.

كانت كلمات جورج قاسية جدًّا، تنهدّت بحزن وإحباط، قائلة:

- على الأقل لا أحتاج إلى طبيب نفسي مثلك!
- ربّما! من يدري؟!

(٢)

في طريقه الذي خُيّل إليه أنه طويلٌ جدًّا، في الوقت الذي يوشك رأسه على الانفجار من تلاحق أفكاره وذكرياته، وقد بلغ به التردّد والحيرة مبلغًا مخيفًا، ينظر في حركة الناس من حوله فيراها كأنما هي آلات تتحرك لا روح لها ولا معنى، فكان يتساءل في نفسه: كيف يقبل البشر أن يتحولوا إلى آلات لا روح فيها، وبينما هو يسير منهارًا رأى شيخًا سبعينيًّا يلعب مسرورًا مع حفيده، أثار انتباهه وفضوله وابتسامته وضحكاته، فاقترب منه، وقال:

- عذرًا على المقاطعة، هل أنت سعيد؟

نظر إليه العجوز متعجبًا، ثم قال:

- نعم.. ورجع يلعب مع حفيده.

قاطعه جورج مرة أخرى:

- كيف؟ أعني: لماذا أنت سعيد؟ لماذا أنت تعيش؟

نظر إليه العجوز نظرة متفحّصة، وقال له:

- لقد أجبت على سؤالك بنفسك.

- كيف؟

- أنا سعيد لأني أعرف لماذا أعيش، هكذا بكلّ بساطة.

- لماذا أعيش؟ أرجوك أخبرني.

- اسأل نفسك! لا أستطيع أن أجيبك أنا على هذا السؤال، لا يجب عليه إلا روحك وحياتك.

- أتوسل إليك أخبرني.

- قلت لك أنّ هذا السؤال يجيب عنه ببساطة كلٌّ من الروح والحياة، لا أستطيع أن أقول لك أمرًا لم تقتنع به روحك وحياتك.

ثمّ تابع بحزم:

- هل أنت مراهق تريدني أن أُملي عليك رؤيتي للحياة وللكون، أم أنّك اعتدت على أن تكون عالة على الآخرين؟ إذا سمحت لا تشغلني عن اللعب مع حفيدي.

- أعتذر مرة أخرى، كيف يمكن لروحي وحياتي أن تجيبني؟

- أشعر بالصدق في لهجتك، دعني أقول لك شيئًا: لو نظرت إلى أي عقد، لوجدت خرزاته لا تنتظم إلا بحبل رفيع ينظم الخرزات لتصبح عقدًا جميلًا، وكذلك حياتنا لا بدّ لها من خيط رفيع من المعرفة، وهو السبب الذي لأجله نعيش ونحيا.. ونسعد أيضًا.

- كيف؟ أخبرني!

- إن كنت صادقًا فمفتاح الإجابة في البحث والإصرار والعزيمة ومحاولة الوصول.
- الوصول لماذا؟
- للسعادة!
- كيف؟
- ابحث عن الطريق للسعادة! فتأنس نفسك ويصبح لحياتك وللكون معنى! أعتذر لك لا تُضِعْ وقتي، أريد أن ألعب مع حفيدي.
- حسنًا.. حسنًا، أنا لا أعرف طريق السعادة، ولكن ربما أصر وأصل لطريق السعادة كما تقول! إن كان موجودا!
- هو موجود وإلا لم يكن للحياة معنى، على كل حال بشرني عندما تجد الإجابة، وستجدها إن كنت مصرًا، وستعرف معنى كيف تجيب عليك روحك وحياتك، وستجد الخيط الذي يعطي المعنى لكل مفردات حياتك.
- أتمنى ذلك، ولكن ما اسمك؟ وأين تسكن؟
- إذا بقيت حيًّا فستجدني في هذا المكان، وفي هذا الوقت كلّ جمعة، أعطني عنوانك، وسأرسل لك عنواني فيما بعد.
ثمّ التفت إلى حفيده ورمى الكرة، فتعجب جورج، قائلًا:
- شكرًا لك، هذا عنواني.
ومضى عنه..
سار قليلًا، كان يشعر برهق وتعب لم يشعر به من قبل، حتّى في الأيام التي يزداد فيها ضغط العمل عليه، فقرر أن يشرب قليلًا من الخمر، ليستعيد شيئًا من نشاطه وذهنه، فهو يشعر أن رأسه يكاد أن ينفجر، لكنه أكثر جدًّا حتى بدأ يترنح، وما لبث أنّ أحس بدوار تكاد تغيب معه ملامح الأشياء من حوله، فسقط مغشيًا عليه وهو يمشي في الشارع.
اجتمع الناس حوله، وحملوه فتحامل على نفسه، وأخبرهم بمكان بيته.
عند الباب لقي كاترينا تبكي وتنتحب عليه، فلما رأته ركضت إليه، وارتمت على صدره باكية، فقال لها:
- هذا أنا للأسف حيّ لم أمت.
- حمدًا للربّ على سلامتك، لقد خفت كثيرًا، لماذا تفكر بالانتحار؟

- لأرتاح من الآلة المتحركة التي اسمها جورج! الآلة التي لا تعرف معنى لوجودها وعيشها، وتموت روحها وتشقى نفسها في كل لحظة، ولولا العجوز الذي قابلته في الطريق ولولا الخمر، لكنت قد ارتحت من الحياة!

- مَن هذا العجوز؟!

- لا أعرف، لكنه كان سعيدًا! «وتابع ساخرًا» ويعرف لماذا يعيش؟!

- لم أفهم عمّ تتحدّث، ولكن حمدًا للربّ على سلامتك.

- حتّى أنا لم أفهم، كل الذي فهمته أنّ طريق السعادة يحتاج إلى عزيمة وبحث وإصرار للوصول.

- طريق السعادة! ستصل يا حبيبي، المهم لا تفرط في حياتك، نحن بحاجة إليك.

- ههههه، سأحاول ألا أفرط فيها؛ لأبحث حتى أعرف الإجابة، وسأكون سعيدًا عندها مثل ذلك العجوز.

لاحظت كاترينا التعب على تقاسيم وجهه، فأمسكت يده وأسندته إليها، حتّى وصلا إلى غرفة النوم، فتمدّد على السرير، فيما تفاصيل اليوم تتقافز في رأسه كالأشباح المرعبة، حتى غلبه النوم، وغاب عن الوعي.

تساؤلات حائرة!

٢ تساؤلات حائرة!

تساؤلات حائرة!

(١)

التفتت كاترينا إلى جورج فور ما انتهى الفيلم الذي كانا يشاهدانه سويًّا، لتقطع عليه شروده الطويل:

- جورج.. جورج، ألا تريد الخلاص ممّا أنت فيه؟
- ماذا تعنين؟! بلى.. طبعًا!
- جارتنا الجديدة ذكرت لي الطبيب النفسي الشهير توم أركسون، قالت لي بأنّها تعالجت عنده.

اعتدل في جلسته وواجهها، وقد ارتسمت على وجهه مشاعر متضاربة تعبر عن حركة نفسية مضطربة، ثمّ عقّب ساخرًا:

- جميل.. هل أذهب إلى طبيب نفسي لأقول له أرجوك علمني كيف أنسى أنني أجهل لماذا خلقت؟ ولماذا أعيش؟
- بل لتقول له: كيف أعرف لماذا خُلقت؟ ولماذا أعيش؟
- لأعرف الجواب!!
- نعم.

مال جورج برأسه إلى الخلف، فما لبثت هواجسه المعتادة أن أخذته بعيدًا، فعاوده القلق والاضطراب، وفيما هو مستغرق فيها، لحظت كاترينا سرحانة، وأدركت أنّه ما كان ليغيب عنها إلا وقد استبدّ به قلقه وخوفه مرّة أخرى، فنادته بنبرة مرتفعة:

- جورج!
- نعم..نعم.. كنت سأسألك: هل الطبيب توم بروتستانتي؟ أم أنّ لحماستك سببًا آخرًا؟
- جورج حبيبي.. حماستي لنعيش سعداء معًا، ربما تكون محقًّا في أنّي أتعمّد الهروب من نفسي، ولكن أليس ذلك أفضل من عيشة الحيرة والشك التي تعيشها أنت؟!
- حسنًا، لقد اتخذت قراري أن أبحث عن طريق السعادة، لن أهرب بعد اليوم، بل سأسعى لأجد الإجابة.. ثمّ ابتسم، وتابع: ولكن لن أبحث عنها عند قس كاثوليكي، أمهليني لأسأل عن هذا الطبيب أولًا.

- سنسأل عنه، وأدعو الربّ أن يجعل على يديه الشفاء.
- ههه، إذن أنا مريض يحتاج إلى علاج، ولست فيلسوفًا يبحث عن إجابة!
- العلاج هو الوصول إلى الإجابة، وليس لأنك مريض.. ثمّ غمزته بعينها وارتمت على صدره، وقالت: اتفقنا حبيبي؟
- اتفقنا!

(٢)

كان جورج حريصًا على أن يتعرّف على الطبيب توم قبل أن يأخذ موعدًا لزيارته، فدخل على صفحته على «الفيس بوك»، وقرأ عن المؤتمرات التي يحضرها، ونوعية الأوراق والبحوث التي يقدّمها، وقرأ مما كتبه مرضاه عنه؛ فتشكّلت له صورة شبه واضحة عن طبيب نفسي عالمي متميّز، شديد الذكاء، واسع الثقافة، محبّ للفلسفة، استطاع أن يمزج بين الطب الحديث ومدارس فلسفيّة متنوّعة.

كان جورج يتتبّع آراء المرضى وتعليقاتهم، فأدرك أنّ الطبيب توم أيضًا شخص غريب الأطوار، علمه وطبّه يناقضان سلوكه الشخصي، خاصّة في علاقاته مع المريضات، كما لاحظ أنّه ليس كاثوليكيًّا كما كان يظن، بل لم يكن متديّنًا، وإنّما هو ملحد لا يؤمن بالأديان كلّها.

كان جورج يؤجّل حجز موعد عند الطبيب مرة بعد مرة، فلم يكن يشعر بأدنى رغبة في الذهاب إلى طبيب متناقض، لكنّه وعد كاترينا بالذهاب، واستمرّ في تسويفه حتّى فاجأته ذات يوم بأنّها أخذت موعدًا له في الساعة الرابعة عصرًا، وأنّها ستذهب معه، فاستجاب لها رغم عدم ارتياحه لهذا الطبيب! وهو يقول لنفسه: تجربة فاشلة لكن لن تضرني وستسكت كاترينا.

ذهب جورج وكاترينا إلى عيادة الطبيب، كانت عيادة هادئة، أثاثها أنيق، ألوانها متناسقة ومريحة للنظر، لا يعكّر صفوها إلا شخص مريبة نظراته وتقاسيم وجهه، يجلس على مكتب الاستقبال، أخبره جورج بموعده، فأجابه ببرود:

- اسمي براد، أنا لم أرك سابقًا، أظنّ أن الطبيب مشغول الآن.

التفت جورج إلى كاترينا، وقال لها:

- ألم تأخذي لنا موعدًا؟
- بلى لقد حضرت قبل ثلاثة أيام، وأخذت موعدًا!

ردّ براد بخبث:

- نعم..نعم، عذرًا نسيت لقد أخذتِ موعدًا، تفضلا هو بانتظاركما.

مضى جورج مع كاترينا وهو متعجّب ومشمئز من أسلوب براد، دخلا على الطبيب فرحّب بهما، ثمّ طلب أن يجلس مع كلٍّ منهما بانفراد.

رد جورج:

- لكنّ الموعد لي أنا فقط!

- وكاترينا زوجتك، وأقرب الناس لك، وستفيدني كثيرًا في فهم وضعك، وأنا أقترح أن أجلس معها أولًا لدقائق، ثمّ أجلس معك.

خرج جورج إلى صالة الاستقبال، وجلس على أحد المقاعد في صمت وضيق، فبادره براد:

- توم مع كاترينا!

- ما أدراك باسمها؟

- أليست هي التي حضرت قبل ثلاثة أيام.. «ثمّ ابتسم بخبث»: ويجلس توم معها وحدهما، الطبيب توم محظوظ جدًّا، رجل وسيم يجلس مع امرأة فيها من سحر الشرق.

تناول جورج مجلّة ليتشاغل بها عن براد، فيما كان يكتم غيظه وتبرّمه، تذكّر علاقات توم المشبوهة مع المريضات، فكاد أن يخرج عن هدوئه المصطنع، لكنّه تمالك نفسه وأقنعها بالتريّث قليلًا، وإن كان مع مرور الوقت يزداد ضيقًا وحنقًا. خرجت كاترينا بعد عشر دقائق وهي تضحك، ونادت زوجها:

- حبيبي الطبيب في انتظارك، أنا سأذهب الآن لديّ موعد في الكنيسة.

دخل جورج على الطبيب، فغابت الابتسامة التي رأى أثرها على وجهه، واستقبله بملامح جامدة، وقال له:

- لماذا تريد أن تعرف من خلقك؟ ولماذا تعيش؟ وإلى أين المصير؟

- لأنّي أريد أن يصبح لحياتي معنى تنتظم فيه روحي وحياتي.

- ممم، يبدو أنني أمام حالة مثقفة ومميّزة، لماذا لا تستخدم الطرق الفلسفيّة في التفكير؟

- لم أفهم، ماذا تعني؟

- كيف لم تفهم أيّها الفيلسوف! عندما نجيب بطريقة فلسفيّة فإنّ كلّ جواب ينبني على حزمة من التساؤلات التي تعين على الجواب.

سكت قليلًا ثمّ أردف:

- لكي نجيب على أسئلتك سأطرح عليك أسئلة أخرى، مثلًا: من أين يمكننا أن نأتي بالجواب؟ بدلًا من أن نغوص في الإجابة، لننظر من أين يمكننا العثور عليها؟ وما معايير صحّتها؟ ألا ترى معي أنّ هذه الطريقة منطقية فلسفية مريحة؟

- ربما!
- تمتاز هذه الطريقة بقدرتها على إخراج الأجوبة من داخلك وروحك، ثمّ ابتسم وتابع: وهي بلا شك أفضل من الطريقة الكاثوليكية التي تقوم على التسليم المجرد للتناقضات بلا عقل! موعدنا الأسبوع القادم، حاول أن تأتيني بالإجابة على السؤالين التاليين: من أين يمكننا الوصول إلى إجابة؟ وما ضمانات صحّة هذه الإجابة من عدمها؟ اتفقنا؟
- رغم سوء ما قلت عن الكاثوليكية، إلا أنّه منطقي وعقلاني، اتفقنا.

خرج جورج من عند الطبيب، فوقعت عيناه على براد، الذي بادره بابتسامة ماكرة:
- جلسة موفّقة، وتحياتي لكاترينا!

(٣)

كانت أسئلة توم، وطريقته في الكلام، ومنطقه في التفكير.. كل ذلك كان قد نال حيّزًا كبيرًا من تفكير جورج، كان يقود سيارته وهو يحدّث نفسه: كانت لديّ أسئلة، فزادها توم، فغاية ما فعله الطبيب أن أضاف أسئلة إلى أسئلتي!

اتّجه إلى مقهى قريب، طلب كأسًا من القهوة، فأحضرها النادل ووضعها على الطاولة، فلم يشعر به جورج. تنحنح النادل لتنبيهه، لكنّه كان مستغرقًا في تفكيره، فتركه وانصرف، وبعد فترة من الزمن انتبه لكوب القهوة الفاتر على طاولته، فنادى النادل وحاسبه:
- هل تصدّق أنّني لم أشعر بك عندما وضعت القهوة، أحيانًا تشغلنا تساؤلاتنا الداخلية حتّى عن أنفسنا!
- التساؤلات الداخليّة دليل على الوعي والذكاء، لكن.. لكن إذا زادت فهي دليل على صراع داخلي، وتناقضات في القناعات والأفكار.

أُعجب جورج بكلام النادل وتحليله، فتابع حواره معه:
- وما أسباب هذه الصراعات أو التناقضات برأيك؟
- أسبابها كثيرة، من أهمّها أنّ صاحبها لم يحسم القضايا الكبرى التي يعيش من أجلها، نحو: لماذا خلقنا؟ لماذا نعيش؟ إلى أين المصير؟ والمشكلة تكمن في التعقيد، فالبساطة تمنحنا من العمق في الإجابة على تلك الأسئلة ما لا يمنحنا إياه التعقيد الذي لا يجاوز السطح غالبًا!

فتح جورج عينيه مندهشا:
- وكيف نحصل على إجابات هذه الأسئلة ببساطة؟

- يهرب الكثير من الإجابة باللهو أو شرب الخمر أو الجنس، أو غير ذلك، والسؤال من علامات الوعي المهمّة، لكن...

استدعى زبون آخر النادل قاطعًا حوارهما القصير، فاعتذر النادل لجورج، وأخذ منه ثمن كوب القهوة وانصرف.

خرج جورج يدور بسيارته حائرًا، لا يعرف له وجهة،لم يستطع نسيان كلام النادل، كم أثاره وحرّك عقله ولامس مشاعره؟ كان يتمنى لو أكمل النادل حديثه، حتّى لو دفع له سعر القهوة عشر مرّات. كان مستغربًا من ارتياحه لهذا النادل رغم كونه عاملًا بسيطًا، كما أنّ سحنته وشكله تخبر أنّه ربما يكون يونانيًا أو من أصول يونانية أو لاتينية.

بعد مرور ساعة، تنبّه جورج أنّه لم يبرح نفس المنطقة التي كان فيها، فقرر أن يعود إلى نفس المقهى مرة أخرى، فعاد وجلس على الطاولة وطلب قهوته المعتادة، فجاءه بها نادل آخر، فسأله عن النادل الذي كان موجود قبله؟

- من تعني يا سيدي؟

- جئت قبل نصف ساعة واستقبلني نادل آخر.

- ربّما يكون كات أو آدم فقد انتهى دوامهما قبل ساعة، وجاء دورنا.

شرب جورج قهوته بسرعة، وعند انصرافه سأل النادل:

- متى تبدأ فترة كات أو آدم؟

- غدًا الساعة التاسعة صباحًا، حتّى الخامسة أو السادسة مساءً.

- شكرًا.

(٤)

عاد جورج إلى منزله، استقبله طفلاه، فسألهما عن أمّهما، فأخبره مايكل بأنّها ما زالت في الكنيسة، وربّما تتأخّر قليلًا حتّى الليل.

جلس جورج في الصالة منتظرًا قدوم كاترينا من الكنيسة، التي وصلت عند الساعة العاشرة مساءً مرهقة منهكة، تفوح منها رائحة الخمر، وإن كانت لا تزال واعية بما يدور حولها، وما إن رأت جورج حتّى سألته:

- ما أخبار الطبيب؟

- إنّه طبيب غريب الأطوار، وإن كان مقنعًا بعض الشيء، ثم التفت إلى كاترينا بحزم: ماذا كان يريد منك عندما جلستما وحدكما؟

- لا أعرف حبيبي، رحّب بي فقط، وعرّف بنفسه وبإمكاناته، ثمّ سألني عن عملي وحياتي.. كان لبقًا ومهذبًا جدًّا.
- ووسيمًا أيضًا! ألم يسألك عنّي أبدًا؟
- سألني عندما هممت بالانصراف، فأخبرته أنّك قلق من تساؤلاتك عن الحياة!
- فقط؟!
- فقط، كان أغلب الوقت يتحدّث عن نفسه وعنّي، كم كان مؤدّبًا!
- ممم، عجيب كلامك عنه، مع أنّه ملحد لا يؤمن بالأديان، ويحارب التديّن، ويرى أنّها مرض، ويبدو لي أنّه وقح أيضًا!
- جورج! لقد كان في غاية اللطف والأدب معي! لم يتحدّث معي في الدين أبدًا، حتّى عندما عرف أنّني معلمة لاهوت. عمومًا أنت ذهبت إليه لطبّه لا لدينه ولا لأدبه!
- ومع من كنت تسهرين وتشربين؟!
- ليس لك أن تكون وصيًّا عليّ، ومن حقي ألا أجيب، ومع ذلك كنّا في حفل بمباركة القس.

كثيرًا ما يتضايق جورج من سهرات كاترينا، ومن شربها الخمر، ويرى أنّ ذلك مناقض للتديّن الذي تبذل وقتها وجهدها لأجله، لكن بدا له أنه ربما قسا عليها قليلًا، فحاول أن يغيّر مجرى الحديث، فقال ساخرًا:

- كان لديّ مجموعة أسئلة، فأضاف أسئلة إلى أسئلتي! وحيرة إلى حيرتي!
- كيف!
- بدلًا من أن يجيب على أسئلتي، سألني أسئلة أخرى، وطلب مني الإجابة عليها.
- أسئلة أخرى!
- نعم، من أين نعرف إجابات هذه الأسئلة، وما ضمانات صحّة الإجابة؟
- رغم غرابة أسئلته! لكن ربّما يكون معه حقّ!
- دعيني من هذا، لقد قابلت اليوم رجلًا آخر عجيبًا، هزّني من داخلي، وكلّمني صدفة في نفس الموضوع الذي زرت الطبيب من أجله!
- نفس الموضوع!
- هذا من عجائب المصادفات!
- وماذا قال لك؟!

- لا أعرف بالضبط، لم يكمل حديثه معي، غير أنّه يبدو لي أنه رجل متديّن بخلاف توم، وكان يتحدّث عن البساطة في إجابة الأسئلة، وعن عمق البساطة، ومعنى الحياة، والسعادة، ثمّ ركز النظر في عينيها: وعن هروب الناس من الإجابة بشرب الخمر والسهر وغير ذلك!

- بما إنّه متديّن فكلامه حسن، ربّما كان متشددًّا قليلًا في موضوع الهروب من الإجابات! «وابتسمت»: ربّما كان كاثوليكيًّا! حبيبي تبدو مُجهدًا ولا تستطيع التركيز فيما تقول!

- ربما.. ربما، لكنّه هزّني من الداخل على أيّة حال، لننام الآن، لدّي عمل كثير غدًا.

سار جورج وكاترينا إلى غرفة النوم، وما إن استعدّا للنوم حتى رنّ هاتف كاترينا، فنظرت إليه مرتبكة، ثمّ ردّت ورحبت بالمتّصل بكلمات سريعة مقتضبة، وظلّت ساكتة تستمع طويلًا، ثم أنهت المكالمة:

- موعدنا يوم الأربعاء، الساعة الثامنة مساءً، سنسهر سويًّا في الكنيسة.

- من المتّصل؟!

- شخص يريد أن يتعلّم الكاثوليكية.

- يتعلّمها في سهرة!

- سهرة في الكنيسة، لا في مرقص دعارة! أم تريده أن يتعلّمها في المقبرة! دعنا ننام، فقد صرت حساسًا جدًّا.

(٥)

في الصباح استيقظ جورج قبل كاترينا، وكان أوّل ما خطر على باله النادل الذي لا يعرف سرّ انجذابه إليه، فعزم أن يذهب إلى المقهى مرة أخرى ليقابله، وما لبث أن تذكّر اتصال الليل، ولا يعرف لماذا أخذ هاتف كاترينا وفتحه، ونقل رقم الشخص الذي اتّصل عليها في الليل، وأعاده إلى مكانه.

ذهب جورج إلى عمله باكرًا، فقد كانت لديه أعمال متراكمة، خاصّة أنّه استأذن بالأمس لزيارة الطبيب، وما إن دخل مكتبه وانهمك في عمله حتّى رنّ هاتف المكتب، فإذا هو كاخ مديره في العمل:

- صباح الخير.

- صباح الخير.

- كيف كانت زيارتك للطبيب أمس؟

- لا بأس، ما زلت في البداية، ستتضح الأمور لاحقًا.

- جيّد، ولكنّك تضيع وقتك ومالك، التفكير في هذه الأمور مضيعة للوقت، بالنسبة لي لو أخبرتني من سيدفع لي أكثر سأجعله إن أردت إلهي.. وضحك ضحكة عالية، وقال: هلَّا أتيت إلى مكتبي، فلدينا أعمال عاجلة جدّت بالأمس.
- حسنًا سآتي إليك، ولكن بعد ساعة إذا أمكن.
- حسنًا، بعد ساعة.

اتصل جورج على رقم المتّصل ليلًا من رقم آخر غير رقمه، فسمع صوت توم في الطرف الآخر. لم يكن جورج ليخطئ الصوت ذو البحّة المميزة، وقد سمعه وهو يقول: آلو.. آلو مَنْ معي؟ أتسمعني؟ أغلق جورج الخطّ مباشرة، وقد تملّكه الغضب، لماذا لم تخبره كاترينا أنّ توم هو المتّصل؟ ولماذا ارتبكت؟ ولماذا...؟ هل الحياة كلّها تساؤلات معقّدة؟!!

عاد جورج إلى الانهماك في عمله، وحاول إنهاء مجموعة من الأعمال بسرعة، وبعد ساعة بالضبط دخل على كاخ في مكتبه، فقام إليه مرحّبًا:

- صديقي، هل عالجك الطبيب من وسوستك؟
- لستُ موسوسًا ولا مريضًا، وإنّما ذهبت إلى الطبيب ليعينني على الإجابة على أسئلتي.
- يبدو أنّ الموضوع حسّاس بالنسبة لك، كنت أداعبك فقط، وأنت تعلم رأيي جيّدًا، انس الموضوع، ولتهتم بزيادة أموالك والتمتّع بالحياة ومتعها فحسب.. المهم دعنا من هذا، طلبت الاجتماع معك لأنّ شركة التوظيف التقني في الهند أرسلت لنا بالموافقة على شروطنا، ونحن في حاجة سريعة لتوظيف عددٍ من عندهم، كما نريد تقوية تحالفنا مع شركة توزيع البرامج في الهند، فلا بدّ من سفر أحدنا إلى الهند خلال أسبوعين، هل أنت جاهز؟
- بهذه العجلة؟!
- للأسف نعم، وأنا لا أستطيع السفر؛ فاجتماع مجلس الملاك كما تعرف بعد أسبوعين.
- سأنظر في ظروفي، وسأؤكد لك ذهابي خلال هذه الأيام، أتمنى أن تضع لي نسخة متكاملة من العقود والاتفاقيات على النظام في الشبكة الداخلية؛ لأقرأها وأتفحصها، أراك الأسبوع القادم وقد وضحت الأمور بالنسبة لي.
- موعدنا إذن الأسبوع القادم، أتمنى أن تجهز نفسك للسفر.. ثم ابتسم بمكر: واترك عنك الطبيب، فلدي مفاجأة لك سأخبرك بها الأسبوع القادم.

ذهب جورج إلى مكتبه حائرًا، نظر في العقود والاتفاقيات التي وضعها له كاخ على الشبكة الداخليّة للشركة. كان يرغب في السفر، لكنّه كان مشغولًا بثلاثة أمور: النادل والطبيب وكاترينا! كان قد عزم منذ الصباح على زيارة النادل اليوم، أمّا موعده مع الطبيب فقبل موعد السفر، فيمكن أن يخبره عن تأجيل الموعد الذي يليه. لكن كاترينا!! هل يعقل حقًّا أن زوجته المتديّنة تخونه مع توم الملحد؟! كيف.. يستحيل!!

إثر نهاية الدوام توجّه جورج إلى مقهى البارحة علّه يظفر بمقابلة النادل، وعندما رآه شعر بارتياح تعجّب له، ثمّ جلس على طاولة، فجاءه النادل:

– طلبك يا سيّدي؟

– قهوة لو سمحت.. لحظة: اسمك كات أم آدم؟

– آدم سيدي.

انصرف النادل لإعداد القهوة، وعندما أحضرها، بادره جورج:

– هل لك أن تجلس لنتحدث سويًّا؟

– عذرًا سيّدي، تسعدني خدمتك، ولكن لدّي مهام ينبغي أن أقوم بها.

– هل تسمح لي بتوصيلك بعد نهاية دوامك؟

– هذا كرم منك، أنا موافق.. على الأقل لن أركب الحافلة.. سينتهي دوامي بعد نصف ساعة.

– سأشرب قهوتي ريثما ينتهي، وثق أنّني سعيد بتوصيلك.

– شكرًا لك، بالإذن.

جلس جورج يرتشف قهوته على مهل، وهو يتذكّر كلمات آدم التي اهتزّ لها، ويتساءل في نفسه: كم هو مثير للدهشة هذا النادل، كيف استطاع خلال لحظات أن يفهمني رغم أنّه لا يعرفني؟ كيف أدرك أنني أعاني من التفكير في القضايا الكبرى؟ وأتلهّف لمعرفة الجواب.. العمق في البساطة، يا لها من فلسفة!

قطع آدم شرود جورج، وقال له مبتسمًا وقد بدّل ملابس العمل:

– أنا جاهز، هل ننصرف؟

– وأنا أيضًا، هل تريد أن تنصرف إلى بيتك، أم أدعوك إلى كوب قهوة في هذا المقهى، أم وجبة عشاء في مطعم قريب؟

– إن كنت أنا صاحب الخيار، فأفضّل الثالث.

– مطعم السعادة القريب قد يكون مناسبًا.

– مناسب جدًّا، يعجبني اسمه، فالسعادة روح جميلة يفتقدها الكثير للأسف في زمن الحيرة والشك والتعاسة!

– كانت كلمات آدم شديدة الوقع على جورج، شعر بها تتقصّده وتحاصره، لكنّه فضّل الصمت.

(٦)

دخل جورج وآدم مطعم السعادة، فوجداه يشي بالسعادة كاسمه، فألوان الديكور المبهجة، والإضاءات اللامعة، كل ذلك يبعث على الانشراح والراحة والسعادة.

جلسا على طاولة جانبيّة، فجاءهما نادل المطعم بقائمة الطعام، فقال جورج لآدم:

– تفضّل، اطلب ما تريد.

– أريد سمكًا مقليًّا مع سلطة خضراء.

– وأنا أحضر لي ستيك لحم بقري مع بطاطس.

بمجرد أن انصرف النادل، قال جورج لآدم:

– ها نحن في مطعم السعادة التي يفتقدها الكثيرون في زمن الشك والحيرة والتعاسة.. كما تقول!

– ههههه، نعم، الشك والحيرة يقتلان معنى الحياة، فيتحول الناس إلى أتراس في آلة صمّاء، لا معنى لحركتها ولا طعم، مجرد آلات لا تفهم السعادة فضلًا عن أن تعيش بها.

– إذن أنت من أنصار الهروب من الحيرة والشك إلى التسليم الأعمى.

– أبدًا.. أبدًا، الهروب يجعل حال صاحبه أسوء ولو أظهر غير ذلك، فالأول جائع يصرخ أنه جائع، والثاني جائع يصرخ يريد أن ينام!

– ههههه، إذن كلاهما جائع!

– لكن الأول أعقل وأذكى في التعامل مع نفسه.

– أجبني بصدق، هل أنت سعيد؟

– ههههه، تريد الجواب ببساطة: نعم، فالسعادة هي انطباع لنظرتنا لأنفسنا وللحياة وللكون في نفوسنا.

– أخشى أن تكون سعادتك كسعادة زوجتي المتديّنة مثلك، والتي ـ بتعبيرك ـ تهرب من الإجابات بالشرب والسهر! ثمّ سكت قليلًا، وأردف: ما معنى الحياة بنظرك؟

- من يهرب من الإجابة على التساؤلات الكبرى لن يشعر بالسعادة، حتّى لو انتحلها ومثّلها.. وأمّا سؤالك عن معنى الحياة؛ فهي إعادة تركيب للأسئلة الثلاثة: لماذا خلقنا؟ ولماذا نعيش؟ وإلى أين المصير؟

- وما إجابة هذه الأسئلة؟

- هل تعتقد بوجود شخص يحس ويتذوق ويشم ويعيش السعادة ولا يعرف إجابة هذه التساؤلات؟!

- أجبني بوضوح، هل تعرف إجابة لهذه التساؤلات؟

- أظن بأن لديّ إجابات واضحة ومقنعة جدًّا لي، لكن ليست الإجابة في أن أسرد عليك أفكاري، أنت أعلم منّي فيما يبدو، فأنا ما زلت طالبًا في الجامعة تخصّص دراسة الأديان، أمّا أنت مهندس كبير.. ثمّ إنّ الإجابة هي ما تجيب به روحنا وحياتنا، حتى لو قلت لك أي جواب، هل سيعني لك شيئًا إذا لم يكن جزءًا من روحك وتفكيرك؟

- أنت تذكرني برجل عجوز قابلته في الطريق، كان يدّعي أنّه سعيد، وقال لي ما تقوله الآن.

- هل تقصد أنّني حكيم أتحدّث كما يتحدّث رجل خبر الدنيا وعرفها، أم تقصد أنّني أتفلسف بكلام لا معنى له! على كلّ حال الإجابة هي أن تعزم بإصرار على الوصول إلى الإجابة.

- نفس كلام العجوز! أعزم على ماذا؟

- تعزم على إجابة هذه الأسئلة، لتسعد في حياتك.. وركّز في عيني جورج: دعني أسألك سؤالًا: من أين يمكن أن نصل للجواب؟

- انتقلت إلى ما قاله الطبيب! أصبحت مثل الطبيب!

انفلتت ضحكة من آدم؛ وتابع كلامه:

- ههه، أنت مجموعة ألغاز، أي طبيب تتحدث عنه؟ هل كان العجوز طبيبًا؟

- آسف، يبدو أنني متعب، لا ليس هو العجوز، أنا أتعالج عند طبيب طلبًا للسعادة، فقد أتعبتني هذه التساؤلات وأصابتني بحالة من الهم والغم.

- هل بلغ همّ هذه التساؤلات درجة أن تحتاج إلى طبيب! أؤكد لك أنه لا توجد إجابة من خارج روحك وحياتك، عمومًا ما الذي يشبه كلام الطبيب؟

- قال: قبل البحث عن الجواب يجب أن نحدد من أين يمكن أن نأتي بالجواب؟

- من وجهة نظري هذا طرح جيد وبسيط، والبساطة مفتاح النجاح والوصول إلى الحقيقة،أمّا التعقيد فعلامة الفشل والتعب والحيرة.. يبدو طبيبك منطقيًّا وجيّدًا، فهل هو كذلك؟

- منطقيٌّ نعم، أما جيدٌ فلا أظن؛ فهو شخص غير مريح، ويبدو أيضًا أنه بلا أخلاق.

– وماذا ستفعل؟
– لا أدري، أفكر أن أستمر معه حتى أرى النتيجة، ولكن أجبني: من أين نأتي بالجواب؟
– عذرًا، لا أريد أن أتعارض مع الطبيب، ماذا يقول لك الطبيب؟
ضحك جورج على ردّ آدم، ورغم أنّه أحسّ بأنّه يحاصره ويدفعه إلى الإجابة، كان مستمتعًا وهو يتأمّل مرواغة آدم.. هو لا يريد الإجابة، هكذا يبدو، لكن لماذا يا ترى؟!
– قال لي: ابحث بنفسك، وسألني عن: من أين نأتِ بالإجابة؟ وما ضمانات صحة الإجابة؟
– بداية جميلة ورائعة وبسيطة وعميقة، وأنا لست طبيبًا لأقوِّم رأي الطبيب!
– ومن أين يمكن أن نأتِ بالإجابات؟
– ابحث في روحك من خلال النظر في الأديان.
– في الأديان!!
– نعم.. في الأديان؛ فإن لم يكن في الأديان، فهل تريدنا أن نبحث في الإلحاد؟!
– كم أكره الإلحاد! هو خلل في العقل والعلم.
– إذن لا بد من البحث في الأديان.
– لدي احتمال سفر إلى الهند المليئة بالأفكار والأديان، فهل سفري إليها سيساعدني على أن أتعرف على مختلف المناهج؟
– أنا لست طبيبًا لأنتقد أو أصوب، يمكنك سؤال الطبيب، لكن سأقول لك رأيي بصراحة: من الجيد أن تتعرف على طريقة الأفكار والأديان والمذاهب في الإجابة على هذه التساؤلات، وكلما كانت بسيطة وسلسة ومنطقية وواقعية وتشبع الروح والحياة كلما كانت الإجابة أقرب للصواب.
– وكيف يمكن أن أنظر في الأفكار والأديان؟!
– رأيي أن تنظر نظرة عامة أولًا.
– كيف؟!
– يمكن أن نفكر ونتبين منهجين: منهج يقوم على الدين، وآخر يقوم على الإلحاد، كما تحدثنا قبل قليل، وأنا قطعًا مع المنهج الذي يقوم على الدين، ألم أقل لك أني طالب في دراسات الأديان؟
جاء النادل بأطباق الطعام، فآثر جورج أن ينهي حواره؛ لئلا ينزعج ضيفه، هذا الضيف الذي يجلس معه لأول مرة، لكنّه كان قريبًا منه وكأنّه يعرفه من فترة طويلة.

لا أود أن أشغلك كثيرًا عن وجبتك، ويبدو أني أثقلت عليك، لكني حقيقة محتاج إلى عونك لي، ربما يكون لقائي بك حديثًا ومعرفتي بك سطحية لكن أجدني مرتاحًا لكلامك كثيرًا وآمل ألا أزعجك.

– ههههه، أنت لا تزعجني أبدًا،تكفيني دعوتك للعشاء، فما بالك إذا كانت في مطعم السعادة! المهم أن تأكل أنت.

فيما كانا يأكلان، حاول جورج أن يغيّر مجرى الحديث، فوجد الحديث في الطعام والمأكولات فرصة مواتية، لعلّ أجواء الفلسفة التي أحاطت بهما تخفّ تدريجيًّا.. غير أنّه ما لبث أن أعاد دفّة الحديث إلى حوارهما الأول.. ففي نفسه فضول شديد تجاه آدم، وأسلوبه الحذر في الإجابة.

– لماذا منهج الأديان أولى من منهج الإلحاد؟ بالمناسبة طبيبي ملحد ينكر كل الأديان ويسخر منها.

– رغم أني أتوقع من كلامك أنه طبيب ممتاز،إلا أني متأكد أن الملاحدة أكثر الناس شقاء وهروبًا من أنفسهم. أما لماذا منهج الدين لا منهج الإلحاد؛ فهذا له تفاصيل كثيرة يمكن إجمالها في النقاط التالية: أولًا هل يُتصور أن يَعرف لماذا خلقنا غير خالقنا؟ بطريقة أخرى: لا يمكن لي ولك أن نعرف لماذا خُلقنا إلا من الخالق نفسه؟ ومنهج الإلحاد ينفي وجود الخالق والرب والإله. ثانيًا: الإلحاد يتناقض مع نفسه في كل جزئية من أطروحاته؛ فهو يفترض أن العالم يسير وفق نواميس دقيقة لا تتغير، وهذه الدقة خلقت صدفة ودون أي نظام أو خالق.ثالثًا: هم كثيرًا ما يخفون إيمانهم بالرب في داخلهم، ويتضح هذا منهم عندما تصيبهم فاجعة أو مصيبة فأول ما يقولون: يا الله.رابعًا: أقول لك بصراحة: هل تعتقد أن الإلحاد حقيقة أم محاولة للهروب من الحقيقة؟ حتى لو كان هروبًا لسراب أو لفراغ في الروح!

– واحدة من هذه تكفي، فكيف إذا اجتمعت! وأظن أني أتفق معك تمامًا؛ فلا داعي للإكمال؛ فالإلحاد وهم يظن صاحبه أنه علمي لا غيبي، وهو في الحقيقة يضيع العقل والعلم، ويورث الكذب على النفس قبل الكذب على الناس، ثم أردف قائلًا: لكن القضية الرئيسة هي: أي الأديان نتبع؟ فعدد الأديان كعدد مجموعات البشر الأحياء.. ثم ضحك، وقال: بل ربما أكثر!

– أتفق معك تماما، يقولون عدد الأديان الموجودة أكثر من ١٠٠٠٠ ديانة، وفي ديانة واحدة كالمسيحية ٣٣٨٣٠ طائفة مختلفة، ولكن ألا تحب أن نستمر في النظرة الكلية؟!

– ماذا تعني؟

– نحن قسمنا المناهج بالنظرة الكلية إلى مؤمنين وملاحدة، أليس كذلك؟

– بلى.

– تبعًا للنظرة الكلية، الأديان والإيمان قسمان: إما أديان منهجها سماوي من عند الله، أو أديان

منهجها أرضي من صنع البشر.

– فهمت مقصدك، وأيهما في رأيك أفضل؟

– دعني من رأيي، ألم تقل لي أنك مسافر للهند.

– نعم، وما شأن هذا بموضوعنا؟

– بلاد الهند غنية بالأفكار والأديان والمذاهب والنحل الأرضية والسماوية، يمكنك في الهند أن تقارن بين أصحاب الديانات السماوية والديانات الأرضية، وتراها واقعًا لا وصفًا.

– مع إني أملك رأيًا واضحًا في ذلك، لكن لا يضير تأجيل الموضوع إلى ما بعد عودتي من الهند، ولكن لدي سؤال: هل تعتقد أن هذا الطريق والأسلوب يمكن أن يوصلني للإجابة؟

– الهداية والتوفيق واليقين فضل من الله، وإن كنت صادقًا في البحث عما تريد فأظنك ستصل، المهم أن تكون لديك إرادة صادقة، وأن تكون مصرًا على ذلك، وتأكد من أنك تأخذ الأمور ببساطة لا بتعقيد، وبسعادة لا باكتئاب.

– عدت إلى كلام الشيخ العجوز!

– أين يمكن أن أرى هذا العجوز؟ فقد شوقتني له.

– لا أدري، حقيقة لا أدري، كنت في حالة صعبة، وهو الذي أخذ هاتفي، وقال سيتصل بي ولم آخذ رقمه، بالمناسبة: هل يمكن أن تعطيني رقمك وبريدك الإلكتروني؟

أخرج آدم ورقة صغيرة من دفتر صغير يحمله معه، وكتب رقم هاتفه، وبريده الإلكتروني، وعنوان صفحته على الفيس بوك، وأعطاها لجورج:

– أنا آسف، كما تعلم أنا مجرد نادل ولا أملك بطاقة شخصيّة لأعطيك إيّاها!

– لا بأس، على أن أراك بمجرد عودتي من الهند، اتفقنا؟

– اتفقنا.

شكّ الخيانة..

٣ شكّ الخيانة..

شكّ الخيانة..

(١)

لم تسهر كاترينا في الكنيسة كعادتها، فجلست تنتظر عودة جورج الذي تأخّر عن وقت عودته، وما إن وصل إلى المنزل حتى استقبلته عند الباب، وسألته عن سبب تأخّره.. وقعت عينه في عينها فتذكّر علاقتها بتوم، وإخفائها لاتصاله، لكنه عدل عن سؤالها، وقرّر أن يؤجّله إلى وقتٍ لاحق.

– ذهبت إلى النادل الذي كلمتك عنه سابقًا، وتناولنا العشاء سويًّا.

– وكيف كان اللقاء؟ أما زلت عند رأيك عنه؟

– كان لقاءً رائعًا، هو طالب في علم اللاهوت، لكنّه يتكلّم بطريقة بسيطة، سهلة ومقنعة، و..

– يكفي.. يكفي، ما كلّ هذا المدح! يبدو أنّك معجب به جدًّا، ههه طبيعي جدًّا، فمن يدرس علم اللاهوت لابدّ أن يكون كذلك، وماذا قال لك؟

– كلامه يشبه كلام العجوز الذي قابلته عندما نويت الانتحار، أتذكرينه؟

– نعم!!!

– ويشبه كلام الملحد أيضًا! الطبيب توم، أليس عجيبًا أن يكون متدينًا ويشبه كلامه كلام الملحد؟!

– أراك تتحامل على الطبيب بوصفه ملحدًا، أنا لم أشعر بذلك أبدًا، رغم أني جلست معه.

– تقصدين الجلسة في العيادة عندما ذهبنا، أم هناك جلسة غيرها؟!

– جورج! نعم جلسة العيادة، وقد حدثته أني متفرغة لتعليم الدين وللكنيسة، ولم ينتقد ذلك، بل أبدى إعجابه.

– هو يفتخر بأنه ملحد، ويمكنك الاطلاع على ذلك في صفحته على الفيس بوك.. وركز نظره عليها: وأظنّ أنه يرمي لشيء من وراء مجاراتك في موضوع الدين.

– ماذا تعني؟!!

– لا شيء.. لا شيء مجرد خاطرة وردت إلى ذهني، المهم ربما أسافر إلى الهند، ما رأيك؟

– رائع، متى؟

- بعد عشرة أيام تقريبًا.
- أنت تعرف أن أصولي من الهند، ومن دلهي تحديدًا.. الهند بلاد العجائب يا جورج، ستنسيك كثيرا من مشاكلك، وستشعر بالاسترخاء حتمًا، ولكن ماذا ستفعل بموعد الطبيب؟
- لدي موعد الاثنين القادم، وسأطلب منه تأجيل الموعد الذي يليه.
- جيّد.

(٢)

منذ عرف جورج علاقة توم بكاترينا بات منزعجًا يرغم نفسه على الهدوء واصطناع اللامبالاة، لكن ما لبث أن ابتدرته يوم الأربعاء صباحًا فكرة أن يباغتهما في الموعد اليوم الثامنة مساءً، وكان قد سمع الموعد في مكالمة كاترينا مع توم، فسارع إلى الاتصال على عيادة الدكتور توم، وطلب من براد موظف الاستقبال أن يقدّم موعده إلى اليوم مساءً إن أمكن.
- لا يمكن اليوم.
- لماذا؟
- ههههه، لأن الدكتور لديه موعد مهم جدًّا جدًّا الثامنة مساءً.
- ألهذه الدرجة مهم؟
- ربّما، المهم لا يمكن تقديم الموعد، ثم ضحك ضحكة عالية.
- سآتي في الساعة السابعة والنصف للعيادة، وإن تأخّر المريض عن موعده الساعة الثامنة، دخلت بدلًا منه.
- ههههه، قلت لك لا يمكن، ثمّ إن الموعد ليس في العيادة.. وبشيء من استهزاء: تبدو مهتمًا للحضور في هذا الوقت بالذات، أفهم ما تريد!! عمومًا يمكنك أن تأتي وسأخبرك بالضبط بكلّ ما تريد، وأحل لك كلّ ما تعاني منه. ثمّ ضحك ضحكة عالية، وقال: أنتظرك لا تتأخر.
انتهت فترة دوام جورج فخرج سريعًا ليلحق بآدم، كان موضوع توم وكاترينا يقلقه جدًّا، فوجد نفسه يميل إلى استشارة آدم في هذا الموضوع. أوقف سيارته أمام المقهى، وظلّ ينتظر انتهاء دوام آدم، ويتساءل في نفسه عن سبب ارتياحه له، لدرجة أنه يستشيره بمشكلة خاصّة مع أنّه لم يمض على معرفتهما إلا أيّامًا معدودة.
لمح آدم سيارة جورج واقفة، فبدّل ثياب العمل وخرج إليه فور انتهائه، وعندما رآه جورج طلب منه أن يركب ليوصله إلى بيته، فرحّب آدم بذلك.
- آدم.. هل جرّبت أن تشكّ في أقرب الناس إليك؟

– لا أبدًا، ولكنّي أتوقعه قاسيًا!
– هل أنت متزوج؟
– لا.
– وماذا عن علاقاتك العاطفية مع الجنس الآخر؟
– ليست لدي أي علاقات عاطفية بالجنس الآخر! ماذا تريد يا جورج؟
– ألم أقل لك أن طبيبي بلا أخلاق؟
– بلى.
– ألم أقل لك أن زوجتي تشرب الخمر وتسهر سهرات مريبة رغم تدينها؟
– بلى!
– آه، بدأت أشك في علاقة غير أخلاقية بينه وبين زوجتي، هل أنا موسوس يا ترى؟

صمت آدم برهة كان يتأمّل فيها ملامح جورج المحبطة، ثمّ قال:

– لا أدري ماذا أقول، أقدّر شعورك.. لكن الأصل أن تعامل الناس بحسن الظنّ، وما دمت لم تتأكد فلا تسارع باتهام الناس هكذا.
– هي على موعد لسهرة معه اليوم!
– أمتأكد؟! ثمّ إنك قلت لي إنها كثيرًا ما تشرب وتسهر، فما الفرق بين السهر مع توم أو مع غيره؟
– توم علاقاته مريبة مع مريضاته، وهو غير أخلاقي، وكاترينا سهراتها مريبة أيضًا، ثم هي تعمدت أن تخفي عني هذه العلاقة، و.. وكلام براد كان غريبًا جدًّا!
– من هو براد هذا؟
– سكرتير توم، وهو رجل غير مريح قط، ويلمّح تلميحات مزعجة!
– الآن الساعة السادسة مساءً، ما رأيك أن تتصل على كاترينا وتدعوها إلى وجبة عشاء في مطعم فاخر.
– سأجرّب!

اتصل جورج على كاترينا، وبذل جهده لئلا تستنكر نبرة صوته المنفعلة، عرض عليها اقتراح آدم، وحاول إغراءها بالمطعم الفاخر، وبسهرة جميلة يقضيانها معًا، لكنّها اعتذرت له مرة بعد مرة، وطلبت منه تأجيل دعوته إلى يوم آخر مبررة ذلك بحفل الكنيسة الذي لا تستطيع التخلف عنه.

– أرأيت، لقد رفضت متعللّة بحفل الكنيسة!
– إذن هو حفل كنسي، فلماذا تتهمها؟
– من المخجل أن فضائح حفلات الكنيسة الحمراء، تفوح رائحتها!

- ربّما، لا أعرف!
وصل جورج إلى منزل آدم، فشكره على لطفه ومساندته له..
- لا أدري لماذا أزعجتك بقضايا شخصية! تقبّل اعتذاري.
- لا تعتذر، تمنيت لو أستطيع تقديم أيّ شيء لك، ألقاك على خير.. فقط أريد أن أقول لك شيئًا: احذر من براد الذي قلت لي عنه، لا تدعه يتلاعب بك، فنحن نكون في أضعف أحوالنا عندما يتملكنا الشك والحيرة.
- أنا متعب ولا بد أن أجد حلًّا قبل الساعة الثامنة! أستأذنك أريد أن أنصرف.

(٣)

رنّ هاتف جورج.. كان المتّصل براد، ولم يكن جورج في مزاج يسمح له بتلقّي تعليقات مستفزّة منه، لكنّ تكرار الاتصال دفعه إلى أن يردّ عليه، ويرى ماذا عنده.
- ألو.. أين أنت؟ أنا في انتظارك، لقد ذهب توم إلى موعده المهم!
- إلى أين؟
- إلى موعده، ماذا تريد أن تعرف؟
- أنا متعب!
- ههههه، تعال، عندي الحلّ لمشكلتك.
- عندك الحل؟! حسنًا سآتيك حالًا.
وصل جورج إلى العيادة، وجد براد بانتظاره، فابتدره بلهجة عنيفة..
- أين توم؟
- خرج قبل قليل.
- مع من؟
- أنت تعرف، تفضل لنجلس في عيادة توم!
- أنا لا أعرف شيئًا، ماذا تريد منّي؟
- توم خرج مع كاترينا.
- وما الذي يضمن لي أنك لا تكذب!
- أنا لم أكذب!.

أطرق جورج برأسه، وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم رفع رأسه فجأة ليدقّق النظر في حقيبة نسائية صغيرة على الطاولة، كانت تشبه حقيبة كاترينا، فصرخ في وجه براد:

– ما هذا؟

– ههه، أيعقل أن كاترينا نسيت حقيبتها؟! هاك دليلٌ على صدق ما قلت لك.

– أين ذهبا؟!

– لديهما سهرة.. أظنّها في الكنيسة.

– لكنّ توم ملحد..

– لماذا لم تذهب معهما؟ أم أنّ لديهما أمرًا خاصًّا لا يمكن أن يتمّ بوجودك؟ وقهقه بصوتٍ عالٍ.. ثمّ تابع: عزيزي أعرف تمامًا صعوبة ما تشعر به، لديّ ما يريحك من هذا الضغط النفسي.

– وما هو؟

– حبة سعادة واحدة، ربّما سمعت عن مخاطر الهيروين، لكن أنا متأكّد تمامًا أنّك لا تعرف مقدار السعادة التي يشعر بها من يتعاطاه، حبّة واحدة تجلب لك السعادة التي تبحث عنها، هل تريدها؟

– حبة واحدة فقط!

أحسّ براد بانهيار واستسلام جورج، فطلب منه الانتظار لدقائق معدودة، حتى أتي له بحبّة السعادة، ووعده بألا يتأخّر عليه. كان جورج وقتها ما يزال منهارًا تحت تأثير الضغط النفسي، وما إن خرج براد حتّى شعر بالفراغ.. أخرج هاتفه ونظر في آخر مكالمات أجراها، فوجد رقم براد وكاترينا وآدم. فاتصل على آدم فورًا.

– مرحبًا جورج.

– لقد ثبت عندي ما قلت لك.

– خذ الأمور ببساطة، فحتّى لو تأكّدت من خروجهما معًا، فهل يعني ذلك أنّها تخونك؟

– آدم أنا متعب، وبراد تركني لدقائق ريثما يحضر لي ما يريح أعصابي ويهدئني.

– ما الذي سيريحك ويهدئك؟

– قال لي حبة سعادة واحدة فقط!

– مخدرات! أأنت مجنون؟ ألم أقل لك بأنّه يسهل التلاعب بنا وقت الحيرة والشك.. جورج ما بالك؟ هذا هروب، هل تعتقد أنّك ستنال السعادة بالهروب؟ أرجوك تعال إليّ حالًا..

– كم أنا محبط، وهذا لم يأت بعد، حسنًا.. حسنًا.

وصل جورج إلى منزل آدم، وكان في حالة يرثى لها، استقبله آدم ودعاه للدخول. كان بيت آدم صغيرًا، ولكنّه مرتّب وبسيط، جلس جورج على أحد الكراسي فيما أعدّ له آدم كوبًا من الشاي، فأحسّ بشيء من الاسترخاء لمـّا شربه.

- كيف صرت الآن؟ ما رأيك أن نمارس الرياضة معًا؟
- رياضة! هل هذا وقتها؟
- عادة أمشي أو أركض يوميًّا من ٣- ٥ كيلو، وأنا اليوم لم أمشِ، هيا جورج بجوار بيتي مكان مناسب للمشي.
- حسنًا.. لا بأس!

التفت آدم إلى جورج وهما يمشيان، وراح يحدّثه عن فوائد الرياضة، ودورها في تحسّن الروح المعنوية، فتفاجأ بعيني جورج وهما تدمعان.

- هل تعتقد أن الرياضة يمكن أن تجلب السعادة لشخص منهار مثلي يمارس الرياضة، بينما زوجته في أحضان رجل آخر؟.
- الرياضة تحسن الروح المعنوية، لكنها لا تسعد أحدًا لوحدها؛ فالسعادة لا تنبع إلا من داخلنا ومن داخلنا فقط، لا تأتي بها رياضة، فضلًا عن أن تأت بها المخدرات أو المسكرات!
- لقد كنت في لحظة ضعف وكان براد يتلاعب بي.
- لا ينبغي أن نمنح المجرمين فرصًا ليتلاعبوا بنا في فترات ضعفنا!
- ولكني أشعر بانهيار من الداخل وأنا أمشي معك وروحي تموت كل لحظة.
- وماذا كنت تفعل سابقًا إذا جاءك الهم أو الغم أو الاكتئاب؟!
- تذكرت، أتعاطى حبة مهدئة أعطاني إياها طبيب قديم.. لكنّها تشعرني بالنوم.
- حبة مهدئة من طبيب مختص وليست من مجرم، فهل لديك هذه الحبوب الآن؟
- نعم في السيارة.
- لنعد للبيت ولتأخذ حبة منها.
- سأذهب للبيت وآخذها.
- خذها، ونم عندي.
- أنام عندك ولا أدري أين هي كاترينا!!
- لا تجعل شكك فيها دليل إدانتها، ربما كانت مع توم لدعوته للمسيحية!
- ربما، ليتني أتأكد، ذلك أهون علي من الشك الذي أنا فيه.

نام جورج نومًا طويلًا مذ بدأ مفعول الحبّة التي أخذها.. واستيقظ العاشرة صباحًا فوجد آدم قد أعد له فطورًا..

– صباح الخير، الفطور جاهز.

– كم الساعة؟

– إنها العاشرة.

– آسف لقد أخرتك عن عملك، وتأخرت عن عملي.

– لا عليك، فقد اعتذرت عن عملي، وأنت نائب المدير فلن يضرك تأخر يوم.

تناول جورج فطوره مع آدم، وشكر له لطفه معه؛ فقد شعر بارتياح كبير وتحسّن عمّا كان عليه في البارحة.

– جيد، ينبغي أن تهدأ أكثر، الحدة الشديدة والتغيرات المفاجئة كثيرًا ما تعني عدم السعادة في الداخل.

– ماذا تعني؟

– لو حسمت تساؤلاتك الرئيسة ستتعامل مع مشاكلك بشكل أفضل، وستكون نفسيتك أقوى في تعاملها مع الضغوط.

– هل تعني أن موضوع كاترينا يسير؟

– لا، ما أعنيه أن السعادة الداخلية تزيل شكوكنا وتحل المفردات الصغيرة لمشاكلنا، ولذا ركز على الوصول إلى السعادة، وعلى سلوك طريق ذلك من خلال الوصول إلى إجابة تساؤلاتك، وسترى عند ذلك كيف تعاد صياغة الحياة ونظرتك لها كليًا.

– أعدك بذلك رغم أني أشعر بأن هناك ما لا أفهمه من حديثك.

– حديثي واضح: ركز على قضيتك الكبرى ببساطة وعمق، وعند ذلك ستجد السعادة تنبع من روحك، وعند ذلك ستحل كل مشاكلك.

– ربما.. شكرًا، أتعبتك معي..سأنصرف الآن للعمل، كما أن لدي اليوم موعدًا مع الطبيب.

– حاول أن تتعامل مع كاترينا وتوم بشكل طبيعي، فأنت مسافر للهند قريبًا، وعند عودتك لكل حادث حديث، وتأكد من أنك تأخذ الأمور ببساطة وبلا تعقيد، وبسعادة وبلا اكتئاب.

– سأحاول.

(٤)

ذهب جورج إلى عيادة الطبيب توم في موعده مساءً، ولحظة دخوله استقبله براد بنظرة حادة..

– أين هربت بالأمس؟

– لم أهرب، كان لدي شغل.

– لماذا لم تنتظرني؟

– أنا أكره المخدرات، وأكره الهروب من مشاكلي.

– ممم.. جميل، وهل واجهت مشاكلك؟

– لدي موعد مع توم، هل هو موجود أو أنصرف؟

– ههههه.. موجود، أنا متأكد أنك ستحتاج لحبة السعادة، وستعود لها يومًا، تفضل فالطبيب في انتظارك، هو في شوق شديد لزوج كاترينا!

دخل جورج على توم فوجده متجهمًا متعبًا، رحب به وقدم له الشاي، ثم اعتذر له أنه كان في سهرة أمس إلى ساعة متأخرة؛ ولذا هو متعب قليلا.. أبدى جورج استغرابه من كلام توم، فعادة يحذر الأطباء من السهر، لكن توم صرف الحديث مباشرة متظاهرًا باللامبالاة، ثمّ توّجه إلى جورج سائلا إياه متوقعًا أنّه لم يجد الجواب:

– هل وجدت الجواب على التساؤلات الأولية؟

– نعم ولا.

– كيف؟ وضح لو سمحت؟

– لدي جواب مقتنع به جدًّا، ولكنه ليس كاملا.

– تفضل، من أين نأتي بالجواب؟

– الجواب: أن نعتقد ببساطة الأسئلة لا بصعوبتها، وعند ذلك تظهر الأجوبة مباشرة وببساطة.

– إن طريقة الفلسفة تُبنى كثيرًا على تعقيد الأمور ـ لإظهار ذكاءنا وعمقنا ـ لا على تبسيطها.

– لكن البساطة أعمق، وإذا أجابت بعمق على التساؤلات، أليست أولى؟!

– أظنك بدأت تفلسف الموضوع.. ثم قال بنبرة متحدية: بسط السؤال كما تريد، من أين نأتي بإجابة على هذه التساؤلات؟

– بحثت في الموجودات، فوجدت أنه لا يمكن أن نأتي بها من الجمادات ولا من الحيوانات.. فماذا بقي؟

– ههههه، الناس!

نظر جورج في عينيه وقال بحزم...

- صدقت، من الناس، أو من ربهم وخالقهم.
- لا أعتقد بوجود رب للناس!
- فكيف وجدت المخلوقات إذن؟!
- لا أحب أن أزعج نفسي بهذه التساؤلات، لنقل صدفة، لنقل خلقت نفسها، لنقل أي شيء آخر!
- هذا هروب من التساؤلات، وليس منهج الفلاسفة يا فيلسوف! إن جميع الاحتمالات التي ذكرتها غير منطقية؛ فلا يمكن أن يخلق الشيء نفسه عقلًا، ولا يمكن أن تكون الصدفة بهذه الدقة، وليس لدي شيء آخر.. ثم قام من على كرسيه، وتابع: سأسير على طريقتك، ونرى إلى أين سنصل، يجب ألا نلجم التساؤلات حتى توصلنا للحقائق ولو كنا غير مقتنعين بها في البداية.
- لم تجب على سؤالي.. من أين نأتي بجواب للتساؤلات؟
- مِن الذي خلق الناس؛ لأنه أعرف بهم.

أطرق توم طويلًا، ثم رفع رأسه وقال:
- يعجبني كلامك رغم أني أختلف معه، ولذا لن أناقشك فيما قلت، ولكني سأستمر في طرح التساؤلات وسأطرح عليك تساؤلات تبين خطأ ما تقول، لنفترض أن ما تقوله صوابًا.. هل رب الناس الذي سيجيبنا هو بوذا أم الشمس أم المسيح أم روح القدس أم..؟ فآلهة الناس تتنوع وتتغير؛ فكيف نعرف الإله الحق منها؟ ألا تعرف أن الأديان كثيرة جدًّا؟!
- نعم أكثر من ١٠,٠٠٠ دين، والمسيحية وهي دين واحد فيها ٣٣٨٣٠ طائفة مختلفة.
- أنا أمام نقاش ثري وشخص مثقف، سأعتبر أن الإجابة صحيحة، ودعنا نكمل: ما ضمان أن الإجابة صحيحة؟
- ببساطة: أن تكون يسيرة سهلة غير معقدة، وتجلب لنا السعادة، وألا تصادم العقل والمنطق أو تتعارض مع العلم أو تتناقض في داخلها، وأن تغطي كل جوانب حياتنا.
- إجابة بسيطة عميقة وصحيحة.. تعني أن أي إجابة ولو بدت صحيحة، لكنها لا تسعدنا أو تكون مخالفة للعقل والمنطق، أو تكون معقدة، أو لا تغطي حياة الإنسان لن نقبل بها!
- نعم.. بالطبع!

– رائع، إن وجدت هذه الإجابة فأنا معك، ثم ابتسم وقال: سأعطيك أسئلة جديدة، وستبين صحة إجابتنا وصحة طريقنا أو خطأهما.. ثم ابتسم وقال: رغم اتفاقي معك في تهافت أدلة الإلحاد وإنكار الله، إلا أني ما زلت أعتقد أنه لا يوجد إله.. عمومًا سنسير في طريق لا نعرف إلى أين سيوصلنا، وسؤالي لك: من هو الإله الذي ستأخذ منه الإجابة؟ وعلى طريقة أي دين؟

– لنبسط الموضوع: هناك كتلتان أو مجموعتان من الأديان والأفكار، أديان سماوية وأديان أرضية، فعن أيهما تسأل؟

– صدقت.. الأديان كثيرة، ولا بد من التبسيط على التقسيم الكبير، ولم أفكر في ذلك، أنت ستسافر للهند فدعنا نغير السؤال إلى: أي الأديان أفضل: الأرضية أم السماوية؟ وسنغوص في التفاصيل حسب إجابتك التي تقول بها عند موعدنا بعد أسبوعين، وأظن أنك سترى من الأديان في الهند ما يوصلك إلى ما أنا عليه من الإلحاد والزهد فيها كلها.

– سأسافر الهند! كيف عرفت؟

ارتبك توم وتلعثم، وهو يحاول أن يجد لنفسه مخرجًا، فلم يستطع!

– عرفت من.. عرفت من كاترينا.. فقد رأيتها بالصدفة في الكنيسة.

– جميل أن يذهب الملحد الذي ينكر الرب والإله إلى الكنيسة!

– ذهبت للكنيسة؛ لدراسة طبائع ونفسيات المتدينين، وليس لعبادة إله.

– ممم، وكيف وجدت نفسية كاترينا؟

– امرأة ذكية عابدة، سحر الشرق باد في تفكيرها وروحها وملامحها.

– تبدو معجبًا بها؟!

– الحقيقة أني معجب بتدينها ويقينها، أهنئك بها؛ فهي تحبك جدًّا..

– ملحد معجب بالتدين، أليس عجيبًا؟!

– ربما، ثمّ حاول تغيير الموضوع: ألم تشبع من الجمال الهندي، وتريد أن تسافر إلى الهند؟

– لم أفهم؟

– ألم يكفك جمال كاترينا، لتبحث عن المتعة لدى الهنديات الجميلات! واللعب معهن؟!

– دعك من هذا.. أنا سأسافر للتعرف على الأديان والمناهج، ولأوقع عقود العمل، إلى اللقاء، موعدنا إذن بعد أسبوعين.

– اتفقنا، وأنا متأكد أنك ستزهد في كل الأديان بمجرد أن تقترب منها، تمنياتي لك بالفائدة والمتعة الهندية.

(٥)

استقبلت كاترينا جورج عند الباب، وعندما أحسّت بوصوله قامت إليه بسرعة.. ورحبّت به، فردّ عليها ببرود وبنغمة تشي بعدم ارتياحه.. فحاولت التوددّ إليه..

- أقلقتني عليك، أين كنت أمس، لم تنم بالبيت؟!
- لم تأتِ إلا متأخرة جدًّا بالأمس، فهل يهمك أن أبيت في المنزل أو خارجه.
- نعم، تأخرنا أمس في الكنيسة، فقد كانت حفلة مهمة ورائعة.
- رائعة بحضوره طبعًا.
- من تقصد؟
- من كان معك في الحفلة؟
- كثير، كثير جدًّا.
- مَن مِن الحضور أعرفه؟
- جورج، هل هو تحقيق؟ عمومًا سأجيبك: القس موريس وسالي بيتر وهيلاري سيمبسون و..
- وتوم الوسيم!
- نعم..! والطبيب توم كان موجودًا، جاء ليزيد إيمانه ويقينه بالرب، وقد حضر القداس كاملًا معنا!
- جميل جدًّا.. ملحد يحضر القداس، أم يستمتع بالشرب والرقص في السهرات؟!
- أنت تهينني وتهين الكنيسة، ماذا تعني؟ ومن أخبرك أنه حضر السهرة، أعني القداس؟
- لا، لا أهينك ولا أهين الكنيسة، هو الذي أخبرني أنه استمتع بالسهرة مع كاترينا الساحرة، وتوم الذي يريد أن يزيد إيمانه هو الذي حثني في سفري على أن أستمتع بجمال الفتيات الهنديات واللعب معهن!
- هو قال ذلك!
- نعم، وما الغريب في ذلك؟
- لا شيء! ولكن...
- أنا متعب وأود أن أنام، أستأذنك سأذهب لغرفة النوم.

في الصباح بكر جورج إلى عمله، فوجد كاخ في انتظاره..

- بشرني، ما قرارك الأخير يا جورج؟
- سأسافر الهند نهاية الأسبوع إن أنهينا اتفاقيات العمل فيما بيننا، فقد رتبت أموري.

– رائع، نحتاج إلى اجتماعات ثنائية مطولة؛ للتعرف على تفاصيل العقود المطلوبة، وتفاصيل نفسيات الناس هناك.

– بعد ساعة سأكون عندك لنبدأ اجتماعًا متواصلًا اليوم لمدة ثلاث ساعات وغدًا مثله.

كان كاخ حريصًا جدًّا على تفاصيل المكاسب المالية التي يمكن أن يجنيها الاتفاق مع الشركات الهنديّة؛ لذلك حرص على توضيح الطبيعة النفسية لجميع الأشخاص الذين سيتعامل معهم جورج، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة يعرفها إلا وذكرها له.

– هل بقي لديك أي استفسار؟

– لا، تبدو الأمور واضحة إلى حد كبير، وإن كنت أرى أن التحالفات التي تقوم على مبادئ مُكسبة ماديًّا ومعنويًّا ومبادئيًّا للطرفين أقوى وأمتن على المدى الأبعد والأطول.

– المكسب أن تأخذ أكبر ما تستطيع بأقل تكاليف.. ثم ابتسم، وقال: أنا لي المكاسب المالية، وأنت لك المكاسب المبادئية والمعنوية.

– اتفقنا!!

– نسيت أن أخبرك بالمفاجأة.

– أي مفاجأة؟!

– ألم أقل لك أن لدي مفاجأة لك ستنسيك أسألتك، وتنسيك طبيبك أيضًا؟

– وما هي؟

– جرب المتعة الهندية.

– أي متعة تقصد؟

– كم أنت بليد أحيانًا، جرب الفتيات الهنديات، وسيجبن لك عن كل أسألتك.. سيرتب لك كل الأمور مايكل مدير شركة التوظيف الذي حدثتك عنه.. ثم أطلق ضحكة ساخرة، وقال: ألم أقل لك أنه نصراني ومتدين جدًّا.

تساءل جورج في داخله: ترى ما سبب اتفاق توم مع كاخ! هل هي طبيعتها الماديّة الإلحاديّة؟ أم أنّها الحقيقة التي يهرب منها؟.. آه كم هي محيّرة هذه الحقيقة!! ولكنّي مصرّ على الوصول إليها..

– يوم الأربعاء صباحًا سفري، هل تريد مني شيئًا آخر؟

– سفرًا سعيدًا، وعقودًا مُكسبة ماليًّا لا مبادئيًّا، وفتيات ممتعات، تحياتي لك.

كثيرًا ما لاحظ جورج الجشع والتفكير المادي في مديره كاخ، خاصّة في اجتماعاته الأخيرة معه التي كانا يناقشان فيها سفر جورج إلى الهند، والتي كان يوصيه فيها بالتعرف على منافذ بيع البرامج في الهند، وبالتركيز على إيجاد عمالة تقنية رخيصة؛ فالهند سوق كبير لعدد سكانها الكبير، ورخص اليد العاملة أحد مميزات هذا السوق. كان جورج يستمع بصمت، ولم يشأ التعليق على ألفاظ كاخ الذي لا يعبأ من الحياة بغير المال والجنس، فكانت ألفاظه تدور في إطارهما.

أخبره كاخ بأنّ مايكل مدير شركة الهند العالميّة للقوى العاملة سيستقبله في المطار، وحذره من تديّنه الشديد، ثمّ أردف:

– لا يهمّنا ماذا يكون، ما دام يتيح لنا بعقوده فرصة للتبديل والتغيير.. وبضحكة متهكّمة تابع: هذا هو التديّن الذكي، من يربحني ويمتعني أكثر فأنا مستعدّ لعبادته وخدمته!

وقفا للانصراف، غمز كاخ لجورج، وأخبره أنّ وصيته الأخيرة له: ألا يفوّت عليه الاستمتاع بالجمال الهندي؛ فهو جمال نادر، فبادره جورج متغابيًّا:

– أيّ جمال تعني؟

– جمال الهنديات والرقص الشرقي!

مطّ جورج شفتيه في امتعاض، وألقى التحيّة وانصرف مباشرة.

عاد جورج إلى منزله متعبًا، فوجد كاترينا في انتظاره على غير العادة، فهي لم تسهر كعادتها.. قابلته بابتسامة وتودّد..

– حبيبي تأخرت، انتظرك من ساعتين؟!

– كانت لدي اجتماعات مطوّلة مع كاخ من أجل السفر.

– صحيح! لقد نسيت،لم تخبرني كيف كان لقاؤك بالطبيب توم أمس؟

– أجبته بإجابات النادل! فقد اقتنعت بها واقتنع هو أيضًا بها.

– جميل.. المهم أنكم تسيرون في الطريق.

– وأعطاني أسئلة جديدة!

– وما الأسئلة الجديدة؟

– أن أحدد أفضل دين نأخذ منه، وأحدد الإله الخالق الذي سنأخذ منه الإجابات.

– الجواب واضح، الله والمسيح وروح القدس، هؤلاء الثلاثة واحد هم الذين خلقوا البشر، ومن يقول غير ذلك كافر.. ثم بدأت تضحك ضحكًا هستيريًا.

– نصحني بأن أنظر في الأديان وأنا في الهند وأقيمها، ثم أحدد له أولًا: هل الأفضل الأديان السماوية أو الأرضية؟

– سافر فسترى في الهند ما لم تكن تتوقع من العجائب؛ فهي بلاد العجائب، وسترجع وقد تأكدت من كلامي.
– وماذا عن وصيّة توم بالاستمتاع بالفتيات الهنديات؟!
حاولت كاترينا أن تخفي ارتباكها..
– لا تطعه في ذلك حبيبي.
– وهل تشكين فيّ؟!
ابتسمت كاترينا، ووجدت فرصتها لتغيير الموضوع.. فرفعت رأسها ونظرت إلى جورج..
– أصولي من الهند ومع ذلك لم أر الهند من عشرين سنة، هل يمكن أن تحضر لي هدية من الهند؟
– بكل سرور.. ماذا تريدين؟
– أريد صليبًا بصناعة يدوية هندية.
– سيأتيك أفضل صليب هندي، ولكن لي شرط بسيط.
– تفضل.
– أريد أفضل ليلة اليوم.. هيا فلنذهب إلى غرفة النوم.

الهند.. بلاد العجائب

٤ الهند.. بلاد العجائب

الهند.. بلاد العجائب

(١)

في المطار، بعد أن أنهى جورج إجراءات الجوازات والدخول، وجد مايكل بانتظاره، وكان قد تعرّف عليه من صورة أرسلها له على بريده الالكتروني. رحّب مايكل به كثيرًا، وسأله عما إذا كان يودّ الذهاب إلى الفندق، أو أن يأخذه في جولة سريعة في المدينة.

– أشكرك، لكن خذني إلى الفندق، فأنا متعب من السفر وتغيّر التوقيت، لعلنا نأخذ الجولة غدا صباحًا قبل الذهاب إلى المكتب.

لاحظ جورج أناقة مايكل البالغة، وتعامله المهذّب إلى درجة قريبة من التكلّف، وما لبث أن رأى وهو يمضي معه سيّارته الفارهة التي تكشف عن كونه ينتمي إلى طبقة الأثرياء في هذا البلد الذي يعجّ بالفقراء.

في اليوم التالي، عند تمام السابعة صباحًا، نزل جورج من غرفته نشيطًا، بعدما أخذ قسطه الكافي من الراحة بالأمس. فوجد مايكل في صالة الفندق بانتظاره، كان كما رآه بالأمس بكامل أناقته اللافتة، حيّاه ومضيا معًا إلى السيارة.

– ما رأيك أن نأخذ جولة لمدّة ساعة، وسنكون في المكتب في الثامنة والنصف؟

– جيّد، أحبّ أن أتعرف على الهند.

كان مايكل طوال الوقت يشرح ويعرّف بالمباني والكنائس مفتخرًا بأنّ الهند دولة عريقة في التاريخ، وقد لاحظ جورج أنّه كان يتحاشى الحديث عن بعض المباني الضخمة، رغم سؤال جورج عنها، كما كان يتحاشى الحديث عن أصنام بوذا الموجودة بكل مكان، فقد سأله أكثر من مرة وراوغ في الإجابة، وكأنّه يريد أن يصوّر الهند دولة نصرانيّة فقط، فاكتفى جورج بالمشاهدة، ولم يعلّق، وتذكّر أنّ كاخ أخبره بأنّ مايكل كاثوليكي متعصّب.

في الثامنة والنصف، كان جورج ومايكل قد وصلا إلى المكتب، فظلا حتّى الساعة الحادية عشرة مستغرقين في مناقشة الأعمال والمشاريع والعقود، وما إن أحسّ مايكل بالارتياح نحو جورج،

رفع رأسه فجأة، وقال له:

- أنت مسيحي مثلي، لماذا نسمح لكاخ اليهودي بأن يتلاعب بعقود الموظفين كلهّم، ما رأيك أن يكون التلاعب فقط في عقود الهندوس والبوذيين والمسلمين، ونشترط أن تكون عقود المسيحيين أفضل، لا أريد لهذا اليهودي أن يسرقنا!

- وهل من العدل أن نسرق الهندوسي والبوذي والمسلم؟!

سكت مايكل محرجًا.. وعادا يكملان ما كانا يقومان به من أعمال حتى الساعة الواحدة، هنا توقف جورج طالبًا الراحة فقد أُجهِد حقيقة.

في الطريق إلى الفندق عادا من نفس طريق مجيئهما، فلما رأى مبنى كبيرا، تعمّد جورج أن يسأل مايكل مرة أخرى:

- من بنى هذا المبنى الرائع؟

- المسلمون.. المغتصبون.

- وما هذا؟

- معبد بوذي متخلف.. يعبدون أحجارًا وأشخاصًا مثلنا!!

لما أحس جورج بتوتر مايكل من هذه الأسئلة آثر الصمت والاستماع بقية الطريق...

(٢)

اتفق مايكل مع جورج أن يمر عليه الساعة الرابعة؛ ليذهبا للغداء، فقد أعد له حفلة بسيطة لكنّها تليق باستقباله، وما إن نزل جورج من غرفته وركب سيارة مايكل، حتّى سأله متعجبًّا:

- هناك عادات يطلبها كاخ عندما يأتينا، لم أرك تطلبها!

- وما هي؟

- لنؤجل الإجابة حتى وصولنا للمطعم، أعتقد أنك ستستمتع بالمفاجأة!

وصلا مطعم تاج الهند، كان ينطق بالفخامة والعراقة من كل جوانبه، أعجب جورج بجمال المكان وروعته، فقد كان على الطراز التقليدي، وتعبق منه رائحة العود الهندي التي أعجبته رغم أنه لا يحب رائحتها في العادة، ابتسم له مايكل ابتسامة ذات مغزى، وقال له بأنّ جناحه الخاصّ سيكون أجمل بكثير.

في الجناح الخاصّ، رأى جورج فتاتين فاتنتين أعمارهما قرابة العشرين سنة، كانتا تنظران إليه وتبتسمان، فصافحهما بابتسامة متبادلة، فغمزه مايكل وضربه عدة ضربات خفيفة على كتفه:

- ما رأيك بالمفاجأة؟

- رائعة جدًّا.

- كلما جاء كاخ جئت به لهذا المكان للغداء، ثم يأخذ معه الفتاتين أو إحداهما للفندق، ليقضي ليلة ممتعة.

ظهرت على وجه جورج ملامح الاستياء، وأجابه ببرود:

- المفاجأة الرائعة بالنسبة لي هي جمال المكان فقط.
- غريب، ألم تعجبك الفتاتين؟!
- هما جميلتان حقًّا، والغريب هو أنت! أنا لست كاخ!
- ماذا تعني؟
- هل ترى ما يفعله كاخ أمرًا جيّدًا لأفعل مثله؟!
- لا يوقّع كاخ على العقود إلا بهذه الطريقة!
- إذن هي رشوة لي لأوقّع على العقود!
- عذرًا، ماذا تريد؟
- أنا متزوّج، ولا أحبّ أن أخون زوجتي، أليست هذه هي المسيحيّة يا مايكل؟!
- بلى.. بلى!

جاء النادل بقائمة الطعام وقدمها لمايكل، فتكلم معه بالهندية فانصرف وانصرفت معه الفتاتين، ثمّ التفت إلى جورج وهو يصطنع ابتسامة:

- أطلب لك على ذوقي، أم تحب أن تختار أنت؟
- اختر أنت فأنت أعرف مني.

أراد جورج أن يغير جوّ الجلسة التي أصبحت متأزمة، فتذكّر كاترينا التي طلبت منه مرارًا أن يحضر لها صليبًا من الهند، فهو يذكرها بانتصار المسيحيين على البرابرة المسلمين في الهند، ثم انفصال باكستان وبنجلادش عن الهند؛ فقال لمايكل:

- أنت أعرف الناس بالصناعات الجيدة لصلبان مميزة، هل يمكن أن تدلني على مكان أشتري منه صليبًا لزوجتي؟
- سيأتيك إلى غرفتك في الفندق.. ثمّ استدرك: وسأخبرك بقيمته، فليست رشوة!
- أتدري، رغم أني مسيحي بروتستانتي إلا أني أجهل المسيحية، وأنت متدين على حسب علمي، فهل يمكن أن تقنعني بديني؟!
- المسيحية دين سماوي من عند الله، ليس مثل الديانات الأرضية التي ألفها البشر.
- ما الأديان التي تعني؟
- البوذية والهندوسية والزرادشتية وغيرها، توجد في الهند مئات من هذه الأديان.

استعاد جورج في ذهنه حديثه مع آدم، فوجد من نفسه رغبة في أن يواصل طرح الأسئلة على مايكل، ليرى كيف ينظر إلى الأديان، وكيف يفسّر وجودها.

– وما الذي يؤكد أن النصرانية أو غيرها دين سماوي لا أرضي؟

– يثبت ذلك التاريخ والتواتر والشهادات، فلو سألت هندوسيا سيقول لك أن المسيحية دين سماوي، وأنها دين يطوره البشر..

– أظن أن البساطة تقتضي أن الأديان السماوية أصح من الأديان الأرضية.

– جميلة كلمة البساطة، نعم هي أصحّ، وهل في ذلك شك؟!

– هذا كلام كل المسيحيين، لكني وببساطة أود أن أتأكد من ذلك بنفسي وأن أراه بعيني.

بعد يوم مليء ومزدحم بالأحداث والحوارات، ذهب جورج إلى الفندق، وما إن استلقى على سريره، راح يسترجع ما مرّ به، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يردّد كلام آدم: «تأكد من أنك تأخذ الأمور ببساطة وبلا تعقيد وبسعادة وبلا اكتئاب».

فتح التلفاز ليجد برنامجًا باللغة الهندية، ومذيّلا بترجمة إلى الإنجليزيّة، عن الهندوسيّة وتعاليمها الأخلاقية الرائعة، أكد البرنامج أن الديانة الهندوسية عبارة عن خليط بين ديانة الآريين التي تنصب على تقديس القوى الطبيعية، وبين ديانة الهنود القدماء التي تركز في الغالب على الأشياء التي يحبها أهل الهند القدماء، وبعد فترة من الزمن تطور الوضع وصار هناك نوعًا من الاندماج، فبدأوا ـ خوفًا من ذهاب امتيازات بعض الطبقات ـ في كتابة بعض الأفكار حول هذه المسائل، وسميت هذه الأفكار فيما بعد بالفيدا أو الويدا، والويدا هذا هو أعظم الكتب المقدسة عند الهندوس؛ ومعناها: القانون أو الحكمة، فبدأوا يسطرون هذه القوانين أو الأحكام، والمراد منها: إعطاء الطبقة الآرية أو الجنس الأبيض ميزة تخالف ما لدى الطبقة السوداء، طبعًا بدأت كتابة هذه القوانين التي تعطي الأقلية الامتيازات المتتابعة، إلى أن تضخمت وكبرت، فصار حفظ هذه القوانين في القلب صعبًا، فقالوا: لابد من تدوينها وكتابتها، فبدأوا بالتدوين، استمر التدوين عشرة قرون – يعني: ١٠٠٠ سنة – وتدوين هذا الكتاب المقدس عند الهنود متواصل، إلى أن ختم بقرار من المجلس الأعلى عند الكهنة الهندوس على أنه لا يمكن إضافة شيء على هذا الكتاب، ولو لم يختم بهذا القرار لاستمرت الإضافات على هذا الكتاب، وهو كتاب ضخم جدًّا يشكل عددًا كبيرًا من المجلدات، ولفت نظره تقرير في البرنامج يشير إلى أن الهندوسية دين لا يصلح إلا لمن هم في الهند، وأن الهندوس قرروا في مؤتمر علمائهم أن الدين خاص بالهنود، وأن الهندوسي عندما يخرج من الهند يصبح غير هندوسي، فضحك ساخرًا من هذا الدين العجيب المتعصب حتى للمكان، لكنه مسك نفسه:

- على أيّة حال هي قضايا بشريّة، وليست إلهيّة، هكذا بكلّ بساطة.. بكلّ بساطة! كأني بدأت أرى ما أبحث عنه، وعلى كل حال هذا لا يكفي...

(٣)

في الساعة الثامنة صباحًا كان مايكل على موعده ينتظر جورج في صالة الاستقبال، ابتسم لرؤية جورج قادمًا إليه، فحيّاه بلهجة حازمة، وقال له:

- أمامنا عمل طويل اليوم مثل الأمس، فهل أنت جاهز؟
- طبعًا، فأنا قدمت لذلك.

في طريقهما، رأى جورج تمثالًا غريبًا لا يشبه تمثال بوذا، فهال برأسه محدّقًا فيه، فبادره مايكل ضاحكًا:

- ما بالك؟ هذا إله من الآلهة، ألم أقل لك أن الديانات الأرضية كل يوم تصنع لها إله جديدًا؟
- أود أن أجلس مع شخص من هذه الديانات الأرضية.
- ههههه، اليوم تتغدى مع مديرة القطاع التشغيلي في الشركة وهي بوذية متدينة.

وصلا الشركة وانهمكا في العمل، كان مايكل يلاحظ بوضوح أن جورج يختلف كلّية عن كاخ، فجورج يهمه الدين ويسأل عنه، ويود أن يتعرف عليه، كما أن لديه الكثير من المبادئ التي يحترمها، بخلاف كاخ الذي لا يهمه إلا المال والجنس، فلّما انتهيا في حدود الثانية عشرة، اقترب مايكل قليلًا من جورج، وقال له بنبرة هادئة:

- بعدما انتهينا، أودّ أن أخبرك بشيء في نفسي.
- تفضل.
- أنت لا تشبه كاخ أبدًا، مع أنّ كلاكما من شركة واحدة.
- ههههه، تعني فتاتيّ المطعم؟
- هذه واحدة فقط، وغيرها كثير.
- حسنًا، ما سبب هذا الاختلاف برأيك؟
- الدين بكل بساطة.
- وأنت، ألست متدينا وتساير كاخ؟
- ربما، لكن.. ليس بالضرورة أن يكون ما أقوم به صوابا.

انتصب مايكل واقفًا للانصراف، ثمّ التفت إلى جورج:

- ألا تريد أن تقابل جيوتسنا؟

- ومن هي جيوتسنا؟!
- إنها المديرة التشغيلية البوذية.. أتعرف معنى جيوتسنا؟
- لا.
- معناه: ضوء القمر، ثم ابتسم وقال: ههههه، ولكن عمرها الآن قرابة الستين سنة، فليست رشوة.
- بالطبع أودّ مقابلتها، هل من الممكن أن تتغدى معي في الفندق الساعة الرابعة؟
- ممكن، وبعد مقابلتها ستعرف نعمة المسيحية..

عندما نزل جورج من غرفته في موعد الغداء، وجد بانتظاره امرأة كبيرة في السن، كانت تقاطيع وجهها خليطًا من الهنديّة والصينيّة، أو أنّها هكذا بدت له، اقترب منها محيّيًا:

- مرحبا، سيّدة جيوتسنا.
- مرحبا، تشرّفت بمقابلتك.

دعاها إلى تناول الغداء معه في البوفيه المفتوح في مطعم الفندق، فشكرته. كان واضحًا أنّها امرأة محترمة وخلوقة جدًّا.

اختار جورج طاولة جانبيّة للجلوس، وكرّر ترحيبه بها:

- حدثني مايكل عنك كثيرًا.
- وأنت كذلك، حدثني عنك مايكل، وقال لي أنّك طلبت تناول الغداء معي لأنّك تريد أن تتعرّف على البوذيّة!
- صحيح.
- قبل أن نتحدث، في ذلك لفت نظري شيء فيك، بل إن جميع الموظفين يتحدثون عنه في الشركة.
- ما هو؟
- أنك لست مثل كاخ.
- وكيف عرفوا؟
- انتشر خبر رفضك التفريق بين النصراني والبوذي والهندوسي والمسلم في التلاعب بالعقود، كما انتشر خبر رفضك للفتاتين! وغير ذلك.
- وهل يعجبهم هذا؟
- على الأقل بالنسبة لي كبوذية، نعم.. جدًّا.
- أفهم عدم التلاعب بالعقود، ولكن ماذا عن الخيانة؟
- نحن البوذيين نكره الخيانة والشهوات، بل نرى أن الرذائل ترجع لثلاثة أمور، أولها: الاستسلام

للملاذ والشهوات؛ فمن وصايا بوذا: «لا تقض على حياة حي، لا تسرق ولا تغتصب، لا تكذب، لا تتناول مسكرًا، لا تزنِ، لا تأكل طعامًا نضج في غير أوانه، لا ترقص ولا تحضر مرقصًا ولا حفل غناء، لا تتخذ طيبًا، لا تقتن فراشًا وثيرًا، لا تأخذ ذهبًا ولا فضة».

– وصايا رائعة جدًّا، ولكن لدي ـ إن سمحتِ ـ بعض التساؤلات: لماذا لا تتخذوا طيبًا، أو لا تأخذوا ذهبًا ولا فضة؟ أو لا تقتنوا فراشًا وثيرًا! أهي اشتراكية؟

– الزهد في الدنيا من أهم علامات البوذية، وتتضمن ترك الزواج والغنى، وهجر الذات، وغير ذلك من الأمور كالتي سمعتها؛ فالدنيا أم الشرور.

– أتعجب أن تكون أهم علامات البوذية هي ألا نعيش ولا نسعد في هذه الدنيا، فطبيعة البشر حب المال والميل للجنس الآخر...، ومَنْ هو بوذا؟

– قلت لك الدنيا أُمّ الشرور، والزهد في الدنيا أُمّ الخير، أما إجابة من هو بوذا؟ من هو بوذا؟ هذا سؤال تصعب إجابته!

– كيف تكون الإجابة على من هو بوذا صعبة؟ أليس هو إلهكم أو رسولكم أو مخلِّصكم وإليه تنتسبون؟!

– لقد وقفت على نصف الصعوبة، نحن لم نتفق هل هو رسول، أو مخلِّص، أو إله، أو ابن الله، أو معلم أو غير ذلك...

– معقول؟!

– شمال الصين يختلف عن جنوبه، ويختلف عن بورما وسيلان في تحديد ذلك، عمومًا ليس هذا هو المهم، المهم أن تسمو بنفسك روحيًّا لتكون بوذيًّا.

– وسمو النفس بأن تترك الزواج والمال، وأن تتحمل الخشونة في الملبس؟!

– نعم، ولا تسرق ولا تكذب ولا تسكر ولا تقتل.

لم يغب عن ناظريّ جورج ـ وهو يتحدّث إلى جيوتسنا ـ لبسها الأنيق الفاره، فتعمّد سؤالها وهو يصوّب نظره على هندامها:

– وهل يلتزم البوذيون بذلك؟

– نعم.. ثم ابتسمت: إلى حد ما، ظروف الحياة لا تمكننا أن نعيش بهذه الوصايا الحكيمة.

– إذن هي وصايا أخلاقية فقط، ولا تصلح للحياة عند غالب الناس؟!

– إلى حد ما أيضًا.. حتّى أنتم كذلك.

– ماذا تعنين؟

– بصراحة، مايكل متدين جدًّا، ومع ذلك يحضر الفتيات لكاخ عند كل زيارة بنفسه! ويتلاعب

بالعقود! أعرف كثيرًا من المسيحيين يشربون الخمر، أليست هذه الأخطاء موجودة عندكم؟
- صدقت، ولكن يهمّني التركيز على الدين نفسه.
- لا فرق كبير عندي، وأظن أننا مثل بعضنا.
ثم أخذت تمسح فمها إشارة إلى انتهائها من الأكل، فنادى جورج النادل وطلب لها طبقًا من الحلوى الهندية، ثم تابع كلامه معها:
- لستم متفقين على إلهكم أو رسولكم أو.. فهل أنتم متفقون على الشرائع والأحكام والوصايا؟
- نحن نطور هذه الوصايا كل فترة من الزمن وكل منطقة...
- تطورون!!
- نعم، فالبوذيّة دين يتطور مع الزمن؛ فهي من صنعنا وليست سماويَّة كما تدَّعون في المسيحية، وإن كان يقال لدى بعضنا أن لها أصلا سماويًا، وأنا أشك في ذلك.
- هل لي أن أسألك سؤالًا مباشرًا بسيطًا ولو كان محرجًا؟
- تفضل فالبوذيون يعشقون البساطة.
- هل تعتقدين أن الدين السماوي أفضل أم الأرضي؟
أطرقت جيوتسنا قليلًا، وصمتت برهة، ثم رفعت رأسها وتنهدت:
- حتى لا أكذب.. لا شك أنه إن كان سماويًّا فهو أفضل.. هذا من حيث المبدأ، وإلا فكثير من المتدينين بأديان سماوية هم من أسوء الناس.. ثم ابتسمت: خذ مثالًا كاخ اليهودي، وبنسبة أقل مايكل المسيحي، اللذان يتلاعبان بأموال الناس ويسرقونهم!
- صدقت.. صدقت، ولكن لماذا لم تعتنقي دينا سماويًا وتكوني صالحة؟
- ولدت من أب وأم بوذيين، ولهذا أنا بوذية، ولكن من يدري!! ربما أكون بعد الموت يهودية أو مسلمة أو مسيحية.
- بعد الموت؟!
- نعم.. فروحي ستنتقل لشخص آخر بعد وفاتي، وأنا عمري الآن ستون سنة.
- هل تصدقين بتناسخ الأرواح؟
- لا، ولكنه في ديننا.
بدا التعب واضحًا على جيوتسنا من النقاش والأخذ والرد، خاصة أنه كان بعد الدوام والعمل مباشرة، فرغبت بأن تُنهي اللقاء، فجسدها لا يحتمل المزيد من الجلوس.
- هل هناك أسئلة أخرى أو خدمة أقدمها لك؟
- لا شكرًا، لقد خدمتيني كثيرا، وتعلمت منك الكثير.

ودّعها، وانصرفت.
اتصل مايكل بجورج في آخر النهار، يخبره بأنّه سيجد الصليب الذي طلبه عند موظف الاستقبال، وأتبعه بشيء من الاستهزاء: وهو مسجّل على فاتورة الفندق لكيلا تظنّ بأنّه رشوة!
فشكره جورج وضحك معه دون أن يجد أيّ حرج في نفسه.
– أخبرني، هل عرفت نعمة المسيحيّة بعد مقابلة جيوتسنا؟
– تقريبًا.
– لو طال اللقاء لسمعت من الغرائب ما يشيب له الرأس، هل حدثتك عن خيالاتهم وفلسفاتهم؟
– خيالاتهم!.. لا.
– ههههه، هذا أفضل، وإلا لما عدت إلينا في الهند مرة أخرى، وإن كنت أتوقع أن ما سمعته كافٍ لأن تعرف أن المسيحية أفضل.
– تعني الديانات السماوية كلها؟
– هذا ما أراه، ألقاك على خير يا صديقي.
أمضى جورج ليلته في غرفة الفندق، يتصفّح المواقع على الإنترنت، ويشاهد التلفاز حتّى تملّكه النعاس، فاستلقى على السرير، كان يومًا متعبًا بالنسبة له، لم يكن تعبًا جسديًّا، ولكنّ رأسه مثقل بالتفكير في المهام والمسؤوليات وتفاصيل العمل، إضافة إلى تساؤلاته الشخصيّة التي كانت أكبر دافع له للمجيء إلى الهند، وفي خضمّ ذلك كلّه، لا تكاد تفارق ذاكرته وصيّة آدم: «تأكّد من أنّك تأخذ الأمور ببساطة»، فما لبث أن استشعر راحة كبرى، فاليوم تبيّن له جزء من تخبّط الديانات الأرضيّة، وبُعدها عمّا يلائم البشريّة، وهو ما يوقن به، فكيف يمكن أن يخبرنا بشر مثلنا عن سبب خلقنا؟!

(٤)

في صباح اليوم التالي، مضى جورج إلى سوق الحاسب الكبير في دلهي، وركب المصعد إلى الدور الخامس، حيث مكتب مطيع الذي يملك أكبر سلسلة محلات في الهند لبيع الحاسب الآلي وبرامجه.

وجد جورج المكتب تقليديًّا، لكنّه كان فاخرًا وبسيطًا في آن واحد، وكانت رائحة العود الهندي تملأ الأرجاء، دخل وسأل موظف الاستقبال عن مكتب مطيع، فأجابه:

– الشيخ مطيع، في الجهة اليمنى، آخر باب على اليمين، ستجد مكتب سكرتيره.

ذهب جورج وهو يردد مع نفسه مستغربًا: الشيخ مطيع!! شيخ! ماذا تعني؟! ألقى التحية على السكرتير، وكان يعمل على جهاز الحاسب الآلي، ثمّ قدم نفسه وبطاقة أعماله، وأخبره بموعده مع مطيع.

– تفضل، الشيخ في انتظارك منذ خمس دقائق.

نظر جورج في ساعته، فعلا كانت تشير إلى الثامنة والنصف وخمس دقائق. ما إن دخل جورج المكتب الذي تبدو فيه ـ رغم الفخامة ـ الفوضى، حتّى قام مطيع إليه مرحبًّا، فشكر له لطفه، وشرعا في مناقشة مهام العمل.

– هل من الممكن أن توضح لي آفاق التحالف الممكن بيننا؟

– ببساطة أي شيء فيه مكسب لي ولكم.

ارتاح جورج لهذه البساطة العميقة، وصافح مطيع، وعقّب ضاحكًا:

– اتفقنا.. هذا أسرع اتّفاق في التاريخ، لكن ينبغي أن نعرف: ما هي الطريقة التي تربحنا جميعًا؟

– أظن أن أخي كريم الله أفهم وأعرَف مني في هذه التفاصيل، يمكنك أن تتناقش معه، لكنّه غير موجود الآن. اجتمِعا غدًا الساعة التاسعة صباحًا، واكتبا تفاصيل اتفاقنا...

– هل أخذت جولة في دلهي وضواحيها؟ وإلا فحقك علينا ـ كضيف ـ أن أرتب لك هذه الجولة.

– أخذت جولة قصيرة لمدة ساعة ونصف تقريبًا.

– إذن لم تر شيئًا ذا بال؛ فالهند بلد عريق جدًّا،.. هل تسمح لنا بضيافتك؟

– بكلّ سرور.

– إذن تفضل، توكلنا على الله.

– إلى أين؟

– جولة، سنبدأ فيها بتاج محل.

نزل جورج مع مطيع ليجد سيارة مطيع الفارهة مع سائقه الخاص بالانتظار، ركب مطيع في الخلف بجوار جورج.

- الطريق إلى تاج محل يأخذ حوالي ساعة ونصف، فالطرق ليست مزدحمة في هذا الوقت، والطريق بحد ذاته نزهة، أمّا تاج محل فتحفة معماريّة من عجائب الدنيا، لن أفسدها عليك بوصفها، ستراها بنفسك.

- من بناها؟

- الملك شاه جهان، وهو نموذج للعمارة الإسلامية في الهند.

- الإسلاميّة؟!

- نعم.

- عذرًا، ولكن أليس المسلمون مغتصبين لأراضي الهند، وهم قوم من الهمج والبرابرة؟!

ابتسم مطيع..

- نعم.. نعم سرقنا الهند، وقتلنا أهلها، ونهبنا خيراتها!

- آسف، هل أنت مسلم؟

- نعم، وكنت أظنّك تعرف.

- أعتذر عن سؤالي، ولكن هكذا نسمع عن المسلمين.

- لا عليك، أنا لم آت ولا غيري من المسلمين من خارج الهند لنسرق خيراتها.. أنا هندي ابن هندي ابن هندي، وإذا أردت أن تعرف من الذي سرق الهند فانظر عندما تصل إلى تاج محل، من الذي قطع الجواهر منه؟

- مَن؟

- اسأل المرشد السياحي عندما نصل.. وأرجو ألا يزعجك ذلك، أنا أعرف ما يشاع عن المسلمين ولا يهمني الرد، وأظنّ أن قراءة مختصرة في تاريخ الهند يبين لك ما أعني.

- كيف؟

- بإمكانك أن تكتب (تاريخ الهند) في أي محرك بحث على الإنترنت، وستعلم من الذي احتل الهند وسرقها، وهل المسلمون سكانها الأصليون، أم قدموا إليها. وانظر كيف عاشت الطوائف الأخرى في حكم المسلمين.. ثم استدرك ضاحكًا: وإن كانت توجد أخطاء كثيرة، منها تاج محل الذي سنذهب إليه الآن، فقد بني مقبرة لزوجة شاه جان.

- أنت تتحدث ببساطة!

- البساطة في النظر إلى الحياة هي أحد عناوين السعادة والرضا.

استمتع جورج بالرحلة كثيرًا، وفاجأه أن سرقة الجواهر من المتحف كانت أيام الاحتلال الإنجليزي، ولم يحب مطيع أن يجرح مشاعر ضيفه، وأحب جورج في مطيع ابتسامته وصفاء نفسه، لكنه كان يتحسس منه في شيء واحد، إذ تركه مطيع ثلاث مرات في الرحلة، قائلًا له: انتظرني سأصلي وأعود، كما أن الفوضوية والارتجالية واضحة في كل تصرفاته.

انتهت جولة مطيع، ووصل جورج إلى الفندق في الثامنة مساءً مرهقًا، فأخذ حمّامًا دافئًا، وذهب إلى فراشه، لكنّه ما إن تمدّد حتّى خطر له أن يتّصل على مايكل يستشيره في طبيعة الاتفاق مع مطيع.

– ألو.. مرحبا، لدي استشارة سريعة، يبدو مطيع سهل في الاتفاق، فهل هي السهولة الخادعة؟

– رغم عدم ارتياحي لمطيع إلا أنه فيما يبدو لي صادق، ولكنه أيضًا غير مرتب في أعماله، ولو رتب نفسه لأعطى نتائج أفضل بكثير.

– لكن كاخ كان يقول لي أنه معقد وصعب، فوجدته عكس ذلك.

– نعم معقد في دينه، سمح وبسيط في تعامله وصفقاته، ثم ضحك وأردف: ومعقد في أنه لا يطيع كاخ في نزواته وفتياته، ولذا لم يتفق معه كاخ رغم كثرة جلساتهما ، أعرفت السبب الذي من أجله يحضر متدين مثلي الفتيات الجميلات لكاخ!

– غدًا سأجلس معه لعقد الاتفاق، فهل هناك وصايا معينة تنصحني بها؟

– أبدًا.. ليس لدي شيء آخر، روح القدس تحميك، هل تريدني أن أوصلك أو آخذك في جولة غدًا؟

– شكرًا.. إن احتجت لشيء سأتصل عليك.

– إلى اللقاء.

(٥)

صباحًا، فيما كان جورج يتناول إفطاره في مطعم الفندق، تحدّث مع النادل الذي كان يتكلم بإنجليزيّة ركيكة:

– ما اسمك؟

– كابور.

– يقال إن الهند بلاد الأديان، فما دينك؟

– هندوسي.

– رائع، دين أخلاقي.

- نعم هو كذلك.
- هل صحيح أنه لدى رجال الدين عندكم لا يصح اعتناق الدين إلا لمن في الهند، ولهذا يسمى هندوسيا؟
- نعم، فقد صنعنا هذا الدين ليتناسب مع سكان الهند.
- صنعتم الدين!!
- نعم صنعناه ليناسبنا!
- ومن هو إلهكم الذي تعبدون؟
- نحن أغنى عقائد العالم بالآلهة!! فلدينا عدد كبير جدًّا جدًّا من الآلهة، بل ربما نحتاج لمجلدات لحصر أسماء آلهتنا، حتى قال وول ديورانت صاحب كتاب (قصة الحضارة): إن إحصاء هذه الآلهة ربما يصل لمائة مجلد.
- غريب جدًّا!
- نحن نعبد بعض الأجرام السماوية، ونجعلها آلهة كالشمس، نصف بعض الآلهة بأوصاف الملائكة ونصف بعض الآلهة بأوصاف الشياطين.
- إله أقرب إلى الشيطان!
- بعض التمائم آلهة، وبعض الطيور آلهة، وبعض الحيوانات آلهة.
- حيوان إله!
- الفيل مثلًا هو الإله (جانيشا)، وفيه تتجسد الطبيعة الإنسانية الحيوانية، والأفعى القاتلة من عضة واحدة هي الإله (ناجا)، ونحن نقدم لهذه الأفاعي اللبن واللوز ونقيم لها الاحتفالات تعبدًا.
- وكيف تعبدون كل هذه الآلهة؟!
- لكثرة الآلهة اختزلناها في ثلاثة أو واحد ذي ثلاثة أقانيم.
- واحد بثلاثة أقانيم.. مثل المسيحية!
- ربما نكون أخذنا هذا من المسيحية، فنحن نطور ديننا بأنفسنا، وربما تكونوا أخذتم هذا مننا.
- ممم، أكمل...
- المهم أن الثلاثة آلهة أو الإله ذو الأقانيم الثلاثة هي: (براهما) وهو الخالق، و (فيشنو) وهو الذي يحفظ العالم، و (شيفا) وهو إله الهلاك والفناء والدمار.
- دين العجائب! لكن لم تتحدث عن البقر؟! فقد سمعت أنكم..

- ههه، سأقول لك كما يقول غاندي: البقر إلهنا، وأحب إلينا من أمهاتنا، فأمي ترضعني سنة أو سنتين وأخدمها طوال عمري، بينما البقرة ترضعني طوال العمر ولا تطلب غير طعامها، وأمي عندما تموت تكلفني مراسم للجنازة والدفن، بينما البقرة عندما تموت نستفيد من كل شيء فيها حتى عظمها.

- وهل عبادتكم هذه توصلكم للجنة بعد الموت؟

- لا يوجد جنة ولا نار عندنا.

- إذن كيف يُكافَئ المحسن ويُعاقَب المسيء؟ أم أنهما سواء؟

- يكافَئ المحسن بعد موته بانتقال روحه لرجل صالح، ثم قد تتحد بالإله براهما في رحلة الانطلاق، أما المسيء فتشقى روحه بأن تنتقل لشخص شقي.

- وهل تفرقون في الدنيا بين الطائع الصالح والمسيء الشقي؟

- نعم، فبعضنا له من مقام الألوهية نصيب.

- كيف؟

- خلق (براهما) الخالق كل طائفة من جزء من جسمه، فخلق البراهمة من وجهه؛ ولذا فهم أهل الفكر والحكمة، والكشتريين من ذراعه؛ ولذا فهم أهل البطش والقوة والحماية والجند، والويش من فخذه؛ لذا هم من يقومون في المجتمع بالتجارة والصناعة وتأمين الغذاء، وخلق الشودر من قدميه؛ لذا هم الخدم والعبيد وعليهم الخدمة، وعبادتهم في خدمة الطبقات الثلاث السابقة، أما المنبوذين فهم لا يدخلون في هذه الأقسام الأربعة ولا يدخلون في التركيبة الهندوسية.

- ولو كنت شودريًا فهل من الممكن أن أصعد من درجة الشودر إلى البراهمة، ولو كنت منبوذًا هل من الممكن أن أدخل الهندوسية؟

- مستحيل.. عبادة الشودر خدمة الطبقات الأخرى، والمنبوذين خارج تركيبتنا كليًّا.

عقدت الدهشة لسان جورج، وأحسّ بالاشمئزاز من سوء هذا الدين، لكنّه تكلّف ابتسامة ودّع بها كابور، وأخرج مبلغًا صغيرًا أعطاه إياه، ونهض لمقابلة كريم الله، لئلا يتأخر عن موعده معه.

في طريقه، استعاد كلام مايكل له، عندما أخبره عن سوء الأديان الأرضية، وأنّه لو جلس مع جيوتسنا أطول لكره الهند بأسرها، وما كان ليعود إليها مرة أخرى. فعلا كم هذه الأديان مناقضة للعقل والفطرة، ولكن هل هذا سوء الأديان الأرضية، أم سوء الأديان جميعًا كما قال طبيبه توم: «ستعود وقد زهدت في كلّ الأديان»؟ فهذا مايكل المتدين حاله كحال كاخ، وليس بأحسن منهما مطيع في فوضويته! كان متأكدًا أن الدين الحق لا يمكن أن يكون متناقضًا أبدًا لا مع العقل ولا مع الفطرة ولا مع المنطق، لكن هل هذا الدين موجود أم لا...؟

(٦)

وصل جورج في تمام التاسعة إلى مكتب سكرتير مطيع، فطلب منه مقابلة كريم الله، فأخبره بأنّه ينتظره في مكتب الشيخ، وعندما دخل وجد الأخوين مطيع وكريم الله يتحدثان، فقاما إليه ورحبا به. نظر إلى وجه كريم الله فانقبضت نفسه ولم يرتح إليه كثيرًا، ولكنّه لم يعرف لماذا!

- تفضل إلى مكتبي، أنا جاهز لصياغة الاتفاقية.

فقاطعهما مطيع:

- بعد انتهائكما، أود أن أراك يا جورج قبل انصرافك.
- وأنا أيضًا حريص على أن أودعك قبل انصرافي.

مضى جورج بصحبة كريم إلى مكتبه، وكان مكتبًا فسيحًا وبسيطًا أيضًا.

- قال لك أخي إننا موافقون على أي اتفاقية تُكسِب الطرفين.
- نعم.. أنت تشبه شخصًا...!
- أشبه أسامة بن لادن! ههههه، لست أول شخص يقول لي ذلك.
- أرجو ألا تكون مثله.
- أنا مثله مسلم، وأختلف عنه بأني هندي وهو عربي.
- أعني لست مثله سفاحًا إرهابيًّا.
- دع عنك هذا الموضوع؛ فهو إرهابي لأنه لا يعجبكم ولا يوافقكم.
- كيف؟ أوليس هو وأتباعه من يفجرون القطارات والعمائر والمنشآت عندنا؟!
- قتل بعض الرؤساء منكم أضعاف ما قتل بن لادن ولا تعدونهم إرهابيين، بل قتلت الدول الغربية أضعافه في الدول التي احتلتها ولا نراها إرهابية، ثم ابتسم وقال: وهو لما كان يقاتل عدوكم روسيا كان بطلًا ولم يكن إرهابيا.. دعنا ندخل في عملنا لو سمحت.

شعر جورج بالفجوة تزداد بينه وبين كريم الله، فعزم ألا يفتح معه حوارًا خارجيًّا، فقط سينهي متطلبات العمل، وفي أسرع وقت ممكن، وحدّث نفسه لعلّ توم صادقًا، فهؤلاء المسلمون يدافعون عن أكبر إرهابي في التاريخ!

- جيد، ليس هذا موضوعنا.
- هل لديك مسودة مقترحة للاتفاق، أو أعطيك مسودة من عندنا؟
- لدي مسودة، ولكن أعطني مسودتك لأقرأها.
- تفضل.
- شكرًا.. أعطني دقائق لأقرأها.

بدأ جورج في قراءة المسودة، فلاحظ أن البنود بسيطة يسيرة، ضابطة إلى حد ما، وأفضل مما كتبه في مسودته وتعب فيه، لكنها تعطي حرية كبيرة لشركتهم؛ فالتفت لكريم الله الذي كان مشغولًا بقراءة كتاب.

- أجدها مناسبة ورائعة جدًّا، فقط لي ملاحظة يسيرة.
- تفضل ما هي؟
- ألا ترى أن فيها حرية كبيرة لشركتكم، وتأخر في الدفعات المالية علينا!
- هي إذن ملاحظتان: الحرية؛ حتى أستطيع أن أتحرك بشكل أكبر في التوزيع، وأيضًا لأننا للأسف لسنا منظمين بشكل كبير، وتأخر الدفعات المالية؛ لأننا لا نريد أن نكذب في اتفاقنا معكم.
- لا تريد أن تكذب، كيف؟
- بأن أعدكم وأخلف الوعد، لو لم أكن حرًّا، فسأضطر إلى الاعتذارات المتكررة بأسباب واهية كاذبة وهو ما لا أريده، لا أنا ولا أنتم، ثم هذه الشروط تجعل مبيعاتكم أكبر؛ وبالتالي تكسبون أكثر ولكم في العقد ضمانة بنكية كاملة بالسداد.
- هل من الممكن أن نقدم الدفعات الدورية ثلاثة أشهر، اتفقنا؟
- اتفقنا، فأنا أريد أن أكون سمحًا معك، حتى لا يأتينا كاخ المرة القادمة.
- لماذا لا تريد كاخ؟
- أعتذر عن الجواب حتى لا أزعجك.

– لن تزعجني أبدًا، قل لماذا؟

– لا يفكر إلا في الربح المادي، وبطريقة فجة تخسرنا وتخسره، أعتقد أن المبادئ تكسب جميع الأطراف، كما أنه يذكر كثير من التلميحات الجنسية التي لا يمكن أن نقبلها، عذرًا فنحن الشرقيين أكثر محافظة.

– لا بأس أتفق معك في كثير مما تقول، اتفقنا وأنتظر تصديق العقد من سفارة بريطانيا، ولما أعود سأصادقه من سفارة الهند هناك.

– أشكرك، وأعتذر عما قلته عن مديرك.

– لا عليك، أود أن أسلِّم على مطيع الرحمن قبل سفري.

– تفضل، هيا بنا.

دخل جورج وكريم الله على مطيع الرحمن، فرحب بجورج ترحيبا خاصا، ثم سأله:

– انتهيتما من الاتفاق؟

– نعم.

– وهل كان سهلًا وبسيطًا ويسيرًا كما قلت لك؟

– بسيطًا جدًّا.

– كل شيء بسيط ناجح، وكل تعقيد هو خلاف للعقل والفطرة والدين.. ثم أردف: بما أنكما انتهيتما، فماذا تريد يا جورج أن ترى من الهند لنوصلك له؟ فالسياحة في الهند بلاد العجائب جميلة.

– شكرًا.. أود أن أرجع اليوم مبكرًا للفندق؛ فلدي أعمال على الإنترنت أود أن أنجزها.

– كما تريد، ثم فتح الدرج وأخرج علبتين فاخرتين من دهن العود، وقال: وهذه هدية مني لك، ثم وضعها في كيس فاخر، وقال له: السائق ينتظرك لتوصيلك للفندق.

– هذا كرم شرقي نادر، أشكرك غاية الشكر، ثم أخذ الكيس وودعهما.

(٧)

لقي جورج السائق بانتظاره، وما إن رآه قادمًا حتّى توجه إليه، وقاده إلى السيارة، وفتح له الباب:

– تفضل سيدي.

– شكرًا جزيلًا، ما اسمك؟

– ستيفن.

– أوه، اسم غربي!

– أنا مسيحي، ولذلك اسمي يشبه الأسماء الغربيّة.

– منذ متى والمسيحيّة في الهند؟

– منذ سنين.

– وهل للاستعمار والقوافل التنصيريّة دور في ذلك؟

– بلا شك، وإلا كان اجتاح المسلمون الهند.

– المسلمون! تقصد أنهم سيجتاحون الهند بإرهابهم؟

– لا، أنت لا تدرك تهافت الأديان الأرضيّة، هي أديان تافهة ومضحكة، لو لم تكن هناك حملات تنصيريّة، لتحول الناس إلى الإسلام تلقائيًّا.

– لقد تعرّفت على بعضها، لكن الأديان السماوية لا تختلف عنها!

– عجيب! كيف تكون مسيحيًّا وتقول ذلك؟ هذه لهجة الملاحدة!

– أكره الإلحاد وأرى تناقضه، لكن الأديان السماوية لا تبتعد كثيرًا عن الأديان الأرضية.

– أما نحن المسيحيين فنريد خلاص البشرية من شقائها، ونؤكد على أهمية النقاء والصفاء والأخلاق، ولا أقبل اتهام المسيحية بحال من الأحوال، ولا أقبل ذلك من مطيع الرحمن المسلم مع أني سائقه الخاص، رغم أنه لم يفعل ذلك أبدًا، فكيف إذا جاء من مسيحي؟! لكن ربما لأنك بروتستانتي! لكني أيضًا لا أقبل!

– لم أقصد اتهام المسيحية! وكيف أتهمها وأنا منها! وما أعنيه أنها في الممارسات تشبه الديانات الأرضية، كما أنها في التخبطات تشبه بعض تخبطات الديانات الأرضية.

– لم أفهم!

– هل ممكن أن نغير الموضوع، ونستغل ما بقي من الطريق بتعريفي بشيء من تاريخ الهند؟

– لم يبق الكثير على الوصول، وعمومًا كانت باكستان وبنغلادش والهند دولة واحدة، ثم انفصلت باكستان والهند.

– لماذا انفصلتا؟

– للظلم الذي يرى المسلمون أنهم وقعوا فيه من الهندوس، ثم هم استدرجوا ليخرجوا من الهند وإلا كانت الهند دولة إسلامية.

– أنت تدافع كثيرًا عن المسلمين مع أنك لست منهم!.. هل لأنك تعمل عندهم أو أنك تخاف منهم؟

– ههههه، ربما!

ضعف..!

٥ ضعف..!

ضعف..!

(١)

كانت الساعة الواحدة ظهرًا عندما وصل جورج إلى الفندق، فقرّر أن يصعد إلى غرفته ليأخذ حمّامًا سريعًا، ويغيّر ملابسه، ثمّ ينزل مرة أخرى إلى مطعم الفندق لتناول الغداء. ولـمّا همّ بالنزول، رنّ هاتفه، فإذا كاترينا تتصّل عليه..

- آلو.. مرحبا حبيبتي.

- كيف هي أخبارك يا جورج، وكيف هي بلاد العجائب؟

- رائعة، وأنا سعيد جدًّا هنا، وقد أنجزت عملي، وبقي لي يومين سأتفرغ فيهما للتعرّف أكثر على هذه المدينة الجميلة.

- رائع، وماذا عن تساؤلات الطبيب؟

- ههههه، أحيانًا أشعر بأن توم على حق، عندما قال إذا اقتربت من الأديان ستزهد فيها جميعًا، وإن كنت أظن الأمور بدأت تتضح لي إلى حد ما.

- الكاثوليكية ستسعدك كلما اقتربت منها أكثر، وروح القدس ستسعدك.

- دعي عنك هذا، فمايكل المسيحي المتدين هو الذي يحضر لي فتيات المتعة، كلهم سواء مايكل وكاخ وتوم، لم أعد أصدق أحدًا منهم.

- وجود نموذج سيء لا يعني خطأ الفكرة الأصلية، بل ربما يكون إثبات أن الأصل عدم السوء، فلئن وجد نموذج سيء فهناك العشرات من النماذج الجيدة!

- صدقتِ، المهم ما أخبار أبنائنا مايكل وسالي؟

- هم بخير حال، كلنا مشتاقون أن نراك قريبًا.

- وأنا أيضًا مشتاق لكم، وأن أراكم قريبًا.

في مطعم الفندق، كان الغداء بوفيهًا مفتوحًا فيه كلّ ما لذّ وطاب، وكان المطعم مزدحما بالسيّاح من مختلف بلاد العالم. جلس جورج على طاولة صغيرة جانبيّة يتناول غداءه لوحده، فوقعت عينيه على فتاة هنديّة فاتنة الجمال، تبدو في بداية العشرينات، كانت ذات شعر أسود غزير، وعينان مكحولتان، وثغر مشرق مبتسم. كانت تنظر إلى السياح الذين يلاحقونها بأعينهم، تارة تبادلهم الابتسامة، وتارة تتمنّع بشيء من الفتنة والدلال.

لا يدري لماذا شعر بأنه معجب بجمالها ودلالها، كرر النظر إليها، ثم قرر أن يتشاغل عنها بأكله وتفكيره في الأعمال التي يجب أن ينجزها على الإنترنت، ولم ينتبه إلا وتلك الشابة الفاتنة تباغته بالجلوس على طاولته..

– اسمي أورميلا، أنا من دلهي، ومعنى اسمي: الفاتنة أو الساحرة.. أشفقت عليك لما رأيتك تأكلني بنظراتك وأنت جالس لوحدك، فهل تريد أن أخفف عنك وحدتك؟

رفع جورج بصره إليها، كانت شبه عارية، بطنها مكشوف بالكامل، وترتدي تنورة قصيرة جدًّا لا تكاد تغطّي شيئًا، وجهها كأنه فلقة من القمر، وشعرها حرير مموج، وابتسامتها مشرقة، ولا يدري لماذا سعد جدًّا لما جاءته وجلست على طاولته رغم تمنعها عن غيره..

– اسمي جورج، قادم من بريطانيا، وأشكرك على مشاعرك، ثم سكت يغالب نفسه ويريد أن يحسم صراعه؛ فهو يتمنى أن يجلس معها لكن واضح أن الجلسة معها ستستدعي أمورًا أخرى.. آسف لكني مشغول جدًّا، وهذه أول مرة منذ وصولي الهند أجلس فيها وحدي.

– جميل تواضعك ولبسك وملامحك، هل تود أن نستمتع سويًّا؟

– وجميل لطفك، وأنا استمتع بالحديث معك الآن لكني مشغول بعد قليل.

– عذرًا .. تبدو ساذجًا على سجيتك، أنا لدي شهادة خلو من الإيدز.

مدت يدها ووضعتها على يده وضغطت عليها، فشعر كأنما كهرباء سرت إلى قلبه، لكنه غالب قلبه ونفسه وسحب يده بهدوء.

– فهمت.. شكرًا شكرًا، أنا متزوج.

– وهل زوجتك معك هنا في الهند؟!

– لا، هي في بريطانيا.

– أكثر من يأتي من أوربا وأمريكا بمختلف أديانهم متزوجون، ولكنهم يحبون الحياة والمتعة هنا... فالسحر الهندي مختلف.

– أشكرك.. أنت ساحرة فعلًا، ولكني أشكرك.

– أنت غريب ومعقد، ولأول مرة يمر علي مثلك في حياتي، هذه أول مرة أعرض نفسي على رجل ويردني..

نهضت أورميلا مباشرة، فتمتم جورج في نفسه، عجيب.. معقد من لا يخون زوجته ومن يحترم مبادئه، ههه ربّما.. هذه الحياة ترينا كل يوم عجائبًا لا نستطيع تفسيرها، أو ربما نفسرها بطريقتنا، لو كان كاخ مكاني لسعد بأفضل ليلة مع أجمل امرأة!!

(٢)

عندما أنهى جورج غدائه نظر في ساعته، فإذا هي الرابعة والنصف بتوقيت الهند، فحسبها بتوقيت لندن فوجدها الحادية عشر صباحًا. تذكر كاترينا اتصلت به قبل أربع ساعات، أي الساعة السابعة صباحًا، وليس عادة كاترينا الاستيقاظ مبكرًا هكذا!

صعد لغرفته، وتناول حاسبه لإنهاء مجموعة من أعماله، وتفقد بريده الإلكتروني، وصفحته على الفيس بوك.. أرسل لكاخ يبشره بأنه أتم العقود مع الشركتين، ثم استعرض الرسائل الواردة، ثم دخل صفحته على الفيس بوك فهو لم يرها منذ ثلاثة أيام، فوجد عددًا كبيرًا من المقالات والصور والروابط الجديدة من أصدقائه، ووجد أن الطبيب توم قد أرسل له طلب صداقة، فأضافه ثم دخل صفحته، فوجده قد أضاف مجموعة صور جديدة، ففتحها وكانت المفاجأة أنها صوره هو وكاترينا معًا! ووجد لهما صورًا وهما يأكلان ويضحكان، وقد كتب تحتها مع كاترينا، ركز على تاريخ الإضافة فوجد أنها أضيفت الساعة السادسة بتوقيت لندن، كان التوقيت مكتوبًا على بعض الصور الساعة ٥:٢٥، ونفس تاريخ اليوم ١٥/ ٧..

تملّكته الحيرة، اتصال كاترينا أول الصباح الباكر، وقد كانت مع توم حتى الساعة الخامسة والنصف، هذا يعني أنها لم تنم بعد! غلى الدم في عروقه، فرفع هاتفه واتصل على كاترينا، فوجد هاتفها مغلقًا، فاتصل على توم، فرد عليه بصوت متعب:

- مرحبًا جورج، أخبرتني كاترينا بأنك بدأت تزهد في كل الأديان!
- ومتى أخبرتك؟!!
- لما اتصلت عليك كنا سويًا، ثم أوصلتها إلى المنزل، أهنئك بها فهي رائعة.
- وماذا كنتما تفعلان؟
- كنا في حفل الكنيسة، ألم أقل لك أني أجري أبحاثي على المتدينين!

أنهى جورج المكالمة، وارتمى على فراشه مندهشًا من هذه الوقاحة.. ولم يعِ بنفسه إلا وهو في الاستقبال يبحث عن الفتاة أورميلا، فلم يجدها، سأل موظف الاستقبال عنها، فابتسم وأخبره أنّ الطلب عليها كبير اليوم، وأنها صعدت قبل قليل إلى غرفة سائح صيني.

سأله جورج باندفاع وسذاجة:

- وماذا يفعلان؟!
- ههههه، وما أدراني؟

شعر جورج بالحرج من سؤاله، وأدرك أنه متوتّرٌ جدًّا، لا يدري ماذا يفعل.. صعد إلى غرفته.. كلّ ما كان يريده في تلك اللحظة هو أن ينتقم من كاترينا الخائنة بأي طريقة، فقرر أن يتصل على مايكل ليحضر له الفتاتين الفاتنتين اللتان رآهما في المطعم، وخاطب نفسه: دع مبادئك تنفعك لم لا تكن مثل كاخ أو توم، ماذا قدّمت لك هذه المبادئ.. لا شيء.. لا شيء..

– ألو.. مرحبا مايكل.

– مرحبًا جورج، أخفتني عليك؛ فليس عادتك الاتصال هذا الوقت.

انتبه جورج ونظر في الساعة فإذا هي الساعة السابعة والنصف..

– عذرًا لم أنتبه للوقت فقط أحببت أن أطمأن عليك، لعلي أتصل عليك غدًا، شكرًا مايكل.

– شكرًا لتواصلك، وسأتصل عليك غدًا.

ظلّ جورج يدور في غرفته متذّمرًا وغاضبًا، تنفلت عنه بعض الشتائم واللعنات، لا يعرف ماذا يصنع، فالشك والحيرة في زوجته أضعف شخصيته.. كان يود أن ينتقم منها مع أورميلا لكنه لم يجدها، حتمًا قد فاز بها شخص آخر أقل تعصبًا منه وأكثر مرونة مع تلك المبادئ التي تجعلنا نتراجع.. فقط ليأتي آخرون ويظفرون بالمتعة والجمال.

تذكر في هذه اللحظة عندما سهرت كاترينا مع توم سابقًا، فدخل على الإنترنت، وبحث في صفحة توم عن صور قديمة، فوجد أنه وضع صور تلك السهرة أيضًا على صفحته، وأن الصور تقريبًا تشبه صور الحفلة الأخيرة؛ مما يعطي دلالة أنها في نفس المكان، الذي ربما يكون الكنيسة، ثم قال لنفسه: أي كنيسة هذه التي تسمح بمثل هذا الهراء!!

ثم تذكر كيف تعامل مع السهرة السابقة، وكيف كان براد سيجعله مدمنًا، وتذكر كلمات آدم: «لو حسمت تساؤلاتك الرئيسية فستتعامل مع مشاكلك بشكل أفضل، وستكون نفسك أقوى في تعاملها مع الضغوط». وقوله: «لا تجعل شكك فيها هو دليل إدانتها، ربما كانت مع توم لدعوته للمسيحية!» وقوله: «ركز على قضيتك الكلية لوصول روحك وحياتك إلى إجابة لهذه الأسئلة ببساطة وعمق وعند ذلك ستجد السعادة، وعند ذلك ستحل كل مشاكلك» وقوله: «حاول أن تتعامل مع كاترينا وتوم بشكل طبيعي عادي، فأنت مسافر للهند قريبا وعند عودتك لكل حدث حديث، وتأكد من أنك تأخذ الأمور ببساطة وبلا تعقيد وبسعادة وبلا اكتئاب» فتساءل في نفسه: ترى، هل آدم متفق مع كاترينا، أم هو يدافع عنها لأنها متدينة مثله؟ سأتّصل عليه لأنظر ماذا يخفي عنّي هذا الرجل!!

– آلو مرحبًا من معي؟

– أنا جورج من الهند

– مرحبًا بالغربي من الشرق، كيف أخباركم؟
– بأسوأ حال، كاترينا سهرت ليلة كاملة حتى صباح اليوم مع توم.
– وكيف تأكدت هكذا؟
– من توم نفسه، وقد وضع الصور على موقعه يمكنك الدخول ورؤيتها.
– وما الجديد؟ أنت تأكدت أنها سهرت معه المرة السابقة؟
– نعم ولكن...
– المهم ماذا ستفعل؟ لا تضعف أمام الشك والحيرة، ركز على أهدافك من الرحلة سواءً أهدافك في العمل أم أهدافك في إجابة التساؤلات.
– أود أن أنتقم من كاترينا بأي شكل.
– قلت لك سابقًا لا تجعل أحدًا يتلاعب بك وأنت في فترة ضعفك وحيرتك، وأكرر عليك فنحن في فترات ضعفنا نضعف عن التمسك بمبادئنا، وكلما تمسكنا بمبادئنا أكثر ازددنا قوة.
– سأستمتع بفتاة هندية أو أكثر، وسأرسل لها الصور لأحرق قلبها كما حرقت قلبي.
– أنت بهذا تحرق نفسك، الانتقام بهذا الشكل تصرف الضعفاء، وستضر نفسك ومبادئك أكثر مما تضر كاترينا، افترض ـ وربما لا يكون كذلك ـ أنها خانتك مع توم من أكبر متضرر أنت أم هي؟
– أنا.
– بل هي التي أحرقت مبادئها ودينها وسمعتها ونفسها، وأنت لا يضرك شيء، مع أني لا زلت أعتقد أنها ربما لا تكون كما تتوقع.
– لماذا تدافع عنها؟ ألأنها متدينة مثلك؟!
– لا أظنها متدينة إن كانت تخونك كما تقول، حتى ولو بدت كذلك، وإن كانت لم تخنك فهذا شيء آخر، ثم لماذا أدافع عنها وأنا لا أعرفها أبدًا؟ ولم أعرف أنها متدينة إلا منك الآن، فأنت كنت تقول لي أنها تشرب الخمر وتسهر فقط، ولم تقل لي أنها متدينة، ثم ما مصلحتي في ذلك؟ ثم أنت الذي سألتني وليس أنا الذي اتصلت عليك!
– عذرًا آدم فلم أرد أن أغضبك، ولكني متعب جدًّا، قررت أن أنتقم من كاترينا مع أورميلا.
– أعرف أنك لم تقصد إهانتي، لكن ينبغي ألا تحيلنا الضغوط عن مبادئنا، ومن هي أورميلا؟
– فتاة فاتنة عرضت نفسها علي اليوم فرفضت، وكم أتمنى أن أجدها الآن.
– ولماذا رفضت؟
– لأني لم أرد أن أهين مبادئي لنزوة أو رغبة أو شهوة.. أو لأني غبي أبله!

– والآن أنت مستعد أن تهين مبادئك؟!
– ماذا أفعل؟
– عُد لمبادئك، وابحث عن إجابة لأسئلتك الكبرى، وسِرْ في طريق السعادة، وستصل وتتجاوز محنتك.
– أنا عائد إلى لندن بعد يومين ويجب أن أقابلك.
– أنتظرك.

أغلق جورج السماعة وهو لا يعرف ماذا يصنع، فتح حاسبه، وخطر له أن يفتح صفحة آدم على الفيس بوك، وجدها صفحة تقليدية جدًّا، مقالاتها طويلة نسبيًا، وهو في حالة نفسية لا تسمح له بقراءة مثل هذه المقالات، ثم لفت نظره مقال بعنوان: (دروس من صديقي الباحث عن السعادة) كتبه آدم قبل ٤ أيام..

دروس من صديقي الباحث عن السعادة:

تعرفت قريبًا على شخص ذي مبادئ يبحث عن السعادة بتلهف، أعتقد أنه صادق في بحثه، لكن الضغوط عليه كبيرة، وقد تعلمت منه ومن قصته فأحببت أن أشاركم بالفوائد الآتية:

١. من أراد السعادة فعليه أن يسعى في طريقها؛ فلا يصل إليها بالمال أو المنصب أو الوراثة، ولكي تصل إلى السعادة لا بد من البذل والإصرار في الوصول إليها.

٢. لا يسعد أبدًا ولا يمكن أن يكون سعيدًا من لم يستطع أن يجيب عن الأسئلة الكبرى في حياته (من خلقنا؟ ـ لماذا خلقنا؟ ـ لماذا نعيش؟ ـ إلى أين المصير؟)، ومن لم يستطع أن يحسم هذه الإجابات لن يصل إلى السعادة أبدًا.

٣. يُعقد بعض الناس الطريق إلى السعادة ويصعبونه، ثم يقولون: لم نستطع أن نتجاوز هذه الصعوبات، ولو سهلوا الأمور على أنفسهم ويسروها لوصلوا بيسر وسهولة.

٤. ينسى بعض الناس أهدافهم بالمشاكل الجزئية والأهداف القريبة الصغيرة، وعند ذلك يسقطون في منتصف الطريق ولا يصلون إلى السعادة أبدًا.

٥. لا ينبغي ولا يصح في أثناء الطريق أن نتجاوز مبادئنا، فالمبادئ منارات لا ينبغي تجاوزها، ومن يسعى إلى تجاوزها يحطم نفسه، وتبقى المنارات لا تتغير.

٦. متى ما صدق الباحث مع نفسه، وبذل وأصر وصبر تتيسر له من الأمور ما توضح له الطريق.

ومازالت الدروس كبيرة سأحاول أن أكملها في مقال قادم ربما يكون قريبًا.

تحياتي: آدم

(٣)

فيما كان جورج سارحًا بعد قراءته لمقالة آدم، يتساءل في حيرة: لم كتب آدم عنه ولم يخبره بذلك، حتّى لم يشر إلى اسمه؟ لم يتناقض آدم بين ما كتبه وما قاله لي، كان واضحًا وحاسمًا معي، لكن لا يهتمّ بمشاعري، وبحالتي النفسية! لو أخذت حبة هيروين، أو وجدت أورميلا، سأنسى ما أنا فيه، والنسيان سبيل السعادة.. آه، هل صحيح أن هذه الأساليب هروب إلى الأمام، أم هي حل صحيح يستخدمه العقلاء الذين لا يضيعون الفرص؟ كم أنا في حيرة!

دق هاتف الغرفة، فرفع السماعة، فإذا هو موظف الاستقبال، يخبره بمجيء أورميلا..

- هل تريدها أن تصعد إليك؟

سكت جورج فترة طويلة لا يدري ما يقول..

- لا أدري!
- ماذا؟
- أنا نازل لها الآن.

مضى نازلًا للاستقبال وهو يحدث نفسه: هل نزوله انتقام من كاترينا أو انتقام من نفسه كما يقول آدم؟ هل يطيع كاخ وتوم؟ أو يطيع آدم؟ وبينما هو في أفكاره، إذا بالمصعد يقف في الاستقبال، وما إن فتح الباب، فوجئ بالفتاة أورميلا واقفة أمامه.. رأته فابتسمت ابتسامة كبيرة، أشرق وجهها معها، وبان جمال ملامحها.

- أهلًا أورميلا، ما رأيك أن نجلس هناك في ذاك المقعد؟
- ههههه، لا بأس.

لحظة جلوسهما، بادرته أورميلا بابتسامة..

- كم شعرت بالسعادة عندما أخبرني موظف الاستقبال بسؤالك عني ورغبتك فيّ.
- لماذا؟
- لأني شعرت أنك أهنتني عندما رددتني، وأني لم أكن جميلة ساحرة في نظرك.
- لم أهنكِ وإنما شكرتك، ولم أقل أنك لست جميلة بل أنت فاتنة كاسمك.
- لماذا لا نجلس في غرفتك لنسعد معًا إذن.. ثم غمزت بعينها.
- أريد أن نتحدث أولًا.
- نتحدث في ماذا؟
- هل من الممكن أن أسألك أسئلة بسيطة لكنها تعني لي الكثير؟ وأريدك أن تكوني صادقة جدًّا معي.

- سأكون في غاية الصدق معك، فأنا لا أعرف لماذا أنت تشدني؟
- هل أنت سعيدة في حياتك؟

سادت برهة من الصمت، قطعتها أورميلا وهي تنظر إلى الأرض..

- وعدتك أن أكون صادقة ولن أخلف كلامي، مع أني لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال، إن كانت السعادة بمعنى الضحك والابتسامة واللعب والمال والجمال فأنا سعيدة جدًّا جدًّا.
- أعني في داخلك وفي روحك تشعرين بالسعادة؟ فبعض الناس يضحك وداخله من الحزن والهم الشيء الكبير.
- وعدتك بالصدق، كأنك تصفني بالضبط، فأنا أهرب من داخلي بالمال والضحك واللعب والجنس، عن مواجهة همي وحزني الداخلي.
- وما سبب هذا الهم والحزن رغم كونك تمتلكين الجمال والمال والصحة، بل والمتعة؟
- لا أعلم، ربما تكون الحياة العبثية التي أعيشها، فحياتي لا معنى لها البتة.
- وهل تبحثين عن معنى لحياتك؟ أو أن الموضوع لا يهمك؟
- لا، فأنا أسوء من أن أجد الجواب، فالجواب معناه السعادة، وأنا لا أستحقها.
- لماذا لا تستحقين؟
- لأني مجرد لعبة جميلة يلعب بي السياح، وألعب بهم من أجل متعة عابرة.
- ولماذا فرحت لما عرفتِ أني أنا بالذات أبحث عنك؟
- فقط لأني فشلت في لعبتي معك، وأنا لم أعتد على الخسارة أبدًا.
- أتعرفين لماذا كنت أبحث عنك؟
- لا، ثم ابتسمت وقالت: لا تقل لي أنك بحثت عني لتسألني هذا السؤال؟!
- لا، ليس من أجل هذا، بل شككت في خيانة زوجتي مع رجل آخر، فأردت أن أنتقم منها باستمتاعي بكِ.
- ههههه، ألم أقل لك أني مجرد لعبة، تنتقم من زوجتك بنزوة كيدية معي، أأنا سافلة لهذا الحد؟!
- آسف، بل أنت فاتنة جدًّا، لكن مبادئي كانت تمنعني من أن أفعل شيئًا يخالف خلقي وأدبي.
- والآن ـ حبًّا للانتقام ـ نسيت مبادئك! كم أنا رخيصة في نظر الناس!
- عذرًا لم أقصد إهانتك لكن هذا هو ما تقومين به.
- أنت لم تقل إلا الحقيقة! أحيانًا لا ينتبه الإنسان لنفسه، لقد أتممت قبل أسبوعين سنتين وأنا أقوم بهذا العمل، ولم يردني أي شخص عرضت نفسي عليه، كم كنت أشعر بجمالي في نظراتهم، وأشعر برخصي في ألفاظهم وتصرفاتهم عندما ننتهي وأهمّ بالانصراف.. هذه أول مرة يصرح لي شخص بهذا، فيجعلني أواجه نفسي.

– عذرًا.. أكرر لم أقصد إهانتك أو جرح مشاعرك.
– ربما.. لكن هذه الحقيقة!
– ماذا تعنين؟
– أحيانًا نهرب من أنفسنا ونخاف أن نراها على حقيقتها.
– لم أفهم!
مد جورج يده وأمسك يدها وحاول أن يسحبها إليه، فسحبت يدها برفق ودمعت عيناها وهي تقول:
– العبثية والهروب من الحياة شقاء مهما بدا شجاعة.
– دعي عنك هذا، وأعتذر لكِ عما قلت.
– ههههه، ستتنازل عن مبادئك انتقامًا من زوجتك، ألهذه الدرجة أنا تافهة؟!
– ماذا تريدين؟ هل تعنين أنك ترفضين أن نصعد ونستمتع ونهرب من حزننا وهمنا؟
– نعم، هذه المرة أنا الذي أرفض.
– ما دينك؟
– لا ديني لي، وهل يفعل مثلي شخص متدين دينًا صحيحًا؟
– زوجتي متدينة، وأظن أنها تخونني مع رجل آخر!
– إما أن شكك وظنك في غير محله، أو أنها تكذب وتنافق وهي غير متدينة، أو أنها تدين بدين مشوه خاطئ، هل تتصور أن يكون لي رب يراني ويحاسبني وأجلس أتصيد الرجال.. بالمناسبة أبي وأمي بوذيان، لكني تركت البوذية؛ لتناقضاتها وطبقيتها المقيتة وأصبحت لا دينية.
– كيف تتكلمين هكذا عن دين آباءك؟
– هو ديننا نؤلف فيه ونعدّل كما نريد، لذا إن أردت فلتعتبر اللادينية تعديل حديث في البوذية! بل كثير من التقليعات والموضات الحديثة هي تعديلات على أديان قديمة، فالإبداع حتى لو كان سيئًا ليس له حدود.. سأغادر الفندق وربما لا أعود له مرة أخرى أبدًا.
– لماذا لن تعودي له؟
– لن أعود حتى أجد سببًا يعطي معنى لحياتي ويجعلني أحترم نفسي، أشكرك مرة أخرى.
– ستذهبين إلى أين؟
قامت أورميلا وخرجت ولم تجبه على سؤاله.

(٤)

استيقظ جورج متأخّرًا على اتصال مايكل.. فردّ عليه بصوت ثقيل يشي بالإرهاق..
– هل ما زلت نائمًا؟ ما بالك؟ تنام وتصحو متأخرًا، هل تعلمت من كاخ؟
– دعني من هذا، بقي لدي يوم ونصف في الهند، فبماذا تنصحني؟
– هناك الكثير من الحدائق، الكنائس، دور العبادة، المتاحف، الأسواق.. ماذا تريد؟
– لنقل الكنائس ودور العبادة.
– لا تنس أن تزور كنيسة سانت جيمس، فهي أشهر وأجمل كنيسة.
– وماذا غيرها، هل هناك أماكن عبادة للمسلمين والهندوس وغيرهم؟
– مع إني لا أحبها، لكن جامع دلهي الكبير الذي بني في ست سنوات رائعة معمارية أيضًا.
– شكرًا لك، سأتناول فطوري، وسأزور هذين المعلمين.
– قبل أن تنهي فطورك سأكون عندك في الفندق.
– لا تتعب نفسك، سآخذ تاكسي.
– ههههه، هذه ليست رشوة، لقد انتهينا من توقيع العقود، سأكون عندك بعد نصف ساعة، تحياتي.
ما إن أنهى جورج فطوره وهو يحاول أن ينسى خيانة زوجته له ويتناسى حواره مع أورميلا الذي يذكره بشكه في كاترينا، حتّى جاءه اتصال من مايكل يخبره بأنّه ينتظره في صالة الاستقبال، شرب ما تبقى له من كوب الشاي، وتوجه إلى لقاء مايكل.. ألقى عليه التحيّة ومضيا إلى السيارة متوجهين إلى الكنيسة..
– لقد تذكرتك أمس عندما تحدثت مع عامل المطعم الهندوسي.
– ولماذا ذكَّرك الهندوسي بي؟
– ههههه، تذكرت كلامك عن جيوتسنا البوذية، يومها قلت لي: لو جلست معها أطول لما فكرت بالعودة إلى الهند مجدّدًا!
– ههههه، فعلا.. فعلا، هذه أديان ألَّفها بشر في فترات التخلف الثقافي والعلمي، فكل دين جاء مفصلًا؛ ليحل مشكلة عندهم، أو ليقرر حقوق وممتلكات طبقة معينة منهم، ولكن بنظرة اليوم هي أديان ساقطة رغم النسخ الحديثة منها.. دعك من هذه الأديان وسأعرفك على كنيسة سانت جيمس التي سنصلها بعد قليل، بناها جيمس سكنر في ١٨٣٦م، وهي من أقدم الكنائس في المنطقة، وذات طراز معماري فريد، وساحتها من أجمل الساحات.
– هي أقدم كنيسة في المنطقة؟!
– نعم، فهي قبل قرابة ٢٠٠ إلى ٣٠٠ سنة.

- وقبل ٣٠٠ سنة لم تكن هناك مسيحية في الهند؟!
- المسيحية في الهند وصلت من طريقين: من طريق توما الرسول في إنجيل يوحنا وهو واحد من رسل المسيح الإثنى عشر في القرن الأول الميلادي، والطريق الثاني: هو الحملات الغربية بين عامي ١٥٠٠ إلى ١٩٧٥م، وهي تشكل ثالث الأديان في الهند بعد الهندوسية والإسلام، فالمسيحيين في الهند حوالي ٢٤ مليونًا.
- فقط! عدد قليل النسبة للسكان.
- نعم، يشكل المسيحيون ٢,٣٪ من السكان، وعلى هذه النسبة تقوم مظاهرات غاضبة من التزايد الشديد؛ حيث يشعر الهندوس أن المسيحية تُفرض عليهم من الخارج بالمال.
- وهل من المناسب أن يُفرض دين على الناس بالمال؟
- ههههه، إلى حد ما، حتى نخلص الناس من العقائد الهندوسية البالية.

وصلوا للكنيسة ونزلوا يتأملون في جمال بنائها وصورها وتماثيلها وقببها؛ فقد كانت رائعة حقًا، ولم يكن هناك أي مظاهر للعبادة فيها فكأنها معلم تاريخي للزيارة فقط، وكان مايكل يصف لجورج كل شيء بسعادة بالغة حتى انتهت الزيارة وركبا في السيارة، فقال له:

- ما رأيك؟
- رائعة حقًا.
- ألم أقل لك ذلك؟ أين نذهب الآن؟
- اتفقنا أن نذهب لجامع دلهي الآن.
- حسنا! وإن كنت لا أحب المكان، لكن نزولًا عند رغبتك.
- لماذا لا تحبه؟
- المسلمون وحشيون برابرة.
- كيف؟ هل ألزموا الناس بدخول الإسلام بالقوة؟
- الحقيقة أنهم لم يلزموا أحدًا في الدخول في دينهم البربري.
- إذن أغروهم بالأموال كالمسيحية؟!
- أفهم تلميحاتك، ولا هذه أيضًا.
- وكيف دخل الناس إذن في هذا الدين؟
- آه.. قَبِل الناس هذا الدين أولًا من التجار العرب الذين جاءوا للتجارة في الهند.
- أي قبل الناس الإسلام محبةً فيه، لا إجبارًا لهم في ذلك!
- نعم للأسف، هذا صحيح فيبدو أنه من السهل خداع الناس والتلاعب بهم، فهروبًا من الطبقية

الهندوسية المقيتة كان الناس يدخلون في الإسلام عند أول احتكاك لهم بالتجار العرب، حتى جاءوا غازين بعد ذلك.

– غازين؟!

– نعم، كانت أول الغزوات جاءت مع شخص يسمى محمد بن القاسم الثقفي، في سنة ٧٠٠م تقريبًا.

– أي منذ حوالي ألف وخمسمائة سنة!

– وازدادوا حتى أصبحوا الدين الثاني في الهند.

– كم عددهم؟

– أكثر من ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ شخص، وهو ما يعادل ١٤,٥٪ من السكان.

– نسبة كبيرة! هذا يعني أنه لو لم تنفصل باكستان وبنغلادش ربما كانت الهند غالبيتهم مسلمين؟!

– نعم، لكنهم شعروا بالظلم من الهندوس فقامت ثورات كان نهايتها انفصال باكستان، ثم ابتسم وقال: وهذا أفضل لنا، فقد حكم المسلمون الهند من عام ١٠٠١م، ودام حكمهم ٣٠٠ سنة تقريبًا.

– ألزموا الناس خلالها بالإسلام؟

– لا، لكنهم كانوا ظلمة، بنوا القصور الفارهة الضخمة من كد المساكين الضعفاء.

– ذكر لي ذلك مطيع الرحمن عندما كنا في زيارة تاج محل!

– هذا من إنصاف مطيع، فقد ظلموا الناس في أرزاقهم وإن لم يجبروهم على دينهم، عمومًا كل الممالك التي مرت على الهند كانت ظالمة، ومن باب العدل ربما كان المسلمون من أعدل من حكم الهند ولم يُسقط دولتهم إلا الإنجليز بمسمى شركة الهند الشرقية بوحشية غريبة، فقد ثار الناس الهندوس والمسلمون عليهم.

– هذا يعني أن الهندوس يحبون الحكم الإسلامي؟

– ههههه، للأسف نعم، فلم يكن كل الحكام المسلمون ظالمين، بل الظلم وقع في آخر حكمهم، كما أن الحكام المسلمين ـ على ظلمهم ـ كانوا أعدل من شركة الهند الشرقية البريطانية.. آمل ألا يغضبك ذلك.

– التاريخ يُروى كما هو ولا يصاغ كما نريد.

– استمرت الثورة على بريطانيا حتى أسروا الملك المسلم وقتلوا أولاده، وقدموا رؤوسهم على مائدة الطعام، ثم حاربوا الإسلام وألغوا التعليم الإسلامي ونهبوا ثروات الهند.

– أي وحشية هذه.. أين حقوق الإنسان؟!

– حقوق الإنسان يمكن أن نسمع عنها في المؤتمرات واللقاءات، أما الواقع فشيئًا آخر، المهم اقتربنا من الجامع الذي كان مقر اجتماع الثوار على الإنجليز، وفيه أفتى علماء المسلمين بوجوب الجهاد؛ وعلى هذه الفتوى تحرك الناس بعد ذلك.. يسمى مسجد جهان نما أو مسجد جاما، وقد أخذ بناءه وقتًا طويلا، واكتمل في عام ١٦٥٦م، أمر ببنائه الإمبراطور المغولي شاه جهان، وهو من أكبر مساجد آسيا؛ حيث يتسع لـ ٢٥٠٠٠ مصلي.

– جامع عريق إذن!

– ربما، وهو مبني على الطراز المغولي بثلاث قبب، وها هو أمامك فقد وصلنا.

نزلا المسجد ونظرا في جمال بنائه.. كان يبدو على مايكل عدم الارتياح والمجاملة لجورج، فأسرع جورج وأنهى رؤيته للمسجد بسرعة، احترامًا منه لمشاعر مايكل الذي كان لطيفًا معه.

– هل تريد الذهاب إلى مكان آخر؟

– شكرًا، ربما يكون الوقت متأخر قليلًا.

– لكنك لم تعدل!

– لماذا؟

– رأيت كنيسة ورأيت مسجدا، ولم ترَ معبدًا هندوسيا!

– كنت أود ذلك لكني أتعبتك.

– المعبد قريب من طريقنا، فهل تود رؤيته؟

– بالطبع، إذا كان ذلك لن يؤخرك عن مشاغلك، فأنا سفري غدًا وسأتفرغ فيه لجمع حقائبي ولن أخرج كثيرًا.

– اسم المعبد أكشاردام، ويزوره كل يوم الآلاف من السكان المحليين والسياح الدوليين، وهو أكبر معبد هندوسي في دلهي، بدأ بنائه عام ٢٠٠٠م، وانتهى عام ٢٠٠٥م، فهو معبد حديث لكنه روعة معمارية، نقشت فيه آلهتهم على الجدران.

– نقشت الحيوانات وغيرها؟

– ههههه، نعم، تم نقش آلهتهم؛ مثل الحيوانات والراقصات، بل هناك فيه ٢٠٠٠٠ تمثال، ألم أقل لك الأديان الأرضية مضحكة، يبدو لي أنهم كلما تعجبوا من شيء أو أعجبهم شيء جعلوه إلهًا! أنت في بلاد العجائب على كل حال، فهنا من يعبد الفئران ولها معابدها، ومن يعبد الثعابين والأفاعي ولها معابدها، على كلٍّ قد وصلنا للمعبد الهندوسي.

– يبدو مبنى رائع الجمال.

– صحيح، فقد بُني بالحجر الرملي الوردي ولم يستخدم في بناءه الصلب أو الخرسانات، ومنقوش

بزخرفة عالية، لننزل ولنسرع حتى لا تتأخر عن الفندق.

أعجب جورج جدًّا بالبناء، بيد أنه اشمأز من كثرة التماثيل فيه.. أخذا جولة سريعة في المعبد، وفي طريق عودتهما..

– مبنى رائع، أما التماثيل وكثرتها فهي شيء مشين!

– نعم.. صدقت.

– العجيب أنه حتى الكنيسة فيها تماثيل، أما المسجد فلا تماثيل فيه!

– لكن تماثيل الكنيسة لليسوع وليست لحيوانات.

– هههه، صدقت، على كل حال أشكرك لقد كانت الجولة اليوم رائعة جدًّا.

في غمرة جولته اليوم، نسي جورج موضوع كاترينا وتوم قليلًا، وشعر بشيء من الهدوء والراحة، بدا له أن ما قاله له آدم كان صحيحًا: «ركز على قضيتك الكبرى».. كانت هذه الجولة بالنسبة له خطوة إلى الأمام في طريق السعادة، فقد أصبح واضحًا له أنّ الأديان الأرضيّة لا تصلح للإجابة عن تساؤلاته؛ إذ كيف تجيب عن شيء هي تفتقده أصلًا، حتّى إنها تعدل وتغيّر نفسها حسب الظروف؛ لتصل إلى قدر من الاستقرار الديني الذي تنشده..

خطر له أن يرسل رسالة إلى آدم، ففتح حاسبه، وكتب له:

«صديقي آدم.. أنا شاكر لك نصيحتك وأعتذر عن سوء حديثي.

وأصدقك القول: لقد استفدت من نصيحتك كثيرًا، وقد تجاوزت حب الانتقام الذي كان مسيطرًا عليّ، وركزت على قضيتي الكلية ولم أتشتت بقضايا جزئية، وقد أصررت وبذلت لذلك يومي كله، وأستطيع أن أجيب على سؤالك وسؤال الطبيب بوضوح: الديانات الأرضية لا تجيب على أي سؤال؛ فهي مجرد آراء بشر لم يخلقونا، فكيف يعرفون لماذا خُلقنا؟.. أكرر شكري لك، وأنا قادم غدًا، وسأسعد بلقياك وأشكرك مرة أخرى.

صديقك جورج».

ثم استلقى على فراشه سعيدًا بيومه وبتوجهه لقضاياه الكبرى..

(٥)

استيقظ جورج من فراشه مبكرًا، وأخذ حمّامًا دافئًا ومنعشًا.. نظر في الساعة، بقيت أربع ساعات على الذهاب للمطار، سأنظر ماذا عساني أفعل فيهم، ولكن سأتناول إفطاري أولًا..

وبينما كان جالسًا على طاولة الإفطار، رأى النادل الهندوسي كابور الذي تحدث معه بالأمس، فناداه..

– مرحبًا سيدي.

– مرحبًا بك، لقد أطلت عليك سابقًا، ولكن لدي أسئلة أخرى إن سمحت؟

– لا بأس، تبدو مهتمًا بالهندوسية.. وهذه موضة غربية جديدة.

– وهل الهندوسية موضة؟!

– نعم الهندوسية والبوذية موضة عندكم في أوربا وأمريكا، وهم عادة يأتون إليها فرارًا من المادية البغيضة التي حولت الناس إلى آلات فيريدون شيئًا من الروحانية والأخلاق ولا يعرفون عنها أكثر من ذلك.

– جيد وواضح، لكني أريد أن أسألك سؤالًا؛ وهو هل أنت والهندوسيين بصفة عامة سعداء؟

– ربما كان البراهمة الذي يستغلون الناس سعداء، وإن كنت لا أظن ذلك، أما أنا فمن الشوادر أي الخدم، هذا من جهة الطبقات، أما من جهة العقائد؛ فنحن نهرب من عقائدنا وكثرة آلهتنا بعمليات روحية أخلاقية تتجرد من الدنيا ومن الإله أيضًا، ألم تسمع عن غاندي؟

– بلى، شخصية رائعة.

– ومتمردة أرادت أن تتمرد على الهندوسية؛ فقتله المتعصبون منهم.

– ولماذا يتمرد على دينه؟

– لأنه لا يمكن أن نعيش أسوياء بكامل عقيدتنا، عذرًا ربما تكون ـ حسب الموضة ـ معجبًا بالهندوسية وأنا أفسد عليك ذلك.

– ولماذا لم تغير دينك؟

– أنا ولدت لوالدين هندوسيين.. ثم ابتسم وقال: ولا أريد أن أتمرد حتى لا أكون غاندي آخر.

– هل تقبل مني هذا المبلغ هدية؛ فقد أخذت من وقتك الكثير؟

– شكرًا لك.

صعد غرفته وبدء بتجميع وتجهيز حقائبه، وبينما هو كذلك إذ دق هاتفه، رد عليه فإذا الطرف الآخر كريم الله..

– مرحبًا جورج، أنا كريم الله.

– مرحبًا كريم الله.
– جئت بالأمس لأسلم عليك ولم أجدك، فوضعت في الاستقبال العقود مختومة من السفارة البريطانية في الهند كما اتفقنا، متى سفرك؟
– شكرًا جزيلًا كدت أنساها، سأطلبها منه الآن، سفري بعد ساعتين..
– هل تود أن أوصلك إلى المطار؟
– شكرًا، فقد اتفقت مع الفندق أن يأتي لي بسيارة.
– العفو، أنتظر صورة من العقد مختومة من السفارة الهندية في لندن، أستودعكم الله.
وضع جورج السماعة، واتصل مباشرة على الاستقبال وطلب أن يوصلوا الأوراق إلى غرفته..
وضع السماعة وفكر: لماذا هو لا يرتاح أبدًا لكريم الله رغم أنه لم يجد منه شيئًا سيئًا، هل بسبب شبهه من بن لادن؟ أم بسبب دقته وبراعته في التفاوض؟ أو بسبب حديثه عن مديره كاخ؟ أم هو لسبب آخر لم يتبينه بعد؟ شعور غريب.. ربما لم أستطع نسيان تفجيرات القطارات في لندن، أو ربما هو من تأثير وسائل الإعلام؟ المهم أني لا أرتاح له ولا أدري لماذا..
قطع أفكاره وصول الأوراق من الاستقبال.. قلبها ونظر فيها؛ فإذا هي بالضبط كما يريد، ولم يبق إلا تختيمه من السفارة الهندية في لندن، نظر في ساعته فإذا الوقت قد حان ليذهب إلى المطار.
اتصل على الاستقبال وطلب منه البدء في إجراءات الخروج، وأن يبكروا بالسيارة نصف ساعة إن أمكن حتى لا تتم أي مفاجآت أو زحمة في الطريق..
كان يتأمل شوارع الهند من نافذة السيارة وهو طريقه إلى المطار، كان الطريق مليئًا بالتماثيل، فكان يحدّث نفسه: لا يمكن أن أعبد أو أبحث عن إجابة لتساؤلاتي من أحجار أو بشر.. شكرًا للهند أن دلتني على أول طريقي للسعادة، كانت رحلة ممتعة رغم كل ما مررت به..

موعد مع الإرهاب..

٦ موعد مع الإرهاب..

موعد مع الإرهاب..

(١)

عاد جورج من الهند، من رحلة كانت ممتعة كثيرًا، ولكنّها صاخبة ومليئة بالمعلومات والحوارات والأسئلة، لم تكن أوّل رحلة له في مهمّة عمل، ومع ذلك فهي أول رحلة تكلّل بنجاح باهر، أول رحلة يعقد فيها صفقاته بهذه القوة والسرعة.. فعلا الهند بلاد العجائب. كان يتذكر تفاصيل رحلته في الطائرة، وقد شعر بحبّه للهند وأهلها، رغم أنّه كره كثيرًا أديانها وخرافاتها، فتساءل في نفسه: هل هذه المحبّة لأنها أجابت عن شيء من تساؤلاته؟ أم ترجع إلى حبّه لكاترينا ذات الأصل الهندي؟ لكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك، ففي قلبه من كاترينا جرح لم يندمل بعد.

وصلت الطائرة إلى لندن، فجمع حقائبه، ومضى إلى صالة الخروج فتفاجأ بمجيء كاترينا مع أبنائها لاستقباله في المطار، فأحس بسعادة غامرة، ظلّ بسببها يضحك ويمازح عائلته طوال الطريق..

- لم تخبرنا.. كيف هي الهند يا حبيبي؟
- رائعة جدًّا، البلد وأهلها.
- هذا من جمال عينيك.
- بحق، كانت من أجمل الرحلات في حياتي.
- رائع، وما الذي أحببته في هذه الرحلة؟
- كل شيء في الرحلة كان رائعًا، والغريب أنّني لا أعرف تحديدًا ما الذي أحببته في هذه الرحلة، ولم.. ربما لروعة أهلها وطيبتهم، أو ربما من أجلك أنت يا حبيبتي.. أو لأني أنهيت صفقات الشركة بسرعة وكفاءة، لا أدري.. المهم أني سعدت جدًّا.

التفت إلى ابنه مايكل..

- أتدري؟ تذكرني بمايكل الهندي فيك شبه منه في الاسم والشكل.. ثم ابتسم وقال: إلا إنك يا حبيبي أفضل وأجمل منه بكثير.. أما أنت يا سالي فيذكرني جمالك بجمال أورميلا.

كان الوقت متأخرًا عندما وصلوا إلى البيت، ذهب الطفلان إلى غرفتيهما ليناما، بعد أن وعدهما أبوهما بأنّه سيحكي لهما تفاصيل سفره غدًا.. ومضى جورج إلى غرفته ليجد كاترينا تنتظره وقد

تزيّنت بأجمل لباس..

– أورميلا التي قلت أنها تشبه سالي، تعني الفاتنة أو الساحرة.

– نعم.. صحيح.

– وكيف عرفت؟! هل استمعت لنصيحة توم وكاخ؟

– أنت من يجب أن تخبرينني أولًا.. متى التقيت بتوم هذا؟!

– لم ألتقِ به.. بل قابلته في حفل الكنيسة قبل يومين، لماذا تتهرب من سؤالي، من هي أورميلا؟

– أورميلا فتاة قابلتها في الفندق صدفة، كانت جميلة جدًّا، أخبرتني أن معنى اسمها الفاتنة.. لكن أخبريني سهرتي مع توم إلى متى؟

– سهرنا حتى ساعة متأخرة، لكن هل تتوقع أن أصدق أن مقابلتك كانت صدفة وعابرة، ومع ذلك لم تنسها، وعرفتك باسمها؟

– نعم كانت مقابلة عابرة، لكن هل تتوقعين أن أصدق أن سهرة الكنيسة كانت حتى السابعة صباحًا؟

– من أخبرك أننا سهرنا حتى الصباح؟! هل تراقبني وتشك فيّ؟ ألم يكن الأولى أن أراقب أنا علاقتك بالفاتنات؟!

– أود أن أنام أستأذنك...

استلقى جورج على فراشه، وأعطى ظهره لكاترينا.. يبدو أن حوارهما كان على وشك الانفجار، فآثر الهروب إلى النوم.. وفعلت كاترينا مثله، فاستلقت على الفراش وقد أدارت له ظهرها.. ظلّ جورج يحدّث نفسه.. هل كنت قاسيًا؟ هل صحيح أنها كانت في حفل الكنيسة؟ هل أهنت كرامتها؟ ثم أردف: ربما، لكني أدبتها وانتقمت منها ووضعت في نفسها الشك كما وضعته في نفسي، ثم تظاهر بالنوم حتى نام.

استيقظ صباحًا من نومه، وكانت كاترينا قد أعدت له الفطور الذي يحب.. فتناسى غضب البارحة، وابتسم لها..

– تفضل حبيبي.

– شكرًا حبيبتي، لم أعطك حبيبتي هديتك.. لحظة سآتيك بالصليب الذي طلبتيه مني..

– شكرًا حبيبي.. كم هو جميل ورائع، توقعت أن تنسى!

– كيف أنسى طلبات حبيبتي، هذا أهم شيء كنت أريد أن أحضره من الهند.

– روح القدس كانت تحميك وأنت تحمل هذا الصليب معك، بالمناسبة ما أخبار إجابة الأسئلة؟

– كانت رحلة رائعة تعرفت فيها على أديان وأفكار ونحل مختلفة.

– هل زرت كنيسة سانت جيمس؟ رائعة معمارية!
– نعم زرتها.. رائعة حقًا، بالمناسبة كنت أتوقع أن المسيحيين أكثر في الهند، وفوجئت بأن عددهم محدود جدًّا.
– نعم.. صدقت، بكل أسف؛ فالناس لا يغيرون ديانتهم الهندوسية بسهولة إلا ليتحولوا إلى إرهابيين، عمومًا الكنيسة تفكر في تغيير استراتيجيتها لتغيير هذا الوضع.
– إرهابيين!! تقصدين مسلمين؟
– نعم البرابرة المتوحشون.
– رغم أن أحد عقود شركتنا مع مسلمين، ورغم حسن تعاملهم، بل رغم تفاعلهم وصدقهم ومبادئهم، إلا أنني لم أرتح أبدًا لأحدهم واسمه (كريم الله)، ولا أدري سبب ذلك!
– نفسك الصافية النقية المحبة للخير لا يمكن أن تحب النفوس المحبة للقتل والتدمير.
– ربما، لكنهم كانوا أيسر وأسلس من تعاملت معهم في الهند وأكثرهم تمسكًا بمبادئهم.
– لماذا ألم تقابل مسيحيين؟
– ههههه، بلى، قابلت مايكل المتدين، ولا أدري لماذا ارتحت له رغم سوء خلقه!
– متدين دون أخلاق؟!
– نعم.. متدين جدًّا جدًّا، بل متعصب، وهو أيضًا لا أخلاقي، للأسف طلب منه كاخ أن يجهز لي الفتيات الهنديات، وأن يتلاعب بعقود العاملين، وهو يستجيب له.
– آه!! متدين ويحضر الفتيات!
– نعم.. ثم تابع حتى يطمئن كاترينا: والأعجب أنه استغرب رفضي.
– يسرق حقوق الناس ويدعو للزنا! هذا لا يمثل المسيحية حبيبي، يجب أن نفرق بين المسيحية والمسيحيين.
– نعم.. بلا شك هذا صحيح من وجهين، فمن وجه ـ كما قلتي ـ يجب أن نفرق بين الأفكار والأديان وبين أصحابها؛ بحيث لا نحمل الدين أخطاء أهله، لكن من وجه آخر: أليست تصرفات الناس ناشئة من أفكارهم وأديانهم؟ فإذا غلب عليهم شيء دل ذلك على وجود المشكلة في دينهم وفكرهم أصلًا؟!
– نعم، لكن صاحبك مايكل حالة خاصة.
– ربما.. كل أصحاب الأديان يقولون ذلك.
– وماذا عن إجابات أسئلة الطبيب؟
– أظن أن إجابات الأسئلة أصبحت واضحة بالنسبة لي.

- إذن.. انتهينا من المشكلة؟

- انتهينا من إجابة أسئلة الطبيب فقط؛ أي أن الإجابة من الله الذي جاء بدين سماوي، وأظن أننا في الطريق لنصل لإجابة الأسئلة الكبرى؛ ومن ثم ننتهي إلى السعادة.

- استمر وستصل حبيبي.. وكيف تأكدت من إجابة تساؤلات الطبيب، أعني كيف تأكدت من أن الإجابة ستأتي من دين سماوي؟

- لم تكن الإجابة تحتاج إلى كثير تفكير، فقد تعرفت على عدد من الأديان الهندية غير السماوية، وهي أبعد ما تكون عن الصلاحية لأهلها، فضلًا عن الصلاحية للبشرية كلها، أديان تعامل أصحابها بطريقة تتناقض مع الطبيعة البشرية وتتناقض مع العدل والحكمة، بل اكتشفت أننا لدينا في الغرب هذه الأديان مجملة أكثر من حقيقتها بكثير، عمومًا هذا رأيي، وسأرى ماذا سيكون رأي توم عندما ألقاه.

- ومتى موعدك معه؟

- بعد أربعة أيام، ثم أردف لقد تأخرت عن العمل كما أنني أخرتك حبيبتي.

- لقد اعتذرت وأخبرتهم أني سأتأخر اليوم، وكنت أظنك لن تذهب لعملك اليوم.

- لا.. سأذهب ولو لساعات لأسلم بعض المهام... أستأذنك حبيبتي وأراك عندما أعود.

(٢)

ذهب جورج لعمله.. ودخل مباشرة على مديره كاخ الذي ما إن رآه حتّى رحب به ترحيبًا كبيرًا..

- ما هذه النجاحات التي حققتها في هذه الرحلة؟ كم أنت رائع!

- تمت الصفقات كما نشاء، ولكن كيف عرفت؟!

- أرسل لنا مايكل خطاب شكر، وأخبرنا بأنه تم الاتفاق.. مايكل رغم تدينه إلا أنه يحسن العمل ويتجاوب مع الطلبات والمتع الإنسانية.. ثم أردف وهو مبتسم: أما مطيع الرحمن فهو خشبة لا يتجاوب مع شيء البتة، بشرني ماذا صنعت معه؟

- اتفقنا ووقعنا العقود، وهذه هي مختومة من السفارة البريطانية في الهند وبقي تختيمها من السفارة الهندية في لندن.

- لا أصدق عيناي! كيف اتفقت معه؟!

- لقد كان الاتفاق معه أسرع اتفاق في الدنيا، فهو مرن وحيوي ويفكر بطريقة مكسبة للجميع رغم كونه فوضوي، وقد أحال الاتفاق إلى أخيه كريم الله وكان عمليًا ومرتبًا إلا أنه غير مريح.

- لا أصدق ما تقول رغم أن العقود أمامي، أما بالنسبة لي فلا مطيع الرحمن ولا كريم الله يريحاني،

لا أدري كيف يرون الحياة، كأنهم في معركة، ربما كان ذلك بسبب طبيعة معتقدهما فهما مسلمان.. قل.. أخبرني ما أخبار فتياتي؟ ألا تستحي أن تنام مع فتياتي يا جورج؟

– لم أنم مع فتياتك ولا مع غيرهن.

– إذن.. مايكل كان لئيمًا ولم يكن كريمًا معك كما يكون عادة معي؟

– بالعكس كان كريمًا معي جدًّا، لكني أنا الذي رفضت الفتيات.

– لا أصدق أن عاقل يضيع على نفسه الفرص النادرة، كنت أود أن أسافر لأستمتع بالفتيات؛ فهن رائعات لولا اجتماع مجلس الإدارة، لا أعرف متى ستعيش حياتك وتستغل الفرص، ولولا أنك أنهيت العقود جميعها لظننت أنك لم تسافر! فما معنى الذهاب للهند دون جميلات الهند، بصراحة هل لديك أجمل مما يحضره مايكل، فاستغنيت عن فتياتي؟

– نعم، أورميلا فتاة عرضت نفسها علي في الفندق وهي أجمل وبكثير، ههههه، ولكني رفضت.

– لا أعرف، كيف تنظر للحياة ومتعها؟!

– بل ما معنى الحياة؟ وما معنى العيش؟ ولماذا خلقنا؟ إذا كنا سننفق أعمارنا وأوقاتنا في الهروب من أنفسنا لنزواتنا وشهواتنا؟

– ههههه، محاضرة رائعة يمكنك أن تقولها لطبيبك، دعني من هذا، يفترض أن نرتب أمورنا بعد هذه العقود، والشركة ممتنة لك على هذه الإنجازات.

– سأبدأ في الترتيبات وخلال الأيام القريبة سأنتهي منها، وأنا ممتن للشركة؛ فقد كانت رحلة رائعة.

– مع أني لا أفهم ما روعتها بالنسبة لك، لكن أحب أن أخبرك بأنه تنتظرك رحلة أروع إن أردت.

– رحلة أخرى؟!

– نعم إلى البلاد المقدسة.

– أي بلاد مقدسة؟

– رغم أني لا أصدق بقدسيتها إلا أن أصحاب الديانات السماوية الثلاث يعتبرونها مقدسة (القدس) أو (أورشليم) أو (تل أبيب)، أهلي كلهم هناك ويدعونني دائمًا للذهاب لكني أشعر أنهم متدينون أكثر مما يجب! أمي يهودية ولكني غير مقتنع بكل الأديان، وقد وافقت شركة أورشليم الأمنية على عرضنا التقني الذي أرسلناه لها، فإن أردت أن تذهب، وإلا سأذهب أنا، وأرجح أن تذهب أنت فيبدو أنك أقدر مني على إتمام الصفقات.. لديك أسبوع للتفكير.

– جيد سأنظر وأخبرك.

(٣)

عاد جورج إلى بيته بعد نهاية عمله مباشرة.. كان الطريق مزدحمًا جدًّا على غير العادة، أخذ من عمله إلى بيته ساعتين ونصف وهو لا يأخذ في العادة أكثر من خمس وأربعين دقيقة.. وصل بيته متعبًا، فهرعت إليه كاترينا..

- حمدًا لله على سلامتك حبيبي، لقد كنت قلقة عليك.
- لا أعرف ماذا حدث اليوم لي ساعتين ونصف في الطريق!
- لقد أُوقف مترو الأنفاق اليوم بالكامل؟
- لماذا؟
- تفجير إرهابي في المترو، والحمد للرب أنه ليس في المنطقة المركزية وإلا لمات آلاف الأشخاص.
- هل أصيب أحد؟
- قتل رجل وامرأة تزوجا قبل يومين، وأصيب رجلان وامرأة وطفل.
- أي قلب لدى هؤلاء المسلمين الإرهابيين!

أمسك جورج بالريموت؛ ليتابع الأخبار في التلفاز..

- وما أدراكِ أنهم المسلمون؟ دعينا نرى الأخبار في التلفاز.
- لا يوجد أناس بلا قلب غيرهم لينفذوا هذه العملية.

تابع جورج التغطية في التلفاز، كان التفجير قبل أربع ساعات تقريبًا، وكان كل المحللين يتفقون على أنهم الإرهابيون المسلمون، لكن لم يصدر اتهام رسمي حتى الآن، وكانت حالة استنفار عامة في الأمن البريطاني، فالناس كلهم يريدون أن يعودوا إلى منازلهم، والطرق مقفلة تمامًا.

- يبدو أن رأيك صحيحًا، فالذين نفذوا هم الإرهابيون المسلمون، وإن كان لم يصدر حتى الآن بيان رسمي بذلك.
- صدقني لا يوجد قساة بلا قلب إلا هؤلاء الإرهابيين، فهم يقومون بذلك تدينًا.
- يقتلون الناس تدينًا؟!
- نعم.. فلديهم ما يسمونه (الجهاد) يتعبدون به لقتل الناس وتعذيبهم، وانظر للفرق بين هذا الدين العنيف وسماحة وحب المسيحية، فالمسيح يضحي بنفسه من أجل البشرية، وأتباعه كذلك، أما أتباع محمد فهم لا يعرفون إلا القتل.
- عجيب هؤلاء المسلمون، ربما يكون هذا السبب الذي جعلني لا أرتاح لكريم الله.
- الحمد لله أنك خرجت من عندهم سليمًا،لم يقتلوك أو يفجروك.
- ههههه، تخيلي أن يلغمني مطيع الرحمن ثم يفجرني.. حقيقة كان لطيفًا وأعطاني هدية أيضًا، دهن

عود هندي.
- لا تستعملها فقد تكون مسمومة حتى تتأكد من مناسبتها.
- أنا لا أحب دهن العود، وقد أحضرته للنادل آدم، فقد طلب مني دهن عود، ولكن لا بد من التأكد من أنه لا يوجد فيه ما يضر بصاحبي النادل آدم.
- تأكد من سلامتها قبل أن تهديها لصاحبك، فهؤلاء الإرهابيون لا يؤمنون البتة.
- ذكرتيني.. أنا لم أزر آدم منذ عودتي، وكنت قد وعدته بزيارة عندما أعود من الهند.
- هل هو بروتستانتي أم كاثوليكي؟
- تخيلي لا أعرف! لم أسأله ولم يخبرني، سأحاول أن أقابله غدًا ولعلي أسأله.. هل لدينا سهرة اليوم أم سننام مباشرة؟
- أفضل سهرة لأحلى حبيب.

في الصباح، قرر جورج ألا يذهب لعمله، واكتفى بإدارة أعماله وهو في البيت بالهاتف وعبر الإنترنت، فالمترو لم يعمل إلا جزء منه؛ مما يعني أن الازدحام لا يزال مستمرًا. اتصل مرارًا على آدم لكن جواله كان مغلقا، فتح التلفاز ليعرف ما أخبار التفجير والإرهابيين.. كانت الحكومة قد فتحت بقية المترو تقريبًا، واعتقلت مجموعات من المسلمين الهنود والباكستانيين والعرب، بل والبريطانيين الساكنين في لندن، ولا زالت الأدلة تؤكد أن المسلمين خلف التفجير الإرهابي، فأحد الرجال المصابين هندي مسلم وكان مجيئه للمترو مريبًا، كما وجدت بطاقة باكستاني آخر في نفس المكان ولا يزال البحث عنه جاريًا.. كما نبهت الحكومة على جميع المواطنين والمقيمين بالحذر من أي شخص يضع حقيبة في أي مكان عام خاصة إذا كان من المسلمين..

أنهى جورج مشاهدة الأخبار، ولبس ملابسه ليذهب لآدم في المقهى.. لم يجده هناك، سأل عنه، فأخبره نادل آخر بأنه أخذ إجازة لمدة خمسة أيام.
- منذ متى بدأت الإجازة؟ وهل تعرف لماذا أخذها؟
- أخذها بدعوى التفرغ لأبحاثه المطلوبة منه في الجامعة، وقد أخذها منذ ثلاثة أيام.

ذهب جورج لمنزل آدم فطرق عليه فلم يفتح له، فوضع رسالة لآدم على الباب بأنه جاء ولم يجده، ثم انصرف وعاد إلى منزله.. فوجد كاترينا تتابع الأخبار..
- هل من جديد في تفجير المترو؟
- لا جديد، لا يزال البحث عن الباكستاني الإرهابي، إلا أن التخوف أن تكون لندن تنتظر تفجيرا آخر.
- أتمنى أن يجدوه اليوم ليطمئن الناس على أرواحهم، أي قلوب يمتلك هؤلاء؟!

- هل ذهبت للعمل اليوم؟

- لا، فالمترو في الصباح كانت لا تزال أجزاء منه مغلقة، لكني ذهبت لصديقي آدم ولم أجده فهو في إجازة لأبحاثه.

- وهل ستذهب غدًا للعمل؟

- نعم.. بلا شك؛ فلدي بعض الأعمال، ثم سأخرج لموعدي مع الطبيب توم.

- هذه المرة لديك إجابات محددة وواضحة للطبيب؟

- نعم، أشعر بأن القدر ساقنا إلى إجابات محددة في المرة الأولى وهذه الثانية.

- أنت موفق دائمًا؛ فروح القدس معك ويؤيدك.

- أعتقد أني أعرف أسئلته الجديدة.

- تعرفها؟!

- نعم، يبدو أن الخيارات بدأت تضيق علي، ولا أدري أهو من تخطيط توم ليوقعني، أم مجرد مصادفة، أم توفيق من روح القدس كما تقولين؟

- كيف؟

- في البداية كانت الخيارات من أين نأتي بالأجوبة، وكان واضحا جدًّا جدًّا لي أنه لا يمكن أن نأتي بها إلا من الخالق، وأن فكرة الإلحاد فكرة فوضوية هروبية لا توصل لشيء، فهل يمكن أن يأتي خلق النظام من الفوضى، وكيف يعرف غير الخالق لماذا خُلِقنا؟ فالإلحاد يعاكس العقل والفطرة والدين حتى لو تلبس به من يظن نفسه مثقفًا، فكانت التساؤلات التي بعده من هو الخالق؟ وقسمنا أديان وأفكار الناس عن الخالق إلى فئتين، أديان أرضية وأديان سماوية، وكان واضحا جدًّا لي خاصة بعد رحلة الهند أن الأديان الأرضية لم تستطع أن تتوافق مع الطبيعة الإنسانية ومع معتنقيها، فضلًا عن أن تقدم إجابات للبشرية، بل هي من الخرافة إلى درجة لا يمكن التعامل معها، والآن لابد أن يكون السؤال: أي الأديان السماوية يمكن أن يعطينا أجوبة منطقية تتوافق مع الحقائق العلمية والبشرية؟

- ألم أقل لكَ أن المسيحية هي خلاص البشرية!

- وماذا عن اليهودية؟ وماذا عن الإسلام؟

- هل سأراك يا حبيبي مسلمًا لابسًا حزاما ناسفا في مترو الأنفاق؟

- ربما، هههههه، أو سترينني يهوديًا ككاخ لا يهمه إلا المال والجنس.

(٤)

في فترة دوامه، حاول جورج الاتصال بآدم أكثر من مرة، كان جواله مغلقًا، فقلق عليه، كان يودّ مقابلته قبل الذهاب إلى الطبيب.. فبعث رسالة له: «عدت من الهند، وأحضرت لك هدية، أرجو أن أراك، هل من الممكن أن تتصل بي؟» لكنّه لم يتلقّ ردًّا منه..

اقترب موعد الطبيب، فخرج جورج إلى العيادة، كان براد جالسًا على مكتب الاستقبال، فلّما رأى جورج رحّب..

- ما أخبار الهند وفتياتها؟
- بلاد جميلة وعجيبة.. سأدخل على توم فقد حان موعدي.
- تبدو مستعجلًا، أو أنك لا تود التحدث معي.. لا بأس!
- تسمح لي بالدخول لتوم؟
- تفضل.. تفضل، ولكن تذكر أنك ستعود إليّ يومًا.

دخل جورج على توم، فرحب توم بجورج ترحيبًا كبيرًا، وأكثر من ترحيبه على غير العادة، كان واضحًا سعادة توم برؤيته، ثم قال لجورج:

- كم أنا سعيد جدًّا برؤيتك، وكم أنتظر رؤياك وآراءك وأجوبتك.
- تنتظر أجوبتي وآرائي؟!
- ربما تستغرب ما أقول لكن حقيقة.. نعم، فيبدو أن فلسفتك توافقت مع طريقتي العلمية والفلسفية وتوافقت مع بدء أبحاثي في الدين، ولذا أذهب للكنيسة بشكل دوري لبعض الدراسات النفسية الدينية.. ثم ابتسم وأضاف: عمومًا دعني من ذلك، هل زهدت في كل الأديان كما توقعت؟
- نعم بلا شك..
- رائع كما توقعت.
- دعني أكمل ـ لو سمحت ـ نعم بلا شك زهدت في كل الأديان الأرضية.
- ماذا تعني؟
- أعني أنه يجب أن نبحث عن الأسئلة الكبرى من خلال الله الخالق، كما جاء في الأديان السماوية.
- وبأي حق تقدم الأديان السماوية على الأرضية؟
- لم أقدم الأديان السماوية من عندي، بل أصحاب الأديان الأرضية يعرفون أن أديانهم هي من تطويرهم ولا يزالون يطورونها.
- يطورونها؟!

- نعم يطورونها! فهم يعرفون أنها أرضية بشرية، ثم كيف يجيب على أسئلتنا الكبرى أشخاص مثلنا! ربما نحن أفهم وأفضل وأعلم منهم، ثم كيف يمكن أن يفهم البشر لماذا يعيشون ما لم يوجد خالق خلقهم، ولا يمكن أن يخلق الناس أنفسهم، فضلًا عن أن يخلقهم حيوان! ألا ترى أن هذه الأديان الأرضية هي أهم أسباب تولد حركة الإلحاد في العالم.

- تتحدث وكأن الأديان السماوية حق لا لبس فيها!

- حقيقة.. لا أدري، فسؤالك كان في الاختيار بين السماوية والأرضية، والاختيار لم يكن فيه شك البتة.

- أنت الذي وضعت الخيارين وليس أنا.

- وأنت اقتنعت به وعدلت السؤال، عمومًا نحن نسير بطريقة علمية صحيحة رغم عدم محبتي لها، ومن الممكن في أي لحظة أن تزهد ونزهد سويًا في الأديان السماوية، وعند ذلك سنعود للإلحاد.

- لا أظن أنه يمكن أن يتم ذلك، فالإلحاد طريق مظلم مخوف لا يوصل للسعادة، ولذا كثير من الملاحدة انتهت حياتهم بالانتحار.

- ههههه، هل تعني أنني سأنتحر قريبًا؟! ولماذا إذن ينتحر أصحاب الأديان أيضًا؟

- أتوقع أنك تعرف ظلام طريق الإلحاد، ولذا بدأت ببحثك عن الأديان، أما لماذا ينتحر أصحاب الأديان؟ فهو سؤال ليس بالضرورة أني أعرف جوابه.

- ربما، المهم الآن أننا سنبحث في الأديان السماوية، فإن توصلنا إلى أنه لا يمكن أن تجيبنا كلها عن ذلك فيجب أن نوجد حلا، ورغم إلحادي وقناعتي فأنا مقتنع بكثير مما تقول عن الإلحاد، إلا أنه ربما يكون خيارًا لا بد منه، ولا أحب أن ألغي إلغاء نهائيًا خياراتي.

- بقي ثلاثة أديان فقط.

- وهل سنناقش الإسلام الإرهابي أيضًا؟

- لا أدري، لكنك لا تحب أن تلغي الخيارات؟!

- نعم.. نعم صدقت، لكن أتخيل أنك ستختبئ في جبال تورا بورا، كابن لادن سابقًا.

- رغم كرهي الشديد للإرهاب، وتأكدي من أنه لا عقل ولا دين ولا قلب له، لكن الطريقة العلمية العادلة ربما توجب ذلك.

- كسبًا للوقت، التحدي أمامك الآن في المفاضلة بين الأديان الثلاثة، وأقترح أن تبدأ بالدين المتفق عليه من الجميع.

- الأديان الثلاثة متفق عليها.

- أقصد اليهودية، فموسى عليه السلام يؤمن به اليهود والنصارى والمسلمون.

– فهمت، وأظن من الممكن النظر من زاوية أخرى معاكسة تمامًا.
– كيف أيها الفيلسوف؟
– أن المسلمين يؤمنون بموسى وعيسى ومحمد، بينما المسيحيين لا يؤمنون إلا بموسى وعيسى، بينما اليهود لا يؤمنون إلا بموسى.
– نظرة صائبة من زاوية معاكسة تمامًا، لكني لا أزال على رأيي بأن نبدأ باليهودية؛ فهي أقدم الأديان السماوية.
– أتفق معك تمامًا.
– وآمل أن تأخذ وقتك تمامًا في كل دين، فأنت تتحدث عن تاريخ وفلسفة وفكر ودين وواقع في وقت واحد، وبعد أن ننتهي من اليهودية لا تلغيها أو تعتمدها حتى تتعرف على المسيحية، وبعد أن تأخذ وقتك وتتعرف على المسيحية لا تلغيها أو تعتمدها حتى تتعرف على الإسلام.. ثم ابتسم وأردف إن كنت مصرا أن تذهب إلى جبال تورا بورا!
– جيد، وسؤالي: كيف ترى الوسيلة لأن أتعرف على هذه الأديان؟
– القراءة والاطلاع والبحث كنز لا يفنى، وإن كنت تعرف من رجال الدين في هذه الأديان فهو مفيد بلا شك.. وليتك تسافر لتل أبيب كما سافرت للهند؛ لتتعرف على اليهودية عن قرب.
– من عجائب المصادفات أنه هناك سفرة عمل قصيرة لتل أبيب قريبًا، ولكني لم أوافق عليها حتى الآن.
– لا أعرف ظروفك فأنت للتو قدمت من الهند، لكن لو تيسر ذهابك لتل أبيب فسيكون ذلك مفيدًا جدًّا.. وعند التعرف على المسيحية سافر إلى روما، وعند التعرف على الإسلام سافر إلى مكة، إلا أن الإرهابيين لن يسمحوا لك بدخولها!
– كلامك حمسني على الموافقة على السفر لتل أبيب، سأنظر في ظروفي وأخبرك بما قررت.
– تبدو محظوظًا، فاليهوديات فاتنات ولعوبات ومن أعراق مختلفة ففيهم كل الأشكال، فبعد الهنديات ها أنت تستمتع باليهوديات، كم أنت محظوظ!
استاء جورج لكلامه، وأراد أن يحرجه..
– ألا تستمتع أنت بمريضاتك من مختلف الأعراق، وتستمتع بحفلاتك لإكمال أبحاثك أيضًا على مختلف الأعراق؟!
– فهمت ما تقصد جيدًا، كاترينا الرائعة، روعتها في أنها متبتلة لخدمة دينها، لا تلتفت يمينًا ولا يسارًا.
– أو ربما تحب الاستمتاع بالهنديات؛ ولذا تستمر أبحاثك الشاقة طوال الليل إلى الصبح.

- أيضًا فهمت ما تعني جيدًا، حتى الصبح بسبب الحريق الذي اشتعل في المبنى المجاور للكنيسة..
ثم التفت بحزم إلى جورج وأردف: رغم تاريخي الطويل في التلاعب بالنساء إلا أن كاترينا مختلفة كليًّا؛ فهي لا تفكر في غير الكاثوليكية ونشرها.
- هل تريد أن تفهمني أنكما في كل لقاءاتكما وسهراتكما فقط تتباحثان في الدين والمسيحية والإيمان؟!
- قطعًا لا، فالكنيسة تستخدم الحفلات لجذب الناس للكنيسة وتعليمهم الدين.
- وخلال هذه الحفلات الراقصة تبدأ كثير من القصص الغرامية؟!
- نعم صدقت، لكن كاترينا رغم جمالها مختلفة، فهدفها واضح ولا تفكر في غيره؛ وهو خدمة الكاثوليكية وزيادة إيمان الناس بالمسيح، وهذه هي روعتها.
- ممم، ولذا تشربون الخمر سويًّا لتكونوا في حالة من زيادة الإيمان والتضحية من أجل البشرية؟!
- رغم أنك تستخدم أسلوبًا لا يعجبني أبدًا، لكني أشعر أني ملزم أن أرد جزءا من جميل كاترينا لي، فقد حركت الإيمان في قلبي ولأول مرة منذ خمس عشرة سنة.. نعم شربت الخمر في حفل الكنيسة؛ فأنا ملحد واستغربت أن كاترينا شربت أيضًا وهي متدينة.
- وماذا حدث عندما وصل الإيمان إلى غايته، والتضحية من أجل البشرية إلى غايتها، والسمو إلى غايته، والسكر والهلوسة إلى غايتها!!
- حتى أقول الحقيقة، مع حرص كاترينا على ألا تكثر إلا أنها ولأول مرة بعد انتهائنا من مشكلة الحريق المجاور كانت متعبة وشربت أكثر من العادة.
- وعند ذلك سموتما معًا وامتزجتما معًا!
- جورج!لم يكن بيننا شيء مما يعاب، إلا أنها لما شربت وأكثرت أحست بدوار فحملتها إلى السيارة وانتظرت حتى استفاقت، وهذا سبب تأخرنا حتى الصباح، فشكرتني شكرًا شديدًا، وهي تشعر بالخجل مما آلت إليه، فأبديت امتناني لها على شكرها، وقبلتها، ثم شعرت أني أخطأت بفعلي؛ إذ كان واضحًا كرهها لذلك.
- رائع.. رواية رومانسية رائعة، يجب أن أصفق لكما!
- كان معنا طوال الوقت صديقتها وجارتها سالي، وبإمكانك أن تتأكد منها من كل ما قلت، وبإمكانك أن تتأكد من صفحتي على الفيس بوك؛ ففيها جميع صور هذه الليلة، ولم أكن مضطرًا أن أقول شيئا من ذلك، لكني أحببت أن أكون صريحًا معك، رغم أسلوبك المستفز، فلا أعرف لماذا أتعامل معك بطريقة تختلف عن غيرك، ربما لأني أشعر بنفس مشكلتك، أو ربما غير ذلك.
- نفس مشكلتي؟!

– قد تستغرب ما أقول لك، لكن لدي هم وغم داخلي قديم، ومنذ سنة زاد كثيرًا ولا أعرف سببه، والعجيب أنه منذ قدومك والتساؤلات وبحثي في الدين بدأ يقل هذا الهم ولا أعرف لماذا؟ هل هو بسبب التساؤلات وإجاباتها، أم بسبب ذهابي للكنيسة وإيمانياتها، أو كليهما؟ بالمناسبة ما أخبار الضيق والهم الذي يأتيك؟ وما أخبار هجوم التساؤلات التي تحطمك؟

– بدأت تقل كثيرًا جدًّا، وربما كان كثرة انشغالي بإجابة التساؤلات في طريق السعادة وسفرياتي من أسباب انشغالي عن هذا الغم.

– جميل هذا التعبير «طريق السعادة».

– نعم، هو تعبير قاله لي عجوز قابلته في الطريق، ثم رسخه نادل قابلته في مقهى.

– كل الناس تريد أن تسير في طريق السعادة، بل تظن نفسها فيه، إلا أن الحقائق تبقى حقائق.

– ماذا تعني؟

– كل أصحاب دين أو فرقة أو نحلة أو طائفة يظنون أنهم في طريق السعادة، وهم فقط الذين في طريق السعادة؟! ثم ابتسم وقال: هذه سخرية القدر!!

– لكن بلا شك أنا وأنت لسنا في طريق السعاة، وإلا لما كنا في الهم والغم الذي نعيش فيه!

– المهم دعني ألخص جزءًا مما قمنا معا به.. سايرتك في أن السعادة في إجابة التساؤلات الكبرى، وأن الإجابة يجب أن تكون من خالق لا من البشر؛ مما يلغي فكرة الإلحاد، ثم قررت أن هذا الخالق جاء بدين سماوي لا أرضي، ونحن الآن في تحديد الدين السماوي هذا.

– المفترض أن أصحاب هذا الدين هم المحقون في أنهم يسيرون في طريق السعادة، وأعتقد أني أسير في اتجاه يوصل لما قالت لي كاترينا من البداية، لكنني لا أود أن أستعجل وأحرق المراحل، خاصة وأنها بدأت تخف لدي هجوم هذه التساؤلات وتعقدها، وأشعر بأنني آخذ القضايا الكبرى بعمق وببساطة.

– لا شك أن كاترينا المضحية بكل شيء في سبيل الرب تستحق أن تكون على صواب، لكن دعنا نكمل على طريقتنا، وأنتظر عودتك من تل أبيب ونكمل مشوارنا بعد ذلك.

– اتفقنا، أطلت عليك اليوم.. أستأذنك، وإذا سمحت لي أن يكون موعدنا بعد أسبوعين إن سافرت لتل أبيب، وإن لم أسافر فيكون الأسبوع القادم.

– بل موعدنا بعد أسبوعين؛ لتتمكن من القراءة عن اليهودية، واحرص على أن تسافر البلاد المقدسة لتثري معلوماتك.

– جميل تعبير «البلاد المقدسة»!

– نعم.. فهي بلاد مقدسة في كل الأديان السماوية؛ ولذا دائمًا ما نجد حروب الأديان السماوية

فيها وحولها.
– سأحرص على السفر، وسأنظر كيف أرتب ظروفي.
خرج جورج من عند توم، فوجد براد في الخارج ينتظره وعلى وجهه ابتسامة ذات خبث..
– ما أخبار كاترينا؟ هل ستتركها لتورا بورا؟
– تورا بورا؟!!
– لا تكن بسيطًا فيلعب بك بكلمات بسيطة!
– ماذا تعني؟
– لا أعني شيئًا، كاترينا رائعة وتوم وسيم، ويمكنك أن تسافر، كن عميقًا ولا تكن بسيطًا.
لم يرد جورج، وخرج مباشرة غاضبًا، كان ذهنه مشغولا بهذا التوافق في الحديث بين توم وبراد..
ترى هل سمع براد كلامي مع توم؟ أم هو ما يسمونه التخاطر؟ أم ماذا؟!

(٥)

استمرّ جورج يتصل على آدم ولا مجيب، ازداد قلقه وخوفه عليه، ذهب إلى بيته أكثر من مرة ولم يجده.. أحست كاترينا بتوتره..

– تبدو متضايقًا.. ما الأمر؟

– لم أجد صديقي النادل آدم، وقد اتصلت عليه كثيرًا، وذهبت له أكثر من مرة!

– كنت خائفة أن يمسك سوء من الإرهاب، فلما رأيتك مهمومًا خفت عليك، يبدو أنك تحب آدم كثيرًا؟!

– رغم بساطته لكنه خدمني كثيرًا، وأرتاح لكلامه كثيرًا.

– ماذا يقول زملاؤه في العمل عنه؟

– هو في إجازة لإنجاز أبحاثه الجامعية؛ فهو طالب أديان كما قلت لك سابقًا.

– ومتى تنتهي إجازته؟

– ستنتهي بعد غد، ولكني مستعجل لمقابلته، لمشاورته في بعض الأمور.. بالمناسبة كنت أود استشارتك في عرض سفر لي للقدس أو ما يسمى بتل أبيب.

– للبلدة المقدسة؟!

– نعم؛ حيث لدينا احتمال توقيع عقد مع شركة أمنية يهودية.

– ولكنك للتو قادم من سفر، وأخاف عليك أن تتعب.

– لن أتعب، لكني كنت أود أن أجلس معك ومع مايكل وسالي أكثر، ولم أكن متحمسًا حتى قابلت توم اليوم وحثني جدًّا وبحماس على السفر.

– لماذا؟

– يقول: إنك ستتعرف على الدين اليهودي عن قرب.

– صدقه في هذا، بل ستتعرف على الديانات السماوية الثلاث؛ فهي أرض مقدسة لجميع الديانات السماوية.

– وما رأيك أنت؟

– لم أنتبه للنقطة التي أثارها توم، فإن كنت تشعر أنها ستفيدك فسافر وسأسعد بك وأنتظرك أنا وأبنائي بعد عودتك.

– ما ذكره توم مقنع، ولكني لست متحمسًا كثيرًا، عمومًا سأحاول أن أجعل السفر مختصرًا جدًّا.

– أنت محظوظ تسافر إلى بلاد العجائب، ثم إلى بلاد الملاحم!

– بل أنا محظوظ بزوجتي الرائعة.

- أود إذن أن أهديك هدية.
- وما هي؟
- بعد عودتك وارتياحك لفترة، نأخذ إجازة ونسافر جميعًا إلى روما، حتى تكون سافرت إلى بلاد العجائب، ثم الملاحم، ثم الكنائس، وتتعرف على الكاثوليكية في موطنها، وتتعرف على ما تسميه طريق السعادة.
- ومنها أكون تعرفت على المسيحية أكثر كما يريد توم، ثم أردف: يبدو أني غدًا سأخبر كاخ بموافقتي على الرحلة، وأتمنى ألا أسافر حتى تكون حالة الطوارئ التي تمر بالبلاد قد انتهت فهي مزعجة.. كما أنني لن أسافر إلا وقد اطمأننت عليكم، وعلى أن الإرهابيين المجرمين قد حوكموا.
- لا يزال البحث جاريًا عن الباكستاني الذي يعتقد أنه هو الذي فجر، وقد أمسكوا بمجموعة من أصدقائه ومن حوله.
- أين سيذهب لا بد أنهم سيقبضون عليه اليوم أو غدًا، كم أكره الإرهاب والقتل بكل صوره!
توّجه جورج فور وصوله إلى عمله إلى مكتب كاخ، ليخبره بموافقته على السفر، ورغبته بأنّ تكون الرحلة قصيرة في حدود أربعة أيام لا أكثر..
- أربعة أيام كافية جدًّا.
- هل مهمتي محددة وواضحة؟
- نعم.. شركة أورشليم الأمنية تود أن توقع معنا عقود حماية إلكترونية، وقد اتفقنا معهم على كل شيء تقريبًا.
- ولماذا لا نرسل لهم العقود دون سفر؟
- المسئولة التقنية عندهم لديها أسئلة كثيرة؛ فهي تفصيلية جدًّا، والحقيقة أنه يجب إقناعها؛ فهي المعارضة الرئيسة للصفقة، والقرار الأخير لن يخرج إلا بموافقتها؛ فهي صاحبة الصلاحية.
- إذن يجب أن أتأكد من إلمامي بكل القضايا التقنية بالتفصيل، ولا بد أن أقرأ تفاصيل اعتراضاتها في المراسلات معهم.
- نعم، هذا مهم جدًّا.. وفي الآخر سيوقعون العقد شاءوا أم أبوا.
- تبدو واثقًا جدًّا!
- لعدة أسباب؛ الأول: أن الإسرائيليين لديهم فوبيا من (حماس) الإرهابية، ومن قدراتها المميزة حتى في التقنية، وقد يوقعون عقود حماية معنا ومع غيرنا.
- معهم كل الحق، الإرهابيون لا قلوب لهم، ألا ترى ما نحن فيه في لندن؟!

– لكن اليهود أكثر إرهابًا من (حماس) ومن غيرها!

– ربما، لا أعرف، كل الذي أعرفه أن الإرهابيين في لندن كانوا يتمنون أن يموت المئات أو الآلاف بلا أي رادع من قلب أو ضمير أو دين!

– دعني من الإرهاب الآن.. أما السبب الثاني: فهو أن ليفي مسئولة القسم التقني يهودية ومديرها يهودي.

– لم أفهم؟ لماذا كونها يهودية هي ومديرها يعني أنهما سيوقعان العقد.

– بما إنهما يعتنقان اليهودية فأنا أعرف بهم، ومديرها بنيامين يريد توقيع العقد معنا لمكاسب خاصة له، ولن ترفض المسئولة التقنية طلبًا له، وإلا سيقطع عليها طلباتها؛ فهي تطيعه تدينًا.

– وأنت ألست يهوديًّا؟!

– أمي يهودية؛ وبالتالي أنا يهودي، وهذا السبب الثالث؛ ولذا وافقوا على أن يوقعوا العقد معي.. وإلا فأنا علماني لا يعني لي الدين شيئًا إلا إن كان سيجلب لي المال والمتع... هههه، بالمناسبة ليفي صغيرة وعمرها ٢٥ سنة، ومن أجمل نساء الدنيا، وإن أردت أن تستمتع معها فكلم بنيامين وستأتيك في نفس اليوم، أما بنيامين فقد اتفقت معه على ١٠٠٠٠٠ دولار له شخصيًّا مقابل الموافقة على توقيع العقد.

– أليست ١٠٠٠٠٠ كثيرة؟!

– كثيرة جدًّا، لكني زدت قيمة العقد إلى ١٥٠٠٠٠ دولار، ووافق مقابل أن يأخذ مبلغه.

– أي انحطاط هذا!! هذه خيانة للشركة وللبلد، هذه ليست تجارة!

– المال لدينا شيء آخر، ونحن اليهود التجار على الحقيقة، ولذا تجدنا مسيطرين على التجارة في كل العالم، فلا ينافسنا في حب المال أو التجارة أحد.

– كلامك يخيفني من الدين اليهودي، والشخصية اليهودية.

– هههه، يقولون: إذا سلمت على يهودي فعد أصابعك بعد السلام، فإن وجدتها كاملة، فتأكد من أنك ما زلت تعرف العدَّ بشكل صحيح.. المهم أعط بنيامين المائة ألف وسترى الأمور تتيسر.

– سنكمل حديثنا عن الاتفاق وطبيعته بعد أن أقرأ العقود والأدبيات.

– جيد.. واحجز بعد أسبوع من اليوم، وفي هذا الأسبوع سننهي اتفاقاتنا واجتماعاتنا.

انهمك جورج في قراءة أدبيات وعقود الاتفاقيات، والتفاصيل الفنية حتى نهاية عمله، وخرج متأخرًا ولم ينه عمله، وخلال ذلك الوقت اتصل مرات على آدم الذي لا يزال جواله مغلقًا.. عاد إلى بيته، وبدأ بمتابعة الأخبار؛ فقد كان يتمنى أن يتمكنوا من القبض على الباكستاني قبل سفره. سمع في الأخبار أن هناك احتمالات جديدة في مسؤولية التفجير، وأن هناك محتجزين جدد،

وأنهم لا ينتمون للإرهاب الإسلامي، وإنما ينتمون لحركة سيتا المنشقة.. جلست كاترينا بجواره مستفسرة عن الجديد..

– من عجائب أخبار التفجير الإرهابي أن هناك احتمالًا جديدًا في مسؤولية التفجير!

– مجرد كلام للتمويه، لا يفعل ذلك إلا الإرهابيون المسلمون.

– حركة سيتا المنشقة هي المتهم الجديد.

– ربما المطلوب أن يخفف الإرهابيون من احتياطاتهم، حتى يتحركوا ويتصلوا؛ ليتمكنوا من القبض على الباكستاني، ولذلك أعلن هذا الإعلان.

– في عالم السياسة كل شيء وارد!

(٦)

انشغل جورج خلال اليوم التالي بموضوع السفر، وتجهيز العقود، كان مستمرًا في الاتصال على آدم، ومازال جواله مغلقًا.. أرسل له بريدا إلكترونيا، وأرسل له رسالة على صفحته على الفيس بوك. من المفترض أنه اليوم سيبدأ دوامه حسب كلام زميله النادل، وكم كان يود أن يقابله قبل ذلك؛ فهذا يعني له الكثير..

بعد انتهاء دوامه.. مرّ جورج على المقهى، وسأل عن آدم.. فلم يجده!

- لم يأت اليوم.
- ألم تنته إجازته بعد؟
- بلى، لكنه لم يداوم ولم يتصل، وليس هذا من عادته!
- ومتى تتوقع أن يأتي؟
- لا أدري، يفترض أنه بدأ العمل اليوم، والغائب عذره معه.
- شكرًا لك، إذا جاء فأخبره أن جورج سأل عنه أكثر من مرة.
- حسنًا حسنًا.

عاد جورج إلى منزله، وقد استبدّ القلق به على آدم، اختفاؤه المفاجئ يرعبه،لم يبق وسيلة للتواصل إلا استخدمها: الهاتف، البريد الالكتروني، صفحة الفيس بوك، ذهب إلى المقهى، إلى منزله مرات عديدة، ولا يعثر له على أثر!

- أهلًا حبيبي، هل لقيت صاحبك آدم؟
- لم أجده، ولم يأت اليوم لعمله مع أن إجازته انتهت!
- آمل ألا يكون تأثر بالحادث الإرهابي.
- آمل ذلك، هل من جديد؟ هل قبضوا على المفجر؟
- للأسف.. الأخبار قبل قليل تتحدث عن إطلاق غالبية المعتقلين المسلمين اليوم!
- إطلاق الجناة!
- يقولون أن التحقيقات تؤكد أن المفجر من حركة سيتا المنشقة.
- ههه، ذكرتيني بما قاله لي كريم الله الشخص الذي لم أرتح له: «الإرهابي هو الذي لا يوافقكم ولو وافقكم لجعلتموه بطلًا»، يبدو أنه محقّ..!
- لست مقتنعة، وأعتقد أن المفجر هو الباكستاني، ألم يقولوا في البداية أن الكاميرات صورته؟!
- ربما يكون كريم الله محقًا، وهل أمسكوا المتهمين من حركة سيتا؟
- نعم، ويقولون أنه عمل جنائي سياسي وليس إرهابيا.

– تغير الجناة وفهمناها، أما تغير أنه كان إرهابيًا ليصبح جنائيًا؟!!
– إرهابيا إذا كان المنفذ من المسلمين.
– ههههه، هذا هو كلام كريم الله نفسه، المهم أن لندن أصبحت آمنة بقبضهم على المجرمين.
رنّ هاتف جورج، فتناوله مسرعًا، كان يرجو أن يكون المتصل آدم، فإذا هو بالفعل.. فردّ عليه بلهفة..
– أخيرًا يا آدم، لقد أقلقتني عليك كثيرًا.
– ههههه، كنت في مهمة قصيرة وانتهت قبل قليل.
– أنهيت أبحاثك؟
– بل تعمقت أبحاثي، دعني من ذلك ما أخبارك؟
– في خير حال، أريد أن أراك، هل آتيك الآن؟
– أنا متعب قليلًا من المهمة التي أنهيتها، ما رأيك أن تأتيني في نهاية عملي غدًا؟
– اتفقنا سأكون عندك قبل الساعة الخامسة، وسأدعوك على وجبة عشاء في مطعم السعادة.
– اتفقنا، أنتظرك غدًا.
أغلق جورج الخط، وقد بدت ملامح الارتياح تغمر وجهه..
– تبدو سعيدًا بمكالمة النادل!
– نعم، لا أدري لماذا أشعر في كلامه بالصدق والبساطة والعمق!
– هل هو يهودي أم مسيحي؟ وهل هو كاثوليكي أم بروتستانتي؟
– لم أسأله.. إذا رأيته سأبادره بهذا السؤال..
في الموعد المتفق عليه انتظر جورج بسيارته أمام المقهى دقائق معدودة حتّى جاءه آدم وركب معه..
– أين أنت يا رجل، أقلقتني عليك؟
– هذا من لطفك، أعتذر لك كثيرًا، فلم يكن باستطاعتي الرد على رسائلك لظروف قاهرة... بشرني عن طريق السعادة؟ وعن إجابة أسئلتك؟ وعن رحلة الهند..
– كانت رحلة الهند ثرية جدًّا، استمتعت فيها كثيرًا.. سنكمل حديثنا ريثما نصل إلى المطعم..
– لا بأس.. أظننا قد اقتربنا..
في المطعم جلس جورج وآدم على طاولة صغيرة مخصصة لشخصين، وأتى لهما النادل بقائمة الطعام.. فراح آدم يطالع فيها.. وهو يحدث جورج..
– جميل هذا المطعم..
– يبدو أنه مطعمك المفضل..

– اسمه يعجبني، فأنا أحب السعادة، وأشعر أنها مطلب كل عقلاء الدنيا، بالمناسبة صاحب المطعم غريب، من أي البلاد هو؟

– قليلة مطابخ ماليزيا في بريطانيا، هذا مطبخ ماليزي، هل سبق أن سافرت لماليزيا؟

– لا..

– ماليزيا من البلاد التي آمل زيارتها، ولم يسبق لي ذلك، يقولون إن طبيعتها ساحرة كطبيعة أهلها، هذه الشعوب بسيطة جدًّا وسمحة جدًّا.

– البساطة أحيانًا تكون دليلا للعمق، وأحيانًا دليلًا على السذاجة.

– قطعًا هنا دليل على العمق، ماليزيا دولة متقدمة سريعة النمو وخاصة في مجالنا التقني.

– أعشق البساطة العميقة، ثم ابتسم وقال: أو العمق البسيط.. أكمل حديثك عن سفر الهند..

– لنطلب طعامنا أولًا..

نادى جورج النادل، وأخبراه بطلبيهما.. فرحب بهما النادل ومضى..

– أجابت رحلة الهند على تساؤلاتي بوضوح، وأعتقد أني أسير إلى طريق السعادة.

– رائع!

– لم ينغص الرحلة إلا مشكلة توم وكاترينا التي أخبرتك بها، وأنا ممتن لك جدًّا لمشورتك؛ فقد كنت في حالة نفسية صعبة، ويغلب على ظني الآن أن كلامك كان صحيحًا.

– أي كلام؟

– قلت لي: ربما لا تكون الشكوك صحيحة، فقد أخبرني توم بالقصة بالتفصيل، ولا أدري لماذا هذه المرة صدقته، وشعرت بأنه اختلف وتغير.

– كل الناس يمكن أن يتغيروا ويتحسنوا متى ما أعطيناهم الفرصة.. ثم ابتسم وقال: وماذا عن المفاضلة بين الأديان السماوية والأرضية؟

– بلا شك إن الأديان السماوية مقدمة على الأديان الأرضية.

– تبدو واثقًا!

– نعم، فقد رأيت من التخبطات في الأديان الأرضية ما لا يخطر على ذهن أحد، ثم ضحك وقال: تخيل هناك من يعبد الفئران، ومن يعبد الصراصير، ومن يعبد أحجارًا.. عالم غريب، لا شك أن الخالق الذي سيجيب على تساؤلاتي ليس فأرًا أو صرصورًا أو صنمًا أو حيوانًا.

– إذن تيقنت أنه دين سماوي؟

– قطعًا هو ما جاءت به أحد الأديان السماوية، اليهودية أو المسيحية أو الإسلام...

– وما هي الخطوة التالية التي ستقوم بها؟

– أتعرف على الأديان السماوية واحدًا واحدًا، وسأبدأ باليهودية.. بالمناسبة ما دينك يا صديقي؟
– ماذا تتوقع؟ أنا اسمي آدم على اسم أبو البشر كلهم، واسم أبي على اسم أبي الأنبياء والأديان السماوية كلها (إبراهيم).
– كيف؟
– آدم اسم أبو البشر كلهم، وإبراهيم اسم أبو الأنبياء؛ فمن نسله موسى وعيسى ومحمد.
– وأنت تتبع مَن مِن الأنبياء؟
– ما رأيك أن نسير معًا في التعرف على الأديان الثلاثة، فربما أغير ديني!
– تبدو كاثوليكيًا كزوجتي.. ههههه، ها قد وصل الطعام.. أتدري؟ يبدو أنك أثرت علي في ذلك، فقد اكتشفت أني صرت أكرر كلامك عن البساطة، رغم أن طبيعة الفلسفة أحيانًا هي تعقيد القضايا لا تسهيلها.. وطبيعتنا البريطانية ـ أحيانًا للأسف ـ نصعب الأمور بدلًا من تيسيرها.
– البساطة والسماحة والابتسامة والسعادة كلمات مقترنة دائمًا.
– وعلى منوال ذلك، التعقيد والتناقض والصعوبة والتعاسة والشقاء كلمات مقترنة مع بعضها.. لم أقل لك: اقترحَ علي الطبيب توم أن أسافر لتل أبيب، وسأقرأ عن اليهودية لأتعرف عليها، فما رأيك؟
– رائع، ستسافر للبلدة المقدسة!
– ألم أقل لك أنك كاثوليكيًا؟
– ربما يكون سفرك مثريًا ومفيدًا في التعرف على الأديان الثلاثة، وليس على اليهودية فحسب.
– نفس ما قالته لي كاترينا بالضبط لما أخبرتها بسفري لتل أبيب.
– ليس بالضرورة أن أكون كاثوليكيًا لأقول ذلك، فهذا مما تتفق عليه الأديان السماوية.. هذه أرض الملاحم، وأعتقد أن سفرك سيكون مفيدًا جدًّا لتتعرف أكثر على اليهودية وغيرها، وإن كان ذلك لا يغني عن القراءة.
– ماذا تعني؟
– كم بقي على سفرك؟
– أربعة أيام.
– أقترح أن تقرأ، وسأقرأ أنا معك كثيرًا عن اليهودية الدين العظيم.
– «اليهودية الدين العظيم»! هل أنت يهودي؟
– يؤمن أتباع الأديان السماوية الثلاث بموسى عليه السلام فهذا ليس دليلًا، ولماذا لا نتناقش دون

خلفيات، دعك من ديني، ربما أكون يهوديًا أو مسيحيًا أو مسلمًا!
– بمناسبة ذكر الإسلام، هذا دهن العود الذي طلبته مني.
– كم قيمته؟
– ههههه، مجانًا فقد جاءني هدية من مسلم، ولست مسئولًا إن كان ملغمًا أو مسمومًا كما حذرتني كاترينا.
– ههههه، عندما أتطيب به أكون إرهابيًا إذن؟
– عشنا هنا في لندن أيام رعب من الإرهاب بسبب التفجير، فإذا هو تفجير جنائي لا إرهابي.
– لماذا جنائيًا وليس إرهابيا؟
– أمر مضحك، لا أعلم، يبدو وكأننا كما يقول لي أحد المسلمين في الهند: «الإرهاب هو من لا يوافقكم ولا يعجبكم».
– الإرهاب هو الإرهاب، لا دين ولا دولة معينة يمكن أن توصف بالإرهاب، ألا ترى في ممارساتنا أحيانًا أننا إرهابيون في تعاملنا مع زوجاتنا أو أبنائنا، وكذلك الدول قد تتظاهر بحربها للإرهاب وهي في الحقيقة إرهابية في تعاملها مع الإرهاب، العنف والقتل الوحشي يتعارض مع أبجديات العقل والدين، ولو صدر عن أي شخص!
– يبدو أنك تتحدث عن سجن بعض المسلمين بلا ذنب في التفجير الأخير.
– بالفعل، وإلى الآن رغم التأكد من براءتهم لا يزال عدد من المسلمين في السجن، أليس هذا إرهابًا؟!
– بلى، ولكن لا أدري لماذا اعتقد كثيرًا أن المسلمين هم الإرهابيون.
– طبيعي جدًّا هذا التصور، فأنت وأنا ضحية للإمبراطوريات الإعلامية والسياسية الإرهابية.
– كيف؟ ماذا تقصد؟!
– تصوغ هذه الإمبراطوريات الإعلامية طريقة نظرنا وتصورنا للآخر بشعور منا أو دون شعور، أليست نظرة كثير من الدول المحتلة لمن تحتلهم وتقتلهم بأنهم برابرة يستحقون القتل! أليست نظرة شعوب لشعوب أخرى بأنهم قتلة ومجرمون، ونظرة أديان لأديان أخرى بأنهم قتلة وإرهابيون.
– صدقت، لكن تبدو متحمسًا جدًّا.. ثم ابتسم وقال: هل أنت مسلم؟
– ههههه، إذن انتبه حتى لا أفجرك أنت والمطعم؟

- كنت أمزح معك يا صديقي.
- وأنا كذلك، تأخرنا هل ترى أن ننصرف وتوصلني لبيتي؟
- هيا بنا.

القدس بلاد الأديان والملاحم

٧ القدس بلاد الأديان والملاحم

القدس بلاد الأديان والملاحم

(١)

أنهى جورج تجهيزات سفره، حرص على إنهائها مبكّرًا؛ ليظفر بليلة يجلس فيها مع أبنائه وزوجته، فمنذ عودته من الهند كان العمل يسرقه منهم، واجتماعات كاخ المطولة التي يعيد فيها ويزيد في تفاصيل العقود، هذا غير ما ألزم به نفسه من القراءة عن اليهوديّة قبل سفره؛ رغبة في أن يغتنم زيارته إلى بلاد الملاحم في البحث عن تساؤلاته الكبرى، وألا يقتصر فيها على مهام العمل.

– كاترينا يا حلوتي.. هل تريدين شيئًا من تل أبيب؟

– أريدك أن تزور كنيسة القيامة، وكنيسة السيدة مريم وتصلي فيهما.

– لقد قرأت عن كنيسة القيامة الكثير، هذه الكنيسة بنتها الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٥م، وقد تم بناؤها فوق (الجلجلة) في الموضع الذي اكتشفت فيه الخشبة التي قيل إن السيد المسيح عليه السلام صلب عليها، ودام بناؤها ٢٧٠ سنة، ثم أحرقها الفرس عندما احتلوا القدس، وأعاد بناءها الراهب مودسطى رئيس دير العبيدين في ذلك الحين عام ٦١٧م، ورممت الكنيسة بعد ذلك مرارا ولاسيما في عهد قسطنطين عام ١٠٤٨م، وعندما احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩م جمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة وهى الكنيسة القائمة الآن، ورغم أنها ليست مقدسة عندنا البروتستانت، إلا أني سأزورها وأصلي فيها من أجلك، وسأسعى أن أصلي في كنيسة مريم عليها السلام أيضًا، هل تريدين شيئًا آخر؟

– شكرًا لك، يبدو أنك قرأت الكثير عن القدس!

– ليس كثيرًا جدًّا، ما زلت أواصل القراءة.

– القدس أهم أماكن المسيحيين لا اليهود، فيها صلب المسيح، وفيها الكثير من الكنائس التاريخيّة.

– رغم أن مدة إقامتي في إسرائيل قصيرة جدًّا، لكن سأحاول زيارة المعالم المسيحية والاجتماع مع المسيحيين.

– آه.. كم كنت أتمنى أن أزور هذه المعالم بنفسي وأصلي فيها للرب.

– ولماذا لا تأتين معي؟

– لا أستطيع الآن؛ فلدي ارتباطات كثيرة في العمل، وفي الكنيسة، ولعله في المستقبل بعد أن يرفع الظلم الذي نحن فيه.

– ظلم؟!

– اليهود في سبيل إظهار ما يدعون من تراثهم في القدس أهانوا الكنائس والمسيحيين في القدس.

– تاريخ القدس تاريخ مثير، فيه كل الصراعات بين الأديان السماوية، وبالمناسبة مما يقال عن القدس أنها تعرضت للتدمير مرتين، وحوصرت ٢٣ مرة، وهوجمت ٥٢ مرة، وتمّ غزوها وفقدانها مجددًا ٤٤ مرة، ولا زالت الأديان السماوية تتوقع فيها ملاحم كبرى، فهي بحق أرض الملاحم، لكنني أتعجب من كلامك.. بريطانيا هي التي سلمتها لليهود! فأين الظلم؟

– للأسف نعم، إلا أن ما تقصد ـ ويسمى وعد بلفور ـ كانت له أسباب سياسية وصراعات قوى.

– كيف ذلك؟ وما هي هذه الأسباب؟

– من الأسباب: دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ــ ١٩١٨م)؛ حيث كانت بريطانيا بحاجة إلى الدعم اليهودي (سياسيًّا وعلميًّا) خلال الحرب العالمية الأولى، في نفس الوقت كانت الحركة الصهيونية تبحث عمن يدعم مشروعها بإقامة وطن قومي لليهود في أرض فلسطين.

– تبادل مصالح فقط؟!

– لا، كان هناك أسباب أخرى أوروبية: مثل الرغبة في إخراج اليهود من أوروبا؛ إذ إن جزءًا كبيرًا من اليهود لم يستطيعوا الاندماج في مكان إقامتهم، وكانوا يعملون كجسم منفصل عن الدولة، وأسباب أخرى تهدف لزرع قوة مختلفة في فلسطين التي هي الجسر الذي يوصل بين مصر وأفريقيا وبين العرب والمسلمين في آسيا، وأسباب في توازن القوى؛ فسيطرة اليهود على بعض المناصب الحساسة في دولة الخلافة العثمانية التي كانت تشكل خطرا على أوروبا، وتريد بريطانيا وراثة هذه الدولة.

– تبدين متحاملة على بريطانيا!

– أبدًا، أنا متحاملة على السياسة التي لا تفكر في الدين، ألم يكن الأولى احتلال القدس ووضعها عاصمة مسيحية؟

– إذن المطلوب هو احتلال من نوع آخر مسيحي بدل اليهودي!! أما أنا فأخالفك الرأي فأنا أعتقد أن جزءا من وعد بلفور ديني.

– ما السبب الديني من وجهة نظرك؟

– لقد كانت التأويلات الخاطئة لتعاليم المسيحيّة هي التي جعلت تيّار الصهيونيّة ينتشر انتشارًا واسعا داخل الكنيسة المسيحيّة ويبرّر أعمالا عنصريّة وجرائم حرب باسم الدين.

– عذرًا هذا ليس لدى الكاثوليك.

– صدقت هو لدينا ـ البروتستانت ـ أكثر بكثير، فلدينا جماعات تؤمن بأن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كان ضرورة حتمية؛ لأنها تتمم نبوءات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وتشكل المقدمة لمجيء المسيح الثاني إلى الأرض كملكٍ منتصر. ويعتقد الصهاينة المسيحيون أنه من واجبهم الدفاع عن الشعب اليهودي بشكل عام وعن الدولة العبرية بشكل خاص، ثم ابتسم وقال: ولذا في الحقيقة أنت تنتقدين البروتستانتية لا بريطانيا، عمومًا إسرائيل أصبحت واقعًا الآن.

– لكن كنائسنا ومناطقنا المقدسة وقساوستنا ينبغي ألا يضطهدوا.

– الظلم سيء في كل أشكاله وصوره، سواءً كان يهوديًا أو مسيحيًا، وهذه ليست أول مرة يضطهد المسيحيين من اليهود، أليس كذلك؟!

– بلى، فابتداءً من عيسى عليه السلام الذي ضحى بنفسه من أجل البشرية، والذي قتله اليهود، ثم اضطهاد أتباعه، وحتى اضطهاد إخواننا في القدس.

– ههههه، يبدو أني دخلت في معارك الأديان وملاحمها قبل وصولي للقدس، هيا لننام قبل أن يمضي بنا الوقت، يجب أن أنطلق للمطار بعد منتصف الليل.

(٢)

وصل جورج لتل أبيب صباح الخميس في الساعة الثامنة والنصف صباحًا.. كان بنيامين في استقباله، فرأى في عينيه لمعة تدلّ على الفطنة والدهاء..

– أهلًا.. أهلًا بك في البلاد المقدّسة أورشليم.

– مرحبًا، كم أنا سعيد بوصولي لهذه المدينة المقدسة.

– أخبرني كاخ بأن رحلتك مختصرة، أربعة أيام فقط.

– نعم، لا أحبذ السفر المتواصل، وقد كنت قبل مجيئي إلى هنا في الهند، ولكن كاخ أصرّ عليّ وشرفني بزيارة البلدة المقدسة.

– لقد رتبت كل شيء، وسيوقَّع العقد خلال يومين؛ فلا تهتم كثيرًا للموضوع، وحضورك فقط لتأكيد أن العقد مرّ بطريقة طبيعية.

– هذا جيد.

– هل نذهب للفندق أم للشركة؟

– للفندق؛ لأضع حقيبتي، ثم نتجه للشركة مباشرة.

– جيد، فبعد غدٍ السبت وليفي لا تعمل يوم السبت، وربما تحتاج أن تجتمع معها اليوم وغدًا، ليفي امرأة متدينة جدًّا وتقنية بارعة، ويهمها أن يكون برنامج الحماية أقوى من قدرة الإرهابيين على اختراقه.

– برنامج الحماية الذي قدمناه لكم قوي جدًّا، فلا تقلقوا من ذلك.

– ركز مع ليفي على ذلك، وعلى حرصك على حماية أمن إسرائيل، فهذا ما يهمها جدًّا، بل ستفاجأ أن الحوار معها يأخذ أبعاد عقَدِية وفلسفية غير التقنية.

– عقدية وفلسفية؟!

– نعم، وهذا جزء من طبيعتها السيئة، عمومًا لو واجهتك متاعب في التعامل معها أخبرني، ثم ابتسم وقال: فهي رغم عنادها لا ترد لي طلبًا البتة.

– جيد.

وصلا إلى الفندق، ووضع جورج حقائبه، ونزل مباشرة إلى بنيامين واتجها للشركة.. لم يكن مبنى الشركة كبيرًا ولافتًا، بل كان مبنى متوسطًا، مزدحمًا بالموظفين، أما الحراسة؛ فكانت عند مدخل الحي قوية جدًّا، وكذلك الحراسة على مبنى الشركة.

مَضيا إلى مكتب بنيامين، الذي اتصل فور وصولهما على ليفي، وطلب منها الحضور..

– ستأتي المشكلة الآن.

– المشكلة! لماذا؟

– تعصبها الديني يجعلها لا تفهم الحياة بطريقة مناسبة، كما أنها تعشق الجدال وتحبه ولا تتضايق منه، إلا أنها في الآخر تلين بالضغط.

بعد دقائق معدودة، أقبلت فتاة جميلة جدًّا بلباس محتشم، لكنه لا يخفي جمالها الأخاذ، فبادر بنيامين إلى تقديمها لجورج معرّفًا:

– ليفي مدير القسم التقني في شركتنا.. ثم أشار إلى جورج: وهذا جورج مسئول القسم البرمجي في شركة الإلكترونيات المتقدمة من بريطانيا.

– أهلا وسهلًا بك، شكرًا لحضورك فلدي استفسارات تقنية وفنية كثيرة.

– أسعد بإجابتها.

– بإمكانكما أن تعقدا اجتماعًا في غرفة الاجتماعات إن أردتما.

– حسنا، تفضل سيد جورج.

غادر جورج وليفي إلى غرفة الاجتماعات، كانت غرفة صغيرة لكنّها مرتّبة وفاخرة..
- تفضل.
- شكرًا لكِ، يبدو أنكِ لست مرتاحة لبرنامج الحماية الذي قدمته شركتنا؟
- لا، ليس هذا المقصود، وإنما أريد الاطمئنان، فأمننا كيهود وحمايتنا أهم قضية تشغلني.
- البرنامج من أقوى برامج الحماية، لكني أشعر أن لديكم فوبيا تجعلكم تتشددون في الأمن والحماية.
- ماذا تقصد؟
- حماية الحيّ وحماية المبنى لم أرَ مثلها في حياتي!
- نحن شعب مضطهد طوال التاريخ، وأعتقد أن مهمتي حماية هذا الشعب قدر استطاعتي.
- جيد، وستكون مهمتي مساعدتكم التقنية في ذلك.
- تساعدنا! لماذا تساعدنا؟
- لم أفهم! أساعدكم ببرنامج الحماية المتميز الذي سنوقع العقد عليه.
- أعتذر لك، لكني اعتدت أن كل الناس ضدنا نحن اليهود.
- أنا بريطاني مسيحي بروتستانتي، أوليس الذي أعطاكم هذه البلاد وهذا الوطن بلفور البريطاني المسيحي البروتستانتي؟
- هذه بلادنا وأرضنا، ولم يعطنا إياها أحد، ويجب أن نحميها بأنفسنا.
- يبدو أنكِ تحبين النقاش كثيرًا، فهل تحبين الصراحة؟
- أحب النقاش وأعشقه وأحب الصراحة وأريدها.
- إذا كنتِ تحبين الصراحة كما تقولين، فمن أين أنت؟ يبدو أنك أوروبية؟!
- أنا من إسرائيل.
- أبوك وأمك هل ولدا في إسرائيل؟
- أبواي نمساويان جاءا عام ١٩٧٠م، وولدت أنا هنا في إسرائيل، ولذا فأنا إسرائيلية ولو كنت أملك جنسية نمساوية.
- أنتِ إذن نمساوية تحمين إسرائيل، وأنا بريطاني أقدم لك برنامج حماية.
- لكني يهودية وأنت بروتستانتي!
- هل أبوك يهودي؟

- لا، لقد كان مسيحيًّا ملحدًا، إلا أن اليهودية تأتي من الأم وليس من الأب.
- بصراحة أنا جئت للقدس لأمرين: الأول توقيع العقد، والثاني أريد أن أتعرف على اليهودية؛ فقد أصبح يهوديًا، فهل لديك مانع في أن نتحدث في الدين بعمق أكثر؟
- بكل سرور، إلا أنه لا يمكن أن تكون يهوديًّا ما لم تكن أمك يهودية.
- كيف؟
- نحن شعب مختار، مختار من قبل الرب في أعراقه وعقائده.
- أنتم لا تبشرون ولا تدْعون لدينكم إذن؟
- أبدًا، وإنما ندعوا غيرنا ليخدم هذا الشعب المختار.
- أي يكون خادمًا عندكم فقط!!
- لا خدمة دون مقابل.
- مقابل توقيعكم على عقد الحماية، تعطوننا المبلغ المتفق عليه، هذه ليست خدمة! هذا بيع وشراء.
- ولو لم يكن مدير الشركة لديكم يهوديًّا لما وقع اختيار شركتكم لتقدم لنا الحماية.
- لكن كاخ علماني!
- يظلّ يهوديًّا من الشعب المختار.. يبدو أنك متديّن!

في هذه اللحظة طرق العامل الباب، فسألت ليفي جورج عمّا يطلبه للضيافة..

- ماء وقهوة.. ما رأيكِ أن نبدأ الموضوع من بدايته؟
- تفضل، تبدو مهتمًا بالديانة الأم لكل الديانات السماوية.
- هل تعنين بأم الديانات السماوية أن اليهودية وموسى عليه السلام مما يؤمن به اليهود والمسيحيون والمسلمون.
- نعم، وكل من بعده اختلف فيه، فاليهود لا يؤمنون بعيسى والنصارى لا يؤمنون بمحمد.
- ومن الممكن القول أن المسلمين يؤمنون بالجميع، واليهود لا يؤمنون بأحد عدا نبيهم.. دعيني من ذلك، أريد أن أتعرف منك على أقدم الأديان السماوية الموجودة بوضوح، فهل من الممكن أن تساعديني؟
- تبدو عالم أديان لا عالم برمجيات! تفضل.

أضمر جورج في داخله مواجهتها واستدراجها؛ لتكشف له كل ما تعرفه عن اليهوديّة، فهو لا يريد منها معلومات عامّة منمّقة، هو يريد الحقيقة..

- ما عقيدة اليهود في الرب؟ بماذا يصفونه وبماذا يعرفونه؟
- لم أفهم ما تريد؟ لكن الرب هو الخالق الرازق.

- لقد قرأت أشياءً كثيرة عن صفات الإله عندكم أثارت إشكالات لدي؛ فمما قرأت في العهد القديم: «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكًا»، وقرأت في سفر الخروج: «فسمع أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع آدم وإسحاق ويعقوب»، وقرأت في سفر العدد قول الله: «فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم، بل اقتل كل رجل وامرأة وطفل ورضيع والبقر والغنم والجمال والحمير»، وغير ذلك كثير فأنا أتساءل: هل الرب يندم وينسى ويتذكر ويأمر بالقتل وعدم العفو؟ أي إله هذا؟!

- تبدو قارئًا جيدًا، لكنك قارئ انتقائي، ما ذكرته صحيح وغيره كثير، لكن هل هو خاص باليهودية؟ لديكم أنتم أضعافه.

- ههههه، صدقت فلدينا مثله كثير لكن لأني أفكر أن أتحول إلى اليهودية، ما رأيك أن نكمل الحديث عن عقائد اليهودية مستقبلًا، كنت أود أن ننهي اليوم وغدًا موضوع الاتفاق؛ فبعد غد السبت وأنتم لا تعملون فيه.

- صحيح؛ فيوم السبت يوم الراحة والعبادة، بل جاء في الوصايا العشر الأمر بحفظه، وهو اليوم الذي فرغ فيه الرب من صنع السماوات والأرض فاستراح يوم السبت.

- استراح؟!

- نعم استراح، يبدو أن لديك حساسية من بعض الألفاظ في حق الرب، هذه مشكلتك.

- ربما، المهم أن ننهي نقاشنا حول العقد خلال اليومين، وأنا بدأت أشعر بالتعب اليوم فأنا واصل من المطار إلى الشركة.

- يمكنك أن تذهب وترتاح الآن، ونكمل مساءً لو أردت.

- هل يضايقك أن نكمل في الفندق بعد الساعة الرابعة والنصف؟

- أبدًا.. سآتيك في الفندق الساعة الرابعة والنصف.

- نتغدى معًا إذن، وربما تكونين أكثر هدوءًا، وأقل حدة في التعامل معي.

- لم أفهم ما تعني؟! أنت الهجومي اليوم، وأعتذر إن كنت أخطأت معك.

- أنا الذي أعتذر إن كنت هجوميًّا، فمن في جمالك لا ينبغي أن يهاجَم أو يضايَق.

- هذا من لطفك، لكن هجومك السابق أحب إلي من غزلك الآن.. ثم ابتسمت وقالت: أنا أعيش حياتي من أجل الرب فقط.

- قبل أن أنصرف أود أن أسلم على بنيامين.

- تفضل.

مضيا معًا إلى مكتب بنيامين، فبادرهما بالسؤال عن اجتماعهما..

- كانت النقاشات جيده ومتشعبة.
- هل أستأذنكم لأعود لعملي؟
- تفضلي يا ليفي، ولكن جورج ضيفنا ولا بد من إكرامه.
- حسنًا، إلى اللقاء.
- اتفقنا على أن أذهب للفندق لأرتاح قليلًا، وستأتي ليفي للفندق لإكمال النقاش.. عرفت لماذا نحن بحاجة إلى يومين على الأقل للتوقيع على العقد، فهي تحب النقاش والتفرع فيه.
- فكرة إكمال النقاش في الفندق فكرة جيدة، فهي تزيل شيئًا من الرسمية.
- نعم، لكن ليفي تبدو صعبة!
- على صعوبتها هي طيبة وجميلة، وسأخبرها أن تغير من عنادها وتزمتها قبل قدومها عليك اليوم.
- لا بأس، استأذنك فأنا متعب قليلًا.
- تفضل سيوصلك السائق للفندق.

(٣)

وصل جورج إلى الفندق عند الساعة الواحدة والنصف، صعد إلى غرفته واستلقى على سريره وسرعان ما نام، ولم يستيقظ إلا عند الرابعة والربع.. غسل وجهه سريعًا وبدّل ملابسه، وإذا بهاتف الغرفة يرنّ.. اتصل به موظف الاستقبال وأخبره أنّ هناك امرأة بانتظاره اسمها ليفي..
نزل جورج سريعًا فرأى ليفي بشعرها الأشقر، وبلباس غير رسمي فيه شيء من الاحتشام، لكنه أقرب ما يكون للبس السهرات.. صافحها جورج؛ فابتسمت ابتسامة مشرقة أبانت جمالها الخلاب..
- تبدين أجمل مما كنت في الصباح!
- شكرًا لذوقك.
- تفضلي، لنذهب إلى المطعم، ونكمل حديثنا ونحن نتغدى.
اختارا طاولة منعزلة في الفندق، وجلسا متقابلين.. دعا جورج النادل، وطلبا ما يريدان..
- ما رأيك ألا نتحدث فترة الأكل عن العمل؟
- كما تريد.
- أنت جميلة جدًّا، هل أنت متزوجة؟
- لا، ليس بعد، كنت أظنك تختلف عن كاخ.

- كيف؟
- أنت تهتم بالدين والتوراة والإنجيل، بينما كاخ لا يهتم إلا بالمال والنساء.
- صحيح، لكن ما الذي نشبه بعض فيه؟
- كنت أظن أنك لا تحب المال كثيرا، ولا يشغلك الجمال..
- من لا يهتم ولا يحب المال والجمال؟! لكني لم أفهم ماذا تعنين!
- كلمني بنيامين بعد خروجك عن المقصد من كون الاجتماع في الفندق.
- ماذا تعنين؟
- أنت تريد مثل كاخ المتعة.. والمتعة فقط.
- وضحي أكثر!
- لا تتغابى كثيرًا، أنا جاهزة.

تعمد جورج الاستغباء، وإظهار أنه لم يفهم مغزى كلامها..

- وأنا جاهز أيضًا لنكمل نقاشنا، ولكن بعد أن أنهي غدائي.
- جيد، لكن هل تريده نقاشًا ساخنًا؟
- كما تحبين.
- لا أحب أن أرد أمرًا لبنيامين، ولذلك كما تحب أنت.
- وما علاقة بنيامين بنقاشنا؟!
- دعني أقول.. أنتم الرجال كلكم لا يهمكم إلا الجنس.
- يبدو أني أتحدث عن شيء، وتتحدثين عن شيء آخر!

بدأ جورج يفهم أكثر، ويربط بين كلام ليفي وبين كلام كاخ وبنيامين، ولما خرجا من المطعم اتجه جورج للحديقة الخارجية وقال لها:

- أرشح أن نجلس في حديقة الفندق إن رأيت ذلك مناسبًا؟
- في الحديقة!! كما تريد!!
- يبدو أن المكان مريحٌ، ويصلح للصراحة.
- نعم، هو مريح، لكنه مكشوف أمام الناس، ماذا تريد؟
- أريد أن نتناقش.
- هل تتلاعب بي؟ لقد أخبرتك أن بنيامين كلمني وأني جاهزة.
- وأنا جاهز لنبدأ النقاش، ثم أردف: هناك سوء فهم من بنيامين: أنا لست كاخ.
- ما فهمته من بنيامين أنكم واحد؛ ولهذا تجهزت لك كما ترى.

– ألم تقولي لي بأنك لا تحبين الغزل، وأن حياتك للرب فقط!
– أنا.. أنا وافقت خدمة للرب.
– خدمة للرب!! كيف؟
– أهم عبادة للرب: أن نخدم دولة إسرائيل، ونخدم شعب الله المختار.
– وأنت ـ آسف ـ رخيصة؟ أليس لك أي قدرا لتكوني حرة في نفسك على الأقل!
– بما أنك بدأت في الهجوم سأتحدث بصراحة: المرأة في اليهودية لها وضع خاص، ولا تعامل كالرجل.. لا أحب أن أتحدث في ذلك، فهل من الممكن أن تغير الموضوع؟
– لم أفهم؟! ولا أود أن نتحدث وأنتي مكرهه، لكن ألم تقولي لي سابقًا أنك تحبين النقاش!
– أنا أحب النقاش لكني أخشى أن تفهم خطأ.. آمل أن تفهمني بشكل صحيح.
– تفضلي.
– الجنس والمرأة في اليهودية يحتاجان إلى تفصيل، فمثلًا الأصل لدينا أن الجنس السوي الطبيعي هو الذي يكون بغرض الإنجاب فقط وبين الرجل وزوجته، لكن ـ وللأسف ـ المرأة مهضومة تعامل كالصبي أو المجنون أو الحيوانات، وهي للمتعة فقط، فقد ورد في التلمود: «إن المرأة هي حقيبة مملوءة بالغائط».. ثم التفتت بغضب، وقالت: هل هذا ما تريد؟! أتريد فقط أن تقضي ما لديك في هذه الحقيبة؟!
– أعتذر عن إزعاجك، وأرى أن هذا غاية التمييز والظلم، وأود أن نكمل بأريحية، وما الذي يُلزمكِ أن تكوني كذلك؟
– بنيامين! وطاعته!
– لم أفهم! ما علاقة ما سبق بطاعتك المطلقة لبنيامين.
– بنيامين زوج أمي.
– أبوكِ!
– لا لا، توفي أبي في تفجير إرهابي من مسلم إرهابي تافه.. فورث عمي أمي، فقد ورد في التوراة «فرض زواج المرأة الأرملة من أخو زوجها».
– ورثها عمك! هل هي سلعة لتورث؟!
– نعم، للأسف تجبر على الزواج من أخو زوجها.
– عذرًا ليس تكذيبًا لك، لكني لا أصدق ما تقولين! وأظنك تبالغين في القدح في التوراة رغم أنك تدعين أنك يهودية متدينة!
– آه، ربما أكون زدت في الفضفضة! ولا أحب الحديث في ذلك، لكنك أنت الذي تريد! ثم

تنهدت ونظرت إلى الأسفل: مع إني حريصة ألا أقول شيئًا حتى الآن.

– هل هناك أشد مما قلت؟!

امتلأت عينا ليفي الجميلتين بالدموع، وتنهدت وقالت:

– بما إنك أنت الذي طلبت، للأسف نعم! شهادة مائة امرأة تعادل شهادة رجل واحد! المرأة كائن شيطاني، وأدنى من الرجال!.. وقد جاء في التوراة: «يجب على الرجل ألا يمر بين امرأتين، أو كلبين أو خنزيرين، كما لا يجب أن يسمح رجلان لامرأة أو كلب أو خنزير بالمرور بينهما»، فأنا أدعو تدينا كل صباح بانكسار: مبارك أنت يا رب الذي خلقتني بحسب مشيئتك، أما الرجل فيقول: «مبارك أنت يا رب لأنك لم تخلقني وثنًا ولا امرأة، ولا جاهلًا».

كان جورج ينظر في ليفي الجميلة وعينيها الزرقاوين الدامعتين وهو يرثي لها، ويرثي أيضًا لقلبه وعينيه المعلقة بها، ويشعر بتفاعلها مع ما تقول...

– أعتذر لكِ.. هل من الممكن أن نغير الموضوع؛ فقد تعبتِ كثيرًا، وأعتذر لكِ عن إزعاجكِ.

– قلت لك ذلك من البداية.

– لكن هذه الأمور كلها قطعًا ليست للمرأة اليهوديّة؟

– أبدًا.. هذا لليهودية، أما غير اليهودية فلها شأن آخر!! آمل ألا تغضب ولا تتضايق؛ فالمرأة في التلمود ـ وهو الكتاب الثاني من كتب اليهود بعد التوراة يقول: إن المرأة من غير بني إسرائيل ليست إلا بهيمة؛ لذلك فالزنا بها لا يعتبر جريمة؛ لأنها من نسل الحيوانات.

– أي تعصب هذا! لكني أكرر أنني لست مقتنعًا بما تقولين، فأنا قرأت عن اليهودية، وقرأت أجزاء من التوراة، ومع ذلك أشعر بأنك ربما تأولين التوراة كما تريدين.

– لا أعرف لماذا بدأت أنفس عن نفسي وأفضفض! لكن للتوضيح: نحن لا نقرأ التوراة كما تقرأون الإنجيل.

– كيف؟

– التوراة هي الوحي الإلهي، بينما التلمود هو شروح التوراة، ولا يصح أن نفهم التوراة منفصلًا عن التلمود، لكني لم أحب أن أزعجك بذلك.

– ومن كتب التلمود؟

– كُتب بأقلام كثيرة جدًّا في أكثر من ألف عام، لماذا هذه الأسئلة؟

– لأني تضايقت جدًّا وتعاطفت مع وضع المرأة، وعذرًا لم أقتنع بما قلتيه عن المرأة.

- غالبية ما نقلت لك من التوراة، هل تريد من التلمود؟! مجموع كتب التلمود أربعة وستون كتابًا، فهل تود أن تسمع شيئًا مما فيها؟
- إن كان لا يضايقك ذلك، تفضلي.
- إذن اسمع العجائب.. في أحد كتب التلمود: إذا قفز كلب بلدي على فتاة في أثناء تنظيفها الأرض ودخل عضوه فيها وجامعها فإنها لا تعتبر غير نظيفة، ويسمح لها بالزواج من حاخام حتى رفيع المستوى! ويحدد التلمود سن الفتاة القابلة لممارسة الجنس بثلاث سنوات ويوم واحد!! ويجد أن الفتاة بهذا السن تصلح لكي تكون زوجة حاخام، أما سن الولد الذي يؤهله للجماع فيحدده كتبة التلمود بتسع سنين ويوم واحد، وقال بعض الحاخامات ثمان سنين ويوم واحد، وفي مكان آخر يقول التلمود: إذا قام رجل بالاتصال الجنسي مع فتاة أصغر من ثلاث سنين ويوم واحد لا يعتبر ذلك فعل جنسي!! لأن الرجل كأنه وضع أصبعه في عين الفتاة!! وإذا قام صبي عمره أقل من تسع سنوات ويوم واحد بالعملية الجنسية مع امرأة بالغة فلا يعتبر ذلك زنا!! لأنه كأنما جرحها بعود من الخشب!! كما لا يعتبر التلمود العملية الجنسية مع الحيوانات زنا ولا يعاقب فاعلها! والمرأة التي تجامع حيوانا لا تعتبر زانية ولا تعاقب بل يعاقب الحيوان! كذلك لا تعتبر العملية الجنسية بقضيب مرخي زنا ولا يعاقب عليه!
- عذرًا يكفي؛ فقد تقززت من هذا الحديث، لكن لي سؤال وعذرًا مرة أخرى على الصراحة: أنت متدينة أم ناقمة على الدين اليهودي؟! أكرر اعتذاري لكن لا أظن أن كل اليهود هكذا!
- نعم.. ليس كل اليهود كما أقول؛ فهناك العلمانيون كصاحبك كاخ لا يهمهم لا التوراة ولا التلمود، وهناك فصائل كثيرة مختلفة لكن للأسف نحن من عائلة متدينة جدًّا وأنا متدينة، ولذا لا أعرف لماذا قلت لك ما سبق! ربما كنت أفضفض عن نفسي، وربما أكون مخطئة، وربما كنت أريد أن أدافع عن نفسي كوني ضعيفة جئت أعرض نفسي عليك، وقد شعرت بالإهانة.
- لم أقصد إهانتك وليس هذا من طبعي، لكن ماذا يريد بنيامين من إرسالك لي؟
- لا أعرف بالضبط، كل الذي فهمته منه أن له مبلغًا لم تعطه إياه، وأنه فهم منك أنك لن تعطيه المبلغ حتى أمتعك بجسدي.
- جسدك جميل ورائع، وكم أتمنى أن أستمتع به، لكن.. أنا متزوج وتهمني مبادئي، وربما أكون متشددًا أكثر مما يجب، وعذرًا لقد فهمني بنيامين خطأ، فأنا لم أقل له ذلك، ولا يليق بي أن أقول ذلك.
- للأسف أنا سلعة.. ودمعت عيناها ولم تتمالك نفسها وبكت: ربما فهمك بسبب كاخ.
- اهدئي أرجوك.. ما علاقة كاخ بما حدث؟

- كلما جاء كاخ كلم بنيامين وبت لديه ليلة أو ليلتان، فكاخ يهودي؛ ولذلك له العقود والمال والنساء، فلابد أن يعامل مندوب كاخ كما يعامل كاخ، كم أشعر بالمهانة!

لم يعرف جورج ما يقول وهو يرى دموع ليفي.. فسكت وهو ينظر إلى جمالها الخلاب ودموعها الحارة، شعر بالأسى البالغ تجاهها، وشعر بجسمه يحن إلى جسدها الغض،كما شعر بالذنب لأنّه دفعها إلى هذا الكلام الجارح والمؤلم لامرأة مثلها...

- امسحي دموعك يا ليفي.. أنا آسف، لن أعود إلى هذا الحديث مرة أخرى، ما رأيك في كوب من القهوة؟

- لا تعتذر.. فأنت لم تخطئ.

- مضيا إلى المقهى الخاص بالفندق، وقد عزم جورج على تغيير موضوع الحديث والتعالي عن رغبته الجسدية..

- ما تخوفاتك من توقيع عقد الحماية مع شركتنا؟

- ليس لدي أي تخوفات.

- طُلِب مني أن آتي من بريطانيا من أجل إجابة أسألتك.

- ههههه، الحقيقة أنه من أجل أن تأتي بمبلغ بنيامين، إن كان المبلغ معك وسلمته لبنيامين فاعتبر العقد موقعًا.

- بالفعل هو معي هل أسلمك إياه أم أسلمه بنيامين؟

- سلمه بنيامين.. ثم ابتسمت بحزن: حتى أنت تعمل لخدمة بنيامين وكاخ ولو تعارض مع مبادئك!

- للأسف ما تقولينه صحيح، المفروض أن ننافس بمنتجنا لا بالرشوة..

- إذن ليست اليهودية بأسوأ من المسيحية!

- ربما، وبما أنك صريحة معي لهذه الدرجة دعيني أقول لك الحقيقة.

- أي حقيقة؟!

- أنا في رحلة للبحث عن السعادة بعد قلق وهم أصابني لعدم استطاعتي الإجابة على أسئلتي الكبرى، وبدأت أبحث في الأديان، وبحثي الآن في اليهودية، وسيعقبه المسيحية، ثم الإسلام.

- السعادة كلمة رائعة، لكن يبدو أنها خاصة بالرجال في اليهودية، كم أتمنى لو كنت رجلًا!

- ألم تتديني لتنالي السعادة؟

- بلى، لكن ربما سعادة الآخرة فقط.

- ولماذا لم تغيري دينك؟

- اليهودية أفضل من النصرانية والإسلام، فهي الدين الأعرق، وشعبها هو الشعب المختار، وكل ما قلته ربما كان فضفضة لشعوري بالإهانة، عذرًا ألا تشعر بالإهانة عندما تدفع رشوة وتخالف مبادئك؟!

- بلى، كثيرًا ما تحولنا الحياة إلى أدوات يلعب بها الناس، ههههه، لكن ألا ترين أن اللاعبين كلهم يهود؟!

- ههههه، طبيعي فنحن شعب مصطفى ومختار.. وتريدني أن أترك اليهودية!

- بما أن جمالك أشرق مرة أخرى، وبما أن العقد والاتفاقية وتساؤلاته انتهينا منهم، هل تتضايقين لو تناقشنا في اليهودية أكثر؟ ولن ندخل في موضوع المرأة، فأنا أود أن أتعرف أكثر على دينكم العريق.

رنّ هاتف جورج، وكان المتصل بنيامين؛ فاستأذن ليفي في الرد.. كان بنيامين يطمئن على أحواله مع ليفي، وكيف كان لقاؤهما..

- أنا بخير، وليفي بخير، ولا زلنا نتناقش في أعمالنا.

- ههههه، أما انتهيتم؟

- ليس بعد.. ربما ننتهي اليوم.

- بإمكانكم أن تكملوا اليوم وغدًا في الفندق إن أردت، فنحن في خدمتكم.

- حسنًا، ولكني أود أن أقابلك غدًا إن كان ممكنًا، فلدي شيك لكم وحتى نوقع العقود.

- متى ما انتهيت من ليفي أنا في خدمتك.

- شكرًا سأتصل عليك لترتيب الموعد.

- أنتظر اتصالكم، وأقترح أن تأخذك ليفي في جولة إلى المدينة المقدسة غدًا إن أردت.

- سأتفق معها على هذا..

- أترككما يبارككما الرب.

أنهى جورج المكالمة، ونظر في عيني كاترينا الزرقاوين الجميلتين..

- بنيامين يريد أن يطمئن على الشيك.

- ويطمئن أني نفذت كل المطلوب مني.

- اقترح علي اقتراحًا جيدًا.

- لا أظنه يأتي باقتراح جيد، ماذا اقترح؟

- أن نخرج غدًا في جولة إلى المناطق المقدسة.

- جميل.. ولكنه غريب، أحيانا يأتي اقتراح جيّد من شخص لا يُتوقع منه ذلك.

- الساعة الآن السادسة، إن أردتِ أكملنا نقاشنا عن اليهودية، وغدًا أنتظرك صباحًا لنأخذ جولة إلى المناطق المقدسة اليهودية؟

- جيد، نكمل نقاشنا وأقترح أن تكون زيارتنا للمناطق المقدسة بعد غد أي يوم السبت، ثم ابتسمت بخجل: نذهب لرؤية الأماكن المقدسة، وإن كنت تريد شيئا آخر فاليوم أو غدًا.

- شيئًا آخر.. فهمت، أنت فاتنة في الجمال، لكني قلت لك أني متزوج ومبادئي تمنعني.

- بصراحة أكثر، المتزوجون المسيحيون المتدينون هم الذين لا يمانعون في مثل هذه الأمور.

- نعم.. للأسف صدقتِ، لكني أرى ذلك لا يليق بي فهو خيانة لزوجتي، فكما لا أرضاه منها لا أرضاه لها.

- دون مجاملة أنت رجل رائع، وأنا ممتنة لك كثيرًا.

استمرا ينظران في أعين بعضهما البعض بإعجاب واضح من الطرفين، ولم يشعر إلا ويده تمسك بيدها الناعمة، ثم انتبه جورج وسحب يده وقال بإحراج..

- شكرًا لك، ولا أظن أن هناك ما يستدعي هذا الشكر، المهم أني أرى أنه من المناسب أن تكون زيارتنا كما قلت يوم السبت.

- جيد، نكمل نقاشنا.

- أود أن أتعرف أكثر على التوراة والتلمود.

- كما قلت لك نحن نقول إن التوراة من عند الله، بينما التلمود فهو شروحات وتوضيحات وقوانين للتوراة تم تناقلها شفويًا ثم كتبت بعد ذلك.

- أي أن التلمود كلام بشر!

- نعم، إلا أنه لا يمكن فهم التوراة إلا من خلالها، فلسنا مثل المسيحيين كما قلت لك سابقًا.

- ولماذا لا ترجعون مباشرة لكلام الله في التوراة؟

- وعدتك أن أكون صادقة معك، حتى التوراة فيها الكثير من الإشكالات، ولعلك رأيت كلامها عن المرأة.

- كيف يكون كلام الله فيه إشكالات؟ لم أفهم!

- للأسف نحن نقول إنه من عند الله، ولكن توجد أدلة على أنه قد وقع فيه تحريف.

- أدلة على التحريف؟! أين النسخة الأصلية؟

– أصول التوراة مفقودة، ولكن يوجد ثلاث نسخ مختلفة، وبعضها فيها جمل زائدة ومتناقضة وهذه النسخ هي:النسخة اليونانية؛ وهي النسخة التي بقيت معتبرة لدى النصارى حتى القرن الخامس عشر وخلال ذلك كانوا يصفون النسخة العبرانية بالتحريف، وما تزال الكنيسة اليونانية تعتبرها صحيحة وكذلك سائر كنائس المشرق، والنسخة العبرانية؛ وهي المعتبرة لدى اليهود والبروتستانت، وتشتمل على ٣٩ سفرا من الأسفار، وقد كان إجماع النصارى قائما على صحة وسلامة النسخة اليونانية حتى القرن الخامس عشر، وأن النسخة العبرانية قد حرفها اليهود عام ١٣٠م عمدا بهدف التشكيك في صحة النسخة اليونانية التي يعتمدها النصارى آنذاك، كما يضاف لذلك أن التحريف يستهدف النصارى ويهود السامرة معا، ولكن بعد ظهور طائفة البروتستانت في القرن السادس عشر انعكس الأمر؛ فذهب البروتستانت إلى صحة النسخة العبرانية والقول بتحريف النسخة اليونانية، وأخيرًا النسخة السامرية؛ والسامرة هي فرقة يهودية تسكن جبال نابلس، وهذه النسخة لا تحوي سوى سبعة كتب من العهد القديم وما زاد يعتبره يهود السامرة زيادة مزورة، وفيها جمل وفقرات لا توجد في باقي النسخ، ويعتبرها بعض المحققين من البروتستانت دون النسخة العبرانية وإن كانوا يلجئون إليها في بعض المواقع فيقدمونها على العبرانية.

– تأريخ عجيب جدًّا وتناقض مثير، ولكن ما مظاهر هذا التحريف.. غير موضوع المرأة والجنس؟

– كثير!! منها ما تحدثنا به صباحًا عن وصف الله بما لا يليق، ومنها نسبة الفواحش والنقص للأنبياء، ومنها..

– أعتذر على مقاطعتك، الفواحش والنقص للأنبياء؟!

– ههههه، أتدري!! لأول مرة في حياتي أتحدث هكذا، وحقيقة أنا مستغربة من نفسي جدًّا، لكني أشعر بسعادة لأني أقوم بذلك، فهل هذا نوع من التنفيس أم وسوسة من الشيطان؟! لا أدري لكني سعيدة بفعل ذلك، دعني أعطيك أمثلة: في التوراة وُصِف نبي الله نوح عليه السلام بأنه يشرب الخمر ويتعرى؛ فقد جاء فيها: «وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه»، وجاء عن لوط عليه السلام: «أنه سكن وابنتاه في غار، فقالت ابنته الكبرى للصغرى: قد شاخ أبونا، وليس على الأرض رجل يدخل علينا، فلنسقي أبانا الخمر، ونضطجع معه في مضجعه، ففعلتا، وحملتا منه بولدين موآب وعمون» وغير ذلك كثير أظن هذين المثالين كافيين.

– أعتذر لكِ ليفي، لكن لماذا تعودين للقضايا الجنسية كلما خرجنا منها؟

– لأني عاهدت نفسي أن أكون صادقة معك، وأنت الذي سألتني.

- أود أن ننتقل إلى موضوع آخر.

ابتسمت ليفي واحمرت وجنتاها خجلًا وبدت أكثر جمالًا وتألقا..

- ههههه، تفضل وأتمنى ألا تتحول بأسئلتك للجنس والمرأة.

لم يكن طلب جورج البعد عن القضايا الجنسية إلا هروبًا من إلحاح عينيه على جسده بجمال الفتاة اليانعة التي أمامه؛ فلا يريد أن تلح أذنه على جسده الذي بدء يشعر بالحنين الجارف والعطش الشديد للارتواء من الجمال الفاتن الذي أمامه، فخاف أن يخون كاترينا ومبادئه، يالسخافة الحياة ويا لصعوبتها، ثم تذكر كلمة آدم المشهورة «السعادة في البساطة»، فتمتم بداخله: ليتني أستطيع أن أعيش مع مبادئي ببساطة، فحاول أن يغير الموضوع..

- قلت لي إنك من النمسا.

- ههههه، لا قلت لك إني من إسرائيل.

- نعم، أقصد أن والديك من النمسا، واسمحي لي فحسب الإحصاءات البريطانية كانت نسبة اليهود عام ١٩٤٥م ٣٨٪، ونسبة المسلمين كانت ٥٨٪، والمسيحيون ٨٪، وأن هذه النسبة المرتفعة لليهود بسبب هجرة ٥٠٠٠٠٠ - ٦٠٠٠٠٠ خلال الفترة من ١٩٢٠- ١٩٤٥م، فكيف تعتبرون أن المسلمين والمسيحيين إرهابيون وأنتم القادمون عليهم والمحتلون لأرضهم؟!

- عذرًا.. أنتم البريطانيون المحتلون، وأنتم الذين أعطيتمونا أرضنا وأعدتم لنا حقنا.

- ولماذا أعادت بريطانيا لكم حقكم كما تقولين، هل هي خدمات مجانية لكم فقط؟!

- الذي يهمني أنها أرضنا وأعيدت لنا، أما لماذا خدمتنا بريطانيا، فهو سؤال لك وليس لي.. وإن كانت بريطانيا وأوربا قد خدمتنا فقد قتلتنا كثيرًا ألا تعرف ذلك؟

- تقصدين الهولوكست؟!

- نحن شعب اضطهد كثيرًا على مدى التاريخ، وما الهولكست إلا الحلقة القريبة من الاضطهاد غير الأخلاقي لنا.

- بالأمس ليلة مجيئي إلى هنا كانت زوجتي الكاثوليكية تحدثني عن الاضطهاد اليهودي للمسيحيين، كل شعوب الدنيا تشعر بالاضطهاد!

- صدقت.. حتى البرابرة الإرهابيون المسلمون الذين قتلوا أبي يقولون أنهم مضطهدون، لكن التاريخ والوقائع تعطيك الحقيقة.

- أنت قلت أنك تحبين النقاش ولا تتضايقين من الصراحة فيه، ألا ترين أن المسلمين مضطهدون، أُحتلوا وطُردوا من بلادهم وقُتلوا وشُردوا!

- الإرهابيون يستحقون هذا وأكثر، ثم من فعل هذا! هو أنتم قبلنا فلا تنتقدونا.

- لقد تحولت إلى هجومية، نعم نحن فعلناه قبلكم ولكم، لكن ألا ترين أنهم مضطهدون؟
- قلت لك يستحقون ذلك وأكثر؛ فهم برابرة متخلفون وحشيون إرهابيون...
- ولكن ألا ترين أن المسيحيين في فلسطين أيضًا مضطهدون وليس المسلمون فقط!
- تعني إسرائيل وليس فلسطين.
- نعم ألا ترين أن المسيحيين في إسرائيل مضطهدون من اليهود!
- لا تغضب، المسيحيون بإمكانهم أن يذهبوا إلى أي مكان في أوربا أو أمريكا إن لم يعجبهم تعاملنا!!

- ههه، كلامك القاسي الحاسم هذا يتناقض مع جمالك، لا أتصور أن هذه الرقيقة الجميلة تقول مثل هذا الكلام القاسي!

- من ليس مستعدًا أن يخدمنا فليس له عندنا إلا القتل! هذه هي تعاليم الكتاب المقدس.

- أهكذا تعاليم الكتاب المقدس؟!!

- نعم، فلدينا في التوراة: «قال الرّبُّ إله إسرائيل: على كل واحدٍ منكم أنْ يحملَ سيفه ويطوف المَحلَّةِ منْ باب إلى بابٍ ويقتلَ أخاهُ وصديقَه وجارَهُ»، ولدينا أيضا: «وكلَّم الآخرينَ فسمِعتُهُ يقولُ: اذهبوا في المدينة وراءهُ واضربوا. لا تُشفِقوا ولا تَعفوا. اقتلوا الشُّيوخ والشُّبَّانَ والشَّاباتِ والأطفالَ والنِّساءَ حتى الفناءِ»، ولدينا: «فَالآنَ اذهب واضرب عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا»، تكفيك هذه النصوص أم أزيدك؟

- أعتذر.. يبدو أنني أغضبتك، اهدئي قليلًا.. هذا إرهاب لا يطاق!

- أنا هادئة، وقد قلت لك كلام الله كما في التوراة لا كلامي!

نادى جورج النادل، وطلب منه عصير برتقال.. والتفت إلى ليفي التي تحاول أن تخفي عنه توتّرها وانفعالها..

- ماذا تريدين لتهدئي أكثر؟

- عصير ليمون لو سمحت.

سكت جورج للحظة وهو ينظر في وجه ليفي وهي تتنهد، ويتأمل في التناقض بين الجمال الرقيق والقتل والتشريد وعدم الشفقة الذي تتحدث عنه.. كانت ليفي مطرقة برأسها، تنظر إلى الأسفل، ثمّ رفعت رأسها وهي تدمع..

– مات أبي، وأصبحت لعبة عند بنيامين كل ذلك بسبب اضطهادنا طوال التاريخ، ثم تريدني أن أصدق أن هؤلاء الإرهابيين مضطهدون؟!

– تفضلي.. اشربي الليمون ودعينا من هذا الموضوع ما دام يضايقك..

– لا يضايقني، ويمكنك أن تكمل، وأنا هادئة جدًّا الآن.

– بصراحة هل أنت مقتنعة بنصوص التوراة التي ذكرتيها؟

– بصراحة.. بصراحة لا.

– لماذا؟

– ألم أقل لك إن التوراة مليئة بالتحريف، هذه القسوة لا يمكن أن تكون من عند الرب الرحيم!

– صدقت.. فالرب رحيم بعباده.

– وحتى أعيدك للجنس والمرأة اسمع هذا النص من التوراة: «فالآنَ اَقْتُلوا كُلَ ذَكَرٍ مِنَ الأطفالِ وكُلَ امرأةٍ ضاجعَت رَجلًا، وأمَّا الإناثُ مِنَ الأطفالِ والنِّساءِ اللَّواتي لم يُضاجِعْنَ رَجلًا فاَسْتَبقوهُنَّ لكُم »، ثم ابتسمت مرة أخرى، وقالت: وخذ هذا النص أيضًا: «فَأَوْصَوْا بَنِي بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ: انْطَلِقُوا إِلَى الْكُرُومِ وَاكْمِنُوا فِيهَا. وَانْتَظِرُوا حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِلرَّقْصِ فَانْدَفِعُوا أَنْتُمْ نَحْوَهُنَّ، وَاخْطِفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَةً وَاهْرُبُوا بِهِنَّ إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ»، ثم ضحكت بسخرية وقالت: عدنا للجنس والنساء إلا إنه الآن في سياق القتل والخطف! فهل تود أن نترك الموضوع أيضًا؟

– عجيب! لا أكاد أصدق ما أسمع! نعم لنتجاوز هذا الموضوع أيضًا، ولكن إن سمحت من هم بنات شيلوه؟ من هو شيلوه؟

– شيلوه هو المسيح أو المسيا على أحد التفاسير عندنا، المهم أنهن النساء غير اليهوديات كنسائكم ونساء المسلمين، وأعتذر لك لكنك استفززتني؛ ففقدت أعصابي.

– لا بأس، أظن الوقت متأخرا الآن وأنا أدعوك للعشاء الآن حتى تهدئي قليلًا.

– أووه.. لم أنتبه للوقت الساعة الآن التاسعة مساءً، إن كان هذا أمر منك فأنا موافقة، وإلا فأنا أود أن أنصرف إن سمحت لي.

– لا أحب الكلام بهذه الطريقة، أنا لم آت لآمرك، وقد قلت لك أني ارتحت لصراحتك، واستفيد منك كثيرًا في طريقي للسعادة، وأنا أحب أن أجلس معك عندما تكوني ترغبين أنت في ذلك.

– شكرًا لك على لطفك، أراك غدًا إذن.

– اتفقنا أن يكون لقائنا بعد غد يوم السبت!

– زيارتنا للأماكن اليهودية المقدسة بعد غد، ولكن يمكن أن نكمل نقاشنا غدا إن أردت؟

– سألتقي بك غدًا عندما آتي لمقابلة بنيامين صباحًا، لكني أود أن أزور كنيسة القيامة وكنيسة مريم إن تمكنت.

– كنيسة القيامة كنيسة ليست بروتستانتية وأنت تقول أنك بروتستانتيا.. ثم قالت بدلال أخاذ: هل تخدعني؟

– ولماذا أخدعك؟ سأزورها لأني وعدت زوجتي الكاثوليكية بأن أزورها.

– أنت تحب زوجتك كثيرًا، سأرسل لك الساعة الثامنة صباحًا السائق ليحضرك للمكتب لمقابلة بنيامين، وحاول أن تخرج مبكرًا لتتمكن من رؤية الكنيستين فغدًا جمعة.

– وماذا يعني أنه جمعة؟

– يعني حواجز وتفتيش في كل الطرق، للتأكد من عدم قيام إرهابيين بالتفجير وهم ذاهبون لصلاة الجمعة.

– سأكون في الثامنة جاهزا لأتحرك للمكتب.. ثم قام وصافح ليفي وهو ينظر في عينيها، وقال: أنا ممتن لك وأعتذر عن إزعاجك.

– أنا الممتنة لكرمك ولطفك وصراحتك ووفائك لزوجتك ولمبادئك.

– أنتِ رائعة!

– كم أتمنى أن أسير معك في طريق السعادة الذي تسير فيه، لكن ظروفي لا تساعدني.

– ومن يدري؟ ربما.. ألقاك صباحًا أيتها الجميلة.

تناول جورج عشاءه سريعًا بعد انصراف ليفي، وصورتها لا تفارقه.. كان يحسّ بقربها منه، ولكن لا يدري لم؟ هل هو بسبب جمالها الفتان؟ أم لصراحتها معه؟ أم أنه تعاطف معها؟.. كان يشعر بنفسه حائرًا، يتذكر ابتسامتها.. ويتذكر دموعها.. ويتذكر غضبها وانفعالها.. كل ذلك ظلّ حاضرًا في ذهنه. تملّكه الأسف عليها.. هي ضحية لتعاليم محرفة وظالمة.. كيف لتلك المسكينة أن تواجه كل هذا الظلم والتعدي في حقها باسم الرب!!

صعد غرفته، وفتح جهاز التلفزيون محاولًا أن ينسى ليفي وجمالها وليرى الأخبار، كانت أخبار التفجير الإرهابي في لندن تناقصت، لكنه رأى وسمع في الأخبار أن المسئول عن التفجير حركة سيتا المنشقة، وأن الباكستاني المطلوب تم القبض عليه؛ فقد كان خائفًا مختبئا في أحد المناطق في ضواحي لندن، وتم الإفراج عنه بعد أن ثبتت براءته.. فقال في نفسه: ثبتت براءتك يا كريم الله. ثم جاء في الأخبار تجهز الحكومة الإسرائيلية لغد الجمعة، ومنع مَن أعمارهم أقل من خمسين عام من الصلاة في المسجد الأقصى تحسبًا لأي تفجير إرهابي.. أغلق التلفاز، وفتح بريده الإلكتروني، ورد على البريد الوارد عليه، ثم قرر أن يكتب بعض نصوص التوراة التي أخبرته بها ليفي

ويرسلها لتوم وآدم.. انتهى من كتابتها وأرسلها، وكانت الساعة الحادية عشرة، فاستلقى على فراشه للنوم، لكن خيال ليفي لم يختفِ من مخيلته، تساءل: هل أخطأ عندما لم يجعلها تنام معه الليلة! كم ستكون ليلة سعيدة ممتعة لو وافقها، ثم هي كانت جاهزة، وقد فعلته قبل ذلك مع كاخ، أي مبادئ هذه التي تمنعنا من لذائذ الحياة؟! ولا يدري لماذا تذكر عند ذلك غيرته وغضبه لما تخيل أن كاترينا خانته مع توم، تمتم في داخله: أي تناقض أعيشه؟! أريد الخيانة وأغضب منها، وأدفع الرشوة وأرى أن من يأخذها ليس على خلق أو مبدأ، كم أتمنى أن تستقيم روحي وفكري وحياتي وسعادتي ومبادئي..

(٤)

لم تأت الساعة الثامنة صباحًا إلا وقد انتهى جورج من إفطاره، صعد إلى غرفته إلى حين وصول السائق، وفي الثامنة تمامًا اتصل موظف الاستقبال ليخبره أن هناك من ينتظره في الاستقبال، فنزل وكانت المفاجأة أن الذي كان في انتظاره هي ليفي وليس السائق كما قالت له، سعد بلقياها وابتسم وصافحها..

- لم أكن أود أن أتعبك.
- أنت تستحق..كما أن نقاشاتك تعجبني جدًّا.
- شكرًا لك على مجاملتك وخلقك وأدبك، هل بنيامين في المكتب الآن؟
- هو ينتظرك في المكتب فقد أخبرته بأنك ستأتيه.
- شكرًا لكِ، فقد نسيت أن أتصل عليه.

ابتسمت ابتسامة ودودة أشرق لها وجهها...

- بعد خروجي من عندك وقبل وصولي البيت كان بنيامين يتصل علي ليتأكد أني بت عندك، ولم يصدق أنك لست ككاخ وأنك لا تريدني، فأخبرته بأنك ستأتيه صباحًا وبإمكانه أن يتأكد بنفسه.

نظر إليها بحزم وجد وهو يقول:

- ومن قال أني لا أريدك؟!

ارتبكت ليفي وقد بدا على وجهها صراع مشاعرها وأفكارها وآرائها وشهوتها..

- ماذا تعني؟ هل تغير شيء بعد انصرافي؟

– ههه، أريدك بثقافتك وعلمك وذكائك وروحك وأخلاقك وأدبك، أما جسدك فهو كجوهرة أتمنى تأملها، وكزهرة أرغب في شمها، لكن من العار أن نرى المرأة جسدًا فقط، ولا أحب أن أفقدك أو أفقد مبادئي.

– مسحت بيدها اليسرى على جبهتها وهي ترفع خصلة من شعرها بحركة مضطربة كاضطراب روحها.

– آه.. لا أدري لماذا خفت كثيرًا؟

– وهل أخبرتيه بأننا أخذنا بفكرته، وسنذهب لزيارة الأماكن المقدسة؟

– لا، أخبره أنت.

– حقيقة لا أرتاح لبنيامين، وأشعر بالإهانة أنني أتنازل عن مبادئي وأعطيه الرشوة، لكني لم أفكر في الموضوع قبل قدومي وإلا لرفضت، عمومًا يجب أن ننهي الموضوع الآن وبعد عودتي لكل حادث حديث.

– جيد، لأنك لو لم تعطه المبلغ لفهم بنيامين أني لم أقم بعملي بشكل جيد.

– حياة تافهة التي يتنازل فيها المرء عن مبادئه من أجل المال أو الجنس أو المنصب!

– قد أكون متناقضة، ولكن لولا تنازل الناس عن مبادئهم من أجل المال والجنس والمنصب لما قامت إسرائيل، ولما استمرت وبقيت أيضًا.

– كم أشعر بتفاهة الحياة وتفاهتي الشخصية وأنا أتجه لدفع الرشوة، ولا أعرف كيف لم أفكر في الموضوع لما أخبرني كاخ!

– على كل الأحوال هذه هي الشركة وقد وصلنا، وستجد العقود جاهزة للتوقيع عند بنيامين.

– أتمنى أن ننتهي سريعًا، وأحتاج بعد انتهائي لسائق يأخذني في جولة إلى الكنائس.

– أعتذر.. لا أستطيع أن آخذك للكنائس بنفسي، وستجد السائق في انتظارك.

دخل جورج وليفي على بنيامين، فقام بنيامين مرحبًا بجورج وصافحه مبتسمًا..

– كيف كان يومكما بالأمس؟ وكيف كانت ليلتكما؟

– كان يومًا حافلًا أنهيت فيه مع ليفي كثيرًا من الأعمال.

– نعم.. أخبرتني ليفي بأنك جاهز لتوقيع العقود، وأنك أجبت على كل تخوفاتها التقنية، ثم التفت إلى ليفي قائلًا: بإمكانك أن تنهي أعمالك الآن حتى أنهي مع جورج توقيع العقود.

– سأنصرف؛ فلدي بعض الأعمال.. ثم التفتت لجورج: وبمجرد انتهائك ستجد السائق في انتظارك.

– ولماذا السائق؟ بإمكانك أن تأخذ ليفي؟ ألم تناسبك؟ ألم تعجبك؟

– اتفقنا أن ننفذ اقتراحكم في الجولة على الأماكن المقدسة غدًا معًا، أما اليوم فسأذهب في جولة على الكنائس المقدسة.

– وكيف كانت معك ليفي بالأمس؟

– رائعة جدًّا.

– استغربت لما اتصلت عليها الساعة التاسعة والنصف فأخبرتني أنها قريبة من البيت، كان بإمكانك أن تأخذ وقتك معها بشكل أكبر بما أنها رائعة.

– انتهينا من نقاشاتنا الساعة التاسعة فانصرفت، وكنت قد أخبرتك في الهاتف أني أريد مقابلتك لتوقيع العقود وإنهاء الموضوع.. هذا هو الشيك مقدم لك من كاخ.

– شكرًا لك ولكاخ، وهذه العقود جاهزة للتوقيع.

– انتهينا؟

– انتهينا من العقود، ولكن بقي لك ثلاثة أيام عندنا، أنا وليفي في خدمتك.

– شكرًا لكرمك.

– حتى لو أردت ليفي بعد انتهاء جولتكما غدًا أن تأتي عندك في الفندق لتسهران معًا فهي مستعدة.

– أعتقد أني سأكون متعبًا بعد الجولة، وسأحتاج أن أستريح وأنام مبكرًا، ولن أتمكن من السهر!!

– ههههه، جرب أن تريحك ليفي.. عندما كان يأتي كاخ لتوقيع العقود لم يكن ليرتاح أبدًا حتى تريحه ليفي.

– لقد وقَّعنا العقود وانتهينا، فهل يمكن أن أتناقش معك في موضوع آخر ليس له أي علاقة بالعقود؟

– لم أفهم ما تريد؟ تفضل..

– سأقول بصراحة ودون إحراج: لماذا تأخذ مبلغًا لكي توقع على العقود؟ أليست هذه رشوة مالية؟

– ههههه، إن كنت تحب الصراحة؛ فلماذا تستمتع أنت وكاخ بليفي لكي توقعوا على العقود؟! أليست هذه رشوة جنسية؟!

– بلى هي رشوة جنسية، وهذا أحد أسباب امتناعي عنها.

- لم يكن كاخ يمتنع عن ذلك، بل كان يطلبه بوضوح وصراحة، أما أنت فطلبته بالأمس تلميحًا، وإن كان كما قلت بأنك لم تستمتع بليفي فهذه مشكلتك أنت، ثم إن كانت رشوة كما تقول فلماذا دفعتها لي؟!

- يبدو كلامك صحيحًا ومنطقيًا، لماذا أدفعها إن كانت رشوة.. عمومًا هل يجلب لك المال والجنس السعادة؟

- بلا شك أن سعادة الدنيا في الاستمتاع بالجنس والمال والسلطة.. ثم تنهد وقال: حتى لو كانت هذه المتع نفسها جالبة للشقاء لنا.

- لم أفهم كيف تكون متع الحياة وجالبة للشقاء؟!

- هذه تناقضات الحياة يا صديقي، الجنس والمال والسلطة أمتع ما في الحياة الحسية، لكنها تظلم وتشقي أحيانًا أرواحنا، بالضبط مثل أعيادنا الحزينة البعيدة عن الفرح والسرور، ألا يفترض أن يكون العيد أسعد أيامنا؟ سأجيب نعم، لكن أعيادنا أيام حزينة عندنا.

- كيف؟

- ليفي يمكنها أن تجيبك أفضل مني.. ههههه، وهي أجمل كذلك، فيمكنك أن تكمل النقاش معها، وفي المكان والوضع الذي يريحك.

- إذن شكرًا لك.

خرج جورج من عند بنيامين، وسأل سكرتيره عن مكتب ليفي، ثم اتجه إليه.. دخل على ليفي، فبادرته سائلة بلهفة:

- ماذا دار بينكما؟

- أشعر بالمهانة، أعطيته الرشوة، ووقعنا العقد.

- وهل تكلمت معه عن الرشوة أو عني؟

- نعم، تكلمنا عنك كثيرًا، آسف لا يزال يعرض علي جسدك.. ثم ابتسم، وقال: والجديد أنه عرض علي أن أستفسر منك عن بعض الموضوعات.

- تستفسر مني؟!

- لما كلمته عن الرشوة أحرجني بأني وكاخ نأخذ رشوة، لكنها ليست مالية بل جنسية، ثم أحرجني بأني أنا مَن يدفع الرشوة وهو الذي أخذها، فكلانا سواء.

- للأسف لدى الإنسان أحيانًا قدرة على الجدل وفلسفة أخطاءه.

- من تعنين؟!

- أعني بنيامين، ثم أطرقت وسكتت لحظة، ثم قالت: وأعني نفسي، عذرًا وأعنيك.

نظر جورج للسقف بأسى، ثم قال:

– صدقتِ.. فمتى تكون فلسفتنا في سعادتنا وتقدمنا بدلًا من فلسفة الخطيئة والرشوة؟

– لكن لم تخبرني عما تستفسر؟

– قال بنيامين إن هذه هي طبيعة الحياة؛ فهي معقدة، سعادتها ومتعها هو ما تشقى به أرواحنا، مثلها مثل أعيادنا الحزينة التي يفترض أن تكون سعيدة.

– ربما يكون من مظاهر التحريف التي تحدثنا عنها سابقًا أن اليهودية دين معقد، فليس المشكلة في فهمك، بل في تعقيد حقيقة اليهودية، المهم أعياد اليهود أعياد ليست للفرح بل للحزن في غالبها.

– كيف؟

– الأعياد مخصصة للعبادة، والعبادة اليهودية عبادة بكاء وحزن، ألم تسمع عن حائط المبكى؟! بل في أهم أعيادنا الذي نسميه سبت الأسبات ـ أعني يوم الغفران ـ نصوم أكثر من ٢٤ ساعة ليلًا ونهارًا ولا نقوم بأي عمل سوى التعبد، عمومًا أعيادنا كثيرة جدًّا ومع ذلك يقوم غالبية اليهود خاصة العلمانيين باعتبار الأعياد عطلات وفرح، وأنها بلا عبادة إلا الشكلية منها.

– ليس هذا هو المهم، هل يمكن أن تكون الحياة معقدة لدرجة ألا نجد السعادة إلا فيما يشقينا؟!

– للأسف دائما ما يثار هذا السؤال في نفسي، ولم أستطع أن أجيب عليه رغم تعمقي في التوراة والتلمود، وربما كان ذلك بسبب طبيعة تعقد النفسية اليهودية أو الدين اليهودي، وربما كان هذا يحتاج مني أن أكون أكثر علمًا حتى أصل إلى الإجابة.

– لا أعرف.. ولكني أكره التعقيد، وأعتقد أنه لا يوصل لشيء إلا الشقاء.

– أكره التعقيد، ولكني واقعة فيه، على كل حال لقد تأخرت عن د. حبيب والساعة الآن العاشرة والوقت ليس في صالحك كثيرًا وهو ينتظرك في الخارج.

– من هو د. حبيب؟

– باحث في الأديان مسيحي كاثوليكي.. لقد اخترته بنفسي فأنا أعرف من يصلح لصحبتك.

سكت جورج للحظات، فهو لم يكن يود مفارقتها، حاول أن يملئ عينيه بجمالها، من خصل شعرها المتدلية على كتفها، من عينيها النابضتين بالحياة، من ثغرها المشرق، من جسدها الغض الناعم، من حركاتها الساحرة.. من كل شيء فيها، هل أخطأت عندما لم أبت معها ليلة تروي عطشًا في جسدي؟ هل صحيح ما قاله بنيامين من أن متع الجسد تشقي الروح، آه لقد نسيت أن أناقشها في ذلك!

شعرت ليفي بنظراته كأنها تقبلها في كل جزء من جسدها، لا تدري لماذا شعرت بالنشوة لهذه النظرات، هل هي تريد أن تتمتع معه، فلماذا تمنعت إذن؟ أم أنها تمنعت ليلاحقها فلم يفعل، ثم هو لماذا امتنع عنها ونظراته تأكلها، هل غير رأيه، ربما، هل تفاتحه في الموضوع وتبيت عنده الليلة، أم ماذا تفعل؟!!

- أنا شاكر وممتن لكِ، وأنتظر لقياكِ غدًا الساعة الثامنة صباحًا.

- شكرًا لك جورج.

خرج جورج وسلم على د. حبيب ورحب به، ومضى معه إلى سيارته..

- سنتجه أولًا إلى كنيسة القيامة، فاليوم جمعة وهناك تشديدات في الطرق؛ وقد يأخذ منا الطريق ساعتين.

- ساعتين؟!

- للأسف نعم، يأخذ الطريق خمس وأربعون دقيقة عادة، لكن اليوم جمعة وكل الطرق مقفلة من كثرة نقاط التفتيش.

- رغم أن الزيادة في الوقت كبيرة ومتعبة إلا أن الأمر يستحق، فالإرهاب كارثة على البشرية.

- عن أي إرهاب تتحدث؟

- إرهاب العرب المسلمين.

- عفوًا، أنا عربي مسيحي كاثوليكي ولست مسلمًا، لكن الإرهاب الحقيقي هو إرهاب الدولة اليهودية، لماذا تمنع الناس من الصلاة في مسجدهم، أي إرهاب في أن يصلون في مسجدهم؟!

- عذرًا لست خبيرًا في التاريخ ولا في السياسة ولا في الأديان، ويبدو أنني أمام متخصص، لكن أليس المسلمون هم الذين يفجرون أنفسهم ويفجرون القطارات والباصات ليقتلوا اليهود؟!

- صدقت هم يفعلون ذلك، لكن هل يمكن أن أسألك ما الذي يصل بإنسان إلى أن يقتل نفسه؟

- من تجربة أتصور أنه لا يقتل الإنسان نفسه إلا إذا وصل لحالة يصبح الموت أسعد له من الحياة.

- وما الذي أوصل المسلمين لذلك هنا؟

- لا أعرف، ما الذي أوصلهم؟

- الظلم والقهر والاحتلال والإذلال.

- تبدو متعاطفًا كثيرًا مع المسلمين.

- أبدًا، أنا لست مسلمًا، ولكنني متعاطف مع سكان البلاد من المسلمين والمسيحيين، الذين ألغيت كرامتهم وسلبت أراضيهم وحقوقهم، تخيل نحن المسيحيين نطرد ونهجر من فلسطين وتهان أماكننا المقدسة.

- لكنكم لم تفجروا كالمسلمين؟
- نحن أقلية هنا ومع أننا مهانون إلا أن التعامل معنا أفضل من التعامل مع المسلمين؛ مراعاة للمسيحيين في العالم.
- ولماذا لا يراعَى المسلمون مراعاة للمسلمين في العالم؟!
- بوضوح واختصار: نحن نعيش في عالم لا يحترم إلا القوة والقوة فقط.. دعني من ذلك هل تعرف كنيسة القيامة؟
- نعم إلى حد ما، فقد قرأت عنها كثيرًا.
- جيد مع أنك بروتستانتي كما أخبرتني ليفي.
- نعم، يبدو أن ليفي أخبرتك بكل شيء.
- أعرف ليفي منذ حوالي خمس سنوات، ولم أرها حريصة على أحد كحرصها عليك وعلى راحتك.
- لم أعرف ليفي إلا بالأمس القريب، لكن ذلك من حسن خلقها.. كيف تعرفت أنت على ليفي؟
- جاءتني متعبة من اليهودية، وكانت تفكر في أن تتنصر فجاءت تناقشني في الكاثوليكية، فهي تحب النقاش جدًّا.
- وهل تنصرت؟
- طبعًا لا، لم تقنعها الكاثوليكية ولا اليهودية مع أنها متدينة جدًّا، كما أنها من بيت دين يهودي لو تنصرت يمكن أن تقتل أو تسجن أو تعاقب بأي عقوبة.
- ولماذا لم تقنعها بالكاثوليكية؟
- ربما للتناقضات الموجودة فيها، وربما للطبيعة اليهودية المعقدة!
- وربما للطبيعة المعقدة للكاثوليكية.
- ههههه، ربما.
- عرفتك ليفي لي بأنك باحث في شئون الأديان.
- نعم.. فأنا دكتور في الجامعة أُدرس مادة تاريخ الأديان.
- هل يمكن أن تحدثني عن تاريخ الأديان في فلسطين؟
- الموضوع بسيط جدًّا رغم التعقيدات السياسية والدينية التي تكتنفه.
- أعشق البساطة.. أعطني إياه ببساطة لو سمحت.
- ببساطة.. بلا شك أن هذه الأرض مأهولة قبل كل الأديان، وأن كل الأديان السماوية مرت على

هذه البلاد المقدسة، وأن اليهودية سبقت المسيحية والإسلام، فهناك سكان قبل كل الأديان، وكل الأديان جاءت هذه البلاد المقدسة وكانت تتمازج وتصبح جزءًا من هذه الأرض ولا تصادر مَن قبلها، بل تتعايش معه، حتى جاء اليهود في العصر الحديث فأرادوا أن يكونوا هم ـ وهم فقط ـ السكان وأن يلغوا كل من قبلهم ويقتلوهم أو يطردوهم.

– ألم يَطرُد المسلمون مَنْ قبلهم؟

– أبدًا، إحقاقا للحق كنائسنا موجودة من قبل دخول عمر بن الخطاب ولم تتضرر أبدًا.

– وماذا عن الحروب الصليبية؟

– حروب بين دينين وحروب بين السكان الأصليين المسلمون ومعهم بعض النصارى وبين الصليبيين القادمين من أوربا، وإلا فقد كان الناس في وفاق قبل قدوم الصليبيين من أوربا.

– والمسيحيون ألم يضطهدوا اليهود؟

– رغم أني مسيحي إلا أنه في الوقت الحديث، اُضطهد اليهود في أوربا وليس في فلسطين، أما هذه البلاد فهي بلاد التسامح.. أما قديمًا فقد قتلت الدولة الرومانية اليهود واستباحت دماءهم بعد بعثة عيسى عليه السلام وتكذيب اليهود له.

– تبدو عروبيتك تشدك للتعاطف مع المسلمين، لأن الإسلام دين العرب، أكثر مما تشدك لمسيحيتك!

– ربما، لكن الإسلام ليس دين العرب، فأكثر المسلمين ليسوا عربًا، وأنا عربي ولست مسلمًا، لكني أكاديمي أحرص أن تكون إجاباتي علمية، والعرب وصلوا للقدس قبل الإسلام، أليس إبراهيم أبا ليعقوب ولإسماعيل، وهو قبل الإسلام وقبل اليهودية؟!

– عذرًا على المقاطعة، تبدو الأحياء هنا قديمة جدًّا.

– نعم فقد اقتربنا من البلدة القديمة التي فيها كنيسة القيامة، ألم تلاحظ أننا مررنا على أكثر من خمس عشرة نقطة تفتيش.

– كم أرثى وأحزن لصفوف كبار السن عند نقاط التفتيش!

– لقد ساعدني أني مسيحي ومعروف لضباط النقاط في سرعة تجاوز نقاط التفتيش، أما كبار السن فالسبب أن من هم دون الخمسين ممنوعون من الصلاة اليوم.. أي أنه ممنوع دخول كنيسة القيامة لي ولك لو طبق النظام علينا.

– تبدو البلدة القديمة كنز من الذكريات والآثار للمسيحية!

– نعم، وللمسلمين كذلك.

– واليهود كذلك.

- هم يقولون ذلك، ولكن يبدو أن التاريخ والواقع لا يؤيدهم.. ثم ابتسم وقال: إلا أن القوة تأيدهم وهي الأهم في عالم الغاب الذي نعيشه.
- أنت متحامل جدًّا على اليهود!
- العلم يقول ذلك، لكن ربما أكون متحاملًا فهم احتلوا أرضي ومنعوني من حريتي ومن عبادتي.
- دعني من ذلك كل الأديان تقوله، أظننا وصلنا إلى كنيسة القيامة، أليس كذلك؟
- بلى، بإمكانك أن ترى قببها وصلبانها هناك، وسنكمل الباقي مشيًا.
- ألا تخاف من المسلمين؟
- إن نجوت من اليهود فالأمر بعد ذلك سهل، هل سبق وسمعت أن المسلمين قتلوا مسيحيًا في القدس؟

مشيا معًا قليلًا.. فإذا المبنى العريق للكنيسة ماثل أمامهم، هال جورج بناء الكنيسة، وراح يطالعها بدهشة وانبهار..

- ستذهَل أكثر عندما تدخلها.
- فلندخل إذن.

عندما دخلا نظر جورج لرسمة كبيرة منقوشة على الحائط لعيسى عليه السلام مصلوبًا، وأسفل منه صورة كبيرة لمريم العذراء عليها السلام، وصورة ليوسف النجار..

- أعتقد أن الصور أنسب للمتاحف! فهل تليق مثل هذه الصور بكنائس مخصصة للعبادة؟
- هذه طبيعتكم أنتم البروتستانت لا تحبون الصور في الكنائس.. ثم ابتسم ساخرًا وقال: تشبهون المسلمين في ذلك!
- لأول مرة يقال لي تشبهون المسلمين، فعادة ما تقولون لنا تشبهون اليهود.

التفت جورج ـ متأملًا بإعجاب ـ إلى قبة تشّع بضوء ينتشر منها، وينقسم إلى اثني عشر شعاعًا..

– هذه رائعة من روائع الدنيا، هذا الشعاع النازل من القبة يمثل الشمس التي تسطع في منتصف القبة من الفتحة التي في القمة، ينبع منها اثنا عشر شعاعا، والدلالة واضحة إلى يسوع القائم كبزوغ فجر يوم جديد، وإلى الإثني عشر رسولا: إشعاع الإيمان في الأرض. وقد تم تدشين القبة في الثاني من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٧م.

– رائعة حقًا، تشعر بروحانيات الإيمان في مثل هذا المكان المقدس.

– مع أنكم البروتستانت لا تحبون هذا المكان كثيرًا!

– ههههه، ومن لا يحب المكان الذي فيه الخشبة التي صلب عليها المسيح!

– هذه الكنيسة يهتم بها الكاثوليك والأرثوذكس أكثر.

– هدمها المسلمون سابقًا! وأنت تقول لم يهدم المسلمون أي بيت عبادة!

– صدقت.. هدمها الحاكم بأمر الله الفاطمي، وهو في التاريخ هدم الإسلام كما هدم المسيحية، ومع ذلك سمحوا ببنائها بعد هدمها بأربعين سنة.. أنا لست مسلمًا ولا يضايقني أبدًا أن أتحدث عن ظلم المسلمين، وقد تكرر في التاريخ، لكنه لا يقارن بظلم اليهود، وللأسف ولا بظلم المسيحيين لليهود، بالمناسبة أول من بنى الكنيسة مهندس سوري وليس أوربي اسمه «زينوبيوس» عام ٣٣٦م.

– غريب، لا توجد أعداد كبيرة في الكنيسة؟

– لأن القداس يؤدى يوم الأحد كما تعرف، واليوم جمعة والطرق صعبة جدًّا، وإلا فهذه من أكثر كنائس الدنيا زيارة ومن أقدس أماكن الدنيا.

صلى جورج في الكنيسة وفاء لوعد كاترينا، وتجول في الكنيسة مع حبيب الذي كان يجيب عن أسئلته ويعرّفه على معالم الكنيسة.. ثم خرجا ليذهبان إلى كنيسة مريم.. نظر حبيب للساعة وكانت تشير للثانية إلا الربع..

– آمل ألا نكون تأخرنا كثيرًا، فأمامنا من ساعة إلى ساعة ونصف للوصول لكنيسة مريم عليها السلام، والعودة تحتاج من ساعة إلى ساعة ونصف أخرى، وآمل أن نرجع قبل غروب الشمس.

– جيد، إذن إن سمحت لي أود أن أرتاح قليلًا لمدة نصف ساعة في السيارة فأنا أشعر بشيء من الإعياء.

– جيد خذ راحتك.

استلقى جورج على المقعد وأغمض عينيه، كان يشعر بأن إيقاع الأحداث في هذه السفرة سريع بل وسريع جدًّا، تذكر أنه أنهى الهدف الأول من سفره بسرعة، تذكر هدفه الثاني؛ وهو استبانة طريق السعادة، فتذكر حواراته مع ليفي وبنيامين وحبيب أيضًا، كل ذلك تم في يوم ونصف فقط، فماذا سيتم خلال اليومين والنصف الباقيين.. تذكر كاترينا وتوم وآدم، كم يتمنى لو كانوا جميعًا معه وسمعوا حواراته، كان يشعر أن الجرعة كبيرة جدًّا على رأسه لدرجة أنه لم يعد يحدد رأيه الشخصي في المعلومات التي يراها ويسمعها، تذكر تساؤلاته وحمد الرب أنها لم تعد تصيبه بالهم كما كانت سابقًا مع أنه لم ينسها.. فهل هذا لأنه يعمل في طريق السعادة؟ لكن تساؤلات طريق السعادة ومعلوماته الكثيرة ترهقه أيضًا، وبينما هو في هذه الأفكار والصراعات انتقل إلى عالم الأحلام ونام.

(٥)

عندما استيقظ جورج، عدل جلسته ونظر إلى حبيب:

– عذرًا يبدو أني كنت متعبًا!

– يبدو ذلك.

– أوه، لقد نمت ساعة كاملة! كم بقي ونصل الكنيسة؟

– بقي ربع ساعة تقريبًا.. ثم أردف مبتسمًا: عذرًا تبدو لديك صراعات داخلية قوية، من كاترينا وبنيامين وتوم وآدم والعجوز ومايكل وجوتسنا وكاخ وليفي..

– من أين لك هذه الأسماء؟!

– لقد كنت ترددها وأنت نائم.

– يبدو أني حقيقة متعب، أنا أشعر بتداخل المعلومات والأحداث في رأسي، كما أشعر بثقل في جسدي.

– إذا لم يحسم الإنسان قضاياه تتداخل في نفسه وروحه القضايا وتتعبه.

– ربما هذه مشكلتي بالضبط.

– بالمناسبة أعجبتني جدًّا كلمة كنت ترددها كثيرا.

– ما هي؟

– طريق السعادة، لقد كنت تردد أريد طريق السعادة، كلمة رائعة.

– ما رأيك أن نتحدث عن طريق السعادة، فأنا أود أن أسألك سؤالًا؟

– تفضل.

- هل أنت سعيد؟
- سؤال كبير جدًّا، هل تعتقد أنه يمكن الإجابة عنه؟!
- نعم أعتقد أنه ممكن.
- كل الأديان والأفكار والمذاهب تريد ذلك.
- أنت أستاذ في تاريخ الأديان، فأي الأديان أقرب للسعادة؟
- لأول مرة أُسأل هذا السؤال الكبير.. لقد بذلت وسعي للوصول للجواب وما زلت في هذا البحث.
- هل يمكن في نظرك أن يكون الطريق بلا دين؟
- هذا غير وارد أبدًا، فالعلم يثبت أن أكثر هؤلاء الملاحدة مرضى نفسيًّا أو عقليًّا، وأنهم كاذبون في إلحادهم.
- لم أفهم.. كاذبون في إلحادهم؟!
- أي يدَّعون أنهم ملاحدة، وهم في داخلهم يؤمنون بالله الخالق الرازق، فالإلحاد في الحقيقة هروب من الدين والتكاليف.. لا دين ولا عقيدة.
- إذا كان الدين هو الطريق للسعادة، فلماذا لم يستطع أن يجبني باحث أكاديمي في الأديان؟
- من حقك أن تقول هذا، وأنا ما زلت في بحثي، وسأصل قريبًا للإجابة.
- عدني أن تخبرني عندما تصل لهذا الجواب.
- أعدك أعدك، تبدو مهتمًا بالأديان كما وصفتك ليفي.
- لا أحب التناقضات، ولا أحب التعقيدات، أحب التوافق بين العقل والروح والجسد وبين المبادئ والمتع، وأحب البساطة العميقة.
- رائع، أحب ما تحبه بالضبط، تبدو فيلسوفًا، لابد أن نكمل النقاش لكن يبدو أننا وصلنا لكنيسة مريم المجدلية، هذه هي أمامك.
- يا لروعة البناء!
- هذا الفن المعماري الروسي، فقد بناها الإسكندر الروسي بقببها الذهبية الرائعة هذه على جبل الزيتون.
- هي إذن كنيسة حديثة؟
- مقارنة بكنيسة القيامة نعم بلا شك، كنيسة القيامة بنيت في عام ٣٣٥م، وكنيسة مريم العذراء بنيت في عام ١٨٨٦م، فبينهما أكثر من ١٥٠٠ سنة.
- أستغرب أن كثيرًا من معالمنا المسيحية وضعت بعد وفاة أصحابها بفترة كبيرة؛ مما يشكك في قداستها!

– للأسف كلامك صحيح ١٠٠٪، بل حتى الكتاب المقدس كذلك.. تفضل الآن فقد وصلنا ونكمل في طريق العودة، وأتمنى أن ننتهي سريعًا من أجل أن نعود قبل غروب الشمس.

– جيد، فلننتهي في أسرع وقت.

أخذا جولة سريعة في الكنيسة، وكان أيضًا مما لفت انتباه جورج كثرة الصور خاصة في سقف الكنيسة، وكان جورج يرى أنها غير مناسبة لمكان عبادة.. كما لفت نظره الزخارف الرائعة والقباب السبعة التي تسطع عليها الشمس، كان مبنى معماريًا رائعًا، صلى جورج فيه للرب سريعًا، ثم خرجا..

– مبنى رائع وجميل جدًّا.

– نعم؛ فهو من روائع الفن المعماري.

– لكنكم الكاثوليك تحبون الصور في أماكن العبادة، أما أنا فأرى هذا لا يليق بمكان عبادة ويذكرني بمعابد الوثنيين.

– أولًا: الكنيسة ليست كاثوليكية بل أرثوذوكسية، ثانيًا: قلت لك أنكم في هذا تشبهون المسلمين.

– ليست كنيسة كاثوليكية؟! لماذا إذن تريد كاترينا زوجتي أن أصلي فيها؟!

– لا أدري!

– بما أنك باحث وعالم في الأديان؛ هل يمكن أن توضح لي الفروق بين الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية من وجهة نظرك؟

– سؤال صعب الإجابة ومعقد.

– ألست تحب الأمور البسيطة؟ بسطه لي.

– سأحاول لكن.. عمومًا هناك فِرَق وطوائف كثيرة جدًّا جدًّا، وسنقتصر ـ للتبسيط ـ على الثلاث الكبار التي ذكرت، أولًا: الأرثوذكس؛ وتعني الرأي الصواب أو الحق أو المتعارف عليه أو شديد التمسك بالدين أو التقليدي وكلها متشابهة، فهم الأصل الأول، ومنه انشقت الكاثوليكية؛ ومعناها العام أو العالمي منذ عام ٤٥١م، ومن الكاثوليكية انشقت البروتستانتية بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر التي اجتاحت أوروبا الغربية بين القرنين ١٤ و ١٧م.

– إذًا الأصل الأرثوذكس، وليس أنتم الكاثوليك؟

– نعم، وإن كنا نحن الأصل لكم أيها البروتستانتي، ههههه، المهم: الأرثوذكس تسمى كنيستهم بالكنيسة الشرقية أو اليونانية أو كنيسة الروم الشرقيين وأتباعها من الروم الشرقيين؛ أي من شرق أوربا كروسيا ودول البلقان واليونان، مقر الكنيسة الأصلي مدينة القسطنطينية، ويتبع هذا

المذهب الكنيسة المصرية والأرمن والأثيوبيين، وأتباع هذا المذهب يقتربون من ألف مليون نسمة.

– معقولة ألف مليون شخص!

– الكاثوليكية؛ وتسمى كنيستهم بالكنيسة الغربية، وتتكون في الغرب من اللاتين في بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال والبرازيل، ولها أتباع في أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية وإفريقيا وآسيا، ويدعون أن مؤسسهم هو بطرس الرسول كبير الحواريين، وأن باباوات روما خلفاؤه، وتدعي أنها أم الكنائس ومعلمتها، وتتبع النظام البابوي ويرأسه البابا، ولمجمع الكنائس الحق في إصدار إرادات بابوية، هي ـ في نظرهم ـ إرادات إلهية؛ لأن البابا خليفة بطرس تلميذ المسيح ووصيه، فهو من ثم يمثل الله؛ لذا كانت إراداته لا تقبل المناقشة أو الجدل، وأتباع هذا المذهب حوالي ألف مليون نسمة.

– جيد، أكمل والبروتستانت؟

– البروتستانتية؛ وتسمى الكنيسة الإنجيلية بمعنى أن أتباع تلك الكنيسة يتبعون الإنجيل ويفهمونه بأنفسهم دون الخضوع لأحد آخر أو طائفة أخرى، ولا يعتقدون بالإلهام في رجال الكنيسة، وهم مسيحيون في الإجمال، لأنهم يؤمنون بالعقائد الأساسية.. ولكنهم لا يؤمنوا بالعديد من الأسرار الكنسية، والطقوس، والصلوات المرتبة من الكنيسة، والمعمودية، والتقليد.. ورفضوا بعض أسفار الكتاب المقدس، والعديد من العقائد والتقليد المقدس.

– تريدون أن تخرجونا من المسيحية، لا بأس، ما الفروق الجوهرية بين الطوائف الثلاث؟

– لقد ذكرت جوهر القضية عندما قلت: تريدون أن تخرجونا من المسيحية، الحقيقة أن الاختلافات كبيرة جدًّا بين الطوائف لدرجة عدها بعضهم أديانًا مختلفة لا دين واحد بطوائف.

– كيف؟ وضح لي؟

– كل عقائد النصرانية فيها خلاف بين جميع الطوائف، ولذا لا يمكن تفصيلها ونحن في السيارة، فهم يختلفون في الله وفي عيسى وفي الكتاب المقدس وفي طقوس العبادة وغير ذلك كثير جدًّا.

– كيف يكون دين واحد ويكون الاختلاف لهذه الدرجة؟ لا شك أن واحدا منها هو الصواب.

– فكرة أن واحدا هو الصواب هي التي أشعلت الحروب بين هذه الطوائف.

– حروب؟!

– نعم، حروب أبيد فيها الملايين، على سبيل المثال حرب الثلاثين عاما بين عامي ١٦١٨ و ١٦٤٨ م، وقعت بين البروتستانت والكاثوليك والدول المتحالفة معهم، وكلفت الأوربيين الملايين من الضحايا، بل كلفت ألمانيا لوحدها نصف رجالها وانخفض عدد سكانها من عشرين مليونًا إلى ثلاثة عشر ونصف مليونًا!

كان وقع الكلام على جورج قاسيًا؛ فهو يكره الإرهاب والتطرف بكل صوره، تساءل في داخله: هل يمكن أن يكون طريق السعادة مملوء بالدماء؟ رحماك ربي، لا يمكن أن تسعد البشرية بمثل هذا الوحشية...

- أي وحشية هذه؟!

- يثبت التاريخ أن الاختلافات والتباينات العقدية الحادة عادة ما تتحول إلى صراعات في الواقع شئنا ذلك أم أبينا.

- تاريخ إرهابي مزعج جدًّا!

- نعم للأسف، وعمومًا صراع الأديان عادة ما يكون متعبا ابتداءً من حرب اليهود واضطهادهم للنصارى وقتلهم عيسى عليه السلام، ثم اضطهاد النصارى لليهود، ثم اضطهاد اليهود للمسلمين والنصارى.

- مرة أخرى لم تذكر اضطهاد المسلمين للنصارى أو لليهود!

- لأني لا أعرفه في التاريخ، هل يمكن أن تعطيني مثالًا؟

- هدم المسلمين كنيسة القيامة.

- هناك حوادث كثيرة مثل هذا، لكني أتحدث عن اضطهاد عام وقتل للناس ومنعهم من أداء شعائر عبادتهم، فالإسلام نهى عن تحطيم أديرة وكنائس النصارى وعن قتلهم، وما حدث من ذلك لا يصل أن يكون اضطهادًا عامًّا أبدًا.

- يبدو أنك مسلم مختفٍ في النصرانية.

- هههه، ربما، ومن يدري ربما أُصبح مسلمًا أو بروتستانتيا يومًا ما، ألم أقل لك أنكم مثلهم لا تحبون التماثيل والصور في أماكن العبادة، ثم التفت لجورج وقال له: أو ربما أسير معك في طريق السعادة، ذكرتني.. ما قصة طريق السعادة؟!

- طريق السعادة، قصتها طويلة جدًّا.

- بسطها واختصرها لي.

- في الحقيقة أنا تعبت جدًّا من تساؤلات الحياة الكبرى: لماذا خلقنا؟ ومن خلقنا؟ ولماذا نعيش؟ وإلى أين المصير؟ وعلمت أني لن أسعد حتى أجيب على هذه التساؤلات؛ فبدأت في البحث عن طريق السعادة، ثم ابتسم وقال: والأسماء التي أخبرتني أنك سمعتها مني وأنا نائم كانت شخصيات مرت بي ومعي في طريق السعادة.

- وهل زيارتك للمدينة المقدسة وزياراتك ونقاشاتك جزء من بحثك عن السعادة؟

- جئت زيارة عمل، لكن الحقيقة التي حركتني هو ما ذكرت.

– ومتى ستنتهي من هذا الطريق؟
– لا أدري، لكني مصر على الوصول إليه، ثم ابتسم والتفت إليه، وقال: وطريق السعادة بحد ذاته طريق سعيد.
– يبدو بيني وبينك وبين ليفي كثير من التشابه.
– كيف؟
– هي جاءتني تبحث عن السعادة في غير اليهودية ولم تقنعها الكاثوليكية، وأنا كنت أرثوذكسيًا وتحولت إلى كاثوليكي ولا زلت مستمرًا في البحث.
– جرب البروتستانتية.. ربما كانت المخرج، دائمًا ما أقول لزوجتي الكاثوليكية أن دينكم معقد بالطقوس الكثيرة وبالأسرار غير المنطقية.
– ربما، وأين وصلت في طريق السعادة؟
– عذرًا، بل أين وصلنا في الطريق إلى الفندق، فيبدو أني في بداية وعكة صحية، أشعر بأن جسدي ثقيل مع دوار بسيط.
– لا بأس عليك، يباركك الرب، بقي حوالي الربع ساعة.
– أنا ممتن لك، فقد استفدت منك كثيرًا.
– بل الشكر لليفي التي عرفتني بك، وشكرك لها؛ فهي حريصة عليك بشكل كبير جدًّا.
– نعم، ليفي فتاة نادرة جدًّا، وأنا ممتن لها.
– كأنك تحبها، ألم تقل لي أنك متزوج؟
– نعم أنا متزوج، وهي فتاة رائعة جميلة، لكني رغم جمالها الفاتن وفتنتها الطاغية أحب روحها أكثر مما أحب جسدها.
– يبدو أنك عاشقًا أفلاطونيًّا!
– ههههه، أو معقدًا مريضًا كما يقول لي كثير ممن يعرفني.
– في مجتمعاتنا المادية أصبح الجسد مقدم على الروح، في عبادته وفي متعه، وهذا لدى غالبيتنا، وربما لدى اليهود بوضوح أكبر.
– كيف؟
– من مزايا المسيحية النظرة الروحانية للقضايا، لكن مجتمعاتنا المادية اهتمت بأفراح الجسد على حساب أفراح الروح، وتاريخ اليهود يثبت أن لديهم نظرة مادية لكل شيء: للإله ولليوم الآخر وللأخلاق والسلوك، كل شيء يمكن أن يباع ويشترى، ولا أعني بالبيع والشراء المال فقط.
– ألم أقل لك أنك متحامل على اليهود؟

- يمكنك أن تتناقش مع ليفي في ذلك؛ فهي يهودية فاتنة ولن تكون متحاملة على اليهود، ويمكنك النظر في التاريخ والواقع.
- حاجتني كعادتك، هل وصلنا فأنا متعب؟
- دقائق قليلة ونصل.

دق هاتف جورج.. فإذا هي ليفي بصوتها الجميل..

- مرحبًا جورج.
- مرحبًا.
- كيف كانت رحلتكما؟
- رائعة، وكيف لا تكون كذلك وأنا في صحبة الرائع د. حبيب!
- آمل أن يكون اختياري جيدًا.
- بل رائع، شكرًا لك.
- أحببت أن أطمئن عليك قبل غروب الشمس ودخول يوم السبت.
- أنا بخير، أشكرك على اتصالك، وأشكرك على ترتيباتك، متى سألقاك غدًا؟
- متى ما أردت فأنا في شوق إليك.
- وأنا في شوق إليكِ، موعدنا الساعة التاسعة فأنا متعب قليلًا وأود أن أرتاح أكثر.

شعر جورج بشيء من الارتباك، واختلس نظرة إلى حبيب فرآه يغالب ابتسامته..

- لا بأس عليك، ليحيطك الرب بعنايته، هل أحضر لك طبيبًا؟
- شكرًا ليفي أنا ممتن لك وستجدينني بكامل نشاطي جاهزًا في الساعة التاسعة.
- مع السلامة.
- شكرًا لك مع السلامة..
- ... مكالمة دافئة!!
- ماذا تقصد؟
- لا شيء، ليفي فتاة رائعة وجميلة وفاتنة كما تقول.
- ماذا تقصد؟
- كنت أمزح معك، يبدو لي أن ليفي معجبة بك جدًّا، كما أنك معجب بها جدًّا، وكلاكما يحاول أن يركز على إعجابه بروح الآخر وفكره وأخلاقه.. ثم ابتسم وقال: وكلاكما معجب بجسد الآخر أيضًا، ولذا انتبه أن يتجاوز الإعجاب بالروح إلى الإعجاب بالجسد، أو أن تنجرا الشيء لا تريدانه وتتنازلا عن مبادئكما التي حدثتني عنها ليفي، عمومًا تفضل فقد وصلنا، هذا هو الفندق.

– شكرًا على النصيحة الصادقة الصعبة، تفضل معي لنتغدى أو نتعشى؛ فنحن لم نتغد حتى الآن.
– أنت متعب، وأنا كذلك وأرجو أن تعذرني.
– شكرًا لقد استفدت منك كثيرًا، وهذه بطاقتي فيها معلومات الاتصال، أتمنى أن يستمر التواصل بيننا.. ههههه، وغدا سأكون طوال اليوم مع ليفي ولا بأس أن تكون حارسا بيننا.
– أعرف اهتمامك بالثقافة والفكر والمبادئ، لكني أنبهك كما نبهتها إلى اختلاط الأمور أحيانًا، كما أننا بشر لنا ضعفنا البشري، شكرًا لك.. أتمنى رؤيتك قبل سفرك.. وهذه بطاقتي.. أخبرني دومًا أين وصلت في طريق السعادة.

صعد للغرفة وهو يشعر بالإعياء، استحم أولًا.. ثم كالعادة فتح التلفزيون وشاهد الأخبار التي لم يكن بها خبر جديد، ثم فتح جهاز الحاسب الآلي ليتابع بريده الإلكتروني، فوجد رسالة من آدم يقول فيها:

«بعد التحية:
قد اطلعت على نقولات التوراة المحرفة التي أرسلتها لي فوجدتها لا تطاق ولا تصدق، فشكرًا لك على إرسالها وسنتناقش فيها بعد عودتك، وآمل أن تستمر في إرسال مثل هذه الرسائل؛ فأنا أستفيد منها كثيرًا».

ثم وجد رسالة من توم يقول فيها:

«بعد التحية:
أما نقولات التوراة؛ فقد قلت لك سابقًا إن كل الأديان لا تنفع شيئًا، وكدت أنت أن تغير رأيي حتى جاءت منك هذه الرسالة، وأظنك بدأت تقتنع بكلامي، ولا تنس أن النصارى يؤمنون بالعهد القديم الذي هو التوراة التي انتقدتها، موعدنا يوم الثلاثاء الساعة الثانية مساءً لنتناقش في ذلك، وإن كانت لديك أمور أخرى فأرسلها لي».

كان جورج يريد أن يكتب لهما تجاربه اليوم، لكنه لم يستطيع؛ فالتعب يشتدّ عليه، فقرر أن يكتب لهما مختصرًا رسالة واحدة.. فكتب بعد التحية والترحيب:

«قد قرأت ردك وسأحاول أن أوافيك بالأخبار أولًا بأول، فاليوم كان حافلًا كالأمس، وقد كان عن التعقيدات في الأديان، وعن صراع الأديان واضطهادها، وعن خلافات الطوائف المسيحية وغير ذلك، ولكوني متعبًا قليلًا سأحاول أن أرسل لكم غدًا بعض ما توصلت إليه».

أغلق جهاز الحاسب وارتمى على فراشه، لكنه كان يستغرب من أنه رغم إجهاده وتعبه إلا أن طيف ليفي وابتسامتها المشرقة وعيونها الزرقاء لم تكن تفارق ذهنه، فتذكر كلام حبيب من أن الأمور تختلط أحيانًا، لكنه رغم خوفه واثق من نفسه وواثق من ليفي أيضًا.

رغبات ومبادئ..

٨ رغبات ومبادئ..

رغبات ومبادئ..

(١)

استيقظ جورج في الساعة الثامنة والنصف صباحًا، كان جسده ثقيلًا ومرهقًا، ففي الليل اشتدّت عليه الحمّى فلم يستطع النوم، واضطر لطلب خافض حرارة من الفندق. تحامل على نفسه وقام واغتسل فأحسّ بشيء من النشاط. نزل إلى المطعم وتناول فطوره، وأخذ مُسَكن الحرارة مرة أخرى، فأحس بمزيد من التحسّن والنشاط.

صعد إلى غرفته مرة أخرى عند التاسعة وعشر دقائق، فإذا بهاتفه يرنّ، كانت ليفي بصوتها الجميل المتلهف:

- أين أنت؟ لقد خفت عليك، اتصلت عليك أكثر من مرة ولم ترد.
- عذرًا، نزلت لتناول الفطور ونسيت هاتفي في الغرفة.
- ليس من عادتك التأخر في المواعيد.
- لم أستطع النوم جيّدًا في الليل، ربما أصبت بوعكة.
- ليشفيك الرب، هل تريدني أن أوصلك للطبيب؟
- لا شكرًا، وعذرًا على تأخري، أنا الآن أحسن وأفضل.

نزل جورج إلى صالة الاستقبال، ورأى ليفي تلبس ملابس ساترة محتشمة، لكنها لا تخفي جمالها الأخاذ، فصافحها ورحب بها.. فقالت له بلهفة:

- أنا مصرة على أن تذهب للطبيب، لا يصح أن نسكت على هذا الوضع.
- شكرًا ليفي، أنا الآن أحسن ولو ذهبنا لزيارة الأماكن المقدسة أكون لك شاكرا.
- كما تريد، المهم أن تكون مرتاحًا.. سنزور اليوم مكانين أو ثلاثة، فما رأيك؟
- أقترح أن نبدأ بالمهم، ولو أنهينا اثنين يكفي، يهمني أكثر أن أجلس وأتناقش معك، لا مجرد الزيارة.
- وأنا المهم عندي هذا أيضًا، سنتجه أولًا لحائط المبكى وجبل يوريا، ثم سنزور قبر الملك داوود في جبل صهيون، وإن اتسع الوقت فسنزور المقبرة القديمة في جبل الزيتون.
- مناسب، وآمل أن ننهي الجولة مبكرًا قبل أن أصاب بالإعياء.

- كيف كان حبيب معك؟
- اختيار موفق جدًّا منك، يبدو أنك تفهمينني جيدًا.
لمعت عيناها وأشرق ثغرها وابتسم محياها...
- ممم.. إلى حد ما، حبيب مثقف وواعٍ ومنفتح.
- صدقت، وقد استفدت منه كثيرًا.
- هو يقول نفس الشيء عنك.
جورج باستغراب:
- كيف ومتى؟
- اتصل علي بالأمس بعد ما تركك في الفندق مباشرة، وقال لي أنه استفاد منك كثيرًا.. لقد أثنى عليك ثناء لم أسمعه منه على أحد.
- هذا من كرمه، وإلا فأنا طوال الوقت في نقاش وأخذ ورد معه.
- إن كان مثل نقاشك معي فما أحلاه من نقاش!
شعر جورج بنشوة وهو يسمع كلماتها الحلوة بصوتها الناعم.. بجسدها الفاتن.. بروحها الجميلة.
- ههههه، يختلف قليلًا؛ فأنت رقيقة جميلة وهو ليس كذلك، لكن أشكرك على اختيارك له، كما أشكرك على حرصك وتعبك معي، المهم أن أهداف السفر الأساسية تتم، وهي توقيع العقد والتعرف على طريق السعادة.
- شكرًا لكَ أنت، أما زلت تذكر العقد؟ لقد نسيته كليًّا، بالمناسبة جلستك مع بنيامين يبدو أنها خلطت أوراق عقله.
- كيف؟
- لا أدري لكن بعد خروجك طلبني، وقال: هذا من أغرب من قابلتهم في حياتي، فسألته كيف؟ فقال: إما أنه مجنون أو قديس.
- ههههه، لا خيار ثالث! لا أود أن أكون مجنونًا، وللأسف لا يمكن أن أكون قديسًا وأنا أدفع رشوة له.
- لا أدري لماذا أثر ما قلته له فيه، فقد كرر لي أننا نخطئ عندما نحسب أن الدنيا مجرد مال، وهذه أول مرة في حياتي أسمع هذا من بنيامين.
- بصراحة.. رغم عدم راحتي له إلا أن كلماته أثرت فيَّ أيضًا جدًّا، فهل صحيح أن متع الأجساد هي عذابات الروح؟ ألا يوجد طريقة تجتمع فيها المتع وتزول فيها الآلام؟
- كم أتمنى أن أجد هذه الطريقة.

- إذن أنت كما أخبرني حبيب تبحثين عن طريق السعادة؟
- كلمة جميلة جدًّا، لكن ما هو طريق السعادة عندك؟
- هو الطريق الذي كنت قبل قليل تتمنين أن تجديه، وأنا أبحث عنه منذ فترة.
- وأنا أبحث عنه منذ فترة أيضًا.. ثم ابتسمت ونظرت في عينيه، وقالت: أي تقارب هذا بين روحينا؟!
- أخبرني بذلك حبيب، ولماذا لم تعتنقي الكاثوليكية؟
- كانت الفكرة أن أهرب من تعقيد اليهودية وانحرافاتها، وليس لأبدل العقد بعقد أخرى والتحريف بتحريف آخر، وإلا فاليهودية أعرق وأقدس.
- بصراحة كما عودتيني، هل هذا هو السبب فحسب، أم أن هناك أسبابًا أخرى؟!
- في الحقيقة..! تغيير الأديان ليس عملية سهلة أبدًا، كيف تتصور أن يتعامل من يغير دينٍ مع من حوله، كيف سأتعامل مع بنيامين؟ هل تتوقع أن أبقى في وظيفتي يومًا واحدًا؟
- إذن أنت خائفة منه؟
- قلت لك أني لم أقتنع أصلًا، وبصراحة أخاف من تغيير ديني... الحرية لها ضريبة غالية.. غالية جدًّا!
- لكن لا بد أن ندفع هذه الضريبة؛ لننال حريتنا، فلا شيء يعدل الحرية.
- لازلت أبحث عن القرار الصحيح، أو طريق السعادة، وعند اقتناعي بذلك ربما أتخذ القرار بشجاعة، وربما أجبن عن ذلك، لا أدري.. لا أدري!
- هل تخافين من بنيامين؟
- أكيد!.. وهل تعتقد أن القرار الشجاع الصحيح، أو بتعبيرك طريق السعادة هو ما يوصل للمسيحية؟
- لديك قدرة غير عادية على قلب الطاولة على محاورك، لا أدري لم؟
- ألم أقل لك بأن روحينا تحلق معًا، فربما امتزجتا في لحظة ما.
- ها أنت أصبحت فيلسوفة أيتها الجميلة، كيف تمتزج الأرواح؟
- ههه، لا أعرف، كل الذي أعرفه أنه كما تمتزج الأبدان تمتزج الأرواح، وأن روحي تحلق مع روحك.
- من الأفضل أن تحلق الأرواح بسعادة بدلا من أن تحلق بحيرة وشك.

– صدقت، ولكن دعنا من هذا.. بقيت دقائق على وصولنا لحائط المبكى، أو كما يسميه المسلمون حائط البراق، وهو الأثر الأخير الباقي من هيكل سليمان. في رأي أغلبية الحاخامين اليهود،كان الدخول إلى الحرم القدسي محظورا على اليهود منذ خراب الهيكل؛ لذلك فالحائط هو أقرب نقطة من مكان الهيكل التي يمكن لليهود الصلاة فيها حسب الشريعة اليهودية العصرية. وأطلق عليه اسم «حائط المبكى» نسبة إلى طقوس الحداد التي تؤدى عنده وقبالته.

– منذ متى؟

– قبل القرن السادس عشر كان اليهود يؤدون صلواتهم وطقوس الحداد على خراب هيكل (النبي) سليمان في أماكن مختلفة حول الحرم القدسي، ثم أصبحوا يحتشدون سنويا أمام حجر قريب من السور المحدد للحرم القدسي تم تسميته حائط المبكى ويسميه المسلمون حائط البراق.

– وما حائط البراق إذن؟

– هو مقدس عند المسلمين أيضًا، فهم يقولون إن نبيهم أسري به من مكة على دابة اسمها البراق وأوقفها عند هذا الحائط.

– وهل تتركونهم يتعبدون عنده؟

– تركنا لهم الحرم القدسي كله وسينافسوننا في حائطنا! ثم أيضًا المسلمون لا يتعبدون عند الآثار ولا تهمهم النصب والتماثيل.

– كان حبيب يسخر مني ويقول إنكم البروتستانت كالمسلمين لا تحبون التماثيل والصور.

– هذا هو ما بقي لنا من معبدنا المهدوم، وسنخرج للعالم أجمع الآثار التي تثبت ذلك.

– كل هذه السنين ولم تجدوا الآثار ولا زلت تأملين أن تجدوها؟

– ههه، إن لم نجدها سنصنعها!

– إذن أنت لست مقتنعة بذلك؟

– لست مقتنعة ولا غير مقتنعة، حالة من الشك، بعض الدراسات تقول أول مرة صلي فيها عند الحائط كانت في عهد الدولة العثمانية، وليس كما قلت لك من أنه من قبل القرن السادس عشر، والمسلمون يقولون إنها كذبة مكشوفة، المهم أنه أهم مكان مقدس عندنا، ثم التفتت لجورج وقالت: من الصعب ألا تمرَّن وتنعش وتسعِد روحك، هل تريدنا أن نبقى بلا عبادة؟

– تبدين اليوم أغرب منك بالأمس.

– اليوم يوم عبادة ونحن نتجه للمبكى، ويجب أن ننزل الآن ونكمل الطريق مشيًا.

– أتمنى أن يكون المشي في هذه الشمس قليلًا؛ فآثار الإعياء بدأت تظهر عليّ.

– آمل ألا يظهر عليك أنك لست يهوديًا.

- كيف؟
- خذ البس هذه القبعة.
- لا بأس، ههههه، ولكن لا تصوريني وأنا ألبسها وإلا ستغضب كاترينا.
- تبدو محبًّا لكاترينا كثيرًا!
- نعم، فهي متدينة مثقفة وقلبها صاف أبيض مثلك.
- أتمنى أن أجد مثلك من يُقدر الدين والثقافة والفكر.. سننعطف يمينًا، ثم يمينًا أخرى، وسنجد الحائط والناس يبكون.
- لبست القبعة لكني لا أحسن تمثيل البكاء.
- ليس مهمًّا، كثيرون مثلك لا يحسنون التمثيل، وستجد كثيرين آخرين يبكون أو يحسنون التمثيل والبكاء.. يمكنك أن تكمل؛ فالنساء ممنوعات من الدخول.
- كيف؟ لن ادخل إن لم تدخلي.
- تفضل أنا أنتظرك، هل تريدني أن أدخل فأطرد كالكلاب، ادخل لوحدك لو سمحت.

مشى جورج بقية الطريق وحده، وقد بدأ يشعر بالإعياء، حتى وصل الحائط.. كان عدد اليهود الباكين كثيرا، وهناك آخرون كثيرون ربما لم يحسنوا البكاء.. وقف بجوارهم يراقبهم، لكنه شعر بالضيق، ورغب في الخروج سريعًا؛ خاصة وأن الإعياء قد زاد عليه وارتفعت حرارته. طالع حوله لم ير أي امرأة، فاستاء وكره المكوث، قرر أن يعود، لكن خطواته كانت أثقل وآثار الإعياء بادية عليه، تحامل على نفسه حتى وصل لليفي، فوجدها مثله جالسة بانتظاره في الطريق..

- عدت سريعًا!
- أنا متعب جدًّا، هل ممكن أن نذهب للسيارة بسرعة؟
- حسنا، كما تريد.
- أو هل يمكنك أن تأتي بالسيارة إلى هنا؟
- تبدو متعبًا جدًّا.. بكل أسف لا يمكنني أن آتي بالسيارة، بإمكانك أن تتكئ عليّ، هيا..

كان الإعياء واضحًا على جورج، فوضعت ليفي يد جورج حول رقبتها ليتكئ على كتفها، حاول أن يرفع يده ويستقيم في مشيته لكن الإعياء أثقله، مال برأسه على كتفها، حركة الهواء حركت خصلات من شعرها على وجهه، رائحة جسدها في أنفه، شعرها تحت يده، وأحيانًا يلتصق خده بخدها...

- آسف، أتعبتك سابقًا وأتعبك مرة أخرى الآن.. يبدو أنني أتدلل.
- لا عليك.. المهم أن نصل إلى السيارة بسرعة.. هنا مستشفى قريب سنتجه إليه، وبإمكانك بعد

أن نطمئن عليك أن تكمل دلالك.

(٢)

أسرعت ليفي بجورج إلى طوارئ المستشفى، فأعطوا جورج إبرة مسكّنة دخل على إثرها في نوم مفاجئ.. فمضت ليفي إلى الطبيب لتسأل عن حالته..

- ما به؟

- لا تجزعي.. أعطيته منومًا ليرتاح أكثر، وستكشف التحاليل ما به خلال ساعة من الآن.. ثم ابتسم وقال: تبدين خائفة كثيرًا عليه، هل هو زوجك أم عشيقك؟

- صديقي فحسب.

- على كل الأحوال، خلال ساعة ستكون النتائج قد ظهرت، وأظنه سيستيقظ قبل ذلك.

جلست ليفي إلى جوار جورج، وراحت تتأمل ملامحه النائمة، وتمسح على جبهته وتمرر أصابعها بين خصلات شعره، كانت تشعر بعاطفة قوية تتملكها تجاهه.. وبعد فترة فتح جورج عينيه، ويد ليفي تمسح على شعره..

- أين أنا؟

- حمدًا للرب على قيامك، نحن في المستشفى، وأنت بخير.

- أين الطبيب؟

- سيأتي خلال دقائق، ومعه نتائج التحليل، ارتح لا تجهد نفسك جورج.

أمسك جورج بيدها التي لا زالت تمسح على وجهه وشعره، ثم مسح بيده على يدها برفق..

- أنا شاكر لك جدًّا ليفي،لم أكن أتوقع أن أتعبك هكذا..

- لا تقل هذا، أنا في خدمتك جورج.

مرت دقائق معدودة لم يتكلما فيها غير أن لغة النظرات ولغة اللمسات كانت أبلغ من لغة المنطق.. حتى أقبل الطبيب ليرى جورج..

- استيقظت يا جورج؟ لقد كانت عشيقتك.. آسف أعني صديقتك في قلق شديد عليك.

- ما الخبر يا دكتور؟

- من النتائج الأولية يبدو أنه التهاب فيروسي حاد، وبقية النتائج ستخرج غدًا.

- ومتى يمكن أن أخرج؟

– بعد ساعة أو في الغد كما تريد، متى ما شعرت بالارتياح تمامًا، وعند خروجك ستسلمك المرضة أدويتك، أستأذنكما الآن..
– جورج لو سمحت اجلس إلى الغد هنا؛ فهذا أضمن على صحتك.
شدّ جورج على يد ليفي، ونظر إليها بامتنان..
– شكرًا ليفي، آمل أن أذهب إلى الفندق، وأعتذر عن عدم إكمال الجولة..
وسحب يدها ووضعها على صدره، ثم رفعها وقبلها..
– أعتذر لكِ.
ارتبكت ليفي كثيرًا، وبدا على وجهها الخجل رغم أنها شعرت بكثير من السعادة والنشوة، ابتسمت له.. ورجته ألا يتعجل؛ فاليوم سبت وما زال النهار ولم تغرب الشمس بعد..
– تعتذر عن ماذا؟ لا تعتذر، المهم أن تكون بصحة جيدة.
أكملت ليفي إجراءات الخروج لجورج، واستلمت التحاليل الجاهزة والأدوية، وأخذت موعدًا في الغد الساعة العاشرة صباحًا.
– هل لا بد أن يحضر هو، أم آتي أنا وآخذ النتائج؟
– إن عاد إليه التعب فاحضرا معًا، وإلا فيكفيك أن تأتي غدًا لتأخذي نتيجة التحليل الباقي.
– سآتي غدًا لآخذ النتيجة إذن، هل سيخرج بسيارة إسعاف أو بسيارتي؟
– بسيارتك، فهو سيخرج مشيًا كما سترين.. ثم التفت لجورج، وقال له: تفضل يمكنك المشي.
– إذن انتظر سأقرب السيارة عند الباب.
عادت ليفي، وأمسكت بيد جورج إلى السيارة، وفتحت له الباب، وظلت بجواره لتعاونه.. فنظر في عينيها الزرقاوتين وكلهما عطف وود..
– شكرًا لك ليفي، لا أعرف كيف أشكرك..
وبحركة ـ شعر أنها لا إرادية ـ التفت إليها، واقترب بجسده منها، وعانقها وقبلها قبلة طويلة؛ فارتبكت ارتباكًا شديدًا رغم ابتسامة ملئت محياها حاولت أن تخفيها..
– عذرًا هذا يوم للعبادة فقط، لا تحتاج أن تشكرني؛ فأنا أقوم بما يمليه ضميري.
– أنا آسف ربما أكون أحرجتك، لم أكن أعرف كيف أعبر لك عن شكري وامتناني فقبلتك.
– ليس هذا وقته.. بإمكانك أن ترتاح الآن.. ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة: قبلني كاخ كثيرًا ولم يعتذر! كم كنت أكرهه.

– أعتذر؛ فأنا لم أقصد الإساءة إليك، ولا أعرف كيف فعلت ذلك، ربما كانت لحظة ضعف مني، بسبب المرض، أو ربما كما قال حبيب: اختلط الإعجاب بالروح الجميلة مع الإعجاب بالجسد الجميل.

– أو ربما يكون تمازج الأرواح الذي كنا نتحدث عنه، دع هذا الموضوع كيف تشعر الآن؟

– أشعر بالخجل منك ومن نفسي، فقد رأيت ضعفي أمام شهوتي، صدقيني لم أكن أقصد إحراجك وإنما تعبير عما في قلبي.

– أغلق الموضوع لو سمحت، قلت لك قبلني بل اغتصبني كاخ أكثر من مرة ولم يعتذر، بل ـ زيادة في المهانة ـ كنت أشعر أحيانًا أني أستمتع بالجنس مع القذر كاخ، تخيل أستمتع بإجباري على التنازل عن مبادئي، ربما كان بنيامين صادقًا في أننا نمتع أجسادنا بما يظلم ويشقي أرواحنا.

– أو ربما لم نجد الطريق الذي تستقيم فيه أرواحنا مع أبداننا، وتُسعِد أرواحنا أجسادنا كما تُسعِد أجسادنا أرواحنا.

– ربما مشروعك في الطريق للسعادة يوصلك لذلك، فلا تنس أن تخبرني به إذا وصلت له وإلا لن أسامحك ولن أعذرك.

– متى أنهي هذا الطريق، يبدو أن كل من أقابله ينتظر النتيجة، أكرر أسفي وامتناني لك ليفي.

– سنصل الفندق بعد دقائق، وأريدك أن ترتاح تمامًا اليوم في غرفتك، وسأرتب أن يأتي لك العشاء في غرفتك؛ فقد تجاوزنا وجبة الغداء، وسيأتيك الفطور صباحًا.. وأنا سأذهب للمستشفى؛ لإحضار نتيجة التحليل، ثم آتي إليك، متى تسافر؟

– لقد ألجمت لساني، شكرًا لك، سفري الساعة السادسة مساءً.

وصلا الفندق، وصعدت معه ليفي للغرفة حتى مدد على سريره..

– أود أن أجلس معك، لكني أخاف أن أتعبك بوجودي ونقاشنا ولذا سأنصرف.

– لا تعلمين مقدار سعادتي بالنقاش معك، لكن انصرفي لترتاحي فقد أتعبتك كثيرًا.

– قد غربت الشمس، وأود أن أفعل شيئًا لا أفهم لماذا، وبإمكانك أن تفسره كما تريد.

– لم أفهم!

اقتربت ليفي من جورج وعانقته وقبلته قبلة طويلة.. شعر فيها جورج أنه كالنبتة الصحراوية عندما تسقى بالماء، ورغم تعبه وإرهاقه إلا أنه تمنى لو كان العناق أطول والقرب أكثر..

– انتهى السبت لدينا، وسأترك لك تفسير ما فعلت؛ فأنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك، إلى اللقاء.

كان تصرف ليفي مفاجئًا جدًّا لجورج، لم يفهم تفسير تصرفها، كما لم يفهم تفسير تصرفه هو عندما قبلها.. ترى هل نحن نتصرف بلا اختيار؟ أم أن ضعف المرض هو السبب؟ أم أن امتزاج الأرواح يمكن أن يفسر ذلك؟ أم هي الشهوة الجنسية والخطيئة؟ أم هو الخلط بين الإعجاب بالروح والجسد كما يقول حبيب؟.. أيًا كان السبب لكنه يبين الضعف البشري.. وربما يبين حاجتنا لتكفير اليسوع لخطايانا، ثم شرد ذهنه يفكر في ليفي ويتذكر وقفتها معه وخوفها عليه، وبينما هو كذلك رن هاتفه فإذا على الطرف الآخر كاترينا..

- حبيبي كيف صحتك الآن؟
- بخير والحمد لله خرجت من المستشفى وأنا بخير، من أخبرك بمرضي؟
- مرضك؟ أي مرض؟ كل ما أعرفه ما أخبرني به توم في أثناء الحفل الكنسي بالأمس من أنك أرسلت له أنك متعب.
- توم مرة أخرى؟
- حبيبي هل ما زلت تشك في؟
- أبدًا، أنا بخير وغدًا عودتي، تقلع الطائرة في الساعة السادسة.
- سننتظرك بسيارة إسعاف.
- لا داعي لذلك أنا بخير.
- لا بأس حتى نطمئن عليك.. ولا أريد أن أطيل عليك حاول أن ترتاح الآن، أستودعك الرب.
- وأستودعك الرب حبيبتي.

أنهى جورج المكالمة وهو يتأمل في الأقدار التي تجعل كاترينا تتصل عليه بعد قبلة ليفي، لتذكره بتقبيل توم لها، وغضبه من ذلك، وتساءل: هل نحن ريشة في مهب الريح؟ أم أن الأقدار تسوقه لشيء لا يعلمه؟ هل متع الجسد تعني شقاء الروح والمبادئ! ألا يمكن الجمع بينهما! يبدو أن الأيام القادمة حبلى بأحداث لا يمكن التخمين بها.

في هذه الأثناء وصل العامل بالعشاء إلى غرفته، ودخل النادل مبتسمًا، وألقى التحية على جورج..

- يبدو أن المرأة تحبك ومهتمة بك كثيرًا، فقد تأكدت بنفسها من جودة الأكل، وأعطتنا تعليمات لتذكيرك بأدويتك، ولم تنصرف حتى تأكدت أننا صعدنا بالأكل.
- حسنًا، شكرًا لكم.

تناول العشاء سريعًا.. ثم ارتمى على فراشه يفكر في هذا اليوم، كم كان يتمنى أن يرى بريده، لكنه رأى أن يؤجل ذلك للغد.

(٣)

لم يستيقظ جورج إلا الساعة التاسعة صباحًا، عندما طرق عليه النادل باب الغرفة قادمًا بالفطور..

– هذه تعليمات عشيقتك؛ فقد اتصلت قبل نصف ساعة لتتأكد أننا جهزنا الفطور، كما اتصلت في الساعة الثانية ليلًا؛ لتأكد لنا أن نتصل عليك لتأخذ دواءك.. أنت محظوظ من يجد فاتنة جميلة محبة، بل وعاشقة ولهانة مثل هذه؟

شكره جورج، ولم يجب عليه وهو يردد: «فاتنة عاشقة ولهانة»، ثم تناول إفطاره، وفتح جهاز الحاسب؛ ليرى البريد الإلكتروني، والرد على ما استطاع منها، ثم كتب رسالة لتوم وآدم أخبرهما بمرضه، وأنه سيعود اليوم إلى لندن، وسألهما: هل يعرفان شيئًا عن أفراح الروح، أم أن الروح ليس لها إلا الشقاء وأن المتع كلها للبدن وللبدن فقط؟ هل يمكن أن نسعدهما، أم لا بد لكي تسعد أرواحنا أن تشقى عقولنا وأجسادنا؟

ذهبت ليفي إلى المستشفى؛ لاستلام نتيجة التحليل، فأخبرها الطبيب بأن الفيروس الذي أصاب جورج فيروس نادر ولأول مرة علميًّا يصيب الدماغ؛ مما يعني أنهم أمام حالة جديدة. واقترح الطبيب أن يعود للمستشفى لمدةٍ من أسبوع إلى عشرة أيام، فلا يمكن التنبؤ بما سيؤول إليه حال جورج؛ إذ إن الفيروس يمكن أن ينشط في أي وقت، وبالتالي قد تحدث تغيرات مفاجأة في حالة جورج تستدعي وجود الطبيب. بكت ليفي كثيرًا خوفًا على جورج، ولم تعرف ما تفعل؛ فاتصلت بحبيب الذي جاءها إلى المستشفى، كانت تسأل نفسها وتسأل حبيب: لما كل هذا التعلق بجورج؟ هل هو تعلق شهواني برجل رفض أن يمارس الجنس معها فتثأر لأنوثتها؟ أو تعلق روحاني بفكره وخلقه وثقافته؟ أو للتشاكل والتشابه في الانفتاح والبحث عن طريق السعادة؟ كانت تسأل حبيب وهي تنتحب، وهو يحاول أن يهدئها، ثم مضيا معًا إلى جورج في الفندق.

دق هاتف الغرفة على جورج وهو لا يزال يقرأ في رسائل البريد الإلكتروني التي وصلته، فرد فإذا ليفي تقول له:

– هل تسمح لنا أن نصعد لغرفتك؟

– تفضلي أهلًا بك.

دخلت ليفي بابتسامة حزينة، ورحبت به وصافحته..

– معي ضيف هل تأذن له؟

– لا تضعي حواجز بيننا، ضيفك ضيفي، ليتفضل.

دخل حبيب؛ فرحب به جورج كثيرًا، وسعد به..

– يبدو أنك مرضت بسببي؛ فقد بدأ المرض معك وأنت معي، وليفي بريئة من هذا.

- ليفي بريئة من كل عيب؛ فهي أطهر من الطهر.
- ما هذا الغزل في حضوري!
- ههههه، نسيت أنك الحارس لنا.
بابتسامة ساحرة خجولة، وهي تنظر لجورج..
- لم أفهم ماذا تعني أن حبيبا حارسا، حارس لنا من ماذا؟
- لا عليك.. فجورج يحاول أن يفسد بيننا فقط.. ثم التفت لجورج: وقال له كيف صحتك الآن؟
- بأفضل حال كما ترى، أنا الآن أحسن بكثير.. تعبت في الأمس وأتعبت ليفي معي.
- لم تتعبني أبدًا، ولم أكن أعرف ماذا أفعل؟ أنا دائما أرتبك في المواقف الحرجة، آمل ألا أكون أتعبتك، كان يفترض أن نلغي الزيارة لما أخبرتني بإعيائك، لكنه ربما كان سوء فهمي هو السبب!
- أنت لم تخطئي أبدًا، وما حدث لي كان مفاجئًا.
- اقترح الطبيب أن تجلس لديهم يومين أو ثلاثة، فماذا ترى؟
- إقلاع الطائرة الساعة السادسة؛ أي يجب أن أخرج للمطار بعد ساعتين ونصف من الآن وأنتِ تقولين لي يومين أو ثلاثة!
- جورج أرجوك يومين أو ثلاثة فقط ونطمئن عليك أكثر.
- أنا بخير، ما أخبار تقرير الطبيب الأخير؟
- أعطه إياه يا ليفي، تقرير جيد، وإنما هو يريدك ليطمئن أكثر.
أخذ جورج التقرير من ليفي وهو ينظر في عينيها، ووعدها بأنه سيعتني بنفسه وسيذهب للمستشفى فور وصوله إلى لندن..
- يجب أن تذهب للطبيب أول ما تصل لندن وطمأنا عليك جورج.
- كاترينا زوجتي علمت بمرضي وقالت إنها ستنتظرني بسيارة الإسعاف في المطار، توسلت إليها ألا تفعل فأصرت، هي عنيدة مثلك يا ليفي.

– جيد ما فعلت كاترينا، حتى نطمئن عليك، أمامنا ساعتان تقريبًا ينبغي أن تتناول غداءك، ثم تجهز حقائبك للسفر.

– الغداء بعد ساعة من الآن معًا في مطعم الفندق، فأنا أدعوكما ولا تردّاني، ولا أحتاج لأكثر من ربع ساعة بعد الغداء لأستحم وأجهز حقائبي.

– موافقين على أن يكون في غرفتك وليس في مطعم الفندق؛ كي لا نتعبك.

– أوه يا ليفي.. أود أن أتحرك قليلًا، ولا يتعبني أن يكون في المطعم أبدًا.

حبيب، وهو يحاول أن يقطع الغزل الخفي بينهما..

– حتى نغتنم ما بقي من وقتنا، ما أخبار طريق السعادة؟

– هذه ثاني مرة أسافر فيها يا حبيب من أجل البحث عن طريق السعادة، غير اللقاءات والحوارات والاجتماعات، لقد أخذ مني هذا الموضوع وقتًا وجهدًا طويلًا، وآمل أن تكلل جهودي بالنجاح.

– ليفي: نجاحك نجاح لنا جميعًا، وننتظر النتائج التي ستصل إليها.

– حبيب: وأين كانت المرة الأولى التي سافرت فيها؟

– أقول لكم الترتيب كما تقوله كاترينا: بلاد العجائب، ثم بلاد الملاحم، ثم بلاد الكنائس.

– حبيب: بلاد الأعاجيب عرفناها الهند، وبلاد الملاحم عرفناها أنت فيها، فما هي بلاد الكنائس؟

– روما والفاتيكان، والمفترض أن تكون السفر القادم.

– حبيب: القدس يمكن توقع الفائدة منها؛ فهي مهد الأديان ومرجعها وصراعاتها، والفاتيكان يمكن تصور معنى زيارتك لها؛ إذ إنها من أهم مناطق النصارى بمختلف أديانهم، لكن الهند لماذا كانت البداية؟

– كان السؤال الأول: هل الأديان السماوية أولى أو الأديان الأرضية؟ فذهبت للهند من أجل ذلك، ثم كان السؤال..

– ليفي: أعتذر عن المقاطعة كان يفترض أن يكون السؤال الأول: هل الدين أو الإلحاد أفضل؟

– صدقت، ولكني كنت ولا زلت أرى أن الإلحاد مرض نفسي يعقبه فلسفة تبريرية، وإلا فهم في داخلهم يؤمنون بوجود إله، ولا تجد أكثر مرضًا وقلقًا وسوءًا من الملاحدة.

ابتسم حبيب وهو ينظر لليفي، وقال:

– صدقت لكن كان يفترض أن يبحث هذا بتجرد وعلمية.

– بحثته، لقد بحثته حقيقة! لكن أين تريدينني أن أسافر لأرى ذلك؟

– حبيب: ههههه، سافر في داخل أي ملحد، وستتأكد مما تقول!! لا أدري كيف يتحملون أنفسهم!!

- ليفي: ولهذا هم أكثر الناس اكتئابًا وانتحارًا.
- دعني أكمل، كان السؤال الثاني بعد أن فرغنا من أن الأديان الأرضية خرافة ودجل، أيّ الأديان السماوية أفضل؟ فكان السفر إلى البلاد المقدسة لرؤية اليهودية عن قرب وعن كثب.. ثم التفت إلى ليفي، وقال: وسعدت فيها بصحبتك فيها.
- إذن حواراتنا قبل أمس عن النصرانية وطوائفها وحروبها استعجال قبل السفر الثالث؟
- نعم، لكنه استعجال في محله، وسيكون السفر الثالث للفاتيكان؛ للتعرف على الدين النصراني.
- بقي أن تتعرف على دين الإسلام.
- بدا واضحًا الغضب على وجه ليفي، وقالت: دين البرابرة، اذهب إلى مكة لتتعرف عليه، لن يدخلوك مهما فعلت.
- ههه، هدئي من غضبك، حقيقة كنت أتمنى أن أقابل مسلمين هنا في القدس، فلا تنسي أن غالب السكان هنا مسلمون، لكن لم يتيسر لقصر الرحلة، ثم بسبب المرض، وعمومًا قد لا أحتاج إلى سفرة لبلاد المسلمين.

نظر حبيب في عيني ليفي...

- أما منع غير المسلم من دخول مكة، فهو كمنع اليهود المسلمين من الذهاب إلى حائط المبكى، أو كمنع النساء من دخول حائط المبكى، أو كمنع الشباب من الصلاة في المسجد الأقصى يوم الجمعة، أو...
- جورج: هون عليك ألم أقل لك أنك مسلم متنكر بالكاثوليكية!
- ليفي: ههه، هو دائمًا هكذا، والآن معي شخص من نفس دينك ضدك يا دكتور.
- لا تستنجدي بجورج ضدي؛ فهو مسافر اليوم، وسنستمر نحن في نقاشاتنا، لكن من العدل والإنصاف أنه ينبغي كما بحثت يا جورج في اليهودية والنصرانية أن تبحث في الإسلام. ألم أطلب منك يا جورج أن تبحث في الإلحاد؟ هل الإلحاد لديكما أفضل من الإسلام؟
- ههه، ربما.
- الوقت تأخر، هل تريد أن نسبقك للمطعم أو ننزل معا؟
- لا بد أن نساعده في النزول فهو متعب.
- شكرًا ليفي، اسبقاني وسألحقكما سريعًا، فقط سأستخدم الحمام، تفضلا.

نزل حبيب وليفي إلى المطعم، واختارا طاولة مناسبة، وجلسا بانتظار جورج، وعندها بادر حبيب..

- أخشى أن يكون إعجابك به أكثر من اللازم.
- لماذا؟
- عذرًا على التدخل لكن نظراتكما لبعض مريبة، وكلامكما كأنما أنتما عشيقان.
- لا أدري لماذا وصلنا لهذا! مع أنه كما أخبرتك من البداية رفض أي اتصال جنسي، وقال لي أنه يحب زوجته ويعتبر ذلك خيانة.
- قلت لك لا تخلطي بين الإعجاب بالروح والأخلاق، وبين الإعجاب الشهواني الغريزي الجنسي.
- بالأمس حدث شيء عجيب جدًّا، حملته بعد إعيائه وسقوطه، ثم قبلني ولأول مرة، ولما وضعته على سريره في الغرفة رددتها له وقبلته.
- القبل ـ للأسف ـ طبيعية جدًّا في مجتمعاتكما كليكما، لكن ما ليس بطبيعي أن تتنازلا عن مبادئكما.
- لا أعرف تفسيرًا لما حدث، وأظنه كما تقول، أو هو الضعف البشري.

في هذا الوقت وصل جورج وجلس على الطاولة معهما..

- المطعم بوفيه مفتوح؛ هل تحبان أن نقوم ونأخذ غداءنا؟ تفضلا.

بعدما اجتمعا على الطاولة مرة أخرى.. اقترح حبيب على جورج وليفي مواصلة الحوار، فهي فرصة ثمينة يجتمع فيها الثلاثة مع بعضهم..

- نكمل حيثما وصلنا، أنا أرى أهمية أن تسافر مرة خاصة للمسلمين.
- رغم أني دائمًا أختلف معه، إلا أني أوافقه الآن؛ لأنه دافع عن الإلحاد كما دافع عن الإسلام.
- ههههه،لم ولن أدافع عن الإلحاد أو الإسلام، أنا أتكلم عن منهجية علمية في الوصول للحقيقة.
- يرافق كل مرة أسافر فيها حوارات طويلة وكثيرة تشبه حواراتنا، كما يرافقها قراءات موسعة، وتفكير عميق، ومشاورات بعد رجوعي، إلا أن هذه المرة كمية المعلومات أكثر من وقت التأمل، فلعلي أتأمل بعد عودتي خاصة وأنه سفر ثري جدًّا.

ليفي وهي تنظر في عيني جورج بدلال...

- هل من ممكن أن أسأل سؤالًا، وآمل ألا يكون محرجًا؟
- تفضلي.

– لو اقتنعت أن اليهودية أو الكاثوليكية أو الأرثوذكسية أو حتى الإسلام أو حتى البروتستانتية هي طريق السعادة، هل ستنتقل له مباشرة، أم ستبدأ في حسابات الربح والخسارة؟
– أعتقد أن كل حسابات الربح والخسارة تنتهي إذا عرفت طريق السعادة؛ فهو ربح خالص، هل هناك أسعد وأربح من هذا الطريق... المهم أن أجده.
نظر حبيب إلى جورج بحزم، وقال له:
– ستجده، حتمًا ستجده، لكني أشك فيما تقول..
– تشك في ماذا؟
– أشك في سهولة ذلك، وعدم وجود حسابات للربح أو الخسارة، بعض القرارات من الصعوبة بمكان..!!
– كيف؟
– دعني أقرب لك فكرتي، كل من لديهم مرض سكري يعرفون أن تعاطي السكر بالنسبة لهم مضر لكنهم يتعاطون! وكل من لديه سمنة يعرف أن الأكل الزائد غير الصحي مضر لكنهم يأكلونه.
– وما علاقة ذلك؟
– تغيير الدين أصعب بكثير من تغيير عادة أكل قطعًا، بل هي تغيير لمعنى الحياة وسببها ومحركها، ثم التفت إلى ليفي وقال: أعتقد أن ليفي تفهم هذا جيدًا، وعلى كل حال ستجد الطريق حتمًا.
– ولماذا أنت متأكد هكذا؟ ألستما تبحثان عنه ولم تجداه حتى الآن؟
– لا يمكن أن تكون بهذا الإصرار ثم لا تجده، ثم يبعد عن كرم الرب ألا يعين من يريد أن يصل إلى الحقيقة.
– ذكرتني بعجوز سعيد قابلته كان يقول نفس الشيء.
– وماذا قال العجوز؟
– ربما تستغربان ما أقول، كنت ذاهبا للانتحار، فقابلته وكان يبدو عليه السعادة، فسألته هل أنت سعيد؟ فقال نعم، فسألته كيف أصل إلى السعادة؟ عمومًا هو أول من قال لي كلمة «طريق السعادة».
– وبم أجابك؟
– لم يجبني، ولكنه قال لي: إن كان لديك إصرار وعزيمة فستصل.
– ألم تتواصل معه بعد ذلك؟
– للأسف لم آخذ رقمه أو عنوانه.. هو الذي أخذ رقمي وعنواني، ولكنه لم يتصل علي.

– عذرًا، الوقت معك يا جورج يمضي بسرعة أعتقد أنك تحتاج أن تنهي غداءك، وتجهز حقائبك بسرعة.

– لن أتأخر.. ربع ساعة وأكون عندكما.. ثم صعد الغرفة.

– أنا معجب بشجاعة جورج وبساطته.

– وأنا كذلك.

– بخصوصي أنا فأعجب كما أشاء؛ فأنا رجل، أما أنت فانتبهي لنفسك.

– أنتم العرب تفرقون بين الرجل والمرأة!

– العرب أم اليهود؟ أظن أننا قتلنا الموضوع نقاشًا فيما بيننا، لكن يبقى بعض الفروقات لا تستطيعين أن تلغيها.

– مثل ماذا؟

– ههههه، مثل كوني لست جميلًا مثلك، ولستُ امرأة، ولستِ رجلا.. هل تريدين أن تغيري طبيعة الأشياء؟ يبقى الأكل شيئا مختلفا عن الشرب مهما فعلنا، ويبقى أن لكل واحد دوره المختلف، وستبقين فتاة جميلة محاورة وأنا رجل محاور. أما جعل النساء كلاب أو قاذورات أو نجسات.. فهذا لا يصدر من شخص أو دين يحترم معتنقيه.

– أفهم ما تعنيه جيدا، وأرجو عدم اللمز.

– عذرًا، لكن المهم أن يبقى إعجابك بفكره وإصراره وأخلاقه وروحه، لا بجسده، وقد سبق وقلت له ذلك، وهذا معنى أني الحارس لكما.

– آها.. فهمت معنى الحارس.. سأنتبه لنفسي، فيكفي ما حصل بالأمس.

نزل جورج سريعًا، وأنهى إجراءات الفندق، ومضى إلى ليفي وحبيب اللذين كانا بانتظاره..

– يبدو أن الوقت يداهمنا.. هل نمضي؟

– نعم، فأخشى أن يكون هناك ازدحام أو نقاط تفتيش في الطريق.

– ليحفظك الرب، ستوصلك ليفي، أما أنا فأعتذر لدي موعد، لكن لا تنس أن تخبرنا بتطورات طريق السعادة.

– ألن تكمل الحراسة؟

– ههههه، لا يحميكما إلا الرب، ولا يمنع الإنسان شيء مثل مبادئه.

– سأقرب السيارة عند الباب لتحميل الحقائب.

– أشكرك جورج لقد أمتعتنا، وأنتظر أخبارك، ليحميك الرب ولا تنس أن تذهب لأقرب مستشفى في لندن بمجرد وصولك، ولا تنس أن تأخذ الحقنة التي لدى ليفي.

- أي حقنة؟
- حقنة يمكنك أخذها لو تعبت في الطيارة، أعطانا إياها الطبيب.
- شكرًا لكما.

(٤)

خرج جورج فوجد ليفي تنتظره في السيارة، وقد وضعت الحقائب في السيارة، فركب معها ومضيا إلى المطار..

- سنفتقدك يا جورج، لم تجلس معنا إلا أيامًا معدودة، إلا أن لك بصمة واضحة لا تنسى.
- بل ابتسامتك المشرقة، وثقافتك وفكرك هو الذي لا ينسى، لقد استفدت منك كثيرًا، وأتعبتك كثيرًا، فشكرًا لك.

امتلأت عينا ليفي بالدموع...

- سأفتقد نقاشاتك وحواراتك... ونظراتك، وسأعود لدوامة الاضطهاد الذي أعيشه.
- لا يستحق مثل بنيامين هذه الدموع.
- ليست المشكلة بنيامين أو اليهود كلهم، المشكلة الحقيقية في داخلي، فأنا لا أعرف طريق السعادة، وكنت أشعر بكثير من السعادة في نقاشاتنا.
- ستستمر نقاشاتنا معًا، وستستمر نقاشاتك مع حبيب أيضًا.. تدرين! أنت محقة فأنا مذ بدأت أسير في طريق السعادة لم يصبني الهم الذي لم يكن يفارقني.
- أعتبر هذا وعد منك بأن توافيني بما تتوصل إليه في سيرك في طريق السعادة، وأوافيك أنا بما أصل إليه أنا وحبيب؟
- وعد.. ولكن بشرط.
- وما الشرط؟
- أن تمسحي دموعك وتبتسمي، فأود أن أرى وجهك مبتسمًا.
- اتفقنا، وأعتذر لك عما صدر مني بالأمس عند توديعك، صدقني لا أعرف لماذا فعلت ذلك.
- أفهمك جيدًا، لأني مثلك لا أعرف لماذا فعلت مثله عند انطلاقنا من حائط المبكى.. ههههه، ربما لأني لم أستطع أن أبكي عند حائط المبكى.
- ولماذا لم تبكِ؟
- لماذا أبكي؟ أبكي على هيكل لم يجدوا دليلًا عليه إلى الآن رغم كل ما فعلوه!
- ألا ترى أنك تتجاوز الخطوط الحمراء في الكلام عن ديني؟

- ههههه، آسف، ولأكفر عما فعلت سأتجاوز الخطوط الحمراء في البروتستانتية، فهم مجرمون قتلوا الملايين الكاثوليك في أوربا... هل رضيت وسامحتيني سيدتي؟

- سامحتك سيدي.. ولكن بشرط.

- رددتيها عليّ، وما الشرط؟

- أن تطمئنني عليك غدًا، ولو برسالة.

- اتفقنا.

- ها قد وصلنا، هذا هو مطار بن غوريون على اسم أول رئيس وزراء في إسرائيل، وللمعلومية: لقد فاز هذا المطار سابقًا كأفضل مطار في الشرق الأوسط.

أنهى جورج إجراءات السفر وليفي تنتظره، فلما أراد أن يدخل البوابة الداخلية، مدت ليفي يدها بحقنة، وقالت: هذه من الطبيب لو شعرت بحرارة مفاجئة أو تعب خذها؛ فستريحك حتى تصل إلى لندن.

- شكرًا لكِ.

امتلأت عينا ليفي بالدموع، ومدت يدها تصافح جورج، ثم قالت: شكرًا لك من كل قلبي على كل لحظة قضيتها معنا، صافحها جورج، ووضع يده الأخرى على يدها، وشعر كأنه سيفقد حبيب له سنين يعرفه، لكنه تسامى عن ما كان يشتهي أن يفعله كما تسامت هي..

- استودعك الله ليحفظك اليسوع.

- استودعك الله ليحفظك الرب.

ثم التفتت إلى الخلف وقلبها يتقطع على فراق جورج.

بين الحياة والموت..

٩ بين الحياة والموت..

بين الحياة والموت..

(١)

ركب جورج الطائرة وقلبه مشغول بليفي، لقد تمكّنت من قلبه رغم أنّ مدة إقامته بينهم لم تتجاوز الأربعة أيام.. ترى ما سرّها؟! كانت تبدو له كملاك طاهر في مجتمع قاسٍ وظالم، تذكر بأسى نقاشات ليفي عن المرأة وحقوقها المسلوبة في اليهودية، أي دين هذا الذي يورث المرأة كأنها متاع! ويعتبرها كالقاذورات والكلاب لا ترث، وليس لها حقوق! وتذكر نقاش تحريف التوراة،و كرهها للمسلمين قتلة أبيها، وعن الشعب المختار الذي يقتل وينهب ويسرق «أبناء شيلوه»، تذكر الحديث عن آثار غير موجودة هي دليل حق اليهود في المنطقة.. ابتسم وهو يتذكر كلامها من أنها لن تنتقل من تعقيد اليهودية لتعقيد الكاثوليكية، وبينما هو في ذكرياته إذ قاطعه الراكب الذي بجواره:

– ما هذه الحقنة التي بيدك سيدي؟

– أعطاني إياها الطبيب، وأكد عليَّ أن أحملها معي في الطائرة؛ فقد تأتيني حرارة مفاجأة.

– هل تسمح لي أن أراها؟

– تفضل، هل أنت طبيب؟

نظر إلى الحقنة، وقرأ التعليمات الموجودة في الورقة المصاحبة.

– أنا صيدلي، ويبدو أن هذه الحقنة مهمة جدا لك، وعمومًا هو دواء نادر الاستخدام.

– لماذا تستخدمه؟ لا أعرف، ولم يخبرني الطبيب.

– لا أعرف، لكن هذه الحقنة توصف للحالات الطارئة جدا؛ لتهدئة فيروسات لا يمكن القضاء عليها.

– يبدو أن هذا من حرص أصدقائي عليّ، وإلا فأنا بخير.

– ربما، لكني لا أظن، فهذه الحقنة لا تباع إلا بوصفة طبية خاصة، ولحالات طارئة.

– ربما، لا أدري، لكنني بصحة جيدة.

– الصحة والعافية تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، عذرا على إزعاجك.

- أبدا.. شكرا لك.

استسلم جورج لذكرياته مرة أخرى.. ما يزال قلبه يعتصر على ليفي، وشعر بالامتنان لما تذكر حبيب الذي ارتاح لصحبته كثيرًا رغم كونه عربيًّا، تذكر نقاشاته معه عن المسلمين، وعندما قال له: أنت مسلم متنكر بالكاثوليكيّة.. هذه الرحلة كانت مزدحمة وممتعة جدًّا له.. قاطعته المضيفة:

- عذرا ما وجبتك المفضلة: دجاج أم لحم؟

- لحم.

التفت إليه الراكب الذي بجواره:

- يبدو أن ذهنك مشغول تمامًا!

- أوه.. نعم؛ فقد كانت رحلة رائعة غنية بالمعلومات.

- كم جلست في القدس؟

- أربعة أيام.

- فقط!

- نعم، لكن كأنها هي شهور، لم ولن أنس أناسا رائعين قابلتهم، وتعلمت منهم الكثير في هذه الأرض المقدسة.

- هل أنت يهودي؟

- لا.. لماذا؟

- أنا يهودي.. عذرا، ولكن لا يرتاح في القدس عادة إلا اليهود؛ لأن البلد معَد لهم، أما النصارى والمسلمون فوضعهم غير مريح، فلما ذكرت لي سعادتك وروعة من قابلت ظننتك يهوديا؟!

- قابلت يهود ونصارى في القدس، كلهم رائعون جدا.

- ربما يصلح هذا الحديث في بريطانيا، أما في تل أبيب فالدين هو محرك الناس والشعوب.

- أنت يهودي، فهل من الممكن أن أسألك سؤالا؟

- تفضل.

- هل أنت مقتنع بالتعاليم التوراتية؟

- لا، فهي لا تفهم إلا بالتعاليم التلمودية.

- جيد، وهل أنت مقتنع بالتعاليم التلمودية؟

- ههههه، لا أيضا، لكن هكذا هي وصلتنا.

- عذرا، ألا يزعجك هذا التناقض في داخلك؟

- لا يوجد أحد إلا يزعجه ذلك، لكن يختلف الناس في التعامل مع ما يزعجهم.

- كيف؟
- أنا أهرب من هذا التناقض بالانغماس في عملي، ومن الناس من يهرب بالخمر أو النساء، ومن الناس من يهرب بالبحث العلمي في هذه القضايا، ومن الناس من يهرب بزيادة التدين.
- جميل، تبدو صريحًا جدًّا مع نفسك.
- شكرا لك.
- لكن يبقى السؤال: هل يوصل الهروب للراحة أم لا؟
- أظن أنه مما يتفق عليه العقلاء أن من يعيش من غير دين فسيكون مريضًا؛ ولذا فالهروب هو محاولة للهروب من مرض الإلحاد وظلمته والبعد عن تناقض الدين.
- إلا من يهرب بالبحث العلمي في هذه القضايا، ألست معي؟
- نعم، إلا أنني لا أحب ذلك، لأنه يصيبك بالهم والغم والاضطراب في التفكير.
- كأنك تقول لا يوجد حل إلا في الهروب؟
- نعم ولا.
- ههههه، كيف؟
- نعم؛ فأنا لا أعرف حلا إلا في الهروب، ولا؛ لأنه يستحيل أن يتركنا الرب هكذا للضياع والتناقض والهروب.
- تبدو فيلسوفا لا صيدليا.
- وهل أتعبني إلا بحثي في الحقيقة، فالأسلوب العلمي يتناقض مع ما أقوله، وأنا تعلمت من الصيدلة ألا أتكلم إلا بأسلوب علمي.
- البحث عن الحقيقة أو كما أحب أن اسميه طريق السعادة يسعد ولا يشقي.
- طريق السعادة! تعبير جميل.
- عذرا لو قاطعتك، أليست الطائرة باردة؟ أشعر ببرد شديد.
وضع الصيدلي يده على جبهة جورج يتحسس حرارته، فأحسها مرتفعة..
- ربما لهذا أُعْطيتَ هذه الحقنة التي معك، كيفك الآن؟
- البرد يزيد، وأشعر بإعياء، لكن لا عليك سأتحسن بعد قليل، هل أعجبك طريق السعادة؟
- دعني من طريق السعادة، هل يمكن أن تعطيني الحقنة وورقة الكشف الطبي؟
- تفضل.
سأل الصيدلي المضيفة عن وجود طبيب على الطائرة، فأجابته بالنفي، فقد كان المفترض أن يكون موجودًا لكنّه تأخر..

- لا بأس، سأعطيه الحقنة بنفسي؛ فأنا أخذت دورة متقدمة في الإسعافات الأولية، بالإضافة لكوني صيدليا، لكنه سيدخل في غيبوبة، وأعتقد أنه لن يقوم منها إلا بعد وصولنا، فهل من الممكن أن تطلبوا له سيارة إسعاف تنتظرنا في مطار لندن.
- يبدو الموضوع خطيرًا، لكن لا حاجة لذلك؛ فزوجتي تنتظرني بسيارة إسعاف، وأظنك تبالغ قليلا.
- لا أبالغ، لكن لا أريد أن أتجاوز الأسلوب العلمي في التعامل مع القضايا.

(٢)

استيقظ جورج من غيبوبته ليجد نفسه في المستشفى في لندن، ووجد كاترينا بجواره تبتسم له..
- حمدا للرب على سلامتك حبيبي.
- أين أنا؟ أين الصيدلي؟
- أنت في المستشفى في لندن، ولكن من هذا الصيدلي؟!
- في المستشفى؟! أين الراكب الذي كان بجواري في الطائرة؟
- آه فهمت، لم يذهب حتى استلمتك في سيارة الإسعاف، واطمأن عليك، وأخذ عنوانك وذهب، الحمد للرب على سلامتك.
- آه.. كيفك حبيبتي؟ اشتقت لك كثيرا، وأعتذر عن إتعابك وإزعاجك، لم أكن أظن الأمر بهذه الدرجة.
- قرأ الطبيب تقاريرك السابقة، وأخذ عينات من الدم، وقاموا هنا في المستشفى بعمل أشعة، وقالوا بأنهم سيتأكدون من التحاليل غدا.
- ومتى سنذهب إلى البيت؟
- لا أدري، بعد خروج نتيجة التحاليل. قالوا: سنحدد لكم المتوقع، وعلى كل الأحوال لن يقل بقاؤك هنا عن أسبوع كما قالوا.
- أسبوع؟!
- ليس المهم الأسبوع، المهم أنهم طمأنوني على صحتك، واستغربوا كيف لم تبق في المستشفى هناك؟
- طلبوا مني ذلك وحاولوا، لكني رفضت.. ماذا هناك؟
- سآخذ إجازة وأجلس معك، ربما كانت هذه مناسبة لنجلس معا؛ فأنا مشتاقة للجلوس معك.
- وأنا مشتاق لك كثيرا، لكني أود أن أخرج معك للبيت.

- ستخرج قريبا فلا تقلق حبيبي.. هل زرت كنيسة القيامة؟
- نعم.. فقد وعدتك أن أزورها، وزرت أيضا كنيسة مريم عليها السلام.
- يا سعادة كل من صلى في هذه الكنيسة المباركة، كم أتمنى أن أزور كنيسة القيامة.
- لقد صليت فيها من أجلك كما وعدتك، لكن أي سعادة في هذا؟
- لا أعرف سعادة أكثر من أن تنخرط في عبادة الله.
- كذلك يقول اليهود المتدينون، حتى لو كانت عبادتهم وأعيادهم أحزان وبكاء!
- صحيح، لكن هم يعبدون الله على دين نُسخ وانتهى بظهور المسيح عليه السلام، بل حاربوه وقتلوا المسيح وعذبوا أتباعه.
- لكن ألا يؤمن المسيحيون بالتوراة باعتبارها العهد القديم؟
- بلى.
- وكيف تقولين لي إنه دين انتهى بظهور المسيح عليه السلام؟
- تبدو متحمسا لليهودية، إنه انتهى كدين، وبقيت تعاليم التوراة نسترشد بها.
- لكن كيف تؤمنين وتسترشدين بتعاليم محرفة؟
- محرفة! من قال لك ذلك؟
- جاء في التوراة عن بنات شيلوه: «فَأَوْصَوْا بَنِي بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ: انْطَلِقُوا إِلَى الْكُرُومِ وَاكْمِنُوا فِيهَا. وَانْتَظِرُوا حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِلرَّقْصِ فَانْدَفِعُوا أَنْتُمْ نَحْوَهُنَّ، وَاخْطِفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَةً وَاهْرُبُوا بِهِنَّ إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ»، فهل تعرفين من هن بنات شيلوه؟ وهل تؤمنين بأن مثل هذا النص من الله؟
- أعرف من هن بنات شيلوه جيدا، ولا أود أن أتكلم في ذلك، يفترض أن يشرح لنا ذلك القساوسة والباباوات.
- وجاء في التوراة أيضا: «قالَ الرّبُّ إلهُ إسرائيلَ: على كُلِّ واحدٍ مِنكُم أنْ يَحمِلَ سيفَه ويَطوفَ المَحلَّةَ مِنْ بابٍ إلى بابٍ ويَقتُلَ أخاهُ وصديقَه وجارَهُ»، فهل يمكن أن تكون هذه القسوة من الله؟
- أود أن تغير الموضوع لو سمحت، أعرف هذه النصوص وكثيرا مثلها، ولا أحب مناقشتها، كما أني أود أن ترتاح الآن.
- لماذا؟

- قلت لك لا أحب نقاش هذا الموضوع.. أظن أنّ لديك وقتًا لا بأس به في المستشفى للبحث والقراءة.
- صدقت، المهم أن يكون جهاز حاسوبي المحمول معي، كما أنني أود شراء بعض الكتب، فأنا أود أن أقرأ عن المسيحية وفرقها.
- رائع، فربما تتحول للكاثوليكية.
- ربما!
- وقراءاتك هذه ستكون مقدمة وتجهيز جيد لسفرنا، أنسيت يا حبيبي؟
- لم أنسَ، سأحاول غدا مع الطبيب أن يكون في أقرب وقت، لكني سأحاول أن أستغل جلوسي وأشغل نفسي بالقراءة.
- لا تأخذ هم الجلوس، سأكون معك وسنستمتع بالجلوس والحديث معا.
- كم أحبك يا كاترينا.
- وأنا كذلك، هل تسمح لي بأن أنصرف الآن وآتيك غدا؟ فقد اقترب المساء، وأنا من أمس هنا.
- آسف، فقد أتعبتك معي، أنتظرك غدا حبيبتي، المهم أريد حاسوبي وهاتفي بجواري؛ لإكمال بعض الأعمال.
- سأضع حاسوبك وهاتفك على الطاولة التي بجوارك، لكن بشرط ألا ترهق نفسك، أريدك أن ترتاح حبيبي، أراك غدا.

لم يكن جورج يريد النوم، والوقت لا يزال مبكرا، فقرر أن يقرأ قليلا، ويراجع بريده الإلكتروني، فتح بريده ففوجئ برسالة من ليفي تناشده أن يطمئنها على صحته، فرد عليها بما حدث معه، وشكرها غاية الشكر على الحقنة، وعلى استقباله، وعلى كل ما قدمت له. وذكر لها أنه لم ينسَ وعده، لكنه لم يشغل جهازه ويستلم هاتفه إلا قبل قليل، كما أكد لها بأنه على وعده لها بأن يوافيها بأخبار طريق السعادة، وطلب منها أن تشكر حبيبا كذلك.

ووجد رسالة أخرى من آدم ردا على رسالته التي أرسلها عن متع البدن بشقاء الروح يقول فيها:

«.. فإن لم تسعد الروح مع البدن، فما سميته سعادة البدن هو شقاء البدن والروح، وستبقى هذه الفلسفة فلسفة سوداء، تفترض أن الحياة شقاء لا سعادة فيها، فهل خلقنا لنشقى أم لنعيش في سعادة؟! إن النظر إلى أننا خلقنا للشقاء أقرب للمنهج الإلحادي الذي يتهم الرب بكل نقيصة، أو للديانات الأرضية الوثنية البعيدة عن فهم طبيعة الإله وطبيعة البشر وطبيعة الدين، أو للأديان التي تأثرت بالوثنية بسبب تحريفها، وعموما هذه النظرة تنبئك عن شقاء صاحبها وصراعاته الداخلية أكثر مما تنبئك عن رأي علمي أو فلسفي أو ديني... يفترض أنك وصلت، وبعد استراحتك من السفر يمكن أن ألقاك ونتناقش في ذلك».

انتهى جورج من قراءة الرسالة وأعادها مرة ثانية، ثم قال لنفسه: آدم كعادته، لا أدري أهو فيلسوف كبير أم بروتستانتي أم يهودي؟ ولا أعرف لماذا أجد في كلامه ـ رغم صغر سنه وبساطة وظيفته ـ كلامًا بسيطًا وعميقًا في نفس الوقت؟ صدق آدم: لن تسعد الروح لوحدها ولا البدن لوحده؛ الإنسان وحدة كاملة، والتفكيك له نوع من التسطيح لقضايا عميقة، أي متعة للبدن في نزوة عابرة يعقبها مرض الروح والبدن، وأي متعة للروح في زهد وتخلف ولو سمي أخلاقيًا أو روحيا كزهد البوذية، إن الطريق السعادة لا بد أن تمتزج الروح فيه بالعقل بالبدن امتزاجًا يسعدها ولا يعذبها، ليتمتع الجسد بعقل رشيد تحوطه أفراح للروح تهذبه وتجعله يتسامى! كم هربت بعض الأديان من متع الجسد لتمتع الروح، وهربت أخرى من متعة الروح لتهتم بالجسد فقط، ولم تستطع هذه أو تلك أن تسعد لا بدنها ولا روحها.

نظر جورج في ساعته، وكانت تشير للساعة الثامنة فاتصل بآدم.

– مرحبا آدم، أنا الآن في لندن لكني في المستشفى، ولذا لا أستطيع مقابلتك، فهل يمكن أن تزورني لنكمل فلسفتك ونقاشنا؟

– سلامات.. سأزورك، ولن أزعجك بنقاشاتي أو فلسفتي كما تسميها، وآمل ألا أكون فيها ثقيلا.

– لم أقصد، حقيقة أنا أستمتع بالنقاش معك وبفلسفتك، فآمل ألا تفهمني خطأ.

– وأنا لم أقصد أني غضبت من كلامك، فالمسألة بسيطة وأنا أحب البساطة، وسأحاول أن أزورك غدا في الزيارة المسائية.

– أنتظرك آدم، فقد اشتقت لحواراتك.

– ههه، ألقاك غدا، فيبدو أنك تخلط بين الشوق للحوار والشوق للقهوة التي أقدمها عادة لك، مع السلامة.

أغلق جورج الهاتف وهو يتفكر.. ما السر الذي يجذبه إلى آدم؟ واضح من سحنته أنه ليس بريطانيا، قد يكون يونانيا أو إيطاليا أو من أمريكا اللاتينية؛ إلا أنه يجد في نفسه راحة كبيرة له، ترى لو قابلت ليفي آدم، كيف ستراه؟ هههه، وهل سيصبر آدم أمام عينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر؟ أم سيكون (كاخ) آخر، ونصائحه مجرد كلام نظري ككثير من الناس؟ هههه بل مثلي؟! عموما سيأتي غدا، وسأحكي له بكلّ ما مررت به..

(٣)

أيقظت الممرضة جورج مبكرا، وهي تضع له الفطور على طاولته..

- متى سيأتي الطبيب؟

- الساعة التاسعة صباحا يمر الطبيب على كل المرضى في القسم، المهم إذا شعرت بأي حرارة أخبرنا سريعا، ونحن سنقيس الحرارة كل ساعة تقريبا ابتداء من الساعة الثامنة، التي عندها ينتهي مفعول الحقنة التي أخذتها.

- شكرا لك، يبدو أن موضوع الحرارة خطير ومتوقع بشكل دوري.

- المهم إذا شعرت بالحرارة في جسدك أو شعرت بالبرد فأخبرنا سريعًا.

- حسنًا حسنًا.

أنهى جورج فطوره، وجلس يتأمل في كلام الممرضة، وتذكر حرص ليفي على الحقنة وهي تعطيه إياها.. شعر بشيء من القلق والترقّب لمجيء الطبيب الذي وصل إلى غرفته في التاسعة والنصف..

- هل من الممكن أن تعرفني بحالتي بوضوح لو سمحت؟

- تحليلنا إلى الآن هو نفس التحليل السابق الذي قدم لك في القدس.

- عذرا، لا أعرف نتيجة تحليل القدس، فما هو؟

- هناك فيروس غريب وصل لخلايا المخ، وفجأة وبدون سابق إنذار يقوم برفع الحرارة بشكل كبير، ولذا نضطر لإبقائك في المستشفى رغم أنك في الحالة الطبيعية لا تعاني من أي شيء، فإذا ارتفعت حرارتك نضطر لإعطائك حقنة مهدئة ومخفضة للحرارة، يستمر مفعولها من يوم إلى يومين.

- وإلى متى أجلس في المستشفى؟

- حاليًا لا أدري، عموما هناك تحاليل أخرى لا نزال ننتظر نتائجها، وستظهر خلال اليومين القادمين، وعلى أسوء الأحوال نتوقع ألا يزيد ذلك عن أسبوعين، ما لم يأت شيء طارئ.

- وما أسباب هذا الفيروس؟
- غير معروف حتى الآن، ولكن اطمئنّ، سنحاول أن نوفر لك كل وسائل الراحة، وسنوافيك بالمعلومات أولا بأول، أعتذر لك، هذا كل ما نعرف عن مرضك حتى الآن.
- أنا شاكر لك حسن تعاملك.

استأذن الطبيب وانصرف.. وأخرج جورج حاسوبه؛ ليخطط للوقت الطويل الذي سيجلس فيه في المستشفى، وقرر أن تأخذ القراءة الجزء الأكبر من وقته، خاصة وأنه في طريق السعادة يحتاج ليتعرف أكثر على أهم دين إنه دينه، سخر من نفسه وهو يتمتم: «أتعرف على ديني! أتعرف على النصرانية وفرقها»، كما قرر أن يشغل جزءا من وقته في النقاشات مع كاترينا؛ فهي عالمة نصرانية. ومع آدم وتوم، وكذلك في النقاشات الإلكترونية مع ليفي وجورج إن تمكن، ثم استغرق في القراءة عن المقارنات بين الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية؛ بحكم أن هذه الفرق هي الأهم والأشهر، ولو أشغل وقته بدراسة كل فرقة فلن ينتهي أبدًا.

جاءت كاترينا بعد منتصف النهار ومعها مايكل وسالي، فرح جورج برؤيتهما كثيرًا.. كان مشتاقًا لهما، فأجلسهما إلى جواره يمازحهما ولا يلاعبهما، كان يشعر بالسعادة وهو يضحك معهما.. فتذكر المتع التي تسعد الروح وتسعد البدن.. وعرف أنّه يجد هذه المتعة في جلوسه مع أبنائه، فحدث نفسه لو تعرف إلى جميع ما يسعد البدن والروح، فعندها سيكون حتمًا قد وصل إلى السعادة..

التفت إلى طفليه بسؤال.. خطر في باله..

- ما أكثر ما يسعدك يا مايكل في الحياة؟
- أن ألعب معك يا بابا، وأحبّ كرة القدم أيضًا.
- وأنت يا سالي؟
- وأنا أيضًا أحب أن ألعب معك يا بابا، وأحب أن ألعب بالعرائس.
- وأنا أحبّ اللعب معكما، لكن هل يسعدكما شيء آخر غير اللعب؟

ما يكل باستغراب:

- أحيانًا أشعر بالسعادة ولا أدري لماذا؟ وأحيانا أشعر بالتعاسة ولا أدري لماذا؟ لماذا يا بابا؟
- وما هو السبب برأيك يا مايكل؟
- ربما تكون السعادة بسبب أني ساعدت زميلي أو صديقي، والتعاسة بسبب فعل سيء قمت به.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على محيا كاترينا بهذا النقاش الأسري الرائع، ثم قالت: وربما يا حبيبي تكون السعادة في القلب عندما نحب الناس ونرجو لهم الخير.

- تعنين حب الخير للناس، حتى ولو لم نفعل شيئا يا ماما.

- نعم، ومثله كره الناس وتمني الشر لهم، حتى لو لم تفعل لهم شيئًا.

أحب جورج أن يثري النقاش أكثر فقال: إذن يا مايكل ويا سالي لماذا لا يسعد الناس أنفسهم، ويختارون الشقاء لها؟

- مايكل: لأنهم أغبياء.
- سالي: أو لأنهم لا يعرفون.
- كاترينا: أو الاثنين معا يا أحبائي، بالإضافة إلى أن الهداية والتوفيق للخير والسعادة نعمة من الرب.
- جورج: ولذا من المهم أن نسعى في طريق السعادة.
- مايكل: سمعتك تقول لأمي أنك ستسافر للقدس؛ للبحث والتعرف على طريق السعادة، فهل طريق السعادة في القدس فقط؟
- ههههه، لا يا بني كل ما في الموضوع أني أبحث عن الحق، وقد وافق سفري للقدس توقيعي لعقد عمل هناك، فكنت أتعلم وأتعرف وأستفيد من الناس.

سالي ببراءة:

- لا أحب سكان القدس.

جورج باستغراب:

- ولماذا؟
- زميلة لي في المدرسة تقول إن أهلها يذهبون إلى إسرائيل في القدس، وتقول إن إسرائيل كلها قتل للناس وسجن وتعذيب وتفجير، ولذا فأنا لا أحبها ولا أحب سكان القدس.

استغربت كاترينا كلام ابنتها، ثم قالت: لا يوجد عاقل يحب الإرهاب والقتل، فكل الشرائع الأرضية والسماوية تأمر بالعدل والإحسان.

ذكَّر كلام كاترينا جورج بطبقات البوذية وشرائع العهد القديم عن القتل والنساء وبنات شيلوه، لكنه ابتسم، وقال:

- يوجد في القدس أناس طيبون جدا من كل الأديان من المسلمين والمسيحيين واليهود.
- سالي: إذن أنا لا أحب ليفي اليهودية، فهي تحب هذا القتل والسجن.
- جورج: ومن هي ليفي؟
- زميلتي اليهودية التي في المدرسة.

- جورج: أحسنت، من الجيد يا أبنائي أن نحب ونبغض الناس حسب مبادئهم وأخلاقهم، لا حسب أشكالهم أو بلدانهم.
- مايكل: وأنا لا أحب زميلي ديفيد، فهو لا يتحدث إلا عن الخمر.
نظر جورج نظرة خاطفة إلى كاترينا.. وابتسم..
- وماذا في الخمر يا مايكل؟
- لا أعرف، كل ما أعرفه أنها تفقد الواحد عقله.
بدا الارتباك في وجه كاترينا، فبادرت بالإجابة على ابنها..
- أحسنت يا مايكل، وهي كذلك محرمة في ديننا كما جاء في العهد الجديد: (خمرا ومسكرا لا تشرب)..
لاحظت كاترينا نظرة الاستغراب في وجه جورج، فغيرت الموضوع:
- هل قابلت الطبيب يا جورج؟
- نعم.
- هل من جديد؟
- لا جديد، يبدو أنه نفس تحليل مستشفى تل أبيب، لكنني لم أكن أعرف التحليل الذي في تل أبيب.
- غريب، ألم يخبرك الطبيب هناك بنتيجة التحليل؟
- من الخدمات التي قدمتها لي الشركة هناك، أنّ إحدى موظفاتها هي التي راجعت المستشفى، ولذا فليفي هي التي عرفت نتائج التحاليل، وحاولت أن أعرف فرفضت ولم تخبرني؛ حتى لا تخيفني.
- ظهرت الغيرة في وجه كاترينا، وقالت: تبدو ليفي جميلة وحريصة على مشاعرك جدا!!
- سالي: إن كانت يا بابا كزميلتي ليفي فهي ليست جميلة ولا طيبة.
- جورج: كانت ليفي طيبة جدا وجميلة.
- كاترينا: اليهوديات لديهن الجنس سهل كما في العهد القديم.
- مايكل: هل العهد القديم يحث على الجنس يا ماما؟
- كاترينا: كنت أمزح يا مايكل، ثم التفتت إلى جورج، وقالت: أليس كذلك يا جورج؟!
- نعم.. نعم أمك تحب المزح كثيرا.. لا يوجد دين حق يحث على قتل الناس أو شرب الخمر أو الجنس الفوضوي أبدا، ولا يؤمن بهذا أحد على دين حق.

فهمت كاترينا الرسالة التي أوصلها لها جورج وهو يكلم مايكل، فحاولت تغيير الموضوع مرة أخرى فقالت:

– سأنصرف الآن يا جورج؛ لأوصل الأولاد إلى البيت فقد تأخرنا، وسأعود مباشرة لك.

– أنتظرك حبيبتي.. ثم التفت لطفليه، وقال: كما أتمنى أن تزوراني كل يومين على الأقل يا أبطال، أحبكما..

(٤)

استسلم جورج لأفكاره بعدما ذهبت كاترينا مع أبنائه وبقي وحده، فتساءل: هل سأبقى طوال حياتي في صراعات الأفكار والفلسفة والأديان؟! لماذا لا تتناغم هذه الأديان لسعادة كل البشرية؟! لماذا لا يتبع كل الناس الدين الحق الذي يسعد الجميع؟! لماذا لا تعيش البشرية جمعاء في سلام في داخل أنفسهم؟! وفي سلام مع بعضهم؟! ثم ابتسم وهو يقول لنفسه: ربما أصبحت فجأة أفلاطونًا، عجيبة الحياة تحولنا أحيانًا إلى مثاليات لا توجد إلا في الذهن! أتخيل لو أوصل الرب الناس كلهم إليه بدون تعب.. ربما أصبحت الحياة مملة، بل ربما كنا خلقًا آخر غير البشر بضعفهم، وعند ذلك لن يوجد الشر، بل لن يوجد الخير أيضًا؛ إذ لا يُعرف الخير إلا بوجود الشر، بل وجودهما دليل على أننا في هذه الحياة، آه.. كم يضيع الإنسان في فلسفاته وأفكاره ما لم يكن يعرف معنى لحياته ومعنى لمماته وإلى أين سيذهب؟

كان ينتظر عودة كاترينا رغم أنها خرجت قبل قليل، وينتظر زيارة صديقه آدم.. فتح جهاز الحاسب الآلي، ثم نظر في بريده الإلكتروني، فوجد رسالة من (كاخ) يشكره على إنجاز العمل، ويخبره بأنه عرف بمرضه من زوجته، وسيأتيه اليوم أو غدا للزيارة، ثم دخل على صفحة آدم على الفيس بوك، ولم يطلب طلب صداقة لئلا ينتبه آدم بأنّ جورج يقرأ ما يكتبه عنه.. فوجد فيها مقالًا ثانيًا عنه بعنوان: (دروس من صديقي الباحث عن السعادة ٢) كتب فيه:

«لا يزال صديقي الباحث مصرًّا على أن يتعرف على طريق السعادة، وقد تعلمت منه الدروس التالية:

١. أن الأمور الكبيرة؛ كالبحث عن السعادة تحتاج لجهد كبير وامتحان كبير.

٢. أن الإصرار يخلق الفرص، فكلما زاد صديقي في إصراره تولدت أمامه فرص التعلم والتعرف.

٣.أكبر نصر ونجاح يحققه الباحث عن السعادة هو انتصاره على نفسه، وليس انتصاره في أحداث الحياة.
٤.رغم قوة إصرار صديقي وعزيمته، لكن أخوف ما أخاف عليه أنه يعرف كل ما لا يريده، ولكنه لا يركز على ما يريده بشكل كافٍ.
وانتظروا باقي الدروس قريبا.. تحياتي لكم جميعا آدم»

أعاد جورج قراءة المكتوب مرة أخرى قراءة متأنية، فقد كان يشعر أن آدم كأنما يعرف ما يدور في نفسه، فكان يحدث نفسه: ماذا يقصد بالامتحان الكبير؟ وماذا يقصد بأن ينتصر الإنسان على نفسه؟ هل يعرف آدم أن صديقه قد رسب في الامتحان وباع مبادئه وقدم رشوة؟ هل يعرف أنه قبَّل وعانق امرأة جميلة؟ وأنه كان يود لو خان زوجته معها؟ هل يعرف أنه لم يتخذ قراره بالخروج من هذه الشركة التي يقودها شخص لا أخلاقي ككاخ، بل يساعده بالرشاوى أحيانا؟ ثم ما معنى النقطة الأخيرة؟ ولماذا يخاف عليَّ من أن أعرف كل ما لا أريده ولا أعرف ما أريده؟ أليس معرفة كل ما لا يريده يعني بالضرورة معرفة ما يريده؟ صحيح إنه لا يريد أن يكون ملحدا ضائعا، ولا بوذيا أو هندوسيا مخرفًا يعبد البقر أو آلاف الآلهة، ولا يود أن يكون يهوديًّا معقدًا.. إذن ماذا يريد؟ يبدو أن تخوف آدم في محله، سيحاول أن يناقشه اليوم في ذلك دون أن يخبره أنه قرأ من موقعه شيئًا؛ ليستمر في الكتابة بحرية.

شعر جورج بأن الغرفة ازدادت برودة، فقام ليخفض درجة الحرارة، فشعر بشيء من الإعياء، رأته الممرضة فجاءته بسرعة..

– هل تشعر بالبرد؟
– قليلًا، ربما انخفضت درجة الحرارة.
– درجة الحرارة ثابتة، استرح على سريرك، سأتصل بالطبيب وآتيك بالحقنة سريعًا، دقيقة فقط.

انطلقت الممرضة للخارج، وعادت سريعًا لتحقنها جورج..

– هذه الحقنة الجديدة التي كتبها لك الطبيب.
– الجديدة؟!
– نعم هي أطول مدة من السابقة، لكنك ستفقد الوعي تماما، أعتذر إليك، يفترض أن أسرع في

إعطائك إياها، هل من الممكن أن تمد يدك؟
أعطت الممرضة الحقنة لجورج، فما هي إلا دقائق حتّى غاب عن الوعي ولم يعد يشعر بشيء.
رجعت كاترينا فوجدت جورج في هذه الحالة، فجلست بجواره تنتظر إفاقته، كانت تنظر إليه وهو متمدد على السرير، كانت تشعر بحبّها له، إنها تعرف طيبته ومحبته لها. لكنه لا يكفّ عن مجادلتها، ولا يحب التسليم للرب كما تقول الكاثوليكية.. جلست تفكر، لكنها تحب نقاشاته جدًّا، رغم أنها ترتبك وتقع في الإحراج، فكثير من أسئلته لا تملك لها جوابًا واضحًا، ترى ألا يكفي التسليم للربّ ليرتاح من هذه التساؤلات والنقاشات، أم أن التسليم نوع من الهروب من الإجابة ولو بطريقة غير منطقية، صحيح أن تناقضات الكاثوليكية تتعبها أحيانًا، لكن اليهودية بل والبروتستانتية أيضًا تحوي نفس التناقضات، بل ربما أكثر! أليس التسليم بدون نقاش أريح لهما حتى لو كان نوعا من الهروب، أحيانًا الهروب أفضل من مواجهة خاسرة، لكن لماذا لا تكون مواجهة رابحة، آه.. عذرًا أيها المسيح لم أقصد أنك لم تخلصنا لكن...
تذكرت ليفي اليهودية الجميلة التي تحدث عنها.. هي تثق كثيرا في جورج، وتعرف مقدار المبادئ والوفاء التي يحملها، لكن لماذا لم يعد من القدس إلا بالنصوص الجنسية؟! ثم ابتسمت وهي تتأمل في غيرتها عليه، وأين كانت هذه الغيرة عندما قبلها توم، أليس معه الكثير من الحق في ذلك؟ كيف أشرب خمرًا وأنا أعرف أن العهد الجديد ينهى عنه، بل وأعلّم ذلك لأبنائي! رباه ماذا عساني أقول له في ذلك عندما يناقشني..
وبينما كاترينا مسترسلة في أفكارها، سمعت صوت رجل يقول للممرضة: أين جورج يا جميلة؟ كانت نظراته للممرضة وقحة أكثر من ألفاظه.. أشارت الممرضة إلى الغرفة، فدخل وصافح كاترينا.
- مرحبا، أَأَنت زوجة جورج؟
- نعم، أنا كاترينا، تفضل، من أنت؟
- أنا كاخ زميل جورج في العمل، رددتِ عليَّ بالأمس، وأخبرتِيني أنه في المستشفى، كيف حاله؟
- بخير.. يبدو أنه مصاب بحمى، وارتفاع في درجة الحرارة، فأعطوه حقنة مهدئة وخافضة للحرارة؛ فنام وفقد شعوره بمن حوله.
- لا تبدين أنك بريطانيّة!

– أنا بريطانية من أصول هندية.
– ههههه، الجمال الشرقي واضح، ربما لذلك كان جورج مستغنيًا عندما ذهب للهند.
– مستغنيا عن ماذا؟
– مستغنيًا عن الفتيات الهنديات، ههههه، عموما أهنئك، يبدو أنك فتنت جورج بمحبتك.
بدا الامتعاض الشديد على وجه كاترينا..
– أول مرة أراك فيها، ربما كان جورج يخفي جمالك عني، عموما أنا محظوظ أن تشرفت بمعرفتك، ولدي استعداد أن أخدمك بما تريدين، وإن أردت العمل معنا في الشركة فنحن في خدمتك.
– شكرا لك، أنا معلمة أديان، ومتفرغة لخدمة الكنيسة.
– لدينا قد يكون المقابل المادي أفضل وأظنه أكثر راحة.
– أنا متفرغة للكنيسة، ولا أود أن أنتقل من عملي.
– الأمر إليك فكري، حقيقة جورج خدم الشركة كثيرًا ومجلس الإدارة منبهر من جودة منجزاته خاصة بعد سفره الأخير إلى تل أبيب، تخيلي.. في رحلتين متتاليتين استطاع أن يوقع في كل منهما العقود المطلوبة، وببراعة كاملة، وبرضا كامل من العملاء.
– ربما كان هذا بتوجيهاتك؛ فأنت مديره.
– ربما، ولا أظن، خاصة في موضوع النساء
في أثناء هذه اللحظات.. طرق رجل باب الغرفة سائلًا..
– عفوا.. هل هذه غرفة جورج؟
– نعم، وهذا هو، إنه في حالة غيبوبة، وأنا زوجته، تفضل من أنت؟
– أنا صديقه آدم، وقد كلمني اليوم وكان بصحة وعافية، فما الذي جد عليه؟
– مرضه يتجدد فجأة، وترتفع حرارته؛ مما يستلزم إعطاءه حقنة مهدئة ومخفضة للحرارة، تجعله في غيبوبة تامة.
– كم آسف لحالته، هل هناك شيء أستطيع أن أساعد صديقي به؟
– شكرا لمشاعرك النبيلة، تفضل اجلس.
– شكرًا لكِ.
توجه آدم إلى كاخ ليصافحه، فصافحه جورج باستعلاء، فقال له آدم بحياء..

– عذرا..لم أتعرف إليك؟

– أنا كاخ، مدير جورج في الشركة، وأنت ما عملك؟

– أنا آدم نادل في مقهى، وصديق جورج.

– نادل؟!

احمر وجه آدم، وكتم غيظه، ثم قال بهدوء الغضبان:

– بإمكانك أن تسأله عندما يفيق! وإن كنت أعتقد أن الصداقة تبني على التقارب النفسي والروحي والفكري لا التقارب المالي!

تدخلت كاترينا سريعًا، وقد بدا عليها الانزعاج الشديد من كلام كاخ:

– لا عليك يا آدم كلمني عنك جورج كثيرا.. وهو سعيد جدا بصداقتك وبرأيك وحكمتك.

– هذا من حسن خلقه وأدبه.. ثم نظر لكاخ وتابع: وإلا فهو مهندس وتقني كبير، وأنا مجرد نادل!

كاخ باستعلاء:

– فعلا!!

– كاخ آمل أن تحترم صديق جورج لو سمحت.

– ههههه، تقولين لي ذلك من أجل رجل دخله لا يتجاوز دخل عامل النظافة عندي.

– هو صديق جورج، ثم المال ليس كل شيء، هل تعتقد أن الناس يُقيَّمون بالمال؟

– تبدين مثل جورج.. أما أنا لا يشرفني أن أجلس مع نادل، المهم يا كاترينا عرضي ما يزال قائما بالعمل لدينا.. هذه بطاقتي وفيها رقمي، وإن أردت أي شيء فاتصلي بي، إلى اللقاء.. وتمنياتي لجورج بالشفاء.

– أعتذر إليك يا آدم عن كل ما قيل.

– لا حاجة للاعتذار، فقيمتي في داخلي، وليس بما يقوله أحد عني، ثم أنتِ لم تقولي شيئا لتعتذري.

– يبدو مع جورج كثير من الحق فيما قاله عنك لي.

– أشكرك، فهذا من حسن خلقك وخلقه.

– أخبرني كثيرا عن تدينك وعن حكمتك ونصحك.

– جورج باحث عن الحق بصدق، وسيصل؛ فالله الكريم لا يخذل شخصًا يريد الوصول إليه.

– كلام عميق في الثقة بالرب، لكن ألا تخاف من أن يترك كل الأديان لما يرى من تناقضاتها؟

– لا أظن.

– لماذا هذه الثقة؟

- لا يوجد في الدين الحق تناقضات، وسيصل إليه.
- هل أنت كاثوليكي أو بروتستانتي؟
- هل تسمحين لي بعدم الإجابة؟
- الأمر إليك هو مجرد سؤال.
- سأزور جورج لاحقا، سأستأذن الآن إن سمحتِ.
- سيسعد جورج كثيرًا بزيارتك له غدا، فلا تتأخر.
- سأحاول غدا أو بعد غد، وسأتصل به غدا على كل حال؛ لأطمئن عليه، إلى اللقاء.

كان أثر الحقنة المنومة قد بدأ يخف تدريجيًّا، وبدأ جورج يحسّ بمن حوله، إلا أنّه يحس بثقل شديد في جسمه، وبالكاد يفتح عينيه. وفيما كان كذلك كان قد سمع بعض ما دار بين كاترينا وكاخ وآدم، استبان بعضه، واختلط عليه بعض آخر. بعد انصراف آدم همّ أن يفتح عينيه وقد أحسّ بتحسّن، لكنّه آثر عندما سمع خطوات زائر قادم إلى غرفته ألا يفعل، ألقى التحيّة فعرفه جورج من صوته، لقد كان الطبيب توم..

- كيف صحة فيلسوفنا؟
- مرحبا توم، للأسف جاءته حمى مفاجئة؛ فأعطوه إبرة مهدئة، وهو الآن في غيبوبة.
- أتمنى له الصحة والعافية، جورج مثال نادر، ورغم أني كثير المشاكسة له، إلا إنني أستفيد منه أكثر مما أفيده.
- أنت طبيبه، وقد تحسن كثيرا منذ بدء زياراته لك.
- بل أنا الذي تحسنت كثيرًا، ربما لا تعرفين أنتِ ولا جورج أنني كنت طبيبًا لعوبًا، همي النساء والمتعة، ولا أدري لماذا فلسفة جورج وقراءاتي في الأديان في هذه الفترة، وزياراتي للكنيسة معك غيرت حياتي؟ وبالمناسبة أعتذر عن القبلة التي قبلتك إياها، صدقيني لم أكن أقصد ولا أدري لِمَ فعلت ذلك؟
- انتهى الموضوع تماما، ربما كان الخطأ الأكبر مني أنا؛ فقد أسرفت في الشراب اللعين في ذلك اليوم.
- على كل حال نحن نحب أن نفلسف أخطائنا بأننا لا ندري أو أننا مجبرون، دعينا من ذلك، أخبريني، ماذا يقول الطبيب عن حالة جورج؟
- تبدو الأمور غير واضحة تمامًا، وأتمنى أن تتضح للفريق الطبي خلال اليومين القادمين.
- سيكون بخير وسيحميه الرب.

تظاهر جورج بصعوبة فتح عينيه، وكأنه يستيقظ لتوّه.. متسائلًا عمّا حوله..

- جورج حبيبي لقد استيقظت.
- منذ متى وأنا هكذا؟
- منذ ثلاث ساعات، وقد أخبرتني الممرضة بأنك أخذت الحقنة قبل مجيئي بقليل، الحمد للرب على سلامتك.. ثم التفتت لتوم، وقالت: هذا طبيبك جاء يرحب بك ويطمئن عليك.
- كيف حالك جورج؟
- بخير، كيف حال طبيبي؟
- بخير حال، سألتُ كاترينا عن صحتك، وطمأنتني عليك، ولا أريد أن أرهقك، سآتي لاحقًا لزيارتك.
- أنا في المستشفى، فمتى الجلسة القادمة؟
- متى أردت، وستكون هنا في غرفتك.
- جيد، إذن يكون خلال الأيام القريبة القادمة.
- إن كان لديك وقت في المستشفى فأتمم قراءتك في الأديان السماوية؛ حتى تكون جلستنا أكثر قوة.
- جميل، اتفقنا.

ابتسمت كاترينا وهي تمسك بأحد الكتب التي بجوار جورج، ثم قالت:

- لقد بدأ في ذلك من الأمس.
- رائع جدًّا يا جورج.
- وسأحاول أن يكون بقية وقتي الطويل هنا في النقاشات.. ثم التفت لكاترينا وابتسم، وقال: إلا إنها لا تحب النقاش وتقفله سريعًا.

احمر وجه كاترينا:

- أعدكم أن أحاول ألا أقفل النقاش.
- ههههه، جيد، وسأزورك أكثر من مرة، إن تيسر لي؛ لأتناقش معك، تمنياتي لك بالشفاء، أستأذنكم في الانصراف.

حين انصرف توم، التفتت كاترينا لجورج مبتسمة:

- أعتذر لك حبيبي عن قطع النقاشات، لكن ساعدني لئلا أقوم بذلك.
- لقد كنت أمزح.
- لكن معك الكثير من الحق.. كنت سأسألك: من هذا الوقح كاخ الذي يقول إنه مديرك؟
- وماذا في كاخ؟

- لقد حضر اليوم، وكم كان وقحًا أخلاقًا وتعاملًا، ولولا مراعاتي لك لطردته.
- مراعاتك لي..! بإمكانك طرده، كم أكرهه، ولكن ماذا فعل؟
- عينه ونظراته وقحة، كلامه وقح، تصرفاته وقحة، روحه وقحة، تصور إنه كان يزدري آدم؛ لأنه نادل وهو مدير! ويتكلم مع الممرضة بوقاحة!
- وهل جاء آدم؟!
- نعم، وقد أساء له كاخ، لكنه كان في غاية الأدب.
- يبدو لي أحيانا أن آدم الصورة العكسية لكاخ.
- رغم سنه الذي لا يبدو كبيرا، ورغم وظيفته؛ إلا إنه يتكلم بحكمة الشيوخ والفلاسفة.
- إذن صدقت فيما قلته لك سابقا عن آدم؟
- بل صدقت في كل ما قلت لي، وما لم تقله، أنا أحبك يا جورج، أخبرني كاخ أنك عكسه خاصة في التعامل مع النساء، وأنا أعرف وقاحته وأدبك.
- وأورميلا الفاتنة، وليفي الجميلة؟
- أنا واثقة بك جدا يا حبيبي، صدقني أنني واثقة بأخلاقك، فهل أنت واثق بي؟
- نعم.
- وسهراتي مع توم؟
- أخبرني توم بما حدث بينكما في آخر سهرة.
- صدقني لا أعرف كيف حدث ذلك؟
- آه.. كثير من أخطائنا تقع ولا نعرف كيف وقعت؟ أنا واثق بدينك وخلقك حبيبتي.
- أنا أحبك جورج.

نظرت لساعتها وقالت:

- يجب أن أنصرف الآن، وسأعود غدا.
- أنتظرك غدا؟ وقد وعدتيني بالمناقشة، وسيكون مما سأناقشك فيه ما جاء في الإنجيل: (خمرا ومسكرا لا تشرب).
- اتفقنا حبيبي، وسأكون صريحة معك في ذلك.
- اتفقنا حبيبتي.

(٥)

انصرفت كاترينا.. فأغمض جورج عينيه؛ يحاول تذكّر ما سمعه من الأصوات أول استيقاظه،

استبان كلام توم بوضوح أكثر من غيره، وما قاله بشأن تغيّره واستفادته من جورج، تلك المعلومة التي فاجأته بقوة، وأحسّ بصدقها.
واستعاد شيئًا من كلام كاخ وعجرفته مع آدم واستهانته به، وتذكر لطافة آدم وحسن تعامله.
وابتسم في سره لثناء كاخ عليه بسبب إتمام العقود، وإعجاب مجلس الإدارة به، وتساءل: ترى هل يملك الشجاعة الكافية ليقدم استقالته بعد خروجه من المستشفى، وليكف عن كونه أداة غير أخلاقيّة في يد كاخ، أم أن حب المال والمنصب سيتغلب على مبادئه؟
وبينما هو يسبح في أفكاره، إذ سمع صوت الممرضة تخاطبه:
- مرحبا كيف درجة حرارتك الآن؟
- هاه، أنا الآن أحسن وأفضل.
- توقعنا أن تفيق قبل موعدك.
- بالفعل.. لقد أفقت قبل فترة، لكنني كنت متعبا؛ فاستمررت في إغلاق عيني.
- لا بأس، درجة حرارتك الآن جيدة، أستأذنك.
- شكرا لك، وأعتذر عن قلة ذوق ضيفي معك، فقد أخبرتني زوجتي بما حدث.
- لم أكن أنا، وإنما زميلتي، وعمومًا اعتدنا على وجود عينات مثله، فلا تشغل نفسك بذلك، وأشكرك على حسن تعاملك.. اسمي زينتا، وبإمكانك أن تطلبني في أي وقت تريدني لخدمتك.
- زينتا اسمك غريب قليلا!
- أصولنا من النمسا وليس من بريطانيا.
- أعرف نمساوية طيبة مثلك تماما.
- عجيب، قلائل النمساويين في بريطانيا.
- ليست ليفي من بريطانيا، بل تعرفت عليها في تل أبيب.
- يهودية! اليهود أفسدوا أوربا، فصرفناهم عنّا بتسليمهم فلسطين والقدس.
- يبدو أنك متعصبة ضد اليهود!
- ربما، لكنك لم تعش مع اليهود كثيرًا.. عمومًا إن أردتني بإمكانك مناداتي في أي وقت، سيأتيك العشاء الآن؛ فأنت لم تتناول الغداء، ويجب أن ترتاح.
- شكرا لك على لطفك.
- العفو سيّد جورج.
في صباح اليوم التالي استيقظ جورج مبكّرًا بنشاط وحيويّة افتقدها في الفترات الأخيرة، حتّى تمنى لو يستطيع الخروج من المستشفى، فقد ملّ من جلوسه فيها. جاءه الفطور باكرًا، تناوله، ثمّ قرر أن ينشغل بالقراءة المركزة إلى حين مجيء الطبيب، سيجري بعض المقارنات بين اليهوديّة

والمسيحيّة، وسيقرأ عن وضع المرأة في المسيحيّة ليقارنه بوضعها في اليهوديّة، وهكذا بإمكانه أن يتناقش في هذا الموضوع مع كاترينا، وأن يتراسل حوله مع حبيب وليفي.

جاءه الطبيب، وألقى عليه التحية، فبادره جورج:

– هل من جديد بخصوص التحاليل؟

– لا، خرجت نتائج بعض التحاليل وبقيت تحاليل أخرى، اطمئن لا تقلق.

– لست قلقًا أبدا، إنما هو سؤال، وماذا عن النتائج التي خرجت؟

– ننتظر الباقي قبل الحكم الأخير، فلا أود أن أزعجك، لكن ربما تحتاج لعملية جراحية.

– عملية جراحية؟!

– قلت لك لا تقلق، يبقى الشفاء بيد الرب وليس بيدنا وإنما نحن أسباب.

– صدقني لست قلقًا أبدا، وإنما أنا مستغرب جدًّا أن تصل حالتي إلى هذه الدرجة!

– أعلم ذلك، تقول لي الممرضة أنك تنشغل دائمًا بالقراءة والمناقشة، وأنها لم ترك مكتئبًا أبدًا، هذا رائع جدًّا.. نحن ننتظر النتيجة غدًا أو بعد غد.

– أنتظر النتيجة، وأنا واثق أنها لن تأتي إلا الخير.

– رائع، هل من الممكن أن تبرر لي هذه الثقة العميقة؟

– لا شك أن الرب أرحم بنا من أنفسنا.

– إذن أنت متدين، المتدينون في الجملة أقدر على الراحة والسعادة، فلا يتعبنا إلا المرضى الملاحدة، الذين يعتقدون أن الدنيا هي كل حظهم في الحياة.

– عذرا،لم أكن أقصد ما قلته، ما أقصده أن ربنا أرحم بنا في الدنيا، وإن كان لما قلته معنى عميق جدا، وهو أن المؤمن لديه امتداد إلى الحياة الأخرى، لكن هذا خاص بأصحاب الديانات السماوية فقط.

– يبدو أنك فيلسوف، وأنا لدي عمل.. ولكن أخبرني باختصار: لماذا لا يستطيع ذلك صاحب الديانة البوذية أو الهندوسية؟

– لأنهم لا يؤمنون أن هناك حياة أخرى، وإنما يؤمنون بأن أرواحهم تنتقل لغيرهم.

– ههههه، عقيدة بدائية، ورغم روعة حديثك إلا أنني مضطر للانصراف، تحياتي لك.

استمر جورج غارقًا في القراءة والتحليل، ولم يقاطعه إلا اتصال من آدم يطمئن عليه..

– أهلًا آدم، أخبرتني كاترينا بزيارتك شكرًا لك.

– هل هناك شيء أستطيع أن أساعدك به أو أقدمه لك يا صديقي؟

– جميلةٌ كلمة يا صديقي، أنا ممتن لك يا صديقي، صدقني لو كنت أحتاج شيئا لطلبته منك..

آسف تذكرت شيئا أريده منك.

– تفضل، فأنت تسعدني وتشعرني بأننا حقيقة أصدقاء.

– طلبي أن أراك، فلدي نقاشات كثيرة أريد أن أثيرها معك.

– سآتيك غدًا، وليس اليوم؛ أعتذر لك، ولكن لدينا اليوم عمل مضاعف في المقهى؛ نظرًا لغياب موظف آخر.

– حسنًا.. لا بأس، أنتظرك غدًا.

وصلت كاترينا إثر إنهاء جورج المكالمة، ودخلت الغرفة بابتسامة كبيرة ومنشرحة..

– كيف أصبح حبيبي اليوم؟

– بخير وأحسن حال، كيف حالك أنت؟

– حمدًا للرب على نعمته.

– أي نعم الله تجدينها عندك؟

– نعمة التدين وانشغالي بأعمال الكنيسة.. و.. ونعمة أنك زوجي.

– إذن التدين في نظرك نعمة؟!

– أفي ذلك شك؟ ليس أسوء من أن تكون بلا رب تسكن إليه!

– فما بال الملاحدة في نظرك؟

– بصراحة وبدون مجاملة.. رأيي أن الإلحاد مرض قبل أن يكون دين، مرض في النفس والروح، ومرض في العقل والمنطق، ومرض للكون والخلائق.

– أتفق معك تماما، ولكن ما النعمة في أن زوجك مريض؟

– أقصد أنك زوجي، ولم أقل نعمة أنك مريض.

– وما النعمة في ذلك؟

– هناك رجال لا يقدرون المرأة ويهينونها، وليسوا رجالًا أوفياء مثلك يا حبيبي.

– أليست إهانة المرأة مرتبطة طرديًا بالتدين؟!

– كيف؟

– كلما زاد التدين ازدادت إهانة المرأة.

– مرة أخرى، من قال لك ذلك؟

– تعاليم اليهودية تصف المرأة بأقبح الصفات.

– أنت تقول اليهودية، فلماذا تعمم ذلك على المسيحية؟

- أليس بولس يقول في رسالته الأولى إلى كورنثوس: (لِتَصْمُتْ النِّسَاءُ فِي الْكَنَائِسِ، فَلَيْسَ مَسْمُوحًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكُنَّ خَاضِعَاتٍ).

- تبدو اليوم عالمًا لاهوتيًّا!

- ألم أقل لك أني سأتفرغ للقراءة عن المسيحية خلال مكثي في المستشفى، ألم يقل توم لي ذلك أيضا في وجودك؟

- جيد.. فهذا سيزيد من تدينك.. وقد يحولك للكاثوليكية بدلًا من البروتستانتية.

- ربما، لكن لنعد لموضوعنا، بصراحة أليس وضع المرأة مزريًا في النصرانية كما هو في اليهودية؟

- وعدتك بالصراحة، وأن أستمر في النقاش؛ ولذا سأستمر رغم كراهتي له.

- لا أريدك أن تستمري فيما تكرهين، وثقي أنّني أعذرك.

- لا سأكمل، فأنا أرى أنه كما تحتاج أنت للتسليم للرب، فأنا أحتاج للعقل والتفكير.

- أتفق معك، لا إيمان بلا تسليم للرب، ولكن الرب العادل لا يمكن أن يكلفنا بمتناقضات أو بما تستحيله العقول أيضا.

- كيف؟

- هل يمكن أن يأتي دين حق بشيء تستحيله العقول؟

- مثل ماذا؟

- مثل أن الرب ضعيف، أو أنه يحتاج إلى عباده، أو أنه يقتله عباده، فكيف يكون ربًا؟!

- رغم تلميحاتك الخطيرة، إلا أنها حجة مسكتة.

- أي تلميحات تقصدين؟

- ليس هذا موضوعنا، موضوعنا المرأة في المسيحية، أليس كذلك؟

- بلى..

- بصراحة.. كم تمنيت لو كنت رجلًا، فالمرأة في المسيحية في مرتبة أدنى من الرجل.

- أوه، مثل اليهودية؟

- ربما، وربما بدرجة أقل، التوراة والتلمود المحرفان فيهما تعاليم فجّة جدًّا، بل هي مليئة بالخيالات الجنسية التي لا تطاق.. أما الإنجيل ففيه أن المرأة أقل من الرجل، وفيه بعض الأمور السيئة في حق المرأة لكنه لا يصل إلى تدني اليهوديّة.

- لقد عرفت نصوصًا فجة في العهد القديم.

- مثل ماذا؟

- المرأة تورث كالمتاع: «إذا سكن إخوة معا، ومات واحد منهم، وليس له ابن فلا تصر امرأة الميت لرجل أجنبي. بل أخو زوجها يدخل عليها، ويتخذها لنفسه زوجة، ويقوم لها بواجب أخي الزوج»، والمرأة لا ترث: «وتكلم (بني إسرائيل) قائلا: أيّما رجل مات وليس له ابن فانقلوا ملكه إلى ابنته»، وعن المرأة الحائض: «وكل من مسّهنّ يكون نجسا؛ فيغسل ثيابه، ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء»... يكفي أم أكمل؟

- يكفي، يكفي.. فالحقيقة أن المسيحية حررت المرأة من كثير مما كانت عليه في اليهودية، رغم وضع المرأة المأساوي لدينا أيضا؛ لكن وضعنا تحسن عما كنا عليه في اليهودية.

- كيف؟

- أعطى للمرأة حقها؛ فمثلًا كان اليهود في عهد المسيح يُصرحون بالطلاق لأتفه الأسباب، حتى لو أفسدت المرأة الطعام، فنادى المسيح بعدم الطلاق إلا لعلة الزنا، وبذلك حررها من سلطان الرجل الذي يُطلقها لأي سبب وفي أي وقت، وأمنها من عبثه.

- جيد.. هل من الممكن أن تكملي بأمثلة أخرى؟

- في الحقيقة الكتاب المقدس كما هو مليء بنصوص كالتي ذكرت؛ إلا أنه أيضا مليء بنصوص أخرى تعطي دلالة على إكرام المرأة.

- وما هي النصوص الحقيقية التي جاءت عن الله؟ إذ لا يعقل أن تكون نصوصا متعارضة وصحيحة؟

- لقد أثرت موضوعا أصعب، وأنا متعبة من كثرة النقاش، وإلا صدقني لست أتهرب من النقاش.

- ما الموضوع الأصعب ونناقشه في وقت آخر؟

- أي النصوص من الله وأيها من الناس؟

- نغلق النقاش الآن ونناقشه فيما بعد.

- هل ستحدثني عن كنيسة القيامة الآن؟

- كما تحبين، ذهبت للكنيسة كما وعدتك، ذهبت في يوم الجمعة، وكان الازدحام في الطريق شديدًا جدًّا..

قاطعهما براد الذي قدم لزيارة جورج..

- مرحبا جورج.. مرحبا كاترينا.

- أهلًا!
- عرفت بمرضك، فجئت لزيارتك؛فربما تحتاج إليّ.
- شكرا لك.

التفت براد إلى كاترينا وابتسم بخبث، وقال:

- أوه كاترينا هنا، كنت أظنك مع توم.
- ماذا تقصد؟
- لا شيء، لا تغضبي سيدتي.

اعتدل جورج في جلسته، وقال:

- أظن أنّ هذا ليس من عملك أو اختصاصك.
- ربما، لكن توم كثيرًا ما يتكلم عن كاترينا وجمالها، فلذا توقعت أنها معه.

جورج بغضب:

- أنت كاذب وغير مهذب.
- وقال لي توم أيضًا أنك تود أن تذهب لتورا بورا، فهل هو يكذب علي أيضا؟

فتحت كاترينا عينيها باستغراب: تورا بورا؟!

- لا تدعني أخرج عن طبيعتي، شكرا لزيارتك براد، تفضل اخرج بسرعة؛ فأنا أود أن أرتاح.
- سأنصرف لكن إياكما أن يتلاعب بكما توم بكلماته المعسولة، فهو متخصص في التلاعب بالكلام، ويمكنكما أن تسألا عن النساء اللاتي تلاعب بهن.. وأنت يا جورج لدي كما تعرف علاج لكل مشاكلك، أنتظر اتصالك، تحياتي.

ما إن خرج براد.. رمت كاترينا جسدها على المقعد، وهي تتنّهد..

- أكره هذا الرجل.

- وأنا أبغضه، إنسان بلا مبادئ أو إنسانية.

- ولكن ماذا يقصد؟

- في أيّ شيء؟

- هل حقًا تود الذهاب إلى تورا بورا؟

- ههههه، هل تعرفين تورا بورا؟

- نعم.. جبال الإرهابيين في باكستان وأفغانستان، المهم ماذا بشأنها؟

- هناك شيء غريب حدث، لقد كان توم يحدثني عن الديانات وعن الإسلام، ثم قال لي مازحًا: لو أسلمت فستذهب لتورا بورا، وفوجئت بمجرد خروجي من عنده براد يقول لي: هل ستذهب لتورا بورا؟

- هو وتوم كاذبان فيما يقولان لا تصدقهما يا جورج فيما يقولان عني.

- أعرف كذب براد، أما توم فقد أخبرني عن القبلة، وقال لي إنه لم يكن يقصد شيئًا، ولا أدري لم صدقته؟

- للأسف كلام توم صحيح، فهذا حصل وأنا أتحمل من الخطأ أكثر مما يتحمل، فلو لم أكن ثملة من الخمر لما تجرأ وفعل ما فعل.

- ربما أفهم ما فعل توم بأنه تصرف لا إرادي لا يدري كيف فعله، ولكن الغريب إصرارك على شرب الخمر!

- في الحقيقة..

- وأغرب منه كلامك مع ابننا مايكل عن الخمر: (خمرا ومسكرا لا تشرب).

- بإمكان الإنسان أن يفلسف أو يمنطق أي خطأ يفعله، على الأقل لنفسه، لكني سأكون أكثر صراحة معك ومع نفسي.

- عذرا على المقاطعة، ماذا تقصدين بفلسفة ومنطقة الخطأ؟

- كثيرة هي تعاليم الدين التي لا نعلمها، وكثيرة هي التعاليم التي نعلمها ونخالفها، إلا أن المشكلة أننا لا نود أن نعترف بخطئنا، فنبحث عن تأويل منطقي أو فلسفي أو حتى ديني حتى لا نبدو مخطئين. ولعل أوضح مثال على ذلك الخمر في المسيحية.

- هل من الممكن أن توضحي لي؟

- الأصل أن الخمر محرمة في العهد القديم والجديد، ففي العهد القديم: «ليس للملوك أن يشربوا

خمرا، ولا للعظماء المسكر؛ لئلا يشربوا وينسوا المفروض ويغيروا حجة كل بني المذلة»، وفي العهد الجديد: «ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلأوا بالروح».

- جيد، إذن هو محرم في الأصل، فهل لهذا الأصل استثناء أو فرع؟

- لا تسخر مني، سأكون صريحة معك، إلا إنه ورد أيضا فيهما أن الأنبياء شربوا خمرًا، ونحن في الكنيسة نتناول الخمر أيضا ونفلسف ذلك بأن عيسى عليه السلام قال عن نفسه في إنجيل معلمنا يوحنا: «أنا الكرمة الحقيقية»، وقال عن أتباعه: «أنتم الأغصان»، وكما تسري عصارة الكرمة في الأغصان لتغذيها، هكذا اتخذ السيد المسيح عصارة الكرمة لتشير إلى دمه المقدس الذي نتناوله، فيسري في عروقنا ليقدس دماءنا وكياننا الداخلي كله، فالسيد المسيح لم يعطنا عصير الكرمة لنتلذذ به ونسكر به؛ بل أعطاه لنا لهدف مقدس كسر طاهر لا يدركه إلا المؤمنون.

- أوه.. فلسفة إبداعية!

- كف عن السخرية مني، وإلا فلن أكمل.

- ههه، حسنًا حسنًا، إذن أصبح شرب الخمر فعلًا مقدسًا!

- أرأيت كيف نفلسف ونمنطق ما نريد ليكون دينا؟

- هذا مقبول جدا في دين وضعي يؤلف أصحابه فيه كما يشاؤون، لكن هذا غير مقبول في دين سماوي من عند الرب.

- آه، أنت لا تتعب من النقاش، وأنا مضطرة أن أذهب إلى البيت لاستقبال مايكل وسالي، وسأحاول أن أعود إليك مرة أخرى.. وسنكمل نقاشاتنا ولكن خفف عليّ من نقاشاتك فأنا أتفاعل من داخلي معها ولذا تتعبني، خاصة إذا كانت في التناقضات الداخلية في نفوسنا قبل أن تكون في ديننا.

- أنتظرك حبيبتي، وأعتذر إن أزعجتك، كما أني لا أود أن تكلفي نفسك، فإن لم تتمكني من الحضور اليوم فلا بأس.

قبلت كاترينا جورج على جبهته وخديه، ثم انصرفت.. كانت سعيدة جدا بالحوار الذي تم، فهي تعتقد أنها لأول مرة تعبر عن نفسها، وينتصر عقلها على نفسها؟ وكان جورج في غاية السعادة؛ فقد اكتشف قدرات فلسفية ومنطقية وعلمية غير عادية لدى كاترينا، تخفيها تحت غطاء التسليم المجرد.. استلقى جورج يعيد النقاش في نفسه، فقد كان نقاشًا عميقًا، ثم ابتسم وهو يتذكر كيف استطاعت كاترينا أن تتخلص من سؤال: لماذا تشرب الخمر بأسلوب إبداعي، ولم تكن فيه محرجة من فعلها.

تفاؤل وترقب

١٠ تفاؤل وترقب

تفاؤل وترقب

(١)

انخرط جورج في القراءة عن المسيحية، كان تركيزه على موضوع صحة العهد القديم والجديد وما أضيف إليهما، شعر بأنه كان يتحاشى هذا الموضوع لحساسيته، لكن لا بد من الولوج فيه وبعمق؛ ليتأكد من صحة كتابه المقدس، فمن أصعب الأمور أن يبقى الكتاب المقدس لدينا مثارًا للشك. استمر جورج يقرأ حتى جاء الغداء، فتناول غداءه وهو يقرأ.. مرت عليه الممرضة لقياس درجة الحرارة، وهو منهمك في القراءة، فقالت له:

– كأنما أنت طالب لديك اختبار!

– ههههه، نعم أنا طالب في مدرسة الحياة، واختباري إمّا أن أنجح؛ فأكون سعيدًا، أو أفشل؛ فأكون تعيسًا.

– تبدو فيلسوفًا!

– المهم أن أنجح في الاختبار.

– النجاح في اختبار الحياة صعب، أكثر الناس ـ للأسف ـ يرسبون فيه.

– لماذا؟

– لأنهم يريدون أن يرسبوا، ولا يريدون أن ينجحوا.

– إما أنك تتفلسفين، أو أنك تخالفين الواقع بطريقة غريبة.

– بل أتفلسف، هل تسمح لي أن أنصرف فلدي عمل.

ابتسم جورج مندهشًا من طريقتها في الكلام، وكيف ترمي بفلسفة عميقة، ثم تنهي حديثها وتمضي بسرعة.. ما معنى أنّ غالبية الناس يريدون الرسوب في اختبار الحياة، هل يعقل ذلك؟!
على كل حال هي موجودة معه في المستشفى، وسيستفسر منها عن ذلك متى ما رآها..

دخل توم على جورج وهو مستغرق في القراءة.. فلم ينتبه له جورج، حتّى وقف بجواره وربت على كتفه مبتسمًا..

– لا بد أنك تعرفت على النصرانية وفرقها كاملة.

– توم.. أهلًا بك.

– كيف حالك اليوم؟

– بخير كما تراني، لم أكن أتوقع أن تأتي اليوم.

– لقد اخترت وقتًا يغلب على ظني أني سآتي لك وكاترينا غير موجودة.

– لماذا؟

– أشعر بأني أخطأت في تقبيلها، ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، وأشعر بأنك لا تحبني أن أقابلها، كما أنك لا تصدقني فيما أقول لك، ومعك حق في ذلك.

ابتسم جورج وقال:

– الموضوع بسيط، لكن لماذا تقول لبراد أنك تحب كاترينا وتقبلها دائما، وتتلذذ بها؟

– أنا قلت ذلك؟!

– هذا ما قاله مدير مكتبك «براد» عند زيارته لي اليوم.

– لم تصدقني قديما فكيف ستصدقني الآن؟ هو كاذب منحط.

– الذي تتحدث عنه هو مدير مكتبك، وقال لي ذلك اليوم صباحا بحضور كاترينا، ألم تقل له أيضا أنني سأذهب إلى تورا بورا؟ هل خمن أننا تحدثنا عن هذا أيضا؟

– آه.. أنا مضطر أن أخبرك ببعض الأمور، ولم أكن أود ذلك.

– تفضل.

– كنت أعرف أن براد مدير مكتبي أو سكرتيري سيئ ولا أخلاقي، وسكت عنه؛ لأنه كان يعينني على التلاعب بالنساء سابقًا، ثم صدقني تغيرت مع بداية زيارتك لي ولا أعرف لماذا؟ وتركزت قراءاتي وأبحاثي ونقاشاتي في الأديان وفيما يجلب السعادة. إلا أن ذلك لم يعجب براد وكلمني عن ذلك كثيرًا، بل هددني ببعض الصور القديمة لي مع بعض المريضات التي عنده.. ثم اكتشفت أنه قد رَكّبَ كاميرا تجسس وتنصت داخل غرفتي، وأنه بهذا يعرف بل يصور ما أقول للناس أثناء اتصالاتي وما يحدث داخل العيادة، ولم أعرف هذا إلا قبل ثلاثة أيام، وصار بيننا نقاش حاد في هذا الموضوع، وهددته بالفصل، فهددني بنشر كل صوري وتسجيلاتي التي عنده على الشبكة العنكبوتية مباشرة، وهذا يعني سحب تصريح العمل مني كطبيب، ولا أدري ما أصنع الآن؟! هل تصدق ما قلته لك؟ إن لم تصدقني فأنت معذور..

– رغم أنها تبدو قصة خيالية إلى حد بعيد إلا أن لدي شواهد تصدقها.

– أي شواهد؟

– في زيارتي الأخيرة لك لما خرجت مباشرة قابلني براد، وحدثني عن تورا بورا، وأنا متأكد أنك لم تخرج من الغرفة أبدًا خلال الجلسة وأنه لم يدخل.

- ولماذا لم تخبرني؟
- أثار الموضوع دهشتي وقلت: ربما يكون توافقًا أو ما يسمونه التخاطر عن بعد.
- صدقني لقد قلت لك الحقيقة كاملة، والأمر إليك.

طرقت الممرضة الباب، ودخلت بسرعة..

- عذرا على مقاطعتكم، الطبيب يريد الحديث معك عاجلًا، وهو في الطريق إليك الآن.
- ليتفضل، ما الأمر؟

وصل الطبيب..

- مرحبا جورج، آسف على الزيارة المفاجئة، لكن الأمر عاجل.
- تفضل.
- لقد خرجت باقي التحاليل قبل قليل، وأنت بحاجة لعملية جراحية عاجلة جدًّا، غدًا في مثل هذا الوقت.
- يبدو الموضوع خطيرًا.
- في الحقيقة أنا مضطر أن أقول لك نعم، ولذا جئتك في هذا الوقت، فلديك فرصة للتفكير، وتوقيع إقرار بالموافقة قبل الساعة الثانية عشرة ظهرا في الغد.
- تفكير وتوقيع.. إقرار!
- يجب علي أن أشرح لك بالتفصيل وبوضوح، الفيروسات التي ترفع درجة الحرارة اكتشفنا أنها تتلف أجزاء من المخ مع كل ارتفاع لدرجة الحرارة، والذي نتوقع أنه سيأتيك بعد الساعة الثامنة مساء في الغد، مما يعني أنه لن يأتي لك إلا وقد بدأنا في العملية، نسبة النجاح في العملية ٦٠٪ فقط للأسف.
- والـ ٤٠٪ الأخرى؟!
- يكون هناك خلل في بعض أجزاء الدماغ.
- وماذا يعني ذلك؟
- آسف لا أستطيع التنبؤ بهذا الآن.. قد لا يحدث شيء، وقد يترتب عليه أي شيء آخر.
- والمطلوب مني الآن الموافقة والتوقيع على إقرار بذلك!
- نعم.
- وماذا لو لم أوافق على العملية؟
- ستوقع إقرارًا بأنه طلب منك ذلك ورفضت.. وإن كان يغلب عليَّ الظن أنّ العمليّة أفضل بالنسبة لك، مع أنّ الحالة جديدة علينا، هل لديك سؤالًا آخر؟

– لا، إلا أن يكون هناك معلومات أخرى مهمة في الموضوع.

– لا يوجد شيء آخر، عمومًا لم أكلمك إلا بعد أن اجتمع الفريق الطبي وهذا رأيهم جميعًا، وإن كان لديك سؤالًا آخر في أي وقت، فاسأل الممرضة، وسيتصلون علي مباشرة لأجيبك على أي تساؤل، أتمنى أن تفكر وتوقع الإقرار قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

– سأفكر وأستشير وأرد عليك.

– من المناسب أن تأخذ الأمور ببساطة وبلا قلق كما عودتني، فالحياة أو الموت أو المرض أشكال مختلفة للنفس البشرية، ويجب أن تتعايش معها، أستأذنك وسأزورك صباحا الساعة التاسعة، وإن كان عندك سؤال قبل ذلك أخبر الممرضة، ليتصلوا بي.

– شكرا لك.

خرج الطبيب واستغرق جورج في الصمت حتّى قاطعه صوت توم..

– جورج.. ليس للحياة معنى ما لم نكن سعداء، كما ليس للموت معنى ما لم نكن نؤمن ببعث وحساب، يا لغرابة فلسفة الموت والحياة!

– بل يا لغرابة فلسفة الوجود! لماذا خلقنا؟ وإلى أين المصير!

– في ماذا إذن تفكر؟!

– كنت أفكر: هل أنا أريد الحياة أم أريد الموت؟

– لا تحتاج لتفكير، لا يوجد أحد لا يريد الحياة.

– ولماذا إذن الانتحار؟ أليست نسب الانتحار تزيد في الدنيا كلها؟ ألم أكن أنا يومًا أتمنى الانتحار؟

– عجيب هذا منك خاصة، المنتحر ينهي تعاسته بتعاسة، أما السعيد فلا يحتاج لذلك أبدًا.

– عندما ذهبت لأنتحر كانت الدنيا كلها قد ضاقت بي، وكنت في تعاسة بلا حدود فكنت أريد أن أنهي تعاستي بتعاسة كما ذكرت.

– وهل ما زلت في التعاسة، لتفكر هل تريد الموت أو الحياة؟

– في الحقيقة منذ بدأت في طريق السعادة وأنا أشعر بالسعادة وأقول لنفسي: كيف لو وصلت للسعادة إذن؟

– إذن تمسك بالحياة لتصل للسعادة.

– أنا أريد الحياة، لكن السؤال: هل الحياة تريدني؟ لقد رأيت ماري وهي تصارع تريد الحياة، لكن الموت صرعها...

– ثق بالرب وسيعينك.

– ههه، لقد أصبحت واثقًا متدينًا يا توم!

- ألم أقل لك أني تغيرت؟ صدقني لم أكن أتوقع أن أتغير، بل ولم أخطط للتغير، ولا أعرف كيف تغيرت، لكني بصدق قد تغيرت.
- رغم الحالة التي أنا فيها، لكن لدي سؤال: هل كنت أسعد أم أنت الآن أسعد؟
- يمكن أن أجيبك عن سؤالك الذي أرسلته لي بالبريد سابقًا عن متعة الجسد والروح، كنت أمتع جسدي بشقاء روحي، فيشقى جسدي كذلك!
- والآن؟
- لم أصل للسعادة، لكني لست بنفس الشقاء السابق على الأقل.
- ولو كنت مكاني، هل تتمنى الموت أو الحياة؟
- الحياة بلا شك، ربما لو سألتني سابقًا لقلت لك الموت.. فشقاء الموت ينهي شقاء الحياة.
- أتذكر عندما قابلت العجوز في طريق انتحاري، كان سعيدًا جدًّا، ومستمتعا جدًّا باللعب مع حفيده، ليتني أخذت عنوانه.
- المهم الآن، أنا أرى أنه يجب أن توقع على قبول العملية، فالأطباء أعرف منّا، إلا أني أقترح عليك أن تستشير كاترينا أولًا.
- وهذا هو رأيي أيضا.. وإن كان لا بد من ترتيب أموري، فنسبة فشل العملية ٤٠٪.
- تفاءل يا صديقي، ولن يكون إلا ما تحب، ولا بأس أن يستعدّ الواحد منّا لكل الاحتمالات.. ستقوم من مرضك وستصل للسعادة، لكن لا تنس أن تأخذني معك.. سأتركك لتفكر في الموضوع، وسآتيك غدًا لأطمئن عليك، أستأذنك.

استلقى جورج يتأمل في معنى الموت الذي ربما يواجهه، وقد واجهته بنته ماري أمام عينيه، ماذا يعني الموت؟ بل ماذا تعني الحياة؟ هل الموت راحة من شقاء الدنيا؟ أم نهاية لسعادة الدنيا؟ إن كانت الأولى فأهلًا بالموت، وإن كانت الثانية فهذا يعني أنه قد وصل إلى السعادة وعرفها، ابتسم بسخرية وهو يفكر بهذه الطريقة، وقال لنفسه: يبدو أني سأموت وأنا أتفلسف فلسفة لا توصل لشيء..

قطع أفكاره رنين هاتفه فإذا المتصل آدم..

- ألو مرحبًا.
- مرحبًا جورج أحببت أن أطمئن عليك فقط، كيف صحتك؟
- أنا بين الحياة والموت، لا أدري لأيهما أقرب؟
- لم أفهم، كيف؟
- ٦٠٪ حياة أو ٤٠٪ موت أو عاهة.

– لم أفهم شيئًا، وإن كنت تمزح فأنا لا أحب هذا المزاح.
– ليتني أمزح لكنها الحقيقة.. ربما أجري غدًا عملية احتمال نسبة نجاحها ٦٠٪.
– الحمد لله على كل حال.
– كم أتمنى أن أراك اليوم؟
– يبدو أنه غير ممكن اليوم؛ فقد انتهى موعد الزيارة، لماذا لم تتصل علي مبكرًا؟
– لا أعرف، هل تستطيع أن تأتي إليّ في الزيارة الصباحية غدا؟
– قطعًا سآتيك، ولو كنت أستطيع أن آتي الآن لفعلت، لكني أؤكد لك أن الأعمار بيد الله، وليست بيد الأطباء وإن كانوا سببًا مهمًّا.
– لا أعرف: أأنا خائف من الموت، أم غير مكترث به؟ كل الذي أعرفه أن الموت حقيقة ضخمة تعيد ترتيب الحياة بالكامل.
– لا تخف، ولا تجزع؛ فالله أرحم بنا حتى من أنفسنا.
– صدقني لا أعرف: أخائف أنا أم مضطرب؟ أم ماذا بي؟ كل ما أشعر به أني يجب أن أعيد ترتيب حياتي مرة أخرى.. ألا ترى سخريتي بنفسي؟
– أي سخرية؟
– لما خشيت الموت قررت أن أرتب حياتي، ألم يكن الأولى بي أن أرتب حياتي وأنا مقبل عليها، لا وأنا خارج منها؟
– لقد كنت ساعيًا في ترتيب حياتك سابقًا، ولا بد أن ترتب ما بقي، إلا أن ما بقي لا يعلمه إلا الله.. وأنا أحب التفاؤل وأكره التشاؤم.
– أنا في حالة اضطراب، هل تتوقع أني سأموت؟
– ستعيش بإذن الله وتبقى إلى أن تصل إلى السعادة التي تسعى في طريقها، وعند ذلك ستكتسب الحياة الدنيا وما بعد الموت معناها.
– جميل تعبير «حياتنا بعد الموت»، قد أتناقش معك فيه غدًا، اعذرني أنا مضطر أن أتصل بكاترينا لأخبرها.
– نعم.. لا بد من أن تستشير زوجتك، وآسف إن كنت أطلت عليك، أستودعك الله، مع السلامة.
– كم أنا ممتن لك آدم، وأنتظرك صباحًا، مع السلامة.

أنهى جورج المكالمة وكلمات آدم ترن في رأسه، ووجد نفسه يكررها بشكل تلقائي: «الأعمار بيد الله وليست بيد الأطباء»، «الله أرحم بنا حتى من أنفسنا»، «أحب التفاؤل وأكره التشاؤم»، «عندما نصبح سعداء تكتسب الحياة الدنيا وحياتنا بعد الموت معناها».. لا يعرف لماذا كلمات آدم البسيطة العميقة دائما تهزه من الداخل؟ هل السر فيها أم في صدقه؟ أم هو في وضعه المضطرب الذي لا يعلم كيف يسيطر عليه..

قطع جورج تسلسل أفكاره؛ فلا بد أن يتصل ويخبر كاترينا ويستشيرها..

– مرحبا كاترينا اشتقت إليك وكنت أنتظرك اليوم.

– كنت قادمة إليك إلا أن طارئًا بسيطًا أخّرني.

– لعله خير!

– في الحقيقة كان لدى سالي واجبات دراسية وطلبت مساعدتي.

– أين أنت الآن؟

– في البيت، ما الأمر يا جورج؟

– فقط أحببت أن أستشيرك في شيء؛ فقد أخبرني الطبيب أنه يمكن أن تجرى لي عملية غدًا إن وافقت عليها.

– غدا مباشرة، لما العجلة؟ وما العملية؟

– كل ما أخبرني به الطبيب أنه من الأفضل أن تجرى غدًا الثامنة مساءً.

– حبيبي.. ماذا تقول؟ سآتي الآن إلى المستشفى.

– أظن من الأفضل أن تأتي غدًا صباحًا.

– ما هي العملية؟

– عملية في الدماغ.

– الدماغ!! وهل هي خطيرة؟

– ربما، المهم أن الطبيب يقول لي من الأفضل أن تجريها رغم أن احتمال نجاحها ٦٠٪ فقط، فما رأيك؟

– لا أعرف، سأصلي لأجلك طوال الليل، وسآتي صباحا ومعي مايكل وسالي.

– أنتظرك حبيبتي.. مع السلامة.

ارتمت كاترينا على فراشها تبكي بكاءً حارًّا، لم تستطع أن تتخيّل غياب جورج عنها وعن حياتها.. كيف لو أنّ العمليّة فشلت.. كيف لو أنّه أصيب بعاهة.. كيف وكيف..؟ ثم قامت تدعو وتصلي له..

أمّا جورج، فقد شغله التفكير في كاترينا وابنيه، استحوذ على اهتمامه التفكير في المال.. ابتسم وهو يتذكر أنه جدد بوليصة التأمين على حياته؛ مما يعني مبلغًا جيدًا لكاترينا وأبنائه. كما أن عقد العمل في شركته يوفر له مبلغًا جيدًا، خاصة وأنه مرِض وهو في رحلة العمل، ويستطيع أن يثبت ذلك. إلا أنه يشك في أن كاخ سيعطيه شيئًا لو مات، فكاخ لا يفكر إلا في نفسه.. وفي دوامة الأفكار تلك أخذته عينه ونام..

(٢)

استيقظ جورج مبكرًا، تناول فطوره وهو يحسّ برأسه ثقيلًا مزدحمًا بما عصفت به الأسئلة والأفكار، غلب عليه الموافقة على العمليّة، لكنّ القلق أخذ يستبدّ به.. ماذا عليه أن يفعل قبل العمليّة.. كاترينا وأبنائه لم يغيبوا عن باله أبدًا..

ما إن بدأ وقت الزيارة الصباحيّة، حتّى انتبه لآدم يدخل عليه الغرفة مبتسمًا..

– بشرني.. كيف صحتك؟

– بخير.. لا جديد، أنتظر الطبيب، وأتوقع أن يأتي بعد قليل، وإن كان ليس بيده شيء.

– صدقت، ليس بيد الطبيب شيء، بل ليس بيد البشر كلهم شيء.

– إذن من بيده أمر كل شيء؟!!

– الله هو الذي بيده كل شيء.

– من إلهك يا آدم؟

– إلهي هو إلهك وإله العالمين، فدعني من هذا الآن.

– إذن أنت بروتستانتي؟!

– عندما تصل للسعادة في مشروعك للسعادة، سأكون معك.

– هذا إن عشت بعد العملية!

– تفاءل.. تفاءل، كم أكره التشاؤم!

– الدنيا تقوم على التشاؤم، فلماذا ترفضه؟

– الدنيا لا تقوم إلا على التفاؤل، فدع عنك الخرافات.

– بصدق.. ألا تتشاءم من الرقم ١٣؟

– قطعا لا، فالذي يدبر الكون هو الله فقط، وبالمناسبة يتفاءل الصينيون بالرقم ١٣؛ لأن مقاطعه الصوتية تتشابه مع عبارة معناها: (يجب أن أحيا)، والمسألة لا تعدو خرافة في خرافة، وبعدًا عن منهج الله.

– بما أنك بروتستانتي ألا تتشاءم من تاريخ ١٣، حتى إذا وافق يوم الجمعة؟ ألا تعرف أنه في التاريخ المسيحي آخر اجتماع سري جمع المسيح عليه السلام بحوارييه، قبل أن يقوم يهوذا بخيانته وكشف مكانه، كان يوم جمعة وكان عدد الحاضرين ثلاثة عشر رجلًا؟

– لا أؤمن بالخرافات، جئت لأطمئن عليك، لا لأتناقش معك عن التشاؤم والتفاؤل، وأحب لصديقي أن يعيش دائمًا متفائلا.

– كيف تريدني أن أتفاءل ونسبة نجاح العملية ٦٠٪ فقط؟!

– ربنا رحيم كريم، وهو الذي بيده كل شيء، وما الأطباء إلا سبب، إن تفاءلت فستكون أسعد، ويمكنك أن تعيش أفضل، ونسبة نجاح العملية أفضل، وإن تشاءمت فسيكون وضعك أسوء وحالتك أسوء، ولن يكون لك إلا ما كتبه الرب الرحيم لك، ماذا بك يا جورج أنت لست هكذا؟

– كنت أختبرك وأرى ماذا تقول، وإلا فأنا أكره الخرافة والدجل، وأتعلم منك حب التفاؤل.. لكن قل لي: كيف يتفاءل من هو في مثل حالتي؟

وصلت كاترينا مع مايكل وسالي، ودخلوا الغرفة بلهفة وعجلة إلى سرير جورج..

– لا بأس عليك يا جورج، كيف أنت الآن؟

– بابا كيف أنت؟ قلقنا عليك.

– بابا ماذا حدث لك؟

آثر آدم الانسحاب؛ ليترك للعائلة فرصة الجلوس مع والدهم قبل موعد العملية..

– أستأذنكم سأنصرف، وأعتذر عن إزعاجكم.

– أوه، مرحبا آدم.. عذرًا لم أنتبه لوجودك.

– لا، لا تذهب، فأنا أريد بقاءك، إلا إذا كنت مستعجلًا.

– لست مستعجلا، ولكني أريد ألا أزعجكم.

– ليس هناك أي إزعاج، ويسعدنا وجودك.

قرب جورج مايكل وسالي، وأجلسهما على طرف سريره.. وهو يسألهما عن المدرسة والبيت..

– نحن بخير يا بابا، متى ستعود إلى البيت؟

– قالت أمي بأنك ستأتي بعد ثلاثة أيام، وأننا سنسافر بعدها مباشرة إلى روما.

– لقد اشتريت التذاكر، وموعد سفرنا بعد عشرة أيام.

– اشتريت التذاكر؟! كيف؟! لا أظن وضعي يسمح بذلك.

– لا تخف، ستكون بخير.

- ما رأيك يا آدم؟
- قرار مبارك، وسيتحقق بمشيئة الله، وهذه إجابة سؤالك.
- أي سؤال؟
- ألم تكن تسألني: كيف تتفاءل في مثل هذه الظروف؟
- تفويض الأمور إلى رب رحيم كريم يجعلنا نرتاح في حياتنا.
- كاترينا وهي تحبس دمعة في عينيها: لقد بت البارحة طوال الليل أبكي وأصلي من أجلك، ثم رأيت أن بكائي لا ينفعك، بينما دعائي ينفعك، وقد تأخرت قليلًا؛ لتأكيد الحجز اليوم صباحًا، فما رأيك يا جورج؟
- كم أنا سعيد بك كاترينا، اتفقنا.. سالي الجميلة قولي لي: هل أنت متحمسة للذهاب إلى روما؟
- كثيرًا يا بابا، أريد أن أشاهد نافورة تريفي.
- وما هي نافورة تريفي؟!
- نافورة كبيرة، درسنا ذلك في مادة الجغرافيا.
- وأنا أريد مشاهد قلعة سانت أنجلو، وهي القلعة التي بنيت لرماد الأباطرة، وأصبحت بعد ذلك متحفًا، كما درسنا في مادة الجغرافيا.
- أما أنا فأريد زيارة كاتدرائية القديس بطرس.
- تبدو الأمور مرتبة.. آمل أن يتحقق ذلك..

صرخ الطفلان فرحًا، وقبلا والديهما.. فيما كان آدم قد تنحى وجلس على كرسي في زاوية في الغرفة؛ ليبتعد عن الجلسة العائلية الخاصّة التي واصلت حديثها عن السفر بحماسة وسعادة.. حتّى قالت كاترينا لأطفالها:

- الساعة الآن التاسعة، والسائق في الخارج في انتظاركما.
- حسنًا.. إلى اللقاء يا بابا..
- إلى اللقاء أحبائي..

التفت جورج إلى آدم الجالس وحده..

- عذرًا آدم، أما تضايقت؟
- من ماذا؟
- من سفرنا لروما؛ فأنت بروتستانتي ولست كاثوليكيًّا.
- لم أتضايق، بل أحثك على السفر؛ حتى تتعرف على الدين المسيحي بمختلف مذاهبه بشكل أكبر.

- أنت عجيب يا آدم!!
- متى ما صدقنا في بحثنا عن طريق السعادة، فكل جهد ومعرفة إضافية هو نوع من وضوح الطريق، يجب أن نحرص عليه، ألم أحثك على الذهاب للهند وللقدس سابقا؟ فما الجديد؟
- الجديد أن بيننا وبين الكاثوليك ثأر وقتال.. ألم تقتلوا أيها البروتستانت منهم الملايين في حرب الثلاثين عامًا؟
- القتل بهذه الطريقة الهمجية لا يحبه أحد، ثم من قال لك أني بروتستانتي؟ ربما أكون كاثوليكيًّا؟ عندما تعود من سفرك سأخبرك.
- يبدو أنك كاثوليكيا، فهناك نقاط التقاء بينك وبين كاترينا.. سأتعرف على الكاثوليكية أكثر في قراءاتي هذه الأيام وفي سفري، وإلا فانطباعي الأول بأن فيها وثنية غريبة، ولا أحب كنائسها التي كلها تماثيل وصور مثلها مثل معابد الوثنيين.
- وتحب البروتستانتية التي تقتل الناس؟!
- هذا يؤكد لي أنك كاثوليكيا.
- ليس هذا مقصدي، في بحثك عن طريق السعادة، ابحث عن الحق مع أي طائفة كانت، وعند ذلك ستجد السعادة والراحة والطمأنينة.

عادت كاترينا إلى الغرفة بعدما ودّعت طفليها..

- أعتذر عن التأخر، فقد طلب مني مايكل وسالي بعض العصائر والسندوتشات قبل ذهابهما مع السائق.
- أنا شاكر لك يا كاترينا ترتيبك لهذه الرحلة، لقد أزلتِ من نفسي تخوفات الموت التي كانت تراودني.
- حينما تسمو روح الإنسان، وتتكشف أمامه الحقائق، ويعرف أن الموت كائن فيه، وأنه ممكن في أي لحظة فإنه لا يعود أسيرًا لمغريات الحياة ولذاتها ولا تعود الأشياء التي في هذا العالم تستأثر بكل تفكيره واهتمامه.. ويستطيع الإنسان الواعي لوجوده ومآله أن يدرك بسهولة أنه يحيا ليموت، وأنه يموت ليحيا ويخلد بعد ذلك.
- فلسفة رائعة: نحيا لنموت، ونموت لنحيا، لكن المشكلة في ألم الموت.
- تحمل اليسوع الألم من أجل البشرية، فالألم عنصر أساسي في الخلاص الأبدي، وتحملنا للألم دلالة على محبتنا للمسيح.
- إذن لماذا الدنيا؟
- فائدتها في أن تستعملها في خدمة الرب وخدمة الرب فقط.

- ما رأيك يا آدم؟
- في ماذا؟
- في أن الحياة ينبغي أن تكون كلها في خدمة الرب والسعي إلى مرضاته.
- أتفق تمامًا مع ذلك.. إلا أن خدمة الرب ليست في الصلاة له فحسب.

كاترينا بإعجاب:

- رائع، كثيرا ما ننسى ـ للأسف حتى القساوسة ـ أن كل الحياة عبادة ينبغي أن تكون للرب.

جورج بابتسامة ساخرة:

- ويبقى السؤال المتكرر من يعبد الرب الرحيم على الحقيقة؟ ومَن يعبد وثنًا أو صنمًا، ويسمِّيه ربًّا؟

آدم بحزم:

- ربما هذا أخطر سؤال في التاريخ.
- كأنك تلمح يا جورج للخلاف بيننا في الرب.
- ماذا تقصدين؟
- نحن المسيحيون متفقون بأن الرب متكون من ثلاثة أقانيم، ومتفقون على أن أول هذه الأقانيم هو الأب، وثانيها هو الابن، وثالثها هو روح القدس، والثلاثة إله واحد. حتى لو اختلفنا بعد ذلك في طبيعة الابن وروح القدس.
- لم أقصد ذلك ولم يخطر ببالي، فأنا أحاول ألا أفكر في ذلك، فأنا لم أفهم كيف تكون الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، متساوية في الجوهر، مختلفة في الصفة وفي الطبيعة، ومع ذلك كلها آلهة!
- هذا من أصعب القضايا في المسيحية، وأقترح أن نناقشه في روما، فهو موضوع شائك لا يمكن شرحه في مثل هذا المكان.
- لا بأس، وإن كنت كذلك لا أفهم كيف يكون الرب الذي نفني حياتنا في عبادته لا نعرفه بشكل جيد بل صعب فهمه؟ بل لا أرى فرقًا أحيانا بيننا وبين الوثنيين!!
- صدقني أنا لا أتهرب، فهذه مشكلة لدى كل مسيحي أيًّا كان مذهبه، ولذا سنناقشها بعمق في روما.

آدم بابتسامة:

- بالنسبة لي أنا أتفق مع كاترينا، فهذا موضوع خطير، بل من أهم الموضوعات، ولا ينبغي أن يناقش سريعًا بهذه الطريقة؛ إذ لا يمكن أن يستمر عاقل في دين يرى أنه وثني، ولا يمكن أن يكون دين سماوي من الأديان الوثنية.

– ههههه، إذن وأتفق أنا أيضًا معكما أيها الكاثوليكيين، وإن كنت أعتقد أن كل المسيحيين يشعرون بالوثنية أحيانًا!

كاترينا باستغراب:

– هل أنت كاثوليكي يا آدم؟

– أحيانا يسميني الكاثوليكي، وأحيانا أخرى يسميني البروتستانتي.

– ههههه، لقد تأكدت الآن أنه كاثوليكي..

دخل الطبيب فيما كان جورج يضحك.. واقترب من سرير جورج مبتسمًا..

– مرحبا كنت متأكدًا أني سأجدك سعيدًا هكذا رغم ما قلته لك.

– أهلًا، لكن لماذا كنت متأكدا هكذا؟

– أي مثقف ومتدين لا بد أن يكون أكثر تسليمًا لله من غيره.

– لكن من هو الله؟

– قلت لك سابقا إنك فيلسوف، أنا مسيحي وأتحاشى هذا الموضوع؛ فأنا لم أفهمه، رغم الجهد الكبير الذي بذلته في ذلك، لكني متأكد من وجود الله الرحيم الكريم القادر، وهذا يكفيني.

– لكني لا أشعر أنه يكفيني أبدا، كيف أعبد من لا أعرفه؟

– أنت تتفلسف، المهم هل وقعت الإقرار لإجراء العملية؟

– لا، ولكني جاهز للتوقيع، أليس كذلك يا كاترينا؟

– هل هناك أمور تزيد من احتمال نجاح العملية؟ أو مكان أفضل لإجراء العملية؟

– هناك مستشفى في ألمانيا أفضل مستشفى في إجراء هذه العملية، لكن على كل الأحوال لا يمكن الآن الانتقال لمستشفى آخر، فيجب إجراء العملية اليوم، وقد تواصلنا بالأمس مع الاستشاري الموجود في ألمانيا وطمأننا جدًّا، أما بالنسبة لما يزيد نجاح العملية فلا أعرف شيئًا محددًا يمكن ذكره.

– وبماذا تنصحنا؟

– أن توقعوا الإقرار بسرعة، وسنبدأ في فحوصات العملية الساعة الخامسة، وستجرى العملية اليوم الساعة الثامنة.

– ومن سيجري العملية؟

– كبير الجراحين، دكتور ستيف مايك، وهو طبيب استشاري متخصص.

– بإمكانك أن تعطينا الأوراق حتى نوقعها، وإن كان هناك شيء آخر تنصحنا به فجيد.

- لا شيء إلا أني أحب أن تبقى سعيدًا حتى العملية، فمن تجربتي غير الموثقة علميًّا أن النفسية المتفائلة الإيجابية تنجح عملياتها أكثر.
- جميل.. ربما تكون متفقًا مع آدم على التفاؤل.
- أظن أنه يتفق العقلاء كلهم على ذلك بما فيهم أنت.
- بل ربما تفوقت علينا كاترينا بحجزها وترتيبها للسفر بعد إجراء العملية.
- رائع، أنت لا تحتاج بعد العملية لأكثر من أسبوع للراحة والمتابعة، ثم بإمكانك الخروج.. وإن كنا ننصح بعدم السفر إلا بعد عشرة أيام من العملية.
- الحمد لله الحجز بعد عشرة أيام من اليوم، أظنني قدرت الحجز جيّدًا..
- نعم، وهذا رائع منك.. أتدري يا جورج أبارك لك زوجتك وأصدقاءك الرائعين. وستصلك الأوراق بعد قليل لتوقيعها، وسأبدأ في إجراءات إجراء العملية، متمنيًّا لك الشفاء.

بعد خروج الطبيب التفت جورج إلى كاترينا وقال...

- يبدو أن الأمور تتجه لإجراء العملية، ولم يعد لدي الكثير من الوقت قبل العملية، وأود أن أرتب بعض أموري.
- جيد، ماذا تقصد؟
- كتبت تفصيل كل ما أملك من أموال حتى لا تضيع بعد وفاتي، وقد كتبتها كلها بحيث توزع عليك وعلى طفليّ فقط.
- لا تقل ذلك يا جورج.. أنت ستعيش وتقوم بالسلامة.
- عذرا على المقاطعة، رغم تفاؤلي وتأكدي من خروجك بالسلامة، إلا أن هذا مهم ومهم جدا؛ فلو لم تفعل ذلك فلربما ضاعت بعض أموالك. وعذرًا بل ربما منعت زوجتك من بعض حقوقها لو طبقت بعض المفاهيم الكنسية.
- لم أعد أفهمك، كيف تقول ذلك وأنت المتدين؟
- ماذا عن أبيك وأمك؟
- لم أرهما منذ قرابة العشر سنوات.
- ربما ليس هذا وقته.. لكن هذا خطأ بلا شك.
- أتفق معك، وقد كلمته في والديه أكثر من مرة، كم أتمنى لو والداي موجودان.
- يبدو أنكما تتفقان عليّ اليوم، أعدكما أني إن أفقت بعد العملية فسأزورهما قبل سفري.. يبدو أن العملية ستكون فارقة في حياتي.
- ولو أشرت إليهما في وصيتك لكان حسنًا.

– نعم، فقد وصى الكتاب المقدس بالوالدين: «إِنَّ اللهَ أَوْصَى قَائِلًا: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ».
– للأسف وصايا الكتاب المقدس أحيانا تتعارض عندي، فمثلًا قرأت ما تقولين وقرأت أيضا: «إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه، فلا يمكن أن يكون لي تلميذًا».
– في الكاثوليكية عند وجود تعارض في أذهاننا مثل الذي ذكرت، نحيل الموضوع للبابا؛ للفصل فيه، أما البروتستانت فيتعبون كثيرًا في ذلك.
– ستعيديننا للبابوية المقيتة المصادرة للعقل القريبة من الوثنية، المهم سنناقش هذا فيما بعد. الأهم الآن أن نعود لما كنا فيه، وسأضيف والديّ في الوصية، بناء على وصيتكما، وأشهدكما على الوصية بعد قليل.
– هذا مهم، وإن كنت متأكدا من خروجك بالسلامة إن شاء الله.
– كما أني قد جددت بوليصة التأمين على حياتي قبل شهر، وهذا ضامن لكم بعد وفاتي.
– الضامن هو الله وحده، وهذه أسباب فقط.
– وبالنسبة للبيت..
– من المهم أن تكتب كل ما تريده في الوصية، والأهم الآن أن نبتهل لله بالدعاء أن يشفيك وتنجح العملية، وأنا متأكد من ذلك.. ثم ابتسم، وقال: ولا تنس فأنا أريد منك هدية من روما.
مسحت كاترينا دموعها التي انهمرت رغمًا عنها، وابتسمت لطلب آدم..
– نعم.. الأهم أن نتضرع لله بالدعاء، وما الهدية التي تريدها من روما؟
– ههههه، لا يوجد في روما دهن عود هندي ولا إيطالي، ولن أحضر لك هدايا كاثوليكية من الفاتيكان.
– لا أريد هذه ولا هذه، أريد هديتين؛ الأولى حقيبة جلدية فاخرة جدًّا ورخيصة جدًّا، فإن لم تكن رخيصة فلا أريدها. والثانية أريد صورة كبيرة للاعب كارنفارو، فهو أسطورة إيطالية في كرة القدم.
– حقيبة جلدية فاخرة جدًّا ورخيصة جدًّا، لا أظنه ممكنا.. ههههه إلا إذا وجدنا مطيع الرحمن في إيطاليا.
– الذي سخر مطيع الرحمن في الهند، سيسخر مطيعًا آخر في إيطاليا.
– ولأول مرة أكتشف أنك رياضي!

– كارنفارو فاز بلقب أفضل لاعب بكأس العالم السابق، ويعتقد معظم النقاد بإيطاليا بأنه خليفة الأسطورة السابق فرانكو باريزى، وعموما أنا أحب أن أمارس الرياضة أكثر من مشاهدتها، لكن هذا هو طلبي.

– وإن أردت صليبًا من الفاتيكان سأحضره لك أنا؛ إن لم يحضره جورج.

– ما أكثر ما تتفقان عليّ.

– شكرا. وإنما أداعب صديقي، هل تسمحان لي بالانصراف؟

في تلك الآونة.. دخل توم وشاهد الابتسامات والضحكات..

– يبدو أن هناك أخبارًا جديدة يا جورج، طمنا عليك.

– لا جديد إلا أن صديقي آدم يريدني أن أحضر له هدية من روما؛ حقيبة جلدية إيطالية فاخرة جدًّا ورخيصة جدًّا، فكنا نضحك من ذلك.

– من روما؟! ستسافر روما لإجراء العملية هناك؟!

– أعرفك بصديقي آدم أولًا، وأعرفك يا آدم بطبيبي وصديقي توم.. سأجري العملية اليوم وسأسافر بعد عشرة أيام إلى روما للسياحة مع حبيبتي كاترينا وأبنائي، ولا أدري كيف أحضر له الحقيبة؟

– ما أروع هذه الروح المتفائلة، هل تغير شيء في موضوع العملية؟

– لا، لكن تغيرت نظرتي للحياة بالتفاؤل الذي جاءتني به كاترينا، وتعلمته من آدم.

– كم نحتاج أن نتعلم التفاؤل، فكثير من الأمراض النفسية حلها في التفاؤل، لكن تعلمه صعب أحيانًا.

– اجلس مع آدم وسيعلمك إياه، فهو يمتلك رصيدًا كبيرًا منه.

– إذن لا بد أن أسعد بالتتلمذ عليه والتعلم منه.

– وبصراحة كثير من إجاباتي التي أتفلسف بها في جلساتي معك آخذها إما منه، أو من كاترينا.. أتذكر لما قلت لك: يجب أن نأخذ الأمور ببساطة وبلا تعقيد، هذه أخذتها من آدم.

– رائع، هذه النقطة بالذات غيرت جزء من تفكيري وطبيعتي بعد أن سمعتها منك، فطبيعتي وقراءاتي تنحو للتعقيد لا للتبسيط.

– جورج مجامل رائع، وإلا فأنا أجلس معه لأتعلم منه، فأنا مجرد نادل في مقهى، وهو أستاذي ومعلمي.

كاترينا بابتسامة:

– بما أننا بدأنا في المجاملات؛ بل هذا هو جهد توم الذي أنهى مشكلة تساؤلات جورج المحيرة.

توم باستغراب:
- عذرا.. للتأكد فقط، ستجري العملية اليوم؟
- يبدو أنك لم تصدقني، نعم.. أظنك لا زلت تحتاج إلى دروس في التفاؤل، وقد رتبت أموري كلها، وأحتاج فقط أن أجلس نصف ساعة مع نفسي لكتابة بعض الأوراق؛ فالموت والحياة بيد الله.
- ومتى العملية؟
- ستبدأ الإجراءات الساعة الخامسة، والعملية الساعة الثامنة.
نظر آدم في ساعته...
- أستأذنكم الآن، فلا بد أن أذهب إلى المقهى.
- أنا ممتن لك آدم، أنت خير صديق.
- لحظة يا آدم، هذه بطاقتي أتمنى أن أتعرف عليك وأجلس معك.
- من الضروري أن تلتقيا.. آدم يبدو أن توم تغير عما قلت لك سابقًا.
- لي الشرف أن أقابلك، وأعتذر فأنا لا أملك بطاقة..
ثم أخرج ورقة وكتب اسمه ورقمه وأعطاها لتوم، وألقى التحيّة ومضى..
- رغم قصر مدة معرفتي بآدم؛ فهو من خير أصدقائي.
- هو رجل طيب، لما كنت في غيبوبة وزارنا كاخ سخر منه لأنه نادل، فلم يقل له أي شيء.. فقط قال بأنّ قيمته في نفسه، يستمدها من داخله، لا من الخارج.
- من الضروري أن أقابله وأن أتعرف عليه.. وشيء جيد أنك اقتنعت بتغيّري يا جورج.
رنّ هاتف جورج، فاستأذن من توم وكاترينا ورفع السماعة، فإذا هو مديره كاخ..
- تبدو بخير الآن، لقد زرتك وأنت في غيبوبة، وكان عندك النادل، كيف حالك الآن؟
- أنا بخير، والنادل صديقي، ولا أسمح لأحد أن يقول عنه ما يسوءه.
- ههههه، أبشرك.. قرر مجلس الإدارة صرف مكافأة لك على أنك استطعت أن توقع ثلاثة عقود كبرى في شهر واحد.
- شكرًا لك ولهم، ربما كانت المكافأة بسبب أني دفعت الرشوة.
- دع عنك هذا، متى ستبدأ في الدوام؟ فأنت لم تقدم إجازة.
- لا أدري سأجري اليوم عملية جراحية، وسأسافر بعدها إلى روما للتنزه، وعندما أعود سأكتب لك إجازة، وسأقرر هل أكمل في العمل أم لا؟
- تبدو عصبيًا أو متعبًا، فما عهدتك تتكلم هكذا.

- للأسف قد تجاوزت مبادئي، وكنت أداة لرشوة بنيامين.
- حتمًا أنت متوتر بسبب العملية، سأتصل بك لاحقًا، مع السلامة.
- مع السلامة..
- ما الأمر حبيبي..؟
- هذا كاخ الصورة العكسية لآدم، لا أدب ولا خلق ولا مبادئ!
- كثيرون من هم مثله في مجتمعاتنا بسبب المادية المفرطة، والإلحاد والبعد عن الدين.

توم معقبًا:

- البعد عن الرب هو أكبر مشاكل البشرية فيما أظن، ومن أكبر أسباب القلق والضياع والكوارث.
- أن تقول هذا كاترينا؛ أفهم ذلك، لكن أن يقوله توم فهذا جديد!!
- ههههه، ألم تقل أنك اقتنعت أني تغيرت، ثم من جانب آخر كل الدراسات العلمية تثبت ذلك، لكن الكارثة الحقيقية في رجال الدين.
- تقصد في البابوية الكاثوليكية.
- أفهم ما ترمي إليه، لكني إنما جئت للاطمئنان عليك، فلعلكما أن تأذنا لي، وسأزورك غدًا.
- شكرا لك توم، لقد سعدت بزيارتك.

إثر ما غادر توم.. التفتت كاترينا إلى جورج..

- حقيقة توم تغير جدًّا!
- نعم، الدين يغير كل شيء في الإنسان.
- رائع، يبدو أنك تغيرت أيضا يا جورج.
- ربما!
- سأذهب للبيت من أجل الأطفال، وسأتفرغ للدعاء لك، وسأعود إليك في الخامسة.
- ضروري أن تعودي، وسأكون قد أنهيت الأوراق لأسلمها لك.

(٣)

انهمك جورج في كتابة وصيته، وحصر ممتلكاته، وأنهى ذلك في غضون ساعة.. ثم قرر أن يرسل لكل أصدقائه طلبًا بأن يدعوا ويصلوا من أجله، وأخبرهم بالعملية التي سيجريها. كان يود أن يكون الدعاء من كل الأديان والمذاهب، لعله يستجاب ممن هو على الصواب والحقّ.. أرسل لأصدقائه، وخصّ حبيب الكاثوليكي، وليفي اليهودية.. انتبه إلى أنه لا يعرف من أصدقائه من هو مسلم، ثم تذكر مطيع الرحمن وأرسل له، ولمـّا ذكر الهند تذكّر البوذية جوتسنا، لكنه قال لنفسه: أما هؤلاء فوثنيون، هم من يصنعون ربّهم، ولا أظنه ينفع أو يضر، كم أكره الوثنية.. ثمّ أغلق جهازه.

رنّ هاتفه وكان رقمًا غريبا، فأجاب..

- ألو مرحبا.
- مرحبا جورج، طمأنا عليك.
- مرحبا، من المتصل؟
- يبدو أنك نسيتني، أنا ليفي من تل أبيب.
- أهلًا أهلًا.. كيف أنسى من أحسنت إليّ وتعلمت منها؟ اشتقت لك يا ليفي، وعذرا لأني لم أعرف صوتك، فلم أكن أتوقع اتصالك.
- ما خبر العملية؟ أنا قلقة عليك جدًّا.
- أشكر لك مشاعرك، ستجرى العملية اليوم، وأنا متفائل بنجاحها، وإنما أرسلت لكم؛ لتدعوا وتصلوا من أجلي.
- سأصلي من أجلك، لكن للأسف بالطريقة اليهودية.
- ولماذا تقولين للأسف؟!
- منذ زيارتك وأنا أقرأ في المذاهب والأديان والأفكار؛ لأبحث عن طريق السعادة، وكنت وما زلت أنتظر أن تأتيني توجيهاتك للوصول إلى السعادة.
- أظنك تبالغين قليلًا، أنا الذي تعلمت منك، أنت بالذات تعلمت منكِ الصراحة مع النفس.. بالمناسبة ما أخبار صاحبنا حبيب؟
- هو بجواري، ويريد أن يكلمك.
- ههههه، قولي له الحراسة حتى على الهاتف.. حبيب رجل رائع يا ليفي حاولا أن توثقا صحبتكما، فالصديق مهم جدًّا للإنسان.

- ههه، هناك خبر ربما يخبرك به حبيب.. المهم سنصلي جميعا من أجلك، وأتمنى لك الشفاء، وأتمنى أن تتصل بنا بعد انتهاء العملية، تفضل حبيب معك.
- مرحبا جورج، الحارس معك، بشرنا ما أخبارك؟ وكيف صحتك؟
- ستجرى لي العملية اليوم، وسأكون بخير حال، كيف أخبارك أنت فقد اشتقت إليك؟
- نحن بخير، ونحن مشتاقون لك أكثر، لقد كانت زيارتك مفتاحًا للحوار..
- هذا من تواضعك يا دكتور.. فأنا أتعلم منك، وكلامك عن مذاهب النصارى لا يزال يرن في أذني، وبالمناسبة سأزور روما والفاتيكان الأسبوع المقبل؛ لأتأكد مما قلت.
- رائع، أكمل طريقك للسعادة، وقد وعدتنا أن توافينا بالأخبار.
- حتما، سأوافيكم بأخبار طريق السعادة؛ فقد وعدت ليفي بذلك.
- سأقول لك خبرًا سيفرحك.. ربّما أتزوج ليفي.
- واو.. مبارك، وهل سيكون زواجًا كاثوليكيًّا أم يهوديًّا؟
- ههه، لن يتم الزواج إلا بعد عدة أشهر، فما زالت هناك بعض الإشكالات، وربما يكون بالطريق الذي يوصل للسعادة أيا كان، يهوديًّا أو كاثوليكيًّا أو بروتستانتيًّا.
- نسأل الرب أن يعيننا على معرفة الطريق إليه.
- في أمان الله، وننتظر أن تطمئننا على صحتك وعلى طريق السعادة، مع السلامة.

شرد جورج متأمّلًا.. ولم ينتبه إلا على صوت الممرضة، وهي تقول:
- لا بد أن نذهب الآن لإجراء بعض الفحوصات.

نظر جورج في الساعة فإذا هي الساعة الخامسة تمامًا، أنهى جورج عددًا من الفحوصات والتحاليل، وعاد مرة أخرى إلى غرفته.. نظر في الساعة فإذا هي السادسة والنصف، ولم تأت كاترينا بعد، اتصل بها، فردت وأخبرته بأنها عند باب المستشفى، مرّت دقائق وإذا بكاترينا تدخل متلهفة ومعتذرة، فقد حدث خلل في سيارتها، واضطرت إلى ركوب الحافلة وهذا ما أخرّها.
- خفت عليك عندما تأخرتِ.
- خفت أن أتأخر أكثر، لذلك أوقفت السيارة جانبًا وركبت الحافلة.
- تفضلي هذا الظرف، فيه كل الأوراق والوثائق التي تحتاجينها لو حدث لي مكروه.
- ستكون بخير بإذن الله.
- وهناك شيء لم أكتبه.
- ما هو؟
- أود أن تكملي البحث عن طريق السعادة لك ولأبنائنا.

- ستكمل طريق السعادة بنفسك، وستصل إلى ما تريد.. فلن يتركك الله أبدا، فأنت صاحب خلق ومبادئ.
- امسحي دموعك.. وعديني يا كاترينا.
- أعدك، وسأكمل البحث عن طريق السعادة معك إن شاء الله، وسيكون أول البحث أثناء سفرنا إلى روما معًا.
- أحبك كاترينا..
ثم اقترب منها وضمها إلى صدره.. فأجهشت بالبكاء..
- وأنا أحبك جورج.
- كوني متفائلة كعادتك، هل حجزت الفندق في روما؟
- نعم.
أتت الممرضة مرة أخرى لتأخذ جورج لإكمال الفحوصات.. فشدّ على يدِ كاترينا، وطلب منها أن تذهب إلى البيت، وتدعو له..
- اذهبي للبيت يا حبيبتي، بعد قليل سيأخذونني إلى التخدير، والعمليّة ستستغرق ثلاث ساعات.. لا داعي لجلوسك، سأكون بخير اطمئني..
- لا تقل هذا، أنا أحبك جورج، وسأسافر معك إلى روما، وسنجد طريق السعادة.
- بإمكانكِ أن تنصرفي سيدتي، وسنتصل بك بعد العمليّة، فلدينا رقم هاتفك.
- ليحمك الرب يا جورج، وليبارك في عمرك وحياتك.
مضى جورج إلى غرفة العمليات وقلبه يعتصر خوفًا على كاترينا وأبنائه،لم يكن أبدًا خائفًا على نفسه، فراح يتأمل كيف ستصبح الدنيا لو كان هم كل شخص نفسه فقط؟ حتمًا لا تطاق، فحمل هموم الناس وآلامهم يهون على النفس احتمال الألم.. وكذلك الحياة، فمن يحيا لخدمة الناس وإسعادهم يسعد، ومن يحيا لنفسه فقط يضل الطريق.. قطع الطبيب تداعي أفكاره وهو يقول:
- أريدك أن تكون في غاية الاطمئنان، ففحوصاتك الأولية مطمئنة جدًّا، ولن يكون إلا الخير.

(٤)

انتهت العمليّة في منتصف الليل، وقد استغرقت أربع ساعات، كانت كاترينا تتصل فيها بالمستشفى كل ساعة، ولم يهدأ لها بال حتّى اتصل بها الطبيب بعد خروجه من غرفة العمليات، وأخبرها أن الأمور على خير ما يرام، وأنّ نتائج العمليّة ستظهر بعد اثنتي عشرة ساعة، وهو لن يفيق إلا في هذا الموعد تقريبًا..

– اطمئني سيدتي، وطمئني المتصلين الآخرين، فالاتصالات لم تنقطع عن المستشفى.

– من هم المتصلون؟

– آدم وتوم.. إن كنت تعرفينهما فأرجو أن تتصلي بهما.

– حسنًا.. وسأخبرهما أن يصليا من أجله.

قرب الثانية عشرة من اليوم التالي.. بدأ جورج يصحو، ويحرك يده حركة غير طبيعيّة، ويهذي بكلمات غير مفهومة،لم تتبيّن منها كاترينا وآدم وتوم اللذين كانوا جالسين حوله ينتظرون إفاقته.. إلا كلمات معدودة: طريق السعادة، لماذا خلقنا...الحياة... الموت...

جاء الطبيب ليتفقد حالة جورج، فقامت إليه كاترينا بسرعة.. فابتسم لها..

– أقدر قلقك سيدتي.. وأبشركم كلّ الفحوصات مطمئنة جدًّا، ونتوقع أن يفيق بعد قليل.

– لكن يا دكتور هو يتكلم بكلام غير مفهوم!

– لا تقلقوا، هو لم يفق من المخدر بعد، وهذا متوقع. فإذا زالت آثار المخدر واستطاع أن يتكلم بكلام واضح فهذه أولى علامات نجاح العملية. وفي الغد سنبدأ في إزالة الأجهزة عنه، فإذا استطاع الحركة ومن ثم القيام، فهذا دليل على أنّ العملية ناجحة ١٠٠٪.. متى ما أفاق سنعطيه مسكّنًا كلّ ثلاث ساعات، وبعدها سترونه سليمًا معافى، اطمئنوا.

– شكرا لك، وسيحفظه الرب.

– بالمناسبة كان يردد كلمة قبل العملية أثناء التخدير «طريق السعادة»، فما هو طريق السعادة الذي يردده؟

– طريق يبحث عنه، وانشغل عن كل شيء ليكتشفه.

– هو من أسعد من جاءنا في المستشفى، فلماذا يبحث عن السعادة؟

– لم يسعد إلا عندما بدأ في البحث عن هذا الطريق.

– سيجده إن شاء الله بعد أن يقوم بالسلامة، أستأذنكم الآن.

ما إن خرج الطبيب.. حتى التفت توم إلى جورج الراقد تحت الأجهزة الطبيّة.. وتمتم في أسى..

– قطعًا ستجد طريق السعادة يا جورج، وسأجده معك، فلقد جربت طريق الشقاء طريق الإلحاد ولم يجلب لي إلا الهم والغم، ولكنني لم أقتنع بأي دين حتى هذه اللحظة، رغم أني مقتنع أن الرب الرحيم الذي خلقنا قادر على هدايتنا.
– أنا موقن أنّك ستجده يا توم..
– كيف سأجده يا آدم؟
– أقول ما قلته أن الرب الرحيم لن يبعد من أراد القرب منه، ولذا سأجد أنا وأنت وجورج ما نبحث عنه.
– وهل تبحث أنت أيضًا عن طريق السعادة؟
– ربما!!
أخذ جورج يفتح عينيه بصعوبة.. انتبهت له كاترينا فاقتربت منه..
– حبيبي جورج هل تسمعني؟
– نعم.
– الحمد للرب على سلامتك، لقد كنا قلقين عليك، وهذا آدم وتوم جاءا ليطمئنا عليك.
– شكرًا.
– تمنياتي لك بالشفاء العاجل.
– تمنياتي لك أيضا بالشفاء العاجل، ولقد بشرنا الطبيب أن العملية ناجحة.
– هل تريد شيئًا يا حبيبي؟
– لا.
– أرى ألا نثقل عليه ونتركه يستيقظ بهدوء وعلى راحته.
– صحيح.. لذا أقترح أن أنصرف أنا وآدم وتبقين أنت بجواره.
– أشكركما غاية الشكر، سيتصل بكما اليوم ليطمئنكما بنفسه.
– ألديك سيارة يا آدم أم تود أن أوصلك؟
– ليس لدي سيارة، ولا أود أن أتعبك، سأركب النقل العام.
– اركب معي، فأنا أريد أن أتحدث معك قليلًا.. مع السلامة يا كاترينا.
– مع السلامة.
بعد نصف ساعة تقريبًا من خروج توم وآدم.. فتح جورج عينيه مجددًا، فيما كانت كاترينا بجواره شاردة..
– كاترينا..

– جورج حبيبي.. كيف حالك الآن؟

– أنا بخير.. كأني رأيت توم وآدم؟

– انصرفا قبل قليل، بعد أن اطمأنا عليك، فقد كانا هنا منذ الصباح الباكر..كيف أنت يا حبيبي؟

– كم الساعة؟.. أشعر بألم في الجمجمة.

– قرابة الواحدة مساءً، لا تتعب نفسك سأستدعي الطبيب الآن.

جاء الطبيب سريعًا، إثر ما استدعته الممرضة..

– تبدو بخير يا جورج.

– هناك ألم حاد في الجمجمة.

– لا بأس ستأخذ الآن مسكنًا، وسيذهب كل هذا، فهذا طبيعي، فقد تم فتح جزء من الجمجمة، والأمور طيبة ومشجعة.

– لقد بدأ يتكلم وبوضوح وإن كان بثقل.

– هذه علامات نجاح العملية فاطمئني، ولتطمئنّ يا جورج.

– شكرا لك.

أعطى الطبيب جورج حقنة مسكنة.. ثم التفت إلى كاترينا، ونصحها بالذهاب، فجورج سينام بعد الحقنة ساعتين على الأقل..

– بل سأنتظر بجواره.

– بعد استيقاظه سيعطى حقنة أخرى لساعتين أو أكثر، والأمر إليك.

– حبيبتي اذهبي.

– سأصلي من أجلك طوال اليوم.

في الساعة السابعة والنصف صباحًا كان جورج قد أفاق من المسكنات، وتحدث مع الممرضة بشكل جيد وواضح، وإن كان ما يزال يتغذى بالمغذي، ولم يقدم له الأكل بعد..

اتصل بكاترينا وتحدث معها وطمأنها، وطلبت أن يتصل بآدم وتوم، فاتصل بهما، ثم اتصل بحبيب وليفي.. ثم استسلم لأفكاره وخواطره عن طريق السعادة وعن سفره إلى روما.

إلى بلاد الكنائس..

١١ إلى بلاد الكنائس..

إلى بلاد الكنائس..

(١)

أخذت صحة جورج تتحسّن تدريجيًّا، وبدت عليه علامات نجاح العمليّة، فمنذ اليوم التالي استطاع النهوض من فراشه بعدما أزالوا عنه الأجهزة، لكنّه استمر على المغذّي، ولم يقدّم له الطعام بعد.. أتت كاترينا مع الأطفال للاطمئنان عليه، ففرحوا لمـّا رأوه بخيرٍ، يتجاذب أطراف الحديث معهم بانشراح وانبساط، ولم ينس جورج في غمرة سروره أن يرسل رسالة يطمئن بها من أرسل لهم بالأمس وطلب منهم الدعاء له، فلربّما كان نجاح العمليّة بسبب دعاء أحدهم.. ربّما!
عاد جورج لقراءاته وتجهزه للسفر إلى روما بأكبر كمية من المعلومات عن المسيحية ومذاهبها ونحلها، وكان يتعجب من كونه ولد بروتستانتيًّا، إلا أنه لا يكاد يعرف عن دينه إلا معلومات قليلة جدًّا، وأن غالبية ما يعرفه قد تعلمه من كاترينا الكاثوليكية، أو من حبيب الكاثوليكي أثناء سفره للقدس، أو من قراءاته المتأخرة للبحث عن طريق السعادة، فلم يتيسر له دراسة دينه حقيقة سابقًا، مثله في ذلك مثل غالبية المسيحيين الذين يدينون بدين لا يعرفونه، بل تجد كثيرًا منهم مثله هو لا يعرف عن دينه إلا مجرد الاسم.
كانت القراءة في المسيحيّة قراءة مثيرة، خاصة ما قرأه في الخلافات الحادة بين المذاهب المسيحية: الخلافات الحادة العقدية، والخلافات الحادة السلوكية والتعبدية، والخلافات العسكرية والحربية أيضًا. فكان يتأمل كثيرًا، لم ذلك الاختلاف؟ هل تكون كاترينا على حق عندما قالت له بأن المشكلة في البروتستانتية وليست في الكاثوليكية لكونها سابقة لها، لكنّه تذكر أن الأرثوذوكسيّة سابقة للكاثوليكيّة في التاريخ المسيحي، وعلى مبدأ القرب، يفترض أن يكون على الحق أقربها ليسوع عليه السلام، لكنّ الكتاب المقدّس لم يكتب ولم يحفظ في حياة يسوع.. إذن أي مذهب أصوب؟ شعر بالرغبة في الحديث مع أحد؛ فقرر الاتصال على آدم، فاتصل به..

– مرحبًا آدم.

– أهلًا أهلًا.. حمدًا لله على سلامتك يا رجل.

– شكرًا لك يا آدم، وأتمنى أن أراك في أقرب فرصة.

– سآتيك غدًا، إن كان يناسبك؟

– جيد، ولكن عندي سؤال، هل ترى أن أكمل الجلسات مع توم أم لا؟

– أرى أن تكملها، لكن لماذا هذا السؤال؟ ولماذا الآن؟

– لا أدري، ربما لأني أشعر أحيانا بأنه لا جديد!

– ماذا تعني بلا جديد؟

– لا أدري، شعور غريب فقط.

– وأنا لا أدري أيضًا، كل ما أعرفه أن الأصل أن تستمر ما لم يبدُ لكَ شيئًا جديدًا، خاصة بأنه واضح أنك تستفيد كثيرًا، كما أن توم قد تغير للأفضل كما تقول.

– صدقت، ولا أدري لم أصبحت أرتاح إليه وأعامله كصديق وليس كطبيب؟ عمومًا هو مجرد خاطر، سأتصل به لآخذ منه موعدًا، ولكني أود أن أتناقش معك قبل الجلسة ـ إن سمحت ـ فلعلنا نتناقش غدًا في بعض القضايا.

أنهى جورج المكالمة، ليتصل مباشرة بتوم، طالبًا منه أن يجلس معه قبل سفره إلى روما، وإذا ما كان في الإمكان أن تكون الجلسة في المستشفى. فوافقه فهو لا يريد أن يتعبه.

– لتكن بعد غد صباحًا، فقد أخبرني الطبيب بأني سأخرج بعد ثلاثة أيام في المساء.

– كما تريد يا جورج.

جاءت كاترينا فيما كان جورج منهمكًا في القراءة.. تنبّه لها عندما دخلت الغرفة وألقت التحيّة بصوت بشوش مرتفع، ثمّ جلست بجواره وطبعت قبلة على خده..

– سعدت كثيرًا، فوضعك الصحي مستقر كما أخبرني الطبيب.

– نعم أنا بخير، ما أخبار السفر إلى روما؟

– كل شيء جاهز تقريبًا، حجوزات الطيران، وحجوزات الفنادق، ومواعيد المقابلات مع بعض الشخصيات، والرحلات مع المجموعات السياحية.

– جيد، لكن ماذا تقصدين بالمقابلات مع الشخصيات؟

– أعرف ما تريد، وقد رتبت لك مقابلات مع بعض القساوسة، وزيارة للفاتيكان.

– هذا ليس ما أريد أنا، بل ما تريدين أنت.

– نعم، أنا أريد، لكني لم أرتبها إلا لعلمي أنك تريد كذلك.

– صدقت، شكرًا لك يا حبيبتي.

– وهل ستجلس مع الطبيب توم قبل سفرنا أم بعده؟

– قبله، الجلسة بعد غد هنا في المستشفى.. تبدين مهتمة بالجلسة؟

– صدقت، لا أدري لماذا أشعر بأنك أسعد منذ بداية جلساتك مع توم.

- فقط لهذا السبب؟!
- نعم فقط لهذا السبب.. أو ربما لأني أشعر أن توم أصبح أفضل مما كان، ولا أدري لماذا؟
- وأنا لدي نفس الانطباع، لكني أخشى أنه يخدعني.
- كل شيء ممكن، لكنني أميل إلى أن التغيير حقيقي، وإن كان كل شيء ممكنًا.
- لكن لو كان يخدعنا فما هدفه من ذلك؟
- لا أظن أن هناك مصلحة له في خداعنا، لذلك أعتقد بأنه صادق في تغيره.
- وأنا كذلك لولا مدير أعماله براد.
- أكره ذلك الرجل، ولا أدري لماذا أرى أنه غير مريح أبدًا؟
- حتى توم يشتكي منه كذلك!
- ربما، لكن ذلك غير مقنع! بدل أن يشتكي منه، يمكنه أن يفصله ويرتاح منه.
- صحيح، ربما يكون هناك سببا آخر، لا أدري! عموما كنت أفكر أن أوقف الجلسات مع توم.
- أرى أن ذلك غير مناسب.. والرأي لك.
- رأيك هو نفس رأي آدم بالضبط، يقول لي: قد بدأت طريقًا ويفترض أن تكمله، ويلمح إلى تحسن توم، ويقول تابعت معه عندما كان سيّئًا، فهل تتركه عندما تغيّر وتحسّن.
- كلام منطقي وحجة قوية.
- توافقكما الدائم يجعلني أجزم بأنه كاثوليكي وليس بروتستانتيًا.
- ههههه، أو ربما كان دليلًا على أن الكاثوليكية أقرب إلى الحق من البروتستانتية.
- ربما، وقد جمعت أسئلة كثيرة ومقارنات لعلنا نناقشها في روما.
- فكرة رائعة، فنحن سنكون في مركز الكاثوليكية، بل مركز المسيحية في العالم.
- ربما نكون في مركز الكاثوليكية، لكننا قطعا لسنا في مركز المسيحية، فنحن لا نعتقد بالبابوية البائسة.
- لا تطلق مثل هذه الأوصاف مرة أخرى، سنناقش هذه القضايا في روما كما اتفقنا؟ ألا تشعر أنك متحامل على الكاثوليكية؟ هل تريدني أن أذكر انتقاداتنا على البروتستانتية المتفلتة؟
- المتفلتة!! وصف جميل للبروتستانتية! ألا ترين أني لم أغضب مثلك رغم ما قلت؟!
- ههههه، ربما، لأنك تعرف أنه وصف واقعي للبروتستانتية، ألستم تألفون دينكم كما تريدون، وتفهمون الكتاب المقدس كما تريدون، وهذا هو التفلت الذي أعنيه!
- ربما يكون كما قلت، أو لأننا أحرار من طغيان الكنيسة الرومانية وصكوك غفرانها.
- اتفقنا أن نناقش كل ذلك في روما، فهل ترى أن نقطع النقاش؟

– ههه، اتفقنا، أود أن تتأكدي من الطبيب إن كان هناك شيء نحتاجه لنسافر في موعدنا، فأنا متحمس للسفر جدًّا.

– تقصد متحمس لمقابلة الأسقف!!

اعتدل جورج في جلسته وتبسم وقال:

– نعم؛ لأقنعه أمامك بخطأ دينه.

– رغم أني أعرف سخريتك، لكني حقيقة أجاهد نفسي لأكون حيادية في الرحلة، فهل يمكن أن تعينني يا حبيبي؟

– أنت تعرفين كيف تستميلين قلبي يا حبيبتي، فإن غلبتك بالحجة غلبتيني بالعاطفة، ثقي أني سأبذل ما أستطيع.

– أحبك جورج، سأذهب الآن للطبيب للاستفسار عن حالتك وموضوع السفر.

عندما عادت كاترينا بعد ساعة وجدت جورج مستغرقًا في قراءته..

– يااه.. هل ما تقرأ مهم لهذه الدرجة؟!

– نعم، فأنا أقرأ عن مارتن لوثر وجون كالفن، وهما من أهم من أثر في البروتستانتية.

– تعني ألفوا وصنعوا الدين البروتستانتي.

– صدقت إلى حد كبير، لكنهم فعلوا ذلك؛ ليتخلصوا من أمراض الكاثوليكية وتقاليدها البالية...

– إذن أنت توقن أن البروتستانتية تأليف؟!

– للأسف نعم، حتى تحد من موجة الإلحاد التي دعت إليها الكاثوليكية بأسرارها وبابويتها، حتى صار لدى بعض الناس ارتباط بين الدين والتخلف ونقص العقل! فهل تريدين أن نتناقش في ذلك الآن؟

– أوه.. مباشرة تقلب الحديث على الكاثوليكية، سنناقشه في روما، حتى تقتنع بأن البروتستانتية تأليف وتحريف للدين المسيحي.

– صدقت البروتستانتية تحريف عن الكاثوليكية، ولذا يكفرون بعضهم بعضًا، ويقاتلون بعضهم بعضًا.. حتى فرق البروتستانتية تكفر بعضها بعضًا، هل تعرفين كم عدد كنائس ومذاهب البروتستانتية؟

– لا، هل تصل إلى مائة فرقة مثلا؟

– ربما يعجبك هذا الخبر، ما بين ثمانية وعشرين ألف إلى أربعين ألف كنيسة ومذهب.

– أربعون ألف كنيسة ومذهب؟!

ظهرت الكراهة في وجه جورج، وقطب حاجبيه، وعدل جلسته، وتنهد، ثم قال:

– للأسف نعم، وهذا يذكرني بمذاهب الفرق غير السماوية، كالتي رأيت بعضها في الهند، وللأسف أيضًا أن الصراحة مع النفس صعبة!

– ألم أقل لك أن البروتستانتية تأليف! ثم ابتسمت وقالت: لكنا سنناقش ذلك في روما كما اتفقنا.

– أكثر من مرة تقولين ما تريدين، ثم تقولين النقاش في روما، ثم ابتسم وقال: لا بأس، فقط من أجلك، ماذا يقول الطبيب؟

– أحبك جورج.. يقول الطبيب: إن وضعك الصحي رائع جدًّا، وإن العملية ناجحة بنسبة ١٠٠٪، وإنك ستخرج قريبًا، ويكفيك بعد الخروج أن ترتاح يومين إلى ثلاثة أيام، ثمّ تمارس حياتك الطبيعيّة، ويمكنك أن تسافر دون أيّ مخاطر.

– وهل هناك أي احتياطات أثناء السفر؟

– سألته فقال: أبدا، لا توجد أي احتياطات إلا الوصايا العامة؛ مثل ألا ترهق نفسك، أو تعرضها للخطر، وهذا ليس له ارتباط بالعملية كما يقول.

– جيد.

– ستكون رحلة رائعة، وسنجدد أيام زواجنا الأولى.

– ما أحلى أيام زواجنا الأولى! سنجددها وسنسعد في سفرنا، لكن سيكون هناك جديد فيها..

– وما الجديد؟

– وجود مايكل وسالي.

– رغم أننا سنضطر لتغيير بعض بنود الرحلة من أجلها، لكنهما سيزيدان من متعتنا، أحبهما جدا.

– أعرف أني مقصر في حقهما، وأشعر بأنهما كبرا فجأة.

– سنعوضهما الفترة القادمة، أليس كذلك؟

– نعم، وأعتقد أن أفضل هدية أقدمها لهما هي دلالتهما على طريق السعادة.

– طريق السعادة مرة أخرى!

– وثالثة ورابعة، لا أدري لماذا أشعر أني اقتربت من الوصول إليه؟

– ربما نصل إليه معا في روما.

– ههههه، تقصدين نصبح جميعنا كاثوليك مرة أخرى؟!

– ربما.. وربما غير ذلك.

– وتتركين الكاثوليكية؟!

- وربما تترك أنت البروتستانتية.
- على افتراض الاحتمال الآخر، هل لديك القدرة على ترك الكاثوليكية؟
- أخذ مني القرار وقتًا وصراعًا طويلًا.. لكن الآن أستطيع أن أقول نعم، ولو كان قرارًا صعبًا.
- أنا فخور بك يا حبيبتي.
- بل أنا الفخورة بك يا جورج، لم ترض أن تعيش دون تحديد أهدافك، ووضع معنى لحياتك، وإجابة لتساؤلاتك.
- ههههه، إذن مبارك لك أيتها البروتستانتية.
- ههههه، بل مبارك لك القناعة والعودة للأصل، إلي الكاثوليكية أيها المعترض البروتستانتي.

(٢)

انهمك جورج في القراءة بعد ذهاب كاترينا، وأكمل ما كان يقرأ عن مارتن لوثر وجون كالفن وغيرهما، وعن التغيرات الحديثة في الدين المسيحي، ولم ينتبه للوقت حتى سمع صوت الممرضة تقول له:

- هل لديك اختبار بعد خروجك؟
- نعم، اختبار مصيري.
- في أي مستوى دراسي؟
- لا أدري.
- يبدو أنك لا تود أن نتحدث، وأعتذر عن قطع قراءتك، ولكني إنما جئت لأفصل المغذي، وستبدأ في الأكل الطبيعي من الغد.
- أعتذر، لم أقصد ما فهمت، وإنما أنا حقيقة أشعر أني في اختبار لكنه ليس اختبارًا دراسيًّا.
- لم أفهم شيئًا مما تقول!
- ما دينك؟
- أنا لا أثق بكل الأديان كثيرًا، لكني بروتستانتية.. كالفينية.
- أي من أتباع جون كالفن؟
- نعم، وإن كنت لا أعرف ماذا جاء به من جديد؟ كل الذي أعرفه أنه أقرب للعقل واجتماع العقلاء من اللوثرية.
- وكيف عرفت هذا وأنت لا تعرفين الجديد الذي جاء به؟
- أنا ممرضة، ولست راهبة، يبدو أنه حل الصراعات الدامية التي بين الكاثوليك والبروتستانت.

– وهل يعقل أن يتصارع أصحاب دين واحد؟! وهل يعقل أن يأتي شخص مثل كالفن ويعيد تصنيع الدين؟!

– لذا قلت لك لا أثق لا بالبروتستانتية ولا بالكاثوليكية ولا بكل الأديان، ولولا حاجتي للدين لما آمنت بالبروتستانتية.

– عذرا، ماذا تقصدين بحاجتي للدين؟

– لا يمكن أن أعيش بلا دين، الحياة بلا دين عذاب وشقاء، كنت ملحدة، ثم انتقلت إلى العلمانية، وقد كدت أن أنتحر من الضيق الذي كنت أعيشه، وكنت أعرف خطأ ما أنا عليه في داخلي، فقررت أن أكون بروتستانتية بلا تفاصيل لا يمكن أن تفهم أبدًا.. الكلام معك ممتع لكنني أستأذنك فلدي عمل.

– وهل ترضي البروتستانتية نفسك الذكية بدون تفاصيل كما قلت؟ أعتقد أنك تهربين من نفسك، ولكن إلى أين؟

ظهر أثر كلام جورج في وجه الممرضة وهي تخفي همًّا في قلبها وخواء في روحها:

– ربما، إلى ما لا أعرف، كأنني ريشة في مهب الريح، لكن ربما أصل لما أريد يومًا، استأذنك.

استيقظ جورج في الغد باكرًا، وما إن وصله الإفطار حتى أكله بنهم، فقد كان يشعر بجوع شديد وبرغبة شديدة في الأكل، ثم عاد إلى قراءته، جاءته ممرضة الأمس لتقيس درجة حرارته..

– جيّد أنت بخير.

– أعتذر على إزعاجك بالأمس.

– لا إزعاج، شكرا لك على لطفك، وأظن كلامك صحيح في أني أهرب من نفسي بلا هدف. لكن ماذا أفعل إذا كان الإلحاد والعلمانية عذاب، والتدين هروب؟

– التدين ليس هروبًا، لكنك تهربين من دينك.

– لأنه دين كما تقول أنت يؤلف ويصنع، وليس دينًا من الله، فربما جاء من يعدل في الدين ليكون أفضل.

– ولكنه دين سماوي، أي من عند الله.

– أنت أعلم مني بالدين، لكن كيف يكون دينا سماويًا ويغيره كالفن أو لوثر أو غيرهما كما يريدون؟! بل إن اليسوع نفسه قُتِل قبل كتابة العهد الجديد؛ فألفه بعض طلاب طلابه.

– يبدو أنك فيلسوفة في الأديان!

– بل هاربة من نفسي كما قلت لي.

– وما الحل من وجهة نظرك؟

– الحل هو ما انتقدتني به، الهروب من النفس.
– لا أظن الهروب من المشاكل يوجد لها حلا.
– وما الحل من وجهة نظرك إذن؟
– أن ندخل في تفاصيل الدين ونعرف الحقيقة.
– أن نكون قساوسة ورهبانًا؟! حتى هؤلاء لديهم شكوك كبيرة، ولذا يغيرون في الدين بشكل دائم.
– أن نعرف الطريق لا يعني أن نصبح قساوسة أو رهبانا، أنا أحترم الرهبان والقساوسة، ولا أحب أن أكون منهم، ولكن الشك يجلب الشقاء، كما أن اليقين يجلب الطمأنينة.
– تبدو كاثوليكيًا، فهم يريدوننا أن نسلم للقساوسة والرهبان بلا نقاش، بل وبلا رجوع للكتاب المقدس بأنفسنا.
– لا يمكن أن أسلم عقلي لأحد ليكون واسطة بيني وبين ربي، أنا بروتستانتي.
– إذن علامَ تنتقدني وأنت مثلي؟! إلا إذا كنت لوثريا.
– ههههه، حقيقة لا أدري إن كنت من أتباع كالفن أو لوثر أو غيره، ما أعرف أني بروتستانتي؛ لأن أبي وأمي كانا بروتستانتيين فقط.
– إذن أنت مثلي بالضبط، فكيف تصفني بالهرب من نفسي؟!
– لأني أنا أيضا هارب من نفسي.
– هارب إلى أين؟
– إلى طريق السعادة.
– ههههه، وأين هو أيها الفيلسوف؟
– لا أدري، لكني سأجده.
– يبدو أنك صاحب ألغاز فلسفية، ورغم استمتاعي بالحديث إلا إنني مضطرة للانصراف، وبالمناسبة أنا متأكدة أنك ستجده؛ لأنك تمتلك الإصرار، فإذا وجدته فأخبرنا عنه.
– ما هو؟!
– طريق السعادة!

بعد وقت قصير من مغادرة الممرضة جاء الطبيب إلى غرفة جورج، وطمأنه على وضعه الصحّي، وأخبره بأنه بإمكانه الخروج غدًا مساءً إن رغب بذلك، فهو في صحة جيّدة.
– شكرا لك.
– أخبرتني زوجتك أنك مسافر لروما، فهنيئًا لك، فهي بلاد جميلة عريقة.

– نعم، سأسافر أنا وهي والأولاد، هل هناك وصايا صحية بعد العملية؟
– لا أبدا، أنت بصحة جيدة.
قبيل الغداء وصل آدم.. ليجد جورج غارقًا في قراءته غافلًا عمّا حوله، فاقترب منه ملقيًا التحية:
– يبدو أنك تقرأ في شيء مهم جدا، حتى إنك لم تعد تشعر بمن حولك!
– آدم..! مرحبا، متى وصلت؟ كنت أقرأ في تاريخ المسيحية القديم.
– جيد، وماذا وجدت؟
– عندما تقرأ في تاريخ المسيحية القديم والجديد تجد تخبطا غريبا جدا!
– ألا ترى أنك مستعجل في نقد الكاثوليكية حتى قبل سفرك لروما؟
– أنا لا أنقد الكاثوليكية.
– إذا لم أفهمك، ماذا تقصد؟
– أنا أنقد الكاثوليكية والبروتستانتية وجميع الطوائف والأديان المسيحية.
– أنت ذاهب إلى روما، وستتضح الأمور لك أكثر بعد سفرك، فلا تستعجل، فربما يبدو لك ما ليس في خلدك الآن.
– هذا ما كنت أريد أن أستشيرك فيه.
– لم أفهم، ما هو الأمر الذي تريد أن تستشيرني فيه؟
– بناءً على رأيك، فقد اتصلت بتوم وأخذت منه موعدًا أن نلتقي غدا، ولكني أعرف ماذا سيقول لي!
– جيد، أكمل ماذا سيقول لك؟
– سيقول لي: ابحث في النصرانية وتعرف إليها عن قرب أثناء سفرك لروما، وأنا أشعر أني أعرفها إلى حد كبير، سواءً من قراءاتي أو من سفري للقدس أو من حياتي، فأنا بروتستانتي، ولا أشعر أن هناك شيئا جديدا سأضيفه في سفري.
– كم عمرك جورج؟
– ثمان أو تسع وثلاثون، لماذا تسأل عن ذلك؟
– صبرت ثمان وثلاثين سنة، ولا تستطيع أن تصبر حتى تسافر لروما، وتعود وأنت متأكد من قرارك، ألا ترى أنك مستعجل؟
– ربما، لكني كلما ازددت علما بفرق البروتستانتية ازددت زهدا فيها.
– بما تنتقل إلى الكاثوليكية أو الأرثوذكسية إذن.
– ألم أقل لك إنك كاثوليكي؟ لكن صدقني بُعدي عن البابوية الكاثوليكية أكبر من بُعدي عن

البروتستانتية.

– ربما تغير رأيك بعد السفر، جميل أن نتعامل مع الأفكار بانفتاح لا بأفكار مسبقة.

– ليس لدي أفكار مسبقة، فأنا قرأت أدبيات الكاثوليك والبروتستانت وتاريخهم ونتاجهم، لكنني لم أقتنع بشيء.

– جيد، حاول أن تنفتح أكثر وتتأمل أكثر، ولا تستعجل؛ فبعد سفرك ستكون أكثر تأكدًا واطمئنانًا لقرارك.

– لكن هل يمكن أن يغالط الدين العقل أو العلم؟

– قطعا لا.. لا يمكن إن كان الدين حقًا من عند الله.

– فإن تعارض الدين مع العقل أو الواقع أو العلم أليس هذا دليلًا على كونه ليس الدين الحق؟

– بلى، ولكن يجب أن نفهم أن العقل قاصر؛ فما لا تدركه لا يعني أنه مخالف للعقل أو العلم، بل يعني قصورنا البشري فحسب.

– كيف، وضح أكثر؟

– كوننا لا نعرف كنه الله ولا ندركه بعقولنا؛ لا يعني أن الله غير موجود أو غير صحيح، وإنما يعني قصورنا البشري الطبيعي.

– رغم تعبي وكدي فلم أستطع أن أفهم أن الإله واحد ومكون من ثلاثة أقانيم إلى الآن، فهل هذا سر كاثوليكي من أسرار الكنيسة تريدني أن أؤمن به بلا نقاش؟

– هناك فارق كبير بين ألا تستطيع إدراك أمر، وبين أن يتعارض مع العقل، فأيهما تعني؟

– أعني الثانية، فهذا يتعارض مع عقلي ولا أستطيع أن أفسره.

– ما يتعارض مع العقل الصريح الصحيح لا يمكن أن يكون دينا صحيحا، أو دين الحق.

– وبهذا سنسقط إذن الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية.

– لماذا لا تنتظر حتى تعود من روما؟

– ولو عدت بهذا الرأي فهذا يعني أني سأكون ملحدا أو علمانيا.

– وهل الإلحاد والعلمانية لا يتعارضان مع العقل لديك؟

– يتعارض بشكل رئيس مع العقل، ولذا هربت منه إلى الدين، ثم هربت من الدين الأرضي للدين السماوي، ثم كرهت اليهودية كما هي عليه الآن، وبدأت أكره المسيحية، ولم يبق إلا أن أكون إرهابيًا مسلمًا.

– لا تتخذ قرارا حتى ترجع من روما، فربما تفهم وتقتنع.

– وإن لم أقتنع؟

- ابحث في الإسلام لعله يكون طريق السعادة!
- ولماذا لم تبحث أنت في الإسلام إذن؟ وتصبح زير نساء إرهابيًا ورجعيًا.
- نحن في مرحلة البحث في المسيحية، وسأخبرك بعد عودتك من روما.
- لا أعرف لماذا تتكلم أنت وكاترينا وكأن روما ستقنعني أن أخالف عقلي، وأن أصدق وأؤمن بما يناقض المنطق!
- لم أقل لك خالف المنطق، لكنني قلت لك لا تستعجل، وأنت عاقل، فإن اقتنعت وإلا فافعل ما تريد، ثم أنا جئتك بناءً على طلبك، ولم أفرض عليك شيئًا، فلماذا هذا الهجوم علي؟
- عذرًا آدم، أنا عجول بطبعي، لكن صدقني أنا أريد أن أصل طريق السعادة بسرعة أكبر، كان أكثر ما يخيفني قبل العملية أن أموت وأنا لم أعرف طريق السعادة.
- ستصل بإذن الله، ولئن تصل متأخرًا خير لك من عدم الوصول، مع أنك لم تتأخر؛ بل تسير بسرعة كبيرة.
- أكرر اعتذاري لك آدم، ربما أكون مستعجلًا، وربما أكون مللت من هذه الموضوعات.
- إن كنت مستعجلًا حرصا على الوصول فهذا شيء، أما الملل فمعناه الوقوف وعدم الإكمال وهو كارثة.
- كارثة! ألا ترى أنك تبالغ؟!
- بلا إصرار، لا يصل الإنسان لشيء، ولا يحقق أي نجاح، والملل يعني عدم الإصرار، ثم ألا يتعارض هذا مع نفسية المستعجل التي تحملها بسبب حرصك؟
- أتفق معك لكنك تتحمس بسرعة، ألم تلاحظ ذلك؟
- ربما، لكن ألم تلاحظ أنك تقصد استفزازي؟
- ههههه أحيانا.. فأنت سريع الانفعال.

في هذه الآونة.. دخلت كاترينا ومعها مايكل وسالي راكضين إلى سرير أبيهما، فاحتضنهما بشوق.. وانشغل بالحديث معهما عن آدم قليلًا.. فانتظر آدم لدقائق، ثمّ قرّر الانصراف..

- لقد اطمأننت عليك، هل تسمح لي بالانصراف؟

ابتسمت كاترينا لآدم، وقالت:

- العذر لك، فمايكل وسالي لم يشاهدا أباهما بعد العملية، ولم يجلسا معه منذ فترة طويلة؛ فقد كان مسافرًا.
- عمّ تعتذرين؟! لقد أنهينا كلامنا واطمأننت على صاحبي، ولديّ عمل وأود أن أنصرف.
- أنا شاكر لك آدم، هل سأراك قبل سفري؟

- أسعد بلقائك، وإن لم أرك فعلى الأقل سيكون بيننا اتصال، أستأذنكم.
بعد خروج آدم علقت كاترينا:
- لم أر صاحبك هذا إلا في المستشفى، لكنه شخص رائع ومهذب جدا، ومريح جدًّا ولا أدري لماذا؟
- ربما لأنه كاثوليكي مثلك!
- كل الكاثوليكيين كذلك مهذبين ورائعين، لكنك سابقًا قلت لي إنك لا تعرف دينه.
- وإلى الآن لا أعرف، لكن حرصه على سفري لروما وتعرفي على الكاثوليكية وتوافقه الدائم معك في طريقة التفكير يؤكد لي أنه كاثوليكي، تخيلي كان اليوم يريد أن يقنعني أن أكون منفتحًا في التفكير في الكاثوليكية.
- ههههه، جيد، فربما تكون منغلقًا في التفكير فيها، وربما تستفيد من أصحابك ما لم تستفد من زوجتك.. بالمناسبة أخبرت الأبناء اليوم بتأكيد سفرنا لروما، وها هم بين يديك فاستمع إلى طلباتهم.
- اطلبا.. ماذا تريدان؟
- أبي هل نسيت؟
- ماذا نسيت؟
- لقد طلبت منك أن أرى قلعة سانت أنجلو، وطلبت سالي أن ترى نافورة تريفي.
- أعتذر، فقد نسيت فعلا.
- أخشى أن تكون هذه الرحلة مجرد جلوس في الفندق لتقرأ وتعمل على الحاسوب وتتناقش طوال الوقت.
- أعدكما أن يكون هناك أوقات خاصة لكما.
- وعد يا أبي؟
- وعد، وبشهادة أمكما أيضا.
- وأنا أعدكما أيضا، وأشهد على ذلك أباكما.
كان الاجتماع العائلي حميميًّا وسعيدًا حتى جاء وقت الغداء، فقالت كاترينا لأبنائها:
- ما رأيكما أن ننصرف الآن وأدعوكما إلى وجبة في مطعم إيطالي؟
- رائع!
- هيا بنا.
عندما ذهبت كاترينا مع أبنائها، تناول جورج غداءه، ثم عاد لقراءته مرة أخرى.. وراح يسترجع

ما قرأه بعمق منذ أن دخل المستشفى، فشعر بنفسه قلقًا.. فكلما قرأ أكثر كلما ظهرت له التناقضات بشكل أكبر، خاصة ما يسميه وثنية المسيحية وتعدد آلهتها وجعل البابا ورجال الدين من الآلهة! فهل يمكن أن يزيل كل هذا بسفرية واحدة..! إن تم هذا فربما تكون البابوية صحيحة وأصبح كاثوليكيًا مثل كاترينا وآدم..!

(٣)

استيقظ جورج مبكرًا، وبعد أن تناول إفطاره شرع في قراءاته كعادته؛ فقد كان لديه كتاب مهم يود قراءته هو كتاب (حكايات محرمة في التوراة) تأليف: جونثانكيرتش. قرأ تعليق مجلة واشنطن بوست على الكتاب: «يقول لنا المؤلف في هذا الكتاب المدهش أن العهد القديم مليء ببعض أكثر القصص ترويعا وجلاء في الأدب الغربي.. كتمت بسبب طول التاريخ لأنها قصص صادمة». فهل يعقل أن يكون القساوسة والرهبان أعلم من الله فيما يصلح للبشر أن يعرفوه وما لا يصلح؟ كان يتساءل في نفسه: ما هي الحكايات التي لا يعرفها في العهد القديم (التوراة)؟ ولماذا أخفيت؟ وكيف؟ هل يمكن أن تكون أكثر دموية أو أكثر عنفًا مما تحدث مع ليفي فيه سابقا؟ قرر أن يبادر إلى القراءة قبل أن يأتي توم، فهو على موعد معه اليوم.

كان الكتاب مليئا بكيفية التلاعب بالترجمات لإخفاء بعض الموضوعات، بل بالقص والحذف من النسخة الأصلية التي بالعبرية؛ ليتناسب مع القراء، بحجة أنه كيف نترك أطفالنا يقرؤون قصص العهر والعري والعنف هذه؟ وأحيانًا بادعاء الحاخامات بأن الكتاب المقدس لا يعني ما يقول. كانت جميعها محاولات بائسة لإخفاء أو تزييف أو تغيير النص الأصلي، ليعود التساؤل في ذهنه: هل هذا يعني أنهم أعلم من الله؟ أم يعني أنه ليس من عند الله؟ أم أنه حرِّفَ وبدل عما جاء به الله؟

استمر جورج يقرأ وهو في حالة من الذهول والصدمة؛ إذ إن هذا الكتاب المقدس (العهد القديم) تؤمن به جميع الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلام)، ونقضه ربما نقض لكل الأديان السماوية! قرأ في الكتاب قصة نوح المخمور العاري، وقرأ القصة الجنسية القذرة بين لوط وبنتيه، وكيف ضاجعتاه، أو بين رأوبين ابن يعقوب وبين بلهة سرية أبيه أو..، كانت نفس جورج تشمئز وهي تقرأ هذه القصص الجنسية حتى بين المحارم، استغرب جورج هذه القصص التي تشمئز منها النفوس السوية، فكيف تكون مع أنبياء الله ورسله؟ واجه جورج صعوبة شديدة في إكمال هذه الحكايات.. حتى وصل للجزء الخاص بوصف الله بأنه: «إله متقلب المزاج زئبقي، وغالبا ما يكون هدامًا أكثر من كونه باعثًا للحياة»، كان يشعر بأنها أوصاف صعبة، وأنه لا يمكن أن

يعبد هذا الإله البتة! هل تُعقل هذه الجرأة حتى على الله؟! إن من يعبدون البقر يقدسونها أكثر مما يقدس الكتاب المقدس الرب.

ضحك جورج واستلقى على ظهره وهو يقرأ حكاية ثامارا المومس المقدسة! وكيف أصبح الزنا مقدسًا ما دام في المعبد؟ بل قال بعضهم ربما كانت راهبة، ثم استنكر أنها ربما تكون زوجة ابن يهوذا الذي زنا بها، شعر جورج بالاشمئزاز مما يقرأ، وشعر أنه لا يستطيع أن يكمل قراءة هذه القصص والحكايات، وتذكر فضائح الرهبان والراهبات الكاثوليك الجنسية التي انتشرت في وسائل الإعلام.

أغلق الكتاب وفتح جهاز الحاسب الآلي، دخل موقع اليوتيوب وكتب: «فضائح الكنيسة الجنسية»، وهاله كمية الفضائح الجنسية الموجودة والموثقة والمصورة، كان يسأل نفسه: هل أكمل في السفر إلى روما وأعرف سوء الكاثوليكية وأستمر كما أشار عليّ آدم، بل وكاترينا الكاثوليكيان؟ أم أسافر للنزهة فقط وأنسى طريق السعادة؟ لكنه يعرف أنه إن نسي طريق السعادة فسيعود لطريق الشقاء والشك الذي كان يعيش فيه، أو يتجه للإلحاد تلك الفكرة المدمرة للنفس البشرية بنفس قوة تدميرها للعقل والعلم، شعر بالأفكار تتصارع في ذهنه، بل كل فكرة قبل أن تصرع الفكرة الأخرى تصرع نفسه وروحه، وتعيد كل تساؤلاته عليه، ولم يقطع عليه ذلك إلا والطبيب يقول له:

- جورج.. جورج ألا تسمعني؟
- هاه.. نعم، تفضل
- أكلمك وأنت في عالم آخر، في ماذا كنت تفكر؟!
- في موضوع أكرهه وأبغضه.
- وما هو؟!
- أكره التناقض ومخالفة المنطق والعقل.
- ماذا تعني؟
- أَسمعت عن فضائح الرهبان؟!
- أوه.. نعم.
- كيف يعقل أن يتفرغ لعبادة الله أناس ليغتصبوا الأطفال بعد ذلك؟!
- كما يشرب الخمر أو يتعاطى المخدرات طبيب وهو يعرف خطرها وضررها!
- ولكن ماذا تعدون الطبيب الذي يتعاطى الهيروين فيكم؟
- طبيب فاشل، يجب أن يطرد من المهنة ويشهر به!

- فإذا كانت الجهة المسئولة عن الأطباء ترقيهم وتكافئهم وتسكت عنهم، بل وتروج لهم ولمخدراتهم، بل وتعلمهم طرق ذلك، بل نظامها ودستورها يحث على ذلك!

- مستحيل، لكن لنكمل حديثنا، فهي جهة متواطئة سيئة، ويجب أن يُحَذَّر الناس من الأطباء ومن المستشفيات ومن الطب كله، ماذا تريد؟

- أليست التعاليم المقدسة تعلم حتى الرهبان الجنس والزنا والفجور والاغتصاب؟! أليست الكتب المقدسة مليئة بمثل هذا حتى عن الأنبياء؟! فلماذا لا نعاملها كما تقول؟

- لم أفهم شيئًا، بل الأصح لا أريد أن أفهم شيئا منك، هل تريدنا أن نلحد إذن؟! في عالم الطب نعرف جيدا أن كثير من الأطباء الملحدين حتى المتميزين منهم أقرب إلى أن يكونوا مرضى نفسيين، أو دعني أقول: على الأقل ليسوا سعداء في حياتهم، إن أردت نصيحتي اهرب من نفسك وأفكارك هذه ولو كنت مقتنعا بها، اهرب بأي طريقة.. باللعب بالخمر، بالنساء، بالعمل بأي شيء.

- وهل يمكن أن نهرب من أنفسنا ونشعر بالسعادة؟!

- للأسف لا يمكن ذلك البتة، لكن هذا الشقاء يعتبر نعيمًا بالنسبة لشقاء الإلحاد والبعد عن الله.. آسف لقطع الحوار الممتع، لكني جئت لأجيبك عن أي استفسار طبي فقط عن حالتك، وبأنك ستخرج اليوم مساء، وننصحك بمتابعة درجة الحرارة خلال اليومين القادمين أيضًا، فهل لديك أي سؤال؟ طبـي فقط؟!

- لا شكرًا.. فقط هل أحتاج بعد يومين الاستمرار في التأكد من درجة الحرارة؟

- لا.. اليومين القادمين للاحتياط الإضافي فقط، وفي حالة استقرارها، فهذا يعني أنك استرددت صحتك كاملة.

دخل توم.. وألقى التحية على الطبيب وجورج.. فاستأذن الطبيب منهما ليخرج إلى عمله، فبادره جورج..

- هناك سؤال غير طبي فهل تأذن به؟

- بشرط أن يكون سريعًا، تفضل.

- بما أنك تعرف أن الهروب لا يجلب السعادة، لماذا تهرب؟

- خوفًا من الإلحاد، فهو الشقاء بعينه من وجهة نظري على الأقل.

- إما إلحاد أو هروب؟! لا خيار ثالث؟!

- ربما كان هناك خيار ثالث، لكني لم أهتدِ إليه، فإن وصلت له فأخبرني وأكون ممتنًّا لك.. أستأذنك وإن كان لديك أي استفسار طبي قبل خروجك يمكنك أن تخبر المرضة كي تتصل

بي، مع السلامة.

نظر توم للطبيب وهو خارج، ثم التفت إلى جورج..

– جورج أنا لا أعرف ما الحوار الذي كان يدور بينكما؟ لكني أعرف شقاء الإلحاد وهمه وغمه كما لا يعرفه غيري.

– لماذا الإلحاد شقاء كما تقولون؟

– من أصعب الأمور ألا تجد من تركن إليه، وتفوض إليه أمرك، وتتعرف منه على دربك وطريقك.

– كيف أتعرف منه على دربي؟

– عن طريق رسله وكتبه إلينا.

– وهل تتوقع أن يدلني على دربي راهبة مومس أو راهب مغتصب؟

– لم أفهم؟

– هل يدلني على دربي نبي مخمور زانٍ، أو كتاب جنسي مقدس؟

– ماذا بك يا جورج؟ لماذا تتكلم هكذا اليوم؟

– تعبت يا توم، أفكر جديًّا ألا أسافر لروما، أو أسافر للنزهة والسياحة فقط.

– لماذا.. ما الجديد؟

– لا جديد، لكني قرأت ورأيت عن الجنس والعنف في التوراة والإنجيل.

– وهل هذا خاص بالكاثوليكية؟!

– ماذا تعني؟

– العنف البروتستانتي أليس مثله أو أشد؟! أتعرف من قتل الشعوب الكاثوليكية في ألمانيا وغيرها في أكبر مذابح في التاريخ؟

– نعم البروتستانت، لكني تعبت، ربما حتى البروتستانتية لا تنفع!

– جورج كن قويا كما عودتنا، وإياك والضعف، إن ثابرت وصممت ستصل لطريق السعادة، وإن انهزمت وضعفت فستؤول إلى شقاء الهم والغم.

– ماذا أفعل؟

– لا أعلم، كل الذي أعلمه أنه لا يمكن أن يخفي الله الطريق إليه.

– أين هذا الطريق؟ أليس المسيحيون والمسلمون يؤمنون بالعهد القديم؟ ذلك الكتاب المليء بالجنس والعنف، كنت لا أصدق ليفي وهي تتحدث عن هذا، لكني أيقنت الآن بما تقول، هل تريدني أن أعطيك أدلة من العهد القديم؟!

– لا أحتاج أبدا، بل إن أردت أن أعطيك أدلة من العهد الجديد أيضا فعلت.

– لماذا إذن نتعب أنفسنا بالبحث في المسيحية والإسلام وهما يسيران في نفس الطريق؟

– اتفقنا من البداية أن نسير في الطريق وأن نتعرف، ولا أعرف لماذا أشعر بأننا اقتربنا أن نصل إلى الطريق، فلا تستسلم في نهاية السباق.. جورج أنت لا تسير أو تبحث لنفسك، أنا أصبحت قراءاتي وأبحاثي معك، وأنا متأكد أننا سنصل، لكن لا تسألني كيف؟

– لدي نفس الشعور، لكني كثيرا ما أشعر أنني ربما أتلاعب بنفسي وروحي، وإلا فكل الأدلة تدل على تيه وضياع عن الطريق، مع إني في داخلي أشعر بأني قريب.

– سافر إلى روما وتعرف على الكاثوليكية والبروتستانتية عن قرب، وشاهد وحاور عما قرأته، ولا تتخذ قرارك الأخير حتى تنتهي من كل الأديان السماوية.

– وسنبحث في الإسلام أيضًا؟!

– أكيد بلا شك، والبحث في شيء لا يعني الإيمان به، ألم تبحث وتقرأ وتحاور في البوذية والهندوسية واليهودية؟ ما الجديد إذن؟ ألم نتفق سابقا أن نترك الحكم حتى ننهي التعرف على كل الأديان السماوية؟!

– سأكمل وأنا لا أرى أمامي الآن إلا سدًا من الخرافة والعنف والجنس والتحريف في كل ما ذهب وما بقي من الأفكار والأديان، رغم أني متأكد في داخلي أنني سأصل إلى طريق السعادة.

– فكر أكثر في أنك ستصل لطريق السعادة، ولو كان الوصول وطريقه واضحا وسهلا لما احتجنا أن نبحث عنه!

– سأصل، وربما أفاجأ أن الحل بجواري سهل وواضح، ولكني لم أستطع أن أراه.

– ربما يكون الطريق هو الكاثوليكية أو البروتستانتية.. أو الإسلام.

– رغم قناعتي بأن كل هذه الطرق مليئة بالخرافة والدجل واستغلال الدين للوجاهة والمال والجنس لكنا سنكمل، فبماذا توصني؟

– هل قرأت كثيرا؟

– نعم، ولم يتعبني إلا قراءاتي، بالمناسبة: الكاثوليكية لا تريدينا أن نقرأ حتى الكتاب المقدس إلا بشرح من البابا، فما في الكتاب المقدس يجب أن نفهمه كما يفهمه البابا؟! وتريدنا أن نصادر عقولنا.

- صدقت، ولكن البروتستانتية تريد أن تؤلف الدين كما تريد، وتفهمه كما تحب، ولهذا انشقت وانقسمت كثيرا.
- بل أصل العهد الجديد يبدو أنه مليء بالتحريف، فسواء فهمناه كما يريد البابا أم كما نريد نحن فهو محرف، ألم أقل لك كل هذه الأديان لا تنفع وأنها خرافة؟
- جيد، اقرأ أكثر، تعلم أكثر، ناقش أكثر، انفتح أكثر، عند ذلك سترى الطريق.
- لكن الكاثوليكية تقوم على الأسرار التي لا يصح مناقشتها، أسرار الكنيسة السبعة التي لا يفهمها إلا الرهبان!! ومناقشتها والتفكير فيها أو الاعتراض عليها كفر، مع أنها تخالف العقل والمنطق!
- حتى البروتستانت يؤمنون باثنين منها.
- ألا ترى أني كلما قلت لك شيئا قلتَ لي: البروتستانتية مثل ذلك؟ فهل أصبحت كاثوليكيًّا من ذهابك للكنيسة الكاثوليكية مع كاترينا؟ أعرف جيدًا كل ما تقول، ولكني أتكلم عن الكاثوليكية.
- لا أريدك أن تكون متحيزًا متحاملا على دين بلا علم وعقل، فإن كان بعلم وعقل فقل ما تشاء بلا تحامل.
- وما أقوله بعلم وعقل.
- وما أقوله أنا كذلك، وأردت أن تكون أكثر توازنا.
- آه.. صدقت، ربما أكون أكثر حدة على الكاثوليك، رغم أن أكثر ما أقوله عنهم موجود في اليهودية والبروتستانتية؛ بل وأتوقع الإسلام كذلك.
- ولذا دعنا نكمل رحلتنا الاستكشافية بنفس هادئة كما بدأنا، إلى أن تتضح لنا الأمور.. ألست أنت الذي تقول لي «ببساطة وبلا تعقيد»؟
- نعم هذه من جمل آدم المعروفة.
- لذا كلما كان الإنسان هادئا كان أكثر اتزانا وأكثر عقلًا، كما أني أدعوك كما قلت لك من البداية بأن تتعرف ولا تتخذ القرار حتى تنجلي لك الأمور، فقد يكون القرار أنها اليهودية مثلا، فلم الاستعجال؟
- ببساطة لا أعتقد أنه يمكن أن تكون اليهودية بحال من الأحوال، فأنا أكره العنف، والتوراة مليئة بالعنف، تخيل أنه في العهد القديم: (وملعون من يمنع سيفه عن الدم)، و: (قال الرب إله إسرائيل: على كل واحد منكم أن يحمل سيفه، ويطوف المحلة من باب إلى باب ويقتل أخاه وصديقه وجاره)، أيّ إرهاب هذا؟!

– أليس المسيحيون والمسلمون كذلك يؤمنون بالعهد القديم؟! فكن أكثر رفقًا، ولا تحكم حتى تتضح لك كل الأمور، وأنا متأكد أنك ستصل لطريق السعادة.
– هذه أكبر مشكلة في ظني، فالمسيحيون يرون أن العهد الجديد مكمل للعهد القديم، وأظن المسلمون كذلك، ولذا فكلها أديان عنف وإرهاب.
– هنا نقطتان: الأولى أنه لا يصلح الظن في هذه القضايا، بل يجب أن تبني رأيك عن علم، ثانيا: أتمنى أن تكون أكثر تدقيقا، فماذا يعني أن العهد الجديد مكمل للعهد القديم؟ هل يعني أنهم يؤمنون به أم لا؟
– أتفق معك فيما قلت، فالظن ليس علمًا، كما أن التحرير والتدقيق من أهم القضايا، ولكن للأسف لم يحرر المسيحيون مصطلحًا مكملًا تحريرًا واضحًا، وليس أنا الذي لم أحرر، فالكاثوليك مثلا يمنعون أتباعهم من فهم حتى العهد الجديد، ويرون أنه ينبغي أن يفهمه الرهبان ويوضحوه للعامة مثلي ومثلك، وإلا لعلك تعرف نصوصًا في العهد الجديد مثل: (لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا)، أو: (أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي).
– وأنت تعرف أن لدى المسيحيين تأويلات لهذه الأقوال.
– نعم لدينا تأويلات، ولدينا نصوص معاكسة لها تدعوا للرحمة والمحبة، ورغم عدم منطقية التأويلات إلا أنها تبقى تأويلات، لكن لا تتناسق هذه التأويلات مع إيماننا بالعهد القديم المليء بذلك، وأفعالنا للأسف تدل عليها، ليس مع الآخرين فحسب، بل فيما بيننا، هل تريدني أن أذكر لك أمثلة على وحشيتنا؟!
– ليس هذا موضوعنا الآن، دعنا نضع الأمور في نصابها، وننظر بنظرة شمولية عامة، فلدراسة أي دين من المناسب التركيز على: إلهه، ورسوله، وكتابه، وعقائده، وأحكامه، تاريخه، وواقعه، وفي دارسة ذلك من الجيد التركيز على الأمور الكلية لا الأمور التفصيلية.
– جيد، كيف؟
– بدلا من التركيز على قول معين في العهد القديم أو الجديد وتأويلاته، ننظر للكتاب المقدس نظرة كلية من حيث صحة وصوله، وكاتبه وما يدعوا إليه، وعقائده في الله وأنبيائه، وتبقى المنقولات التفصيلية مجرد شواهد لإثبات الأصل.
– جميل جدا، مع أني قرأت كثيرا في ذلك، ولكن يمكن أن أرجئ ذلك حتى أقرأ فيه أكثر وأناقش فيه أكثر.

- لتوضيح ذلك يفترض أنك انتهيت من موضوع اليهودية كما تقول، إذن من كتب العهد القديم؟ وماذا يدعو له؟ وما نظرته لأنبياء الله؟

- يفترض أنه من عند الله.

- هل كتبه الله؟ هل كتبه النبي موسى؟ هل كتبه هارون؟ هل تعرف كاتبه؟

- وأظنك مثل هذا تقول عن العهد الجديد؟

- بلا شك، وإلا كنت متحيزا، هذه الطريقة في التفكير أقرب إلى إيصالنا لطريق السعادة، وألا ننشغل بالجزئيات التي فيها أخذ ورد.

- فكرة جيدة، واتفق معك فيها.

- وبعد عودتك من روما نكون قد استطعنا تقييم أهم دينين من الأديان السماوية، وسيبقى واحد وتتضح لنا الصورة الكلية، وتنتهي رحلتنا الاستكشافية للبحث عن طريق السعادة.

- فإن اتضح أنها كلها لا تصلح؟!

- لو كنت كما كنت سابقا لقلت لك نرجع للإلحاد، فأنا لم أجعلك تسلك هذا الطريق إلا لتعود للإلحاد، لكن الآن أقول لو اتضح أن كلها لا تصلح سنعود ونقيم عملنا بالكامل من البداية، وسنبدأ مرة أخرى في: هل الدين ضروري؟ ثم كيف نختار الدين؟ وهكذا حتى نصل إلى ما نحن فيه الآن، لكن ستكون الأمور قد اتضحت لنا أكثر.

- مشوار طويل جدا؟

- أتوقع ألا نعود مرة أخرى، وأتمنى ذلك، ولكن المسألة مرتبطة بالعلم، بمعنى أنه كلما ازددنا علما ازددنا بصيرة، وبالعكس كلما زادت المناطق العمياء وزاد جهلنا بعدنا عن الوصول إلى إجابة التساؤلات، وبالتالي ابتعدنا عن طريق السعادة، أنا متأكد من أنك ستصل، ولكن اصبر قليلا.

- سأصل لا محالة، ثم ابتسم وقال: وأكثر ما يتعبني أني لا أرى الطريق إلى الطريق.

- الطريق إلى الطريق واضح، لكن ما لا تراه هو الطريق، وكثيرا ما يحسب الناس الطريق إلى الطريق جزءا من الطريق الذي يبحثون عنه ولم يروه.

- فلسفة جميلة، ولكن بين لي وضوح الطريق إلى الطريق.

- ألست تعرف أنك من البداية ألغيت طريق الإلحاد والعلمنة؟ ثم ألغيت طريق الديانات الأرضية؟ ثم بدأت تفاضل بين الأديان السماوية؟ أليس كذلك؟

- أتفق معك تماما، لكن ما ليس واضحًا لي كيف سنصل إليه؟

- هذا ما قلته لك، ما ليس واضحا لك هو الطريق، لا الطريق إلى الطريق.

-ههه، جيد لكن لنتجاوز ذلك، ماذا تنصحني في سفري؟

- أوصيك أولا: بأن تستمتع بالرحلة، وتنزه أطفالك؛ فأنت تحتاج إلى أن تريح ذهنك، وترتب وتفرز معلوماتك الكثيرة التي جمعتها من قراءاتك ونقاشاتك، ثانيًا: استمر في قراءاتك ونقاشاتك، ولكن بعقل مفتوح، واهتم بالقضايا الجوهرية لا الشكلية، ثالثا: أكثر من التأمل الذي يساعد على الفرز والترتيب لمعلوماتك، ويساعدك على التركيز في القضايا الجوهرية.

- جيد، أعتقد أنها وصايا مهمة وسأجاهد نفسي عليها، فرغم راحتي بمجرد البحث عن تساؤلاتي إلا أنني أجد نفسي أصبحت أكثر حدة.

- الحدة سببها الضغط المتتالي على عقلك، ضغط معلوماتيّ، وضغط مَن حولك، لذا أصبحتْ حمولتك كبيرة، فخفف من أحمالك بالوصايا التي ذكرتها لك.

- نعم سأفعل، فقد وعدت أبنائي بذلك أيضًا.

- سفرًا سعيدًا، وألقاك بعد سفرك، وأنت أقل أحمالا، وأكثر معلومات، وأكثر انفتاحًا.

- ما أخبار براد يا توم؟

- يبدو أن الموضوع بدأ يتطور، فقد بدأ بتهديدي بوضوح ببعض الصور والتسجيلات التي لديه.

- تهديدك!

- نعم، لديه صور قديمة غير أخلاقية لي مع بعض المريضات، ولديه تسجيلات من بعض الجلسات، وبدأ يساومني عليها، وإلا سيرفعها لمجلس اللجان الطبية، وإلى النقابات الطبية.

- وماذا يضرك لو رفعها للنقابات؟

- تسحب مني الرخصة المهنية، بالإضافة للفضيحة العامة.

- يساومك على ماذا؟

- على أن أعمل معه.

- في ماذا؟

- ههههه، في بيع المخدرات، وتنفيذ ما يطلب مني.

- أن يبلغ النقابات خير من أن تصبح مروج مخدرات.

- صدقت.. لكن لو طردت من المهنة فهذه كارثة كبيرة أيضًا.

- وماذا ستفعل؟

- لا أعرف، سأتدبر أمري، أستأذنك مع السلامة.

عاد جورج لقراءاته وهو سعيد بلقائه مع توم.. شعر بأنه اطمأن واستراح بعد مقابلته، وانشرح صدره لكلامه، وقرر أن يعمل بما أوصاه قدر ما يستطيع. لكنّ ذهنه بات مشغولًا في كيفية مساعدة توم في مشكلته مع براد.. فبعدما وثق بتغيّر توم،لم يرد أن يتركه وحده، لكن ماذا عساه أن يفعل؟

فيما كان يفكّر في مشكلة توم.. فتح بريده الإلكتروني، فوجد رسالتين من حبيب وليفي، يطمئنان على صحته، فردّ عليهما:

«عزيزي حبيب

لقد أجريت عملية جراحية ناجحة، وأبشرك أني بخير صحة وعافية، سأسافر بعد يومين إلى روما، وكم كنت أتمنى لو كنت هناك؛ لتفسر لي بعلمك وعقلك المفتوح بعض ما يشكل علي في الكاثوليكية.

محبك: جورج»

«صديقتي ليفي

لقد أجريت عملية جراحية ناجحة، وأبشرك أني بخير صحة وعافية، سأسافر بعد يومين إلى روما، وكم كنت أتمنى لو كنت هناك لتفسري لي بعلمك وعقلك المفتوح بعض ما يشكل علي في التوراة وفي اليهودية.

محبك: جورج»

وبينما هو يكمل تصفح رسائل بريده دخلت عليه كاترينا..

– بدأت إجراءات خروجك بعد قليل إن شاء الله.

– اشتقت كثيرًا للبيت وللناس وللسيارات.

– كانت فترة غيابك صعبة جدًّا علي وعلى أبنائي.. أما أنت فكنت مشغولًا في قراءاتك ومناقشاتك، هل جاء توم اليوم؟

– نعم، وقد كانت جلسة رائعة.

– ألم أقل لك ذلك؟

– نصائحك دائمًا موفقة، المهم متى سنخرج؟

– بعد قليل، بقي أن أتم بعض الأوراق، سأذهب لأتمها الآن وأعود حتى نخرج وتخبرني في الطريق بما تم بينك وبين توم اليوم.

(٤)

قبل موعد رحلة السفر إلى روما بساعتين خرجت الأسرة إلى المطار.. وركبوا الطيارة في الوقت المحدد إلى روما العريقة.. خططت كاترينا لهذه الرحلة بعناية، فحجزت في فندق رافيل Raphael الذي يبعد عن ساحة بيزا نافونا Piazza Navona شارعًا واحدًا، ويتميز بطلّة بانوراميه على مدينة روما، وكنيسة St. Peter's إلى معبد Pantheon، كما يتصل فندق رافيل بشكل جيد بخطوط الباص، وتبعد معظم أماكن الجذب التاريخية في مدينة روما عنه مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام..

- كاترينا اختيارك رائع جدا.
- شكرا أمي، تصوري أنه بجوار القلعة التي أريد أن أراها.
- ولا نبعد كثيرا عن النافورة التي تريدينها أيضا يا سالي.
- الساعة الآن السابعة مساءً، ما رأيكم نستمتع بالفندق، ثم نتعشى ونرتاح؛ لنبدأ جدولنا من الغد صباحًا بنشاط؟
- حاضر بابا..

استيقظت الأسرة مبكرة.. وتناولوا الإفطار في مطعم الفندق، ثم خرجوا مع مرشد سياحي إلى الساحة القريبة المليئة بالأماكن التاريخية السياحية، كانت الأسرة في غاية السعادة وهي ترى البناء الروماني العريق، والتماثيل الرائعة، والكنائس المتميزة البناء، الذي تشعر فيه بكثير من المهابة وعبق التاريخ.

حضر وقت الغداء؛ فذهبوا إلى مطعم إيطالي حديث لكنه على الطراز الروماني..

- بابا لم أكن أظن أن الحضارة الرومانية بهذه القوة والجمال!
- الحضارة الرومانية حضارة عريقة جدا يا مايكل، وهي أعظم حضارات أوربا بعد الحضارة الإغريقية، كانت تبسط سيطرتها على جميع شبه جزيرة إيطاليا عام ٢٧٥ ق.م، وخلال القرنين التاليين تمكنت روما من بناء إمبراطورية ضمت كل أوروبا وشمال أفريقيا أيضا، وقد اندمجت فيها الثقافة الإغريقية.
- أهم ما يميز روما هذه البيتزا، وليس التماثيل التي في الخارج.
- هل تعجبك هذه التماثيل يا مايكل؟
- جميلة البناء.

كاترينا بابتسامة جميلة:

- ما أجمل تماثيل يسوع والعذراء!

– لا أدري لماذا تذكرني هذه التماثيل وتماثيل اليسوع أيضًا بتماثيل بوذا وغيره من الأصنام في الهند؟ وأشعر أنها شيء واحد.

– دعنا من هذا الآن، ولو أنهينا غداءنا سنتجه للجزء الآخر من الساحة.

فهم جورج أن كاترينا لا تريد هذا النقاش أمام الأبناء فاحترم رأيها، لكن ذهنه لم ينقطع عن الربط بين تماثيل اليسوع وبين تماثيل بوذا، بل بين العقائد الوثنية والعقائد الكاثوليكية.

أكملت العائلة جولتها السياحية، وعادوا إلى الفندق بعد غروب الشمس بقليل، تناولوا وجبة العشاء جميعًا في الفندق، وصعدوا إلى الغرفة.. فتح جورج بريده الإلكتروني يستعرض الرسائل، فوجد رسالة من حبيب:

«جورج

أكتب إليك هذه الرسالة وأنا وليفي معا، وقد قرأنا رسالتك ونحن في غاية السعادة بنجاح العملية، وسنحتفل بعد قليل معا بنجاح عمليتك، أما بالنسبة لما يشكل عليك في الكاثوليكية أو اليهودية فنحن نسعد بأن نتحاور معك في ذلك، بل نسعد حتى بالتحاور في البروتستانتية والإسلام، فننتظر الحوار معك في هذه الموضوعات.

حبيب و ليفي»

ملاحظة من حبيب فقط: لا تنس أن تزور البابا في قداس السبت.

فردّ عليهما:

«مرحبا حبيب وليفي

أنا الآن في روما بلاد الكاثوليك، وقريب من الفاتيكان الكاثوليكي، وسعيد بسعادتكما، بالنسبة للإشكالات التي لدي فسأكتفي بأن أنقل لكما نصًّا، وأنتظر تعليقكما عليه باختصار شديد.. وسأنقل لكما فقرة من كتاب «حكايات محرمة في التوراة» تأليف جونثانكيرتش، والفقرة تتحدث عن التوراة أو العهد القديم وهي بالنص كالتالي:

إنه من البداية إلى النهاية كتاب عن السلوك المتوحش الهدام ـ حسب ما كتب ميشال فينتورا ـ وهو صحفي انتفخ عقله تماما بما وجده في التوراة «نساء يتزوجن الثعابين، أخوة يقتل بعضهم بعضا، شعوب تذبح عن بكرة أبيها، قبائل تهيم على وجهها في الصحراء، أطفال رضع يهجرون، وجريمة تتبع النبوءة، ونبوءة تتبع الجريمة، وراقصون يطالبون برؤوس الأنبياء»، ويصل فانتورا إلى استنتاج يقول: إن أي مجتمع يرفع التوراة إلى مركز الكتاب المقدس معرض للجنون، ومن المضحك حسب ما يضيف «أن نتوقع حضارة تستند إلى مثل هذا الكتاب، ولا يكون المجتمع غير متوحش وغير مخرب»، فهل توافقان فينتورا أم لا؟ مع ملاحظة أن جميع الأديان السماوية تؤمن بهذا الكتاب المقدس؟!

تحياتي وأشواقي لكما.

جورج»

وقرر أن يرسل النص أيضا لآدم وتوم في رسالة واحدة.. ثم جلس يتأمل: هل يوافق هو فينتورا فيما يقول؟! لأناقش غدا هذه الفكرة مع من سألقاهم حسب ما رتبت كاترينا..

بعد الإفطار صباحًا، خرجت كاترينا مع الأطفال إلى السوق.. بينما جلس جورج ينتظر قدوم جانولكا فرانكوا، حسب الموعد الذي رتبته كاترينا.. جانولكا هذا صحفي إيطالي، كانت له تحقيقات عن الكاثوليكية والبروتستانتية حسب ما عرَّفت به كاترينا. وفي موعده بالضبط في الساعة الحادية عشرة صباحا وصل إلى الفندق، رحب جورج به، فردّ التحية بلباقة وبادره:

– حسب ما وصلني من أحد أصدقائي القساوسة أنك تبحث عن إجابات للأسئلة الكبرى؟ وأن زوجتك القسيسة اتصلت بصديقي القس لويجي ستيافنوا وأخبرته بذلك، فدعني أعرفك بنفسي.

– زوجتي ليست قسيسة، وستأتي بعد قليل، ويسعدني التعرف إليك، تفضل.

– أنا صحفي إيطالي، درست الفلسفة في الجامعة وأحببتها جدا، وبما أن أهم تساؤلات الفلاسفة ـ ثم ابتسم وقال: والأذكياء طبعا ـ هي الأسئلة الكبرى في الحياة؛ فقد بذلت سنينًا في البحث عن إجابة هذه الأسئلة.

– ولذا كلمك القس الذي كلمته كاترينا.

– نعم.

– وماذا كان نتيجة بحث السنين؟

– ههههه.. توصلت لنتائج مهمة ونقاط محددة.

– رائع ما هي؟!

- ببساطة.. لا شيء! لأن كل ما عندي نقد لواقع الأديان المخزي، وليس بناء أو فكرة متكاملة.
- وبماذا يمكنك أن تفيدني ونتيجة بحثك لا شيء؟!
- أنا في الحقيقة لدي تجارب مفيدة جدا يمكنني أن أفيدك بها، كما أنني قد أتمكن من الاستفادة من تجربتك، لكن نتيجة بحثي عن إجابة الأسئلة للأسف لا شيء!
- وهل تعتقد أنه يمكن أن تكون الإجابة لا شيء؟
- أنت عميق وبسيط في وقت واحد، رائع أكمل.
- أكمل ماذا؟ أنا أسألك فأجب.
- الإجابة واضحة، ولذا لم أجب، أكيد أنه لا يمكن أن تكون الإجابة لا شيء، فأكمل.
- إذن توجد إجابة وأنت لم تصل إليها؟
- القسمة العقلية تقول باحتمال وجود الإجابة واحتمال عدم وجودها.
- لا أعتقد أن العقل يحتمل عدم وجود إجابة، إذ هذا يقتضي أن البشرية تطوف في الضياع، مما يولد نظريات العبثية والعدمية التافهة.
- أنت فيلسوف مبدع، هذا هو نفس رأيي، وإنما قلت ما قلت لأرى ماذا تقول.. لكن في رأيك أين أجد الإجابة عن أسئلتي إذن؟
- أنا أبحث ولم أجد حتى الآن، فما رأيك أنت؟
- عدد من أصدقائي ملاحدة أرادوا أن يقنعونني بأن الحياة ليس لها علاقة بالله، وبأن إجابة الأسئلة يمكن أن يكون بطريقة علمية مختبرية، أو بصدفة محضة.
- جيد، وهل أجابوا عن أسئلتك؟
- الإلحاد فلسفة تافهة، لا تعدو أن تشبه قصص وأساطير الخرافة البائدة، ولو تلبست بالعلمية وبالفكر، صدقني أنا أعرف الإلحاد جيدا وناقشته مع كثير منهم.
- تبدو متحاملًا على الفكر الإلحادي والعلماني.
- أخشى أن تكون ملحدًا؛ لذا تدافع عنهم، لكني سأتحدث معك بصراحة، واسمح لي بالتفصيل. كل ملحد يعرف في داخله أنه مخطئ، أنا كنت ملحدًا، وعشت فترة من الزمن في الإلحاد، فالإلحاد هو فقط نوع من الهروب من مشاكل الأديان، ولا يحمل فلسفة ولا نظرية ولا دليلًا عقليًّا أو علميًّا، أما العلمانية فهي تؤمن بالدين، لكنها تود أن تفصله عن الحياة لنفس سبب الملحد.
- كيف؟

– مشكلة تصارع الدين مع العلم مشكلة مزمنة قديمة، فعند التعارض بين الدين والعلم، مصداقية العلم أعلى لدى الناس من مصداقية الدين.

– وهل يمكن أن تكون علومنا أفضل من العلوم التي جاءت من عند الله؟

– طبعا لا، لكن هل يمكن أن يأتي من عند الله ما هو خطأ أو مستحيل؟!

– ماذا تقصد؟

– لما يسمع أو يقرأ الناس وصايا في الكتاب المقدس تأمرهم مثلًا بالقتل أو الزنا أو شرب الخمر، وهم متأكدون من ضرر هذه الأمور عقلًا وأدبًا وعلمًا، ماذا تريدهم أن يفعلوا؟

– إذن أنت وصلت للعلمانية لتريح نفسك من إجابة الأسئلة الكبرى.

– للأسف.. إن العلمانية لا تريح البتة، لكني أتحدث عن من يعتنق العلمانية، هو يحل مشكلة التعارض بين الدين والعلم، ويحل مشكلة التاريخ، بل لو أردت الحقيقة فالعلمانية تتناسق مع الدين المسيحي كثيرًا.

– جميل.. وضح لي النقطة الأخيرة.

– الطريقة البابوية طريقة تجعلك تفعل ما تشاء؛ لتبيع لك صك الغفران وتنتهي مشكلتك؛ وبالتالي يمكنك أن تفعل ما تشاء بعيدًا عن الدين، ثم تشتري صكًّا للغفران.

– لكن البروتستانت لا يؤمنون بذلك، أليس كذلك؟!

– نعم، وربما ذلك لأنهم أقل تدينًا، وليس لأنهم لا يفصلون الدين عن الحياة، بل هم يفصلونها رسميًّا، فأكبر داع في ظني للعلمنة بل وللإلحاد هو الكنيسة!

– على أيّ شيء أنت؟! وعلى أي دين؟! مرة تدافع عن الإلحاد، ومرة تدافع عن العلمانية، ومرة تدافع عن الكاثوليكية!

– أنا لا شيء، ألم أقل لك النتيجة لا شيء؟ وماذا عنك أنت؟

– بروتستانتي لأن أبي وأمي كانا كذلك، ثمّ لا شيء!

– هههههه.. إذن نحن مثل بعضنا.

– وهل ارتحت لما وصلت للاشيء؟ وهل تشعر أنك وصلت؟

– اللاشيء ليس شيئًا يوصل له! وربما هذا سبب نشوء وتطور وتنوع المذاهب والتيارات العبثية لدينا في الغرب.

– التيارات العبثية؟

– ههههه، نعم التيارات التي تبني دينها على لا شيء أو على تفاهة تساوي لا شيء بعيدًا عن الدين.

– هذه كارثة اللاشيء إذن؟!

– بل الكارثة أن أسئلة الحياة لم يجب عنها.
– لماذا لا تتناساها وتهرب منها؟
– لم أستطع، ولا أعتقد أن ذكيًّا أو عاقلًا يستطيع ذلك.
– هل تقصد أن غالبية الناس مجانين وأغبياء؟
– بل أقصد أن غالبية الناس لا يستطيعون أن يتناسوها وتنغص عليهم حياتهم وتذهب سعادتهم.
– أنت فيلسوف، لكنك متشائم، ولا تملك ولم تصل إلا للعدم، ما الحل إذن؟
– الحل عندي في الاستمرار، إلى أن نجد الإجابة عن الأسئلة.. وأنت ما الحل عندك؟
– هو ما قلت فقط، لكني أختلف عنك في أني أشعر أني سأصل للإجابة قريبًا جدًّا.
– التفاؤل نعمة من الرب، وأرجو أن يكون تفاؤلك في محله، لكن التفاؤل لا بد أن يكون لديك دليله.
– دليله أن تسير على الطريق بلا تشاؤم أو تردد أو شك.
– مبدع.. رائع، وأين وصلت في الطريق؟
– أنهيت الإلحاد والديانات الأرضية، وهي لا تفيد كما ذكرت، ثم بدأت بالتعرف إلى الأديان السماوية، وأنا أتعرف على المسيحية الآن.
– أنا كاثوليكي من حيث المنشأ، ومع ذلك أقول لك أنا لا أصدق شيئًا من الكاثوليكية، فهي مجموعة خزعبلات وأسرار ومتناقضات.
– لماذا لا تصبح إذن بروتستانتيا؟
– أعتذر إليك أيها البروتستانتي؛ فقد بدأت بديني أولا، فالبروتستانتية محاولة هروب من خزعبلات الكاثوليكية، لكنها محاولة فاشلة صاحبها قلة تدين، ولذا فقد جمعوا جزءا من خزعبلات الكاثوليكية وأسرارها، مع قلة التدين.
– وضح لي أكثر، تبدو غامضًا أحيانًا.
– أليس كلاهما ـ أعني الكاثوليك والبروتستانت ـ يعتمدان على الإنجيل؟ وما يتضمنه من عهد قديم وعهد جديد هما منشأ الخرافة والخزعبلات.
– كيف تقول هذا عن الكتاب المقدس المنزل من عند الله؟!

– كأنك صاحبي القس، سأجيبك بما أجبته به.. أجبني بشجاعة هل تستطيع أن تثبت أن الموجود بين أيدينا هو المنزل من عند الله؟ أنا أستطيع أن أثبت أن بعضه على الأقل ليس من عند الله.
– كيف تثبت ذلك؟
– بأدلة كثيرة، منها: اقرأ إن شئت في تاريخ تدوين الكتاب المقدس، حتى من يقول إنه من عند الله تصدمه الوقائع التاريخية، انظر في تضارب، بل وتناقض النسخ المختلفة منه والترجمات المختلفة، بل اقرأ إن شئت تناقض النسخة الواحدة، اقرأ إن شئت في بعض الحوادث التي تجزم أنها ليست من الرب، أو أن الرب هذا شرير، هل تريد أدلة أخرى؟ هل تريد تفصيلا في أي دليل؟
– أتفق معك في أكثر ما قلت، وإن كنت أود أن أتناقش مع القسيس في هذا وغيره؛ لأسمع منه.
– أنت غريب، إذن لماذا تجادلني في هذا؟
– إذا كان الوضع كما قلت فما الحل؟
– قلت لك نتيجتي لا شيء.
– عذرا، لا شيء تعني عدم معرفة، وأنا أريد من يمتلك معرفة وعلمًا.
– ما تقوله صحيح، لكني لا أمتلكها.
– ومَن برأيك يمتلك الجواب؟
– لو أعرفه لانتهت معاناتي منذ فترة طويلة.
– أود أن أقابل أحد القساوسة إن سمحت؛ لأني أود أن أسمع ردودهم على هذه الحجج وغيرها.
أصدقائي القساوسة كُثر، هل تريد المتحجرين منهم أم المنفتحين؟ وهل تريد العلماء منهم أم المتعالمين؟
– إذا كان بإمكاني الانتقاء، المنفتح أفضل بلا شك من المتحجر، لكن الأهم الأعلم، فأنا أريد الأعلم، سواء أَكان منفتحًا أم متحجرًا.
– اطمئن، فكلما زاد علم شخص زاد انفتاحه، سأرتب موعدا مع صديقي القس لويجي ستيافنوا الذي كلمته زوجتك، فهو من أعلم من رأيت من القساوسة، وأكثرهم انفتاحًا. غدا أو بعد غد وسأبلغك بالموعد.
– أشكرك جدا.
– أتفهم ما تقول جدا، وأشعر بالسعادة لخدمتك.

جورج وهو يبتسم:

– أشعر أنني أتعبتك لكن لدي سؤال، هل بحثت في الإسلام؟

– لا .. مجرد قراءات يسيرة، وحوارات صغيرة.

– لماذا؟

– الإسلام دين العنف والجهاد وظلم المرأة والتخلف، وغير ذلك كثير.

– وكيف عرفت كل ذلك وأنت لم تبحث في الإسلام؟

– مالك المطعم المجاور لبيتنا مسلم من مصر، وأتناقش معه أحيانًا.

– وهل يقول ذلك عن نفسه؟

– لا يوجد أحد يقول عن نفسه مثل ذلك، لكنه يقول أنه مسلم متحضر، وليس كالمسلمين المتخلفين، ولما سألته عن سبب تخلف المسلمين، قال: السبب هو الدين الإسلامي، إذ إنه يدعو إلى التحجر وقتل المخالف، وحبس المرأة وسجنها، بل وضربها.

– عجيب جدًّا، هل يمكن أن أقابله أيضا؟

– أنت غريب جدا، ماذا تريد منه؟ على كل الأحوال يمكن أن تتغدى أو تتعشى في المطعم القريب من بيتنا أي يوم، ونتحدث معه قليلًا.

– جيد، لكن لدي سؤال آخر إن سمحت لي.

– تفضل.

– كيف يرسلك القس لي وهو يعرف رأيك في الكاثوليكية؟

– ألم أقل لك إنه منفتح؟ كثيرًا ما أشعر أنه مقتنع بما أقول، لكن لا يعرف ما هو الخيار الأمثل!

– رأي ذكي، فإذا لم تتبين لنا طريقة لإجابة تساؤلاتنا فما نحن عليه خير من الضياع والعدم.

– صدقت، وأرجو ألا يكون ما أنا عليه ضياع أو عدم، ولكني لا زلت أبحث.

– عذرا، لم أقصد الإساءة إليك أبدًا.

– أعرف ذلك.

عادت كاترينا مع مايكل وسالي، فلقيا جانولكا، فصافحته كاترينا مرحبة به..

– حمدا للرب، وصلتُ قبل انصرافك، أنت من طرف القس لويجي ستيافنوا؟

– نعم، إذن أنت زوجة جورج، يقول القس عنك بأنك من أكثر كاثوليكيين بريطانيا تدينًّا، رغم أنك لم ترهبني.

– شكرًا لك وللويجي، هو أستاذي فقد تتلمذت على سماع محاضراته ومواعظه.

– سأرتب لكما موعدًا معه غدًا أو بعد غد.

– رائع.. إذا كان جورج موافقًا.
– جورج هو الذي طلب هذا، كما أنكما ستتناولان وجبة في مطعم الفخامة.
– رائع، سأقابل أستاذي.. ولكن لماذا المطعم هذا بالذات؟
– أخبرها يا جانولكا..
– ليقابل أحد المسلمين.
– لماذا؟
– لا أعرف، ولكنه يريد أن يسمع منه عن تخلف الإسلام وهمجيته.
– وما لم يقله لك هذا المسلم سأقوله لك أنا، وبإمكانك أن تنظر إلى دولهم المتخلفة لتستنتج تخلف دينهم.
– عمومًا هذه بطاقتي، وأسعد باتصالكما لأي استفسار ديني أو سياحي، وسأتصل بكما لأؤكد لكما الموعد مع صديقي القس لويجي ستيافنوا، إلى اللقاء.
خرج جانولكا، فابتسمت كاترينا وهي تلتفت لجورج وقالت له:
– كيف كان اللقاء، تمنيت أن نعود مبكرًا لألتقي به.
– رائع جدا، شكرًا لك.
– طبعًا.. لن يرسل القس إلا شخصًا عالـمًا متدينًّا كاثوليكيًّا.
– نعم.. هو فيلسوف وعالم، لكنه ليس متدينًّا كاثوليكيًّا كما تقولين.
– عجيب! قال لي بأنه صديقه.
– نعم هو صديقه.
– هل ممكن أن يصادق القس شخصًا غير متدين؟! عمومًا، المهم أن يرتب لنا الموعد مع القس؛ لعلنا نستفيد منه.
– جيد أن نستفيد من كل شخص، فما بالك إذا كان قسًّا، على كل الأحوال ماذا فعلتم في السوق؟
– كانت نزهة ممتعة، لعب الأطفال في ملاهي السوق، ثمّ أخذنا جولة سريعة اشترينا فيها بعض الأغراض.. ولم يؤخرنا إلا الطريق.
– ماذا سنزور اليوم من معالم المدينة؟
– اليوم سنزور قلعة سانت أنجلو من أجل مايكل، وهي قلعة رائعة وقريبة، وستأخذ منا وما حولها كلّ اليوم.
– لنذهب الآن. أين مايكل وسالي؟
– في غرفتهم يلبسون أحذيتهم الجديدة؛ لننطلق الآن.

خرجت العائلة متجهة إلى قلعة سانت أنجلو.. حرص جورج أن ينفذ وصايا توم بأن يتخفف من همومه وأحماله، وأن يتفرغ للنزهة والترفيه مع أطفاله، حاول ألا يفكر كثيرًا في الطريق إلى السعادة، وألا يقلق ويتذمر في سبيل الوصول إلى إجابة أسئلته، بل عليه أن يفتش عنها بهدوء وسكينة..

مع القس

١٢ مع القس

مع القس

(١)

عادت الأسرة في المساء إلى الفندق.. واستقبل جورج اتصالًا من جانولكا يخبره أن الموعد مع القس لويجي غدًا في الساعة العاشرة صباحًا في الكنيسة، وأنه بانتظارهما..

– هذا جانولكا يخبرني بالموعد مع القسّ غدًا.. لكن أين سنترك الأطفال؟

– إما أن نأخذهما معنا، أو نتركهما في الحديقة المجاورة للكنيسة، فهناك حديقة رائعة.

– جيد، أظن ذلك أنسب.

في الساعة الثامنة والنصف صباحًا اتجه جورج وكاترينا مع أبنائهما إلى الحديقة القريبة من الكنيسة، حيث يوجد ركن خاص بألعاب الأطفال، فتركا مايكل وسالي فيه، بعدما تحدثا مع المسئولة عن المكان وطلبا منها الانتباه للطفلين.. ومضيا إلى الكنيسة؛ ليقابلا القسّ حسب الموعد المتفق عليه.. استقبلهما جانولكا ورحب بهما، ومضوا جميعًا إلى القس لويجي الذي رحّب بهما بحفاوة.

– أهلًا كاترينا أسمع عن جهودك الكبيرة في بريطانيا، وليحفظك الرب.

– هذا شيء مما تعلمناه منكم، ومما استفدنا من علمكم.

– أهلًا جورج.. لقد حدثني جانولكا عن تساؤلاتك، وعن إعجابه بعقلك، فتفضل ماذا تريد؟

– لدي أربعة أسئلة، ولن أضيع وقتك، الأول: لم أفهم كيف يكون الرب واحدًا وثلاثة في نفس الوقت؟ لقد قرأت الكثير، وسمعت شروحًا كثيرة، ولم أصل إلى شيء، بل ـ وأعتذر لك ـ أشعر أحيانًا بأن المسيحية تشبه الوثنية!

تغير وجه القس، ونظر في وجه جانولكا وكاترينا، ثم نظر إلى الأرض وقال..

– والثانية؟

– هل اليسوع من اللاهوت أو من الناسوت؟ وهل هو إله يُعْبَد أم عبد مقتول؟ وهل يحتاج الرب أن يموت ليخلصَ البشرية؟! ألا يمكن أن يخلّص البشرية وهو حي دون موت؟

– والثالثة؟

- الكتاب المقدس سواء العهد القديم أو الجديد، من كتبه؟ ومن ترجمه؟ ومن نقله لنا؟ ولماذا التناقضات بين نُسخهِ، بل وفي كل نُسخة منه؟ أستحي أن أقرأ كثيرا مما فيهما على أبنائي، فكيف يكون من ربي؟!

- والرابعة؟

- هل تاريخ الأديان والأنبياء هو تاريخ القتل والفاحشة؟ أكره العنف والقتل، وأكره كل من يدعو لهما، لكني أتعجب من نظرة الكتاب المقدس للأنبياء والرسل، كما أتعجب من نصوص القتل والنهب!

رفع القس رأسه، ونظر في أعين كاترينا وجورج قبل أن يلتفت لجانولكا...

- لماذا لم تخبرني يا جانولكا بتساؤلاته سابقًا؟

- لم يخبرني هو بها!

نظر القس في عنيني جورج مليًّا.. ثم نظر للأعلى بوجه تبدو عليه علامات الإرهاق والحزم في وقت واحد، ثمّ تنهّد بعمق..

- بُنيّ، أنت لا تستطيع أن تفهم إجابات هذه الأسئلة بهذه السهولة، كما أن توضيحها يأخذ وقتًا طويلًا، فلماذا لا تنصرف لعبادة الرب عن هذا؟

- سيدي، أنا جئت لأتعلم منكم وأستفيد من علمكم، وما يطول في شرحه يستطيع العالم أن يختصر في توضيحه.

- حسنًا بُني، هناك في ديننا عدد من الأسرار التي يجب ألا تُناقش، كما أن هناك عددًا من النصوص التي يجب ألا تفهمها بنفسك فقط.

- سيدي بالنسبة للأسرار، هل يمكن أن نكون مأمورين باتباع دين من عند الله ويكون هذا الدين سرًا من الأسرار؟ هل يمكن أن تكون نصوص من عند الله لكل الناس ولا تُفهم إلا من قبل بعض الناس؟!

بدا كراهة الكلام على وجه القس؛ فنظر في الأسفل وقال:

- هل ممكن أن تتركاني مع جورج بمفردنا؟

تغير وجه جانولكا وظهرت فيه الكراهة لهذا، إذ كيف يخرجه صديقه من مقابلة هو رتبها..:

- هل تريدني أن أخرج أنا وكاترينا؟ لماذا هل هذا سر آخر؟!

- أريده في كلام خاص، فإن خرجتما أكون لكما من الشاكرين.

- كاترينا اذهبي إلى مايكل وسالي وانتظريني هناك، وسآتيكما بعد قليل.

ودعت كاترينا القس، ودعا لها بالبركة، وأكدّ عليها حضور قدّاس السبت الذي سيقيمه البابا.. وخرجت مع جانولكا إلى الحديقة.. وإثر خروجهما التفت القس إلى جورج..

– بُني أنت رجل جريء جدًّا وشجاع جدًّا؛ إذ الشجاعة ليست هي الحرب، ولكنها الشجاعة الداخلية.

– شكرًا لك سيدي.

– بُني، سأكون شجاعًا معك، وربما تسمع ما لا تحب.

– تفضل، فليس الأهم أن أسمع ما أحب، الأهم أن أسمع ما أحتاج.

– ربما تستغرب، للأسف ليس هناك جواب حاسم في هذه القضايا.

– سيدي، ألا ترى أنه لا يجتمع الإيمان والشك؟

– ما تقوله صحيح، لكني لم أستطع أن أجد جوابًا حاسمًا، لقد بقيت طوال عمري أبحث عن أجوبة لكثير من المسائل منها ما ذكرت، ولو أردت أن أجيبك بأي جواب لفعلت وما أكثرها، لكني وعدتك أن أكون شجاعًا وصادقًا معك، والحقيقة أني لم أجد لها جوابًا حاسمًا.

– وما الحل إذن؟

– أنا لا زلت قسًّا؛ لأني لم أجد ما هو أفضل مما أنا عليه الآن، ووجود تساؤلات لدي في بعض القضايا أفضل من أن أكون شاكًّا في كل شيء، أليس كذلك؟

– صدقت، لكن أن نجد أجوبة خير من ذلك كله.

– نعم، ولعلك تجد جوابًا، لكني أؤكد لك أنه لن يكون من داخل الكنيسة، فأنا لي أكثر من ثلاثين عاما وأنا قس في هذه الكنيسة، ولم أجد الجواب، هذا كل ما لدي.

– هل يمكن أن أسألك سؤالًا؟

– تفضل.

– لماذا طلبت أن يخرج جانولكا وكاترينا؟

– ربما تستغرب ما سأقول لك! هذا بسبب نقص الشجاعة عندي، لا يوجد أحد يحب أن يكون ضعيفًا جاهلًا أمام غيره، خاصة إذا كانوا يعتقدون فيه العلم، ثم إذا تركوا الكاثوليكية أو المسيحية ماذا سيكونان؟ ملحدين مثلًا، أعتقد أن وجود شكوك خير من أن تعيش في عالم الشك والحيرة.

– أعتذر، ولكن ألا يوجد من القساوسة والرهبان شجعان يصرحون بما تقول؟

– مرّ بالتاريخ المسيحي عدد منهم، فإما أن يُقتلوا أو يختفوا أو يهربوا، الكتاب المقدس والبابوية قاسية.

– إذن أنت تؤيد العلاقة السرية بين الفاتيكان وأجهزة المخابرات، كما يؤكد ذلك إريك فراتيني

في كتابه «الكيان خمسة قرون من الجاسوسية»؟

– أبدًا.. غير صحيح، هو تحامل من بروتستانتي أمريكي على الكنيسة الكاثوليكية.

– وماذا عن الحقائق التي ذكرها؟

– كثير منها للأسف صحيح، لكنه صاغها في صياغة تحاملية على الكنيسة الكاثوليكية وعلى البابوية.

– لكن اختراق المخابرات للفاتيكان حقيقة، أو بشكل آخر إن مخابرات الفاتيكان متغلغلة في العالم، أليس كذلك؟

– للأسف نعم، لكنه ليس شيئًا عامًّا، وإن كان كثيرًا ما يحدث.

– ولماذا لم نرَ قسوتها على فضائح الرهبان والراهبات الجنسية؟

– لا يمكن، فهذا أمر يكثر فيهم جدًّا، هل تتوقع أن تنشق الكنيسة من أجل أطفال؟! كما أن جزءًا من هذه القضايا الجنسية موجود في تعاليم الكتاب المقدس، ثم أردف: أنت قارئ مثقف؛ فاستغل ذلك فيما ينفعك يا بني، هل يمكن أن ننهي النقاش؟

– سيدي ماذا أقول لكاترينا وجانولكا إذا سألاني: لماذا أخرجتها؟

صمت القس لويجي، ثم نظر إلى الأسفل، وقال:

– الحقيقة دائمًا ما تكون الأفضل.

– شكرا لك سيدي، سأفعل بإذن الرب، لقد استفدت منك كثيرًا.

– شكرا لك، ليباركك الرب، آمل أن أراك في قداس السبت المقدس، فاليقين خير من الشك.

خرج جورج وذهب إلى الحديقة؛ ليجد كاترينا وجانولكا في انتظاره، وبمجرد وصوله سأله جانولكا:

– لماذا أخرجنا؟ لأول مرة أرى لويجي يتصرف بلا لباقة!

أراد جورج ألا يتحدث في موضوع إخراجها، خاصة وأن غضب جانولكا من ذلك كان واضحا..

– اقترب وقت الغداء، فهل نحن قريبون من مطعم الفخامة الذي بجوار بيتك حتى نتغدى معا ونتحدث؟

– نعم، هو على بعد خمس دقائق مشيًا على الأقدام.

– اسمح لي.. أود أن أذهب لألعب مع أبنائي ونتحرك بعد نصف ساعة للمطعم.. ما رأيك يا كاترينا؟

– جيد، لا بأس، ولو كنت أتمنى أن تقول لنا في النصف ساعة ما دار بينك وبين القس، عمومًا

بعد نصف ساعة سنعرف كل شيء.
اتجه جورج لأبنائه في ركن الأطفال وهو يفكر: ماذا سيقول لجانولكا وكاترينا؟ هل سيقول لهم ما حدث كما هو وليكن ما يكون؟ أم ماذا سيفعل؟

وبعد نصف ساعة عاد جورج مع أطفاله..

– نحن جائعون جدًّا لننطلق إلى المطعم.

– هيا بنا.

(٢)

وصلوا إلى مطعم الفخامة بعد مشي استغرق خمس دقائق تقريبًا.. فانحنى جورج مقتربًا من مايكل وسالي:

– أحبائي.. ما رأيكما أن تأكلا في شرفة المطعم؟

– وأنت وماما أين ستأكلان؟

– لدينا موعد مهم، وأفضل أن تجلسا وحدكما في الشرفة؛ لتتحدثا معًا، وتتأملا المناظر الجميلة.

– حسنًا، هيا بنا يا سالي.

جلس جورج وكاترينا وجانولكا على طاولة متوسطة.. وفيما كانوا ينظرون في قائمة الطعام.. التفت جورج إلى جانولكا..

– أين صاحبك المسلم؟

– أخشى أن يطلب أن يتحدث معك وحدك وتتركنا.. عموما سيأتي بعد قليل لأخذ الطلبات.

– أنا لم أطلب منك أن تتركني مع القس، صاحبك القس هو من طلب ذلك.

– لكنك وافقته مباشرة.

– ههههه ألا تجب طاعة رجال الدين؟! المهم.. كان يريد أن يقول لي لا يوجد إجابة لأسئلتي، ولم يكن يريد أن تريا ضعفه وعدم معرفته.

امتعضت كاترينا ونظرت لعيني جورج:

– لا يمكن ألا يكون لدى القس لويجي إجابة لمثل هذه التساؤلات البسيطة!

– أعرف أنه ليس لديه إجابات، وهو يعرف أني أعرف ذلك، فلمَ كان يريدنا أن نخرج؟ أشعر أن في الموضوع شيئا آخر.

– بإمكانكما سؤاله، فأنتما تعرفانه أكثر مني، وأظنه استحى أن يُخرج كاترينا لوحدها.

مرت فترة صمت.. رأى جورج الحيرة والشك لأول مرة في نظرات كاترينا التائهة، وكأن عيناها تتحدث عن اضطراب في داخلها تحاول أن تتغلب عليه وتخفيه، ربما كان سكوتها أشبه بالبركان في فترة الكمون لا ترى إلا دخانه، أما جانولكا فكان سكوته باستغراب من تصرف صاحبه على شيء معروف، كما أنه لا يزال لديه شك فيما قاله جورج وأن وراء الأكمة شيئًا آخر.

جاء النادل ليأخذ طلبات الغداء، وقطع فترة الصمت الرهيبة.. فسأله جانولكا عن سليم صاحب المطعم، وطلب التحدث معه إن كان ذلك ممكنًا..

– سيدي سليم مجتمع مع عدد من أصدقائه في مكتبه.. سأخبره بطلبك. عفوًا ما هي طلباتكم للغداء؟

أخبروا النادل بطلباتهم، وأخبر جورج النادل بمكان مايكل وسالي ليوصل لهما طلبهما.. ثمّ نظر إلى جانولكا مستفسرًا..

– سليم هل هو المسلم الذي أخبرتني عنه؟

– نعم، وعندما تراه ربما تحسبه إيطاليًّا لأول نظرة.. وبالمناسبة هو يتحدث الإنجليزيّة بطلاقة.

– جيد، لعله يأتي بعد قليل لنسمع منه.

تكلمت كاترينا بعد الصمت المكلوم:

– الآن لنعد إلى القس.. أنت تقول بأنه لم يستطع إجابة تساؤلاتك!

– نعم، بل يقول إنه طوال حياته يبحث عن إجابة لهذه وغيرها كثير، ولم يستطع أن يصل لإجابة مقنعة.

– مستحيل!

– القس الذي تتحدثين عنه يا كاترينا صديقي، وأعرف أنه لا يعرف إجابتها، فقد ناقشته فيها وفي غيرها مرارًا، لكن ما أستغربه هو لماذا أراد أن نخرج؟! هذا ما لا أعرفه!

– القس لويجي ستافينوا من أهم من كان يعينني على اليقين، فكيف تكون هذه الشكوك عنده؟!

تنهد جانولكا، ونظر إلى الأعلى، وقال:

– تجربتي تقول: كلما ازداد علم القس، كان أكثر مرونة في الحديث الخاص، وازداد تأثيرًا في الخطاب العام بما يتناسب معهم.

– ماذا تقصد؟

– ما سمعتِه منه هو الخطاب العام، وما يقوله في جلساته الخاصة شيئًا آخر، عمومًا أنا أتفهم هذا، ماذا تريدين منه أن يقول في خطابه العام؟! تريدين أن يقول: أنا لا نعرف الرب، أو أن الكتاب المقدس محرف أو مختلق؟!

دمعت عينا كاترينا وهي تقول:

– لا، أريده أن يقول أن الرب الكريم الرحيم الواحد ولو كان له أقانيم ثلاثة، هو الذي أنزل الكتاب المقدس.

جانولكا بنظرة شفقة لكاترينا:

– وماذا نفعل بتعارض الكتاب المقدس مع نفسه؟! هل تستطيعين أن توضحي لي بطريقة منطقية مقنعة كيف يكون الثلاثة واحد والواحد ثلاثة؟! آمل ألا تقولين لي ما يقولون في الكنائس، فقد سمعته ألف مرة ولم أقتنع به، بل مقتنع بأنه لا يصلح إلا للخطاب العام فقط.

شعر جورج باضطراب كاترينا الداخلي، وبالبركان الذي يتفجر داخلها، وقال لنفسه:

– ربما كانت الصدمة من القس أكبر من قدرتها على التحمل فحاول أن يغير الموضوع...
– ما رأيكما أن تؤجلا حديثكما، هناك رجل قادم إلينا.
– آه هو سليم.. مرحبا سليم، هناك من يريد التعرف عليك.
– مرحبًا بكم جميعًا.. مرحبًا بك يا جانولكا وبضيوفك.
– ضيفَيّ لم يجلسا مع مسلم من قبل، ويودان أن يجلسا معك.
– مرحبا، أنا من مصر، وأنتما من أين؟
– من بريطانيا.
– المسلمون في بريطانيا أضعاف المسلمين في إيطاليا.
– صحيح، ولكني وددت أن أتعرف إلى الإسلام منك، فهل كتابكم المقدس يؤمن بالعهد القديم والعهد الجديد؟
– رغم أن معرفتي بالعقيدة الإسلامية يسيرة جدًّا ولكني سأجيبكما كما أعرف...نعم، يؤمن بهما، ولكنه ـ وأعتذر لكما ـ يعتبرهما محرفين.
– وهل تؤمنون بموسى واليسوع؟
– نؤمن بأنهما نبيان من عند الله.
– وهل تؤمنون بالرب اليسوع؟
– لا، المسلمون يؤمنون أنه رسول كريم وليس ربا.
– وكتابكم المقدس ما اسمه؟ وكيف وصلكم؟
– اسمه القرآن، ووصلنا من النبي محمد.. ماذا تريدان أن تصلا إليه؟
– نريد أن نتعرف إلى الإسلام وتعاليمه؟
– أنا لا أعرف الإسلام أصلًا، ما أعرف هو السياحة والتجارة، لكن ماذا تريدون من الإسلام؟
– فقط نحن مستغربون من العنف والإرهاب الذي لديكم؟
– الإرهابيون الإسلاميون الذين لدينا يخربون كل شيء باسم الدين.
– تقول باسم الدين، أي الدين ليس فيه هذا الإرهاب والعنف؟
– نعم، فالإسلام دين سلام وليس دين إرهاب، لكن المسلمون متخلفون متنطعون.
– مرة أخرى، هل الإسلام متخلف أم الإرهابيون؟
– الإسلام ليس متخلفًا، لكن المسلمون متخلفون؟ لو كنتم مسلمين لما أمكن لزوجتك أن تجلس معنا لتتحدث هكذا، أليس هذا تخلفًا؟
– لماذا لا يمكن أن أجلس معكم؟

- لأنك يجب أن تتحجبي وتبتعدي عن الرجال، أنا في الحقيقة تركت مصر؛ لأبتعد عن هذا التخلف.
- وهل أهلك ودولتك يرون نفس رأيك؟
- ههههه.. أبي وأمي وأصدقائي يقولون لي دائما: إن أفكارك خارجة عن الإسلام.
- لماذا؟
- الإسلام يختلف كليًّا عن المسيحية، أنتم يكفي أن تصلُّوا السبت ولو أحيانا لتكونوا مسيحيين، أما نحن فمن لم يصل يوميًّا خمس مرات يعتبر خارجًا عن الإسلام، أنتم تنتقدون التوراة والإنجيل، أما نحن فمن تكلم عن القرآن فهو خارج عن الإسلام.
- هل يوجد أحد من أهلك هنا في إيطاليا؟
- أسكن في إيطاليا وحدي منذ عشر سنوات، ورفضت أن أعود إلى بلادي، ولأول مرة قبل أسبوع جاء أخي وأمي وأبي، وسيسافرون بعد ثلاثة أيام.
- هل يمكن أن أراهم؟
- نعم ممكن، لكن ـ أعتذر لكم ـ أنتم عندهم كفار.
- كيف؟
- أنت تقول أن الله ثلاثة، وهذا شرك مع الله، فقد كفرت به.
- وما الجديد؟! نحن نقول إنهم كافرون؛ لأنهم لم يؤمنوا بألوهية اليسوع، فلن يضرنا أن نتقابل؟

لم تزل كاترينا مصدومة مما حدث مع القس، وتشعر أنها لا تتحمل صدمة أخرى:
- جورج، ليس لدينا وقت يا جورج، لا تنس غدًا قداس السبت المقدس.
- سنجد الكثير من الوقت إذا كان وقتهم يسمح.. متى يمكن مقابلتهم؟

– هم طوال الوقت إما في البيت أو في المطعم، أتوقع أن يأتوا بعد دقائق، وإن أردت في وقت آخر فسأجعلهم ينتظرونك.. وأكرر: لست مسئولًا عما يقولون لكم.

بدا على وجه كاترينا الاستياء من إصرار جورج، وقالت له بحدة :

– عذرًا..لم أفهم مقصدك يا جورج، ولكني أرى إن كنت مصرًّا أن تنتظر دقائق؛ حتى لا نضطر للعودة للمطعم.

– سأصعد لأرى مايكل وسالي، وأعود إليكم.

– انتظر، هؤلاء هم قادمون، فهل أدعوهم للجلوس معنا؟

– أقترح أن تدعوهم، وسأرى الأبناء وأعود سريعًا.

– سأدعوهم، وتحملوا نتيجة الدعوة، فهذا طلبكم.. أمي، أبي، خالد تعالوا.. هناك من يرغب بالجلوس معكم.

– ماذا تريد يا سليم؟

– خالد هؤلاء أصدقائي يريدون أن التعرف عليكم، تفضلوا. أعرفكم: هذا أخي خالد، وهذه أمي، وهذا أبي.. خالد يتحدث الإنجليزّية، وأما أمي وأبي فيفهمانها إلى حد ما، لكنهما لا يتحدثان بها، اسمحوا لي جميعًا سأتابع حواركم بصمت ولن أتدخل بشيء.

– مرحبا بكم جميعا، أنا خالد مهندس معماري، أخو سليم، وهذا أبي عبد الله، وهذه أمي عائشة.

– أنا جانولكا، إيطالي، أعمل في التجارة الحرة.

– وأنا كاترينا، بريطانية.

– أهلا بكم جميعًا.

قدم جورج من عند أبنائه، فألقى التحيّة وصافح خالدًا وأباه، وعندما مدّ يده ليصافح الأم ابتسمت وردّت التحيّة..

– معذرة.. ولكنّ أمّي لا تصافح الرجال، هي تقول لك أهلًا بك.

– أعتذر أنا، فأنا لم أكن أعرف ذلك.

– تعارفنا قبل أن تأتي، أنا خالد مهندس معماري أخو سليم، وهذه أمي، وهذا أبي.

– أنا جورج، مهندس حاسوب من بريطانيا، كيف رأيتم روما بلاد العراقة والدين والفن؟

– بحكم أني مهندس معماري؛ فأبدأ بموضوع الفن، الفن في روما متفرد، فهي بلاد صاحبة حضارة، وصاحبة تجارب حديثة رائدة، وإن كان فيها شيء لا يعجبني.

– ما هو؟

– الأصنام وتقديس الناس لها لا يعجبني؛ فهو لا يتوافق مع ما تربينا عليه في ديننا، فنحن نعتبر هذا من الوثنية وعبادة غير الله.

تذكر جورج أنه يشبه المسلمين في عدم حبه للتماثيل والوثنية، فتذكر وثنية وتماثيل آلهة الهندوس والبوذيين..

استطرد خالد...

– وهذا يدخلني لموضوع الدين في روما الذي سألتني عنه.

– عذرا على المقاطعة، ماذا تعني بتربيتكم في دينكم؟

في الإسلام لا نشرك مع الله أحدًا، ونعتقد أنه ينبغي أن يوحَّد وحده لا شريك له، ولا ينبغي أن يرفع الناس إلى درجة ورتبة الله، أيًا كان هؤلاء الناس، ولذا كان نبينا محمد ﷺ يقول: (لا تتخذوا قبري يعبد من بعدي، فإنما أنا عبد الله ورسوله).

– أفهم من كلامك أننا مشركون؟

– من يرى أن الله ثالث ثلاثة هو مشرك بالله عندنا.

تدخلت كاترينا في النقاش، وكأنها تفرغ شيئًا مما في صدرها..

– لكن سليم وهو أكبر منك لا يرى ذلك، ويرى أن هذا القول تطرف.

– أخي سليم أكبر مني وله احترامه، ولا أود أن أختلف معه أمام الناس، ولكني شخصيًّا مقتنع جدا بما قلته.

جورج مقاطعًا..

– وهل معنى ذلك أن موسى وعيسى كاذبان؟

– معاذ الله، نحن نؤمن بصدق موسى وعيسى عليهما السلام، ونحترمهما ونجلهما، ونعتقد أنهما أرسلا من عند الله، وأنه أنزل عليهما كتبا.. بل نعتقد أن كثيرا من عقائدكم تحط من درجتهما.

– نحن نحط من قدر الابن يسوع!

– أنتم تعتقدون أنه قتل، أما نحن فنعتقد أنه لم يقتل، بل أليس بعضكم يرى أنه ابن زنا؟ ألستم أنتم من تعتقدون ذلك؟

– وأنتم.. ماذا ترون وتعتقدون في اليسوع والعذراء؟

– نعتقد أنه عبد الله ورسوله، وأنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم، وأنه مولود من أمه مريم عليها السلام بلا أب بمعجزة من الله، كما خلق آدم من غير أم ولا أب، ولذا تكلم في المهد، وأعطاه الله من الآيات الكثير؛ فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

– إذن لديكم رؤية متكاملة لعيسى عليه السلام، وتؤمنون به، وتؤمنون بالعهد القديم والجديد؟
– نعم، نؤمن بالتوراة والإنجيل وبكونهما أنزلا من عند الله.
– ولكن في الكتاب المقدس أن عيسى ابن الله!
– نؤمن أنها أنزلت من عند الله ولكنها حرفت، أليس في بعض الأناجيل لديكم أن عيسى عبد الله وليس ابنه وليس إله؟
– لا، ليس لدينا شيء من ذلك.
رفع جانولكا شعره الطويل بطرف يده، ورفع يده وقال:
– أعتذر عن مقاطعتكما، لكن لدينا في أنجيل برنابا، وهو إنجيل كُتِب في القرن الخامس عشر عن طريق راهب كاثوليكي ارتد عن المسيحية، ولم تعترف به الطوائف المسيحية؛ لكونه اعتبر أن المسيح بشَّر برسول من بعده، وأن المسيح (عيسى) رسول من الله.
فتح جورج عينيه مستغربًا، وقال:
– صحيح! ولماذا لم تعترف به الطوائف الكاثوليكية؟!
– نعم،لم تعترف به الكاثوليكية ولا البروتستانتية؛ وإلا فقد اعترفت به طوائف مسيحية أخرى، وكثير منها أسلم بعد ذلك، ولذا متهم أن من كتبه مسلم.
ابتسم خالد، وقال:
– وهناك أدلة أنه الإنجيل الأقرب للصواب.
– ماذا تعني الأقرب للصواب؟ فهل هناك نسخ صواب وأخرى بعيدة عن الصواب؟
أعني الأقرب للمنزّل من رب العالمين، وأيد ذلك أحد المخطوطات الأثرية، أو الأناجيل التي عثر عليها في أحد كهوف بني مزار بمصر، ويعود تاريخها إلى بداية القرن الثالث الميلادي، وسمي بإنجيل يهوذا، وفيه نفس الكلام، ولاحظ أنه قبل بعثة النبي محمد ﷺ.
جانولكا بسخرية:
– صدقت في كل ما تقول، لكن غالب المسيحيين لم يؤمنوا بهذا لإنجيل ولا بذاك.
خالد وهو ينظر لأخيه سليم:
– أعتذر إن كنت أزعجتكم، وكل ما أقوله ناشئ من محبتي لعيسى عليه السلام، وللكتاب المنزل عليه من عند الله.
اختلطت مشاعر كاترينا، واغرورقت عيناها بالدمع عندما سمعت محبة اليسوع وقالت:
– حياتي كلها فداء ومحبة ليسوع، ولذا نؤمن به وبكونه مخلصنا، ولذا سمينا مسيحيين.

– أنا لست عالمًا في الدين، وإنما مهندس معماري، لكن يبدو أنك صادقة في حبك لعيسى عليه السلام، هل قرأت كتاب «حبي العظيم لعيسى قادني إلى الإسلام» تأليف الكاتب الفنزويلي الكاثوليكي الأصل سايمون الفريدو كارابيللو؟
– لم أسمع بالكتاب أصلا، ولا أظن أن حبي للمسيح سيقودني لغير الكاثوليكيّة!
– وهل يضرك لو قرأتيه؟! ألست واثقة في كاثوليكيتك؟!
– لم أره، وإلا قرأته.
– هذه نسخة مني لك هدية، لا أدري لماذا أشعر أنك صادقة في حبك لعيسى عليه السلام، عذرا وليس مثل بعض ـ وأكرر بعض الرهبان والقساوسة ـ الذين يبدون أنهم زاهدون في الدنيا، وهم يتكسبون بحب عيسى.
– شكرًا لك.. سأقرأه، وأنا متأكدة من أنه لن يغير شيئًا في حبي لعيسى ولا في كاثوليكيتي.
– تقول إنك لست بعالم دين، ثم أراك تتحدث بلغة عالم الدين، بل بلغة الداعية لهذا الدين.
– الإسلام يدعونا لنكون جميعًا دعاة لهذا الدين، ثم ابتسم ونظر إلى أمه، وقال: ثم أمي لما أجبرتني على المجيء، قالت لي: وهي فرصة لتدعو للإسلام هناك، وأنا لا أعرف الإيطالية، وهذه كانت أول فرصة لي.
– عذرا، كل الناس يسعدون بالمجيء للغرب المتمدن المتقدم، والهروب من الدول المتخلفة، وأنت تقول أجبرتني؟!
– أوربا أكثر تقدما منا بكثير، وهذا ما يجعل المهاجرين يسعدون لأنهم استطاعوا أن يصلوا إليها، خاصة بسبب الاضطهاد السياسي والديني والاقتصادي في دولنا، لكني أعمل مهندسا في شركة جيدة، ولي دخلي الذي يكفيني، وبعد سقوط النظام الدكتاتوري عندنا في مصر وضعنا أفضل، وسيكون أفضل مستقبلا إن شاء الله.
– لكن أليس الاضطهاد الديني والسياسي لديكم سببه الدين؟
– لا يمكن أن يكون الإسلام سبب اضطهاد أبدًا.
– أليس المسلمون هم من فجروا كنيسة القديسين في الإسكندرية؟
– هكذا قيل في البداية، وصدَّق العالم كله ومنهم أنا، وإن كنت استغربت ذلك، وبعد سقوط الديكتاتور محمد حسني مبارك الذي يدعمه الغرب، ثبت أنه وجهاز مخابراته وراء التفجيرات، وأعتقد أنك سمعت الخبر الأول، ولم تسمع الثاني كعادة الناس في الغرب.
– لكنكم لا زلتم متخلفين بسبب دينكم!
أشارت أم خالد (عائشة) إليه، وقالت:

- يا خالد قل له إننّا متخلفون يابني بسبب بعدنا عن ديننا!

نقل خالد ما قالت أمه.. وصل الغداء، ووضع على الطاولة، فحاول جورج أن يكمل النقاش السابق...

- هل تفهم أمك وأبوك النقاش الذي يدور بيننا؟

- نعم، تفهمه جيدا، وإن كانت لا تحسن الحديث، ألم يقل لكم ذلك سليم من البداية، لكن ربما قبل قدومك.

- هل يمكن أن أسألها؟

- أمي تقول لك تفضل، وأنا سأترجم ما تقوله لك.

- ألا تتمني أن تكوني ملحدة أو يهودية أو نصرانية؟

- الأم (ترجمة خالد :(أعوذ بالله، يا ابني، لا يوجد أحد يحب الضياع أبدًا.

- وهل ما نحن فيه ضياع؟

- الأم (ترجمة خالد :(إن لم يكن ضياعًا فلا أعرف معنى للضياع، أنا سعيدة مكرمة معززة في الإسلام.

- لكن هل هذا رأيك، أم رأي كل المصريين؟

- الأم (ترجمة خالد :(رأيي أنا على الأقل، وللأسف لدينا أيضًا من المتأثرين بكم من يرى الدين تخلفًا..

ثم نظرت إلى ابنها سليم، فخفض رأسه..

- ولكن المرأة محتقرة في الإسلام!

- الأم (ترجمة خالد): من قال لك ذلك؟! أنا عمري خمس وستون سنة، ومع ذلك أستطيع أن أجبر ابني خالدًا أن يأتي معي ويطيعني بكل سعادة، رغم أني أعرف أنه مشغول ولا يود أن يأتي، ويزورني هو، وتزورني بناتي كل أسبوع ثلاث أو أربع أو خمس مرات، ويقدمون لي الهدايا، ولا يستطيعون أن يخالفوا كلمة أقولها أو يقولها أبوهم، هل تعرف إكرامًا كهذا؟ لا أعرف الإكرام إن لم يكن هذا هو الإكرام.

- لم أر أبي ولا أمي منذ ثلاثة أشهر.

ارتبك خالد قليلًا بعد ما سمع إجابة أمه، ونظر إلى سليم الذي بدا أيضًا مرتبكًا..

- ماذا تقول..؟

- لا أريد أن أزعجك...

- أبدًا تفضل.

– تقول: مثل سليم الذي تعلم منكم، وأخذ من طبائعكم.
– ما أكثر من نراهم لا يتجاوزون شرب الخمر وقلة الأدب والذوق في بلادنا!
– الأم (ترجمة خالد :(في كل مكان أناس يفقدون بوصلتهم ويضيعون، ولكن متى عرفوا اتجاههم تابوا وعادوا إلى ربهم.
جاء مايكل وسالي من الشرفة بعدما أنهيا غداءهما..
– بابا، قلت لنا ستعود بعد ثلث ساعة، ولنا ٤٥ دقيقة، ألن نذهب كما وعدتنا؟
– أعتذر، شغلناكما عن أبنائكما.
– أوه، أنا لم أنتبه للوقت.
– شاكر لك سليم وخالد وعائشة وعبد الله.. أخذنا من وقتكم الكثير، هذه بطاقتي هل من الممكن أن تعطوني بطاقاتكم؟
– أي بطاقات مع أمي وأبي؟! هذه بطاقتي أنا، وفيها بريدي الإلكتروني، هل أطمح أن ترسلي لي رأيك في الكتاب يا كاترينا؟
– سأحاول، شكرا لك
عندما انصرف خالد مع أبيه وأمه، توجه سليم إلى ضيوفه معتذرًا..
– التزمت الصمت كما قلت لكم، أعتذر عن كل خطأ في حقكم، لكنني قلت لكم من البداية وحذرتكم، ولكنكم مصرون.
– رغم مفاجئتي بما قالوا، ورغم حدة طرحهم، إلا أنهم كانوا جميعًا لبقون في الحديث، فلا تعتذر.. ههه، بل اذهب واعتذر لأمك لأنك لم تزرها منذ سنين.
ودع جانولكا الجميع وانصرف إلى عمله، وذهب جورج وكاترينا مع الأطفال إلى نافورة تريفي..
كانت نافورة رائعة جدًّا، فرحوا برؤيتها وقضوا بقيّة يومهم حولها.. وقبل انصرافهم رمت كاترينا قطعة نقود فيها، فنظرت سالي إلى أمها متعجبة..
– يقولون في الأساطير الإيطالية هنا أن من رمى قطعة نقود هنا يعود إلى روما.
– بابا، أعطني قطعة نقود لأرميها.
– لا تصدقي يا ابنتي هذه الخرافات.
– أعرف أنها خرافات، ولكني أيضا أود أن أرمي قطعة نقود؛ لأقول أني رميت في نافورة تريفي.
– خذا هذه قطعة نقود لكي وأخرى لمايكل، وآمل يا كاترينا ألا تكوني خرافية.
أجابت كاترينا بحدة واضحة..
– وآمل ألا تكون أنت معقدًا.. بسط الأمور، مجرد نزهة.

(٣)

- ما بكِ يا كاترينا؟
- لا شيء.
- ألم تعجبك النافورة والساحة التي حولها.. لم أركِ تضحكين اليوم وتتحدثين مثل العادة؟!
- بل كانت رائعة، لكن ربما كان ذهني مشغولًا قليلًا.
- بماذا؟
- لماذا كنت تود أن تقابل المسلمين الذين قابلناهم؟
- لأتعرف منهم على خزعبلاتهم وتخلفهم؛ حتى أجهز جوابا لتوم عندما يسألني عن المسلمين.
- لكنك كنت متفاعلا جدا مع كلامهم.

ابتسم مايكل ونظر في عيني كاترينا:

- أنا الذي كنت متفاعلا؟!

فهمت كاترينا قصده..

- هو يزايد على حبنا لليسوع.
- يبدو أنهم حقًا يحبون اليسوع وأمه.
- ماذا تقول؟!
- والاختلاف هو في ألوهية اليسوع، فهم يرونها شركًا وكفرًا ووثنية.
- ونحن نراها توحيدًا وعبادة.
- ههههه، وهل ستقرئين الكتاب؟
- لا أود قراءته.
- ههههه، ولكنك وعدتيه أن تقرئيه، فهل أنت خائفة من قراءة الكتاب كما قال لك؟!
- ما هذا الكلام جورج؟! كتاب لا يقدم ولا يؤخر!
- صدقت.. فلماذا لا تقرئينه؟ وما الخطأ في ذلك؟
- من قال لك أني أود قراءته.
- لأول مرة أراك ضعيفة في الحجة والدفاع عن الكاثوليكية، ولأول مرة أشعر أن كلامًا بسيطًا يهزك.
- لن أقرأ الكتاب.
- لتثبتي لنفسك أنك خائفة من الكتاب.
- إذن سأقرأه.

– ما بك كاترينا؟! لماذا هذا الضعف؟!

– لا أدري، منذ مقابلتنا للقس وأنا مضطربة داخليًّا، ربما أكون خائفة صدقًا من قراءة الكتاب.

– أنت لست خائفة، أنت قوية، بل أنت مثلي الأعلى في اليقين، أقترح عليك أن تقرئي الكتاب الآن؛ فهو يبدو صغيرًا جدًّا، وأنا سأرى بريدي الإلكتروني، فأنا لم أره بالأمس.

فيما جلست كاترينا تقرأ الكتاب، فتح جورج بريده وعيناه تراقب كاترينا وحماستها أثناء القراءة.. وجد ردودًا ممن أرسل إليهم الرسالة والنصّ المنقول عن التوراة.. حيث أرسلوا له تعليقاتهم.. لخصها وأعاد إرسالها لهم.

توم: هل تعني أن هذا سبب توحش براد؟! يبدو وصفا جيدا.

ليفي: رغم معرفتك رأيي في هذا التوحش، لكن كلكم تؤمنون به، فمن يهاجم التوراة يهاجم الأديان السماوية كلها.

حبيب: أتفق معه تمامًا، ولكن لاحظ أن المسلمين على عدم محبتي لهم يختلفون في إيمانهم بالتوراة.

آدم: كلام خطير، فهل يمكن أن يكون من عند الله؟

فأرسل لهم الرسالة التالية:

«أنتظر اليوم تعليقكم على فكرة وليست نقلًا لنص:

إن التثليث في المسيحية شرك، وإنه كلام لا يفهم، وإن الله واحد، وإن عيسى عبد الله ورسوله، أنتظر ردكم وتعليقكم باختصار.

جورج»

أنهى جورج عمله على الحاسوب، والتفت إلى كاترينا التي ما تزال مشدودة إلى الكتاب وتقرأه بتركيز واضح..

– هل انتهيتِ؟

– لا انتظر قليلًا.

– أجِّلي الكتاب للغد، أريد أن أناقشك في بعض الموضوعات.

– دقائق فقط وأنهيه.

– تبدين متحمسة جدًّا للكتاب!

– دقائق فقط لو سمحت.

– سأنام إذن.

أكملت كاترينا الكتاب، ثم اقتربت من جورج وهو مستلق على السرير..

– أعتذر، فقد كنت في نهاية الكتاب وأحببت أن أنهيه.

- يبدو أنه كتاب مقنع!
- إلى حد ما، قصة لا بأس بها.
- كنت أود أن نرتب عملنا في الغد.
- غدًا يوم السبت، ألم يدعُنَا القسيس لحضور القداس غدًا؟
- نعم دعانا، لكن هل سنذهب؟
- نعم سنذهب، هل نترك القداس في أقدس كنيسة؟
- ههههه، إذن حبك لعيسى قادك للكنيسة وليس للإسلام.
- رغم أن الكتاب مقنع إلى حد كبير إلا إنني سأصلي في الكنيسة غدًا.
- وأين سنترك أطفالنا؟
- نأخذهم معنا للقداس.
- ألا تخافين عليهم من القس؟
- لم أفهم؟
- لا يمكن أن آخذ ابنيَّ للقداس؛ فأنا أخاف عليهم من القساوسة.
- تخاف عليهم من ماذا؟
- أخاف عليهم من السلوك المتوحش للقساوسة؛ بسبب قراءاتهم المتكررة للعهد القديم والجديد.
- أنت تتحدث اليوم بالألغاز، هل من الممكن أن توضح لي ماذا تعني؟
- ألم تقرئي عن فضائح الكنائس الجنسية؟ ألم تقرئي في القضايا التي رفعها الأحداث على الكنيسة؟ لا أنسى المقابلة مع أحد الذين اغتصبوا في الكنيسة، لقد كان الرهبان والقساوسة وحوشًا وليسوا بشرًا، ولا أود أن يتعرض مايكل وسالي لشيء من ذلك.
- ما بك يا جورج؟ أنا أذهب للكنيسة كل أسبوع أكثر من مرة، ولم يحدث لي أي شيء، ما هذه الوسوسة؟
- هل سبق أن رأيت أو جلست أو تناقشت أو قرأت عن الفضائح الأخلاقية في الكنيسة؟
- لا.
- دعينا نتفق على التالي، ادخلي اليوتيوب، وشاهدي المقاطع التي تحدثت عن ذلك، فإن كنت مصرة غدًا أن نأخذ أبناءنا معنا إلى القداس أخذناهما.

– سأتفرغ الآن لمشاهدة المقاطع من أجلك، وغدًا سنذهب للكنيسة جميعنا.. بدأت تستخدم نفس طريقة هذا المسلم الذي قابلناه في الحديث معي!
– ههه، ويبدو أنه كما أثر فيك حديثه، ستؤثر فيك المقاطع التي ستشاهدينها، تصبحين على خير يا حبيبتي.
– وتصبح على خير حبيبي.
تعانقا عناقًا طويلًا، ثم نام جورج، وبقيت كاترينا تشاهد وتقرأ عن الفضائح الكنسية الجنسية، وانتقلت منها للفضائح غير الجنسية، ولم تشعر بمرور الوقت عليها.. عادت وأمسكت كتاب «حبي العظيم لعيسى أدخلني الإسلام»، وأعادت قراءة فقرة من الكتاب، ولا تدري لماذا اختارت هذا الفقرة:
(إن عقيدة الفداء والصلب مع كونها مخالفة للعقل والمنطق؛ فإنها تفتح الباب على مصراعيه لترك العمل الصالح وفعل الشرور والآثام، مِن قتل وسرقة واغتصاب وزنا وغير ذلك، فقد استخف بولس بأهمية الشريعة والوصايا والأعمال الصالحة التي أتى المسيح ليكملها، ودعا إليها، فقال في رسالته إلى روميه (٣:٢٨) «فنحن نعتقد أن الإنسان يتبرر بالإيمان لا بالعمل بأحكام الشريعة» وحتى آدم عليه السلام لم ينفعه عمله (٤:٢)، فجاء ليحصر الخلاص والنجاة بمجرد الإيمان بصلب المسيح عليه السلام، ولا تسأل عن حال البشرية إذا اعتقدت ذلك، ومما يرد على بولس ما جاء على لسان المسيح عليه السلام في متى (٥:١٩) «فمن نقض أحد هذه الوصايا الصغرى، وعلم الناس هكذا، يدعى أصغر في ملكوت السموات، وأما من علم وعمل فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات»)
أعادت قراءة الفقرة مرارًا.. ثمّ انتبهت إلى أن الساعة متأخرة في الليل، فوضعت الكتاب بجوارها، وارتمت على السرير، واستسلمت لأفكارها حتى نامت.
استيقظ جورج مبكرًا ولم تحسّ به كاترينا، نهض من فراشه واستحمّ وغيّر ملابسه.. ثمّ اقترب من كاترينا ليوقظها، فوجد الكتاب بجوارها مفتوحًا على الصفحة التي توقفت عندها البارحة.. فقرأها، ثمّ أعاد الكتاب إلى وضعه مقلوبًا على نفس الصفحة.
ذهب إلى غرفة أبنائه، وأيقظ مايكل وسالي ليتجهزان، ثمّ عاد وأيقظ كاترينا.. وأثناء خروجهم لتناول الإفطار في بوفيه الفندق، التفت جورج إلى كاترينا..
– أين سياحتنا اليوم؟
– في أجمل وأفضل الأماكن.
– أين سنذهب اليوم يا أمي؟ فقد سألت أبي فقال: إنك ستختارين أين سنذهب اليوم؟

- مفاجأة، سنخبرك بها أنا وأبوك بعد قليل.

طلبت كاترينا من أبنائها أن يسبقاها إلى بوفيه الفندق، فهي تريد أن تتحدث مع جورج قليلًا..

- أين سنذهب اليوم؟
- هل شاهدت وقرأت عن الفضائح الجنسية في الكنيسة؟
- رغم أني دائمًا في الكنيسة إلا أن ما شاهدت وقرأت أكبر من قدرتي على التصور، إن صح فهؤلاء وحوش وليسوا بشرًا.
- هل تعتقدين أن ذلك بسبب تعليمات بولس التي تفصل بين الإيمان والعمل الصالح؟ ولهذا اخترعت النصرانية عقيدة الفداء والخلاص.
- هل قرأت الكتاب؟
- لا، إنما قرأت فقرة في الصفحة التي كان الكتاب مفتوحًا عليها، وما المشكلة لو قرأت الكتاب؟
- لا مشكلة.. فقط استغربت، ولو قرأته لكان جيدا، فأنا لست خائفة، ربما هذه الفقرة التي تتحدث عنها بالذات تشكل مشكلة لي، ويمكن أن نفكر فيها لاحقًا، المهم ما رأيك أين نذهب؟
- لا بد أن نحضر القداس في الكنيسة.
- لا بأس، ولكن بعد أن نذهب أولا إلى حديقة فيلا دوريا بامبيلي، وهي أكبر حدائق روما، بل ومن أجملها.
- أخاف أن نتأخر على القداس.
- ههههه، لن نتأخر أيها الراهب.
- اتفقنا إذن.

(٤)

تبلغ مساحة حديقة فيلا دوريا بامبيلي قرابة التسعة كيلو مترات مربعة.. كانت مساحة خضراء واسعة تبعث البهجة والارتياح.. وتحط فيها أنواع كثيرة من الطيور التي سعد مايكل وسالي بمراقبتها..

- اختيار رائع يا أمي، هذا اليوم من أروع الأيام.
- المكان رائع وجميل جدا، هل أعجبك يا سالي؟
- نعم أعجبني كثيرًا.
- وسيكمل جمال الرحلة بذهابنا للقداس اليوم في الكنيسة.

تذمر مايكل قائلًا:

- لا أود الذهاب إلى الكنيسة.

هز جورج كتفيه، ونظر إلى كاترينا..

- هذا اختيار أمك، اسألها.
- بعد السياحة الطبيعية لا بد من السياحة الدينية والروحية.
- عذرا أمي، أنا لا أحبّ الكنيسة!
- ألا تحب أن تعبد وتشكر إلهك الذي خلقك ورزقك ورحمك؟
- أحب أن أعبد ربي، ولكن بدون الذهاب للكنيسة.
- ما لم يتجه الإنسان إلى ربه ويعبده ويشكره فستضيق عليه الدنيا.
- هل أنتِ مصرة على الذهاب إلى الكنيسة؟

أراد جورج تلطيف النقاش..

- إن لم تعبد ربك وتشكره شقيت، ولا أظن أن العبادة مرتبطة بالذهاب إلى الكنيسة.
- سنذهب بعد أن ننتهي من الحديقة الرائعة، فاستمتع بها، ولكن إياك أن تترك عبادة وشكر ربك يا حبيبي.
- شكرا أمي شكرا أبي، لكن لماذا العبادة مرتبطة بالكنيسة فقط؟!

أرادت كاترينا أن تنهي النقاش..

- سالي تعالي وانظري إلى الطائر البعيد هناك.. هيا نذهب إليه..

ذهب مايكل وسالي يركضان خلق الطائر..

- كلام مايكل جميل جدًّا.
- نعم، لكن لمَ تجعلني سببا فيما لا يحبّه الأطفال؟

– أليس الذهاب للقداس طلبك أنت؟!

– للحديث بقية أيها الفيلسوف البريء.

قضت العائلة ساعات الصباح في الحديقة، ثم تناولوا فيها وجبة الغداء.. وبعدما انتهوا التفتت كاترينا إلى أبنائها:

– سنذهب الآن إلى القداس، وأريدكم أن تؤدوا الصلاة بخشوع، وأن تنتبهوا لأنفسكم.

– من أيّ شيء ننتبه لأنفسنا؟

– من أي شيء، أو شخص أو عمل يؤذيكم أو يضايقكم.

– مثل ماذا؟

– مثل أي شيء يؤذيكم أو يضايقكم، هل الكلام واضح يا سالي ويا مايكل؟!

– واضح جداً ولا أدري لماذا تقوليه لنا؟! هل نحن سنذهب إلى الكنيسة أو إلى حديقة الوحوش المفترسة؟!

ما إن اقتربوا من الكنيسة، دنت كاترينا من جورج وهمست له..

– لقد جعلتني موسوسة، انتبه أنت لمايكل، وسأنتبه أنا لسالي.

– ليس لهذه الدرجة، يبدو أنك موسوسة بشدة.. ولكن حاضر.

دخل الجميع الكنيسة، وقد بدأ القداس المهيب.. غير أنّ جورج لم يكن مكترثًا له، فيما كانت كاترينا متأثّرة، لكنّها قلقة غير مرتاحة..

وما إن خرجوا حتى تعلق مايكل بأمّه..

– شكرا ماما، لقد كان قداسًا رائعًا، كم أحب اليسوع!

– لقد كان سببًا لخلاصنا، بل وخلاص البشرية من الخطيئة.

بطفولة وبراءة سألت سالي..

– ماما.. أليس هناك طريقة ليخلصنا الرب الرحيم من خطايانا دون أن يقتل اليسوع، لقد آلمني موت الابن اليسوع كثيرًا، فأنا أحبه؛ فبسببه تأتيني الهدايا في رأس كل سنة.

مايكل..

– وأنا مثلك يا سالي.. ربما لأجل هذا لا أحب الذهاب للكنيسة، أو ربما لأني لا أحب القساوسة والرهبان.

– حبك لليسوع هو المنقذ والمخلص.

– ولا تنس يا مايكل العمل؛ فالإيمان وحده لا يكفي كما يعلمنا اليسوع.

عادت العائلة إلى الفندق بعدما انقضى القداس، وانصرف الأبناء لغرفتهم.. وعندها قال جورج

لكاترينا بابتسامة ماكرة:

– كنت متوترة في الكنيسة!

– وكان واضحًا عليك عدم الاكتراث.

– نعم، كيف تريدينني أن أكترث بما لست مقتنعًا به؟ المهم سفرنا بعد غد، وأود أن نستمتع بما بقي من الرحلة، كما استمتعنا بالأيام الفائتة.

– أنا متعبة جدا، فقد تأخرت البارحة في النوم، وسأنام الآن.

– أنا سأرى بريدي الإلكتروني ثم أنام، هل من الممكن أن تعطيني الكتاب الذي أعطاك المسلم.

– هل ستقرأه؟!

– ربما، وما الإشكال في أن أقرأه؟

– لا شيء، تفضل.. تصبح على خير.

تناول جورج حاسوبه، وفتح بريده الإلكتروني؛ ليجد تعليق زملائه على رسالته:

حبيب: تعبت لأُفهم طلابي في الجامعة التثليث مع التوحيد فلم أستطع، ربما لأني لم أفهمه أنا نفسي، يوجد ما ذكرت عموما في نسخ قديمة جدا من الإنجيل.

توم: تقول الرياضيات ٣ لا تساوي ١، ويقول علماء المنطق: إن الجزء من الكل تابع في حكمه للكل، ويقول أبي: لا تتحدث فيما لا تفهم، وأقول أنا: حدثني بما يمكن أن أفهم لأرد عليك، ههههه.

آدم: إن قلنا إن عيسى عبد الله وليس شريكا لله أو ابنه؛ فهذا لا يعني انتقاص عيسى عليه السلام.

ليفي: هذا مثل من يقول لدينا في اليهودية «إن عزيرا ابن الله»، أعتقد كلاهما كلام لا يفهم.

فأعاد إرسال التعليقات لهم جميعًا دون ذكر أسمائهم، ثم كتب الرسالة التالية:

«الحلقة الثالثة: هل يمكن أن يكون بولس هو محرف العهد الجديد؟

جورج»

وبينما هو يقرأ بقية الرسائل وجد رسالة من كاخ كالتالي:

«عزيزي جورج..آمل أن تكون بصحة جيدة، جميع الموظفين في انتظارك، نتمنى أن نراك قريبًا».

كاخ»

* ملاحظة، لقد تغيبت عن العمل أكثر من أسبوع حتى الآن».

همّ بأن يغلق جهازه، لكنّه تذكر صفحة آدم على الفيس بوك، وأنّه لم يزرها منذ فترة طويلة، فدخلها فوجده كتب مقالًا جديدًا عنه: (دروس من صديقي الباحث عن السعادة ٣):

«واجه صديقي الباحث عن السعادة في هذه الفترة مشكلة صحية غريبة، وقبل أن أذكر ما تعلمته منه، أود أن أضع ملاحظات على ما حدث أثناء مرضه:

١.المرض عادة ما يصاحبه ضعف، وحصل ذلك مع صديقي، وكنت خائفًا ألا يكمل الطريق، لكن صدقه وإصراره جعله يتجاوز ذلك، ولذا ينبغي للعاقل ألا يتخذ قرارًا مصيريًّا في فترة الضعف.

٢.كدت في فترة من الفترات أن أتجاوز، وأن أقول له طريق السعادة هو كذا.. لما رأيت ضعفه، ولكن الله سلم.

٣.تأكد لي أن الفترة القادمة على صديقي هي أصعب الفترات، ولعلي أوافيكم بالأخبار أولا بأول.

ونعود للدروس مرة أخرى، فلا يزال صديقي مصرًّا على أن يتعرف على طريق السعادة، وقد تعلمت منه الدروس التالية:

١.أن الذين يحيطون بك إما أن يتأثروا بك أو تتأثر بهم أو تتصارع معهم، وما يحدد ذلك هو الصراعات الفكرية والعقدية، فكثير ممن حوله بدأوا يتأثرون به، وهذا يدل على قوة إصراره وصدقه، وعموما أظن أنه أصبح هناك أكثر من باحث، لعلي أبشركم قريبا بتعرفهم جميعا على طريق السعادة.

٢.الاتزان النفسي وعدم الحدية في التعامل مع الأفكار مهم جدا في السير إلى طريق السعادة، وهذا ما يمتلكه صديقي، وإن كان يفقده أحيانا تحت الضغوطات.

٣.أهمية التعلم، ويجب التعلم حتى لما تظن أنك تعرفه، فربما ما تعرفه يكون غير صحيح، فقد أعجبني في صديقي إصراره على التعلم لأشياء هو عليها من طفولته وبعقلية منفتحة.

٤.لدى صاحبي ـ للأسف ـ قدرة محدودة على الربط بين الحوادث والقراءات والمناقشات، وهي مهمة جدا للمقارنة بين الأفكار؛ للوصول إلى طريق السعادة.

أعتقد أن صاحبي في الخطوات الأخيرة في طريق البحث عن طريق السعادة، وإجابة تساؤلات الحياة الكبرى، وسأوافيكم بالدروس القادمة قريبا.

آدم»

قرأ جورج تعليقات القراء، ولفت انتباهه تعليق أحد القراء قال فيه: «يبدو أنك تحب صاحبك كثيرا؛ ولذا تضعه في صورة مثالية». وكان رد آدم: «نعم أحب له الخير كما أحب لكل الناس؛ فالله يأمرنا بمحبة الخير للناس».

ثم قرأ مقالا آخر لآدم يتحدث فيه عن تحولات فكرية، وكتب فيه التالي:

«رغم صعوبة التحولات الفكرية إلا أني رأيت اليوم تجربة غريبة، فقد جلست اليوم مع طبيب نفسي ذكي جدا، وفيلسوف عبقري، لكنه يتقلب ويدور ما بين العقائد والأفكار، كان مسيحيًا

ثم ألحد، وأصبح سيء الأدب والدين، درس البوذية والهندوسية واليهودية والمسيحية، ويريد أن يدرس الإسلام، لديه مشكلتان؛ الأولى: أنه يجعل الفلسفة حاكمة على كل شيء، قلت له: العلم حاكم، وليس أصولك الفلسفية الحديثة،لم يقتنع، وإن كان وعدني بأن يفكر في كلامي مرة أخرى، مشكلته الثانية: أنه يفكر في كل دين برواسب من كره كل الأديان، حملها من إلحاده ومن معرفته العميقة بتحريف الأديان التي درسها، فبماذا تنصحونني في التعامل معه؟

آدم»

عرف جورج أن المقصود توم، فتح صفحة توم فلم يجد فيها جديدًا، بل الغريب أن توم لم يدخل صفحته منذ قرابة الخمسة أيام، وهذا ليس من عادته.. أغلق جهازه، وتناول الكتاب فتصفحه سريعًا؛ إذ كان يشعر برغبة في النوم، لكنّ مقطعًا استوقفه بشدّة، فقرأه بتمعن شديد ولا يدري لماذا كان بالنسبة له صدمة، رغم أنه يبدو كلامًا عاديًّا؟ هل لأنه يفتقده في المسيحية؟ حيث هناك فصل شبه تام بين العبادة وطلب الخلاص والحياة، أم فقط بسبب أن قائله مسيحي؟

«يقول عنه الكاتب الأمريكي مايكل هارت، بعد أن وضعه على أساس القائمة في كتابه: «إن محمدًا ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى، برز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. وإن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له يخول محمدًا ليكون أعظم شخصية مؤثرة في تاريخ البشرية»

استلقى جورج واستسلم لأفكاره، ولم يشعر بنفسه إلا وفي الصباح وكاترينا تقول له:

- استيقظ استيقظ، ههه، كل هذا من الكتاب.
- أوه.. يبدو أنك خائفة علي، اطمئني، لم أقرأ الكتاب.
- ههههه، كل هذا وأنت لم تقرأه، فكيف لو قرأته! هيا استيقظ.

(٥)

– هيا استعجلوا.. اليوم هو آخر يوم لنا في روما، ونريد أن نزور أماكن كثيرة.

كان نهارًا حافلًا.. زارت العائلة حدائق ومنتزهات، وركبوا القوارب في البحيرة الصناعيّة.. وختموا جولتهم بالذهاب إلى السوق.. وعند خروجهم وكز جورج كاترينا بخفّة.. وابتسم ابتسامة ذات مغزى:

– لم تقومي بشراء الصليب، فهل أصبحت لا تحبين المسيح؟

– لم أزدد إلا حبًّا له، لكن الحب بالطاعة والعمل وليست بالصلبان فقط.

– هذا ما كنت أقوله لك منذ فترة، ليست المحبة بالصلبان والتماثيل والرهبان والقساوسة.

– دعنا من هذا الآن، أيها البروتستانتي المتعصب.

– أو ربما يكون حبي للمسيح سيجعلني مسلمًا إرهابيًّا، رغم أني لم أقرأ الكتاب.

– أظنك تصلح أن تكون إرهابيًّا، كما تصلح أن تكون هندوسيا تعبد البقر.

– ههههه.

مع حلول المساء.. توجهت الأسرة إلى مطعم فاخر يطلّ على نهر التيفرة، وتناولوا عشاءهم على إطلالة باهرة وجوٍّ جميل منعش..

– سمعتكما كثيرًا تتحدثان عن الدين، هل الدين مهم للناس؟

– بلا شك يا مايكل.

– أحد أصدقائي في المدرسة يقول: إن الإلحاد هو الأصل، وإن الطبيعة هي التي خلقتنا، وإن التفكير الديني والتفكير في الدين هو من الأساطير القديمة البالية.

– وأنت ما رأيك؟

– أعتقد أن بعض الأمور في الدين خرافة.

– فرق بين أن يكون الدين خرافة وأن يكون في بعض الأديان خرافة.

– لكن الخرافات في الدين كثيرة جدًّا، كما يقول صديقي.

– مثل ماذا يا صغيري؟!

– رغم أن الأستاذ في المدرسة شرحه أكثر من مرة، إلا أني لم أفهم عقيدة التثليث، ولا الفداء، ولا...

– ربما لصغر سنك يا بني، وعندما تكبر ستفهمها.

– يقول لي صديقي الملحد الذي حدثتك عنه: «إن من ستسأله سيقول لك إنك صغير، لكن صدقني إنهم جميعا لا يفهمون ذلك»، فهل أنت تفهمين هذه الأمور؟!

- نعم، نعم إلى حد ما.
- وأنت يا أبي؟
- ههههه، لا، لا إلى حدٍ ما!
- أشعر أن الموضوع صعب، فهل الرب يريد إرهاقنا لكي نفهمه؟
تضجرت كاترينا..
- أوووف، أنت تصعب الأمور مثل أبيك، الأمر أسهل من ذلك يا صغيري.
بحزم أردف جورج..
- رائع يا مايكل، لا يمكن أن يأتي الرب بشيء تستحيله العقول، فإن بدا ذلك لك فهذا يعني أنك يجب أن تتعلم أكثر لتفهم، أما كون الأمور تتحول لأسرار فلا تقبل ذلك.
- إذن أنت توافق صديقي الملحد يا أبي؟
- أبدا، فالإلحاد أساطير تخالف العقل مخالفة كلية.
- لم أفهم يا أبي؟
- هل يمكن أن يكون العالم وجد صدفة؟! وخلق الناس بالصدفة؟!
- الملاحدة لا يقولون ذلك يا أبي، فبعضهم يتحدث بعلم عن نظرية داروين التي درسناها في مادة الأحياء.
- نعم، نظرية داروين من النظريات التاريخية القديمة، أما الآن فقد ثبت خطؤها علمًا وعقلًا.
- كيف؟
- يمكنك أن تسأل مدرس العلوم، هو أعرف مني بذلك وتفصيله، ويمكن أن أشتري لك كتابًا تفصيليًّا عن ذلك، يجب أن نعتمد على العلم لا على الأساطير، حتى لو بدت علمية.
- لكن المشكلة في أن الدين يخالف العلم.
- لا يمكن، فلا يستغني واحد منهما عن الآخر أبدًا.
- كيف؟
- يمكن أن ألخص لك ذلك بمقولة أينشتاين: «العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى».
- تعني أن الملاحدة علمهم أعرج؟!
- بل جهلهم أكثر من علمهم، وما يعلمونه أعرج، كما أن الدين بلا علم قد يتحول إلى أساطير وأسرار؛ فلذلك هو أعمى..
سكت مايكل وظل جورج يتأمل هل هذه التساؤلات التي تبدو أكبر من عمره دليل على الذكاء أم مرض الشك في صورة مصغرة.

عندما عادت العائلة إلى الفندق.. كان جانولكا بانتظارهم في صالة الاستقبال، وما إن لمحهم حتّى قام إليهم وألقى التحية..

- زيارة مفاجئة، مرحبا بك.
- صديق القس مرحبا بك، لم نرك في القداس!
- لم أحضر القداس منذ قرابة السنة.
- كيف تصاحب القس إذن؟!
- يبدو أن القس مقدس جدا عندكِ، رغم عدم إجابته أسئلة جورج وتهربه منا، فقد تأكدت منه مما حدث.

جورج باستغراب:

- وهل كنت تكذبني.
- لا أبدًا، لكن للتأكدا فقد كان تصرفا غريبا، ويبدو أنه كما قلت: لم يود القس أن يخرج كاترينا لوحدها.

فتحت كاترينا عينيها باستغراب..

- ولماذا أنا بالذات؟!
- قلت لك هو يفرق بين الخطاب العام التي أنت أحد المستفيدين منه، وبين الخطاب الخاص، عمومًا.. لا أود أن أطيل عليكما، أظن سفركما غدًا.
- نعم.
- جئت لأودعكما، وأحب أن يستمر تواصلنا معا، فأنا سعدت بلقائكما.
- ونحن كذلك.. شكرا لك.
- ولدي طلب، هل من الممكن أن تعطيني الكتاب؟ فقد طلبته من صديقي وأخبرني أنها النسخة الأخيرة لديه.
- ألهذه الدرجة الكتاب مهم عندك؟!
- جلستنا في ذلك اليوم أثبتت لي أني لا أعرف عن الإسلام إلا كلامًا عامًّا، أو تقارير إعلامية، فقررت أن أفهم هذا الدين، وعنوان الكتاب شدني؛ فوددت أن أقرأه.
- سأصعد للغرفة مع الأبناء، وسآتيك بالكتاب.. هيا مايكل، هيا سالي.

ابتسم جورج ضاحكًا وقال:

- ههه، إذن قررت دراسة الإسلام؟
- نعم.

- وهل ستصبح مسلمًا؟
- هل تتوقع أن أكون كالقذافي رئيس ليبيا السابق مثلًا.. أنا أدرس كل الأفكار بدون تمييز، واكتشفت أني لا أعرف الإسلام في تلك الجلسة، فرغم كثرة المعلومات عندي عن الإسلام إلا أنها كلّها غير موثقة.
- أنا لم أقرأ عن الإسلام، وسأقرأ في المرحلة القادمة، وللأسف لم أقرأ الكتاب، وكنت أود أن أقرأه.
- عذرا الكتاب لكما، وأنا أعتذر عن طلبي.
جاءت كاترينا ومعها الكتاب، وأعطته لجانولكا الذي أخرج ورقة وقلمًا ودوّن فيها بعض المعلومات عن الكتاب، ثمّ أعاد الكتاب شاكرًا..
- ألا تريد الكتاب؟
- لقد أخذت موقع الكتاب على الشبكة الدولية، وهذا يكفي، تحياتي لكما.
صعد جورج وكاترينا للغرفة.. وفتح جورج جهاز الحاسوب، فقد كان ينتظر جواب أصدقائه عن سؤاله: إن كان بولس هو محرف التوراة أم ماذا؟ وكانت المفاجئة أن الإجابات جميعها أجمعت على التحريف، واختلفت في طريقتها.. كتب كل الإجابات وأعاد إرسالها إليهم جميعًا..
حبيب: تاريخيًّا.. للأسف نعم.
توم: إن كان محرفًا فلا يهمني من حرفه.
آدم: سؤال ملغوم، لا أعرف من الذي حرفه.
ليفي: ومن حرف العهد القديم إذن؟! ربما كانت المشكلة في الكتابة وتأخرها، وليس القصد التحريف.
ثم كتب لهم:
«الحلقة الرابعة: بصراحة، هل لديك رغبة في التعرف على الإسلام؟ ولماذا؟
أنتظر إجابة مختصرة لو سمحتم.. غدًا مساء سأكون في لندن
جورج - روما»
أرسلها لجميع زملائه، وأضاف لهم هذه المرة كاترينا وجانولكا.. وتابع تصفح بريده فوجد رسالة من توم:
«إلى جميع الأصدقاء، أشعركم بأن صفحتي على الفيس بوك قد سرقت مني، وأنا أتفاوض مع الموقع لإعادتها لي، وأعتذر عن أي شيء مشين يظهر فيها، فهو لا يعبر عني. توم»
وفتح الصفحة فوجد فيها صورًا لتوم مع كثير من النساء بأوضاع غير محترمة، فكانت نفسه

تحدثه: هل بدأت المعركة بين توم وبراد؟ ثم تذكر مقال آدم عن التقلبات الفكرية للطبيب، وقال: صدق آدم، أظن أن توم كان في الحضيض. استمر جورج في مشاهدة الصور، واستوعب بعد مدة قصيرة أنه كان ينظر في صور النساء ليبحث عن كاترينا فيها، ورأى أن ذلك شك في غير محله، ولا يليق به ولا بها. فأغلق جهازه، وقام إلى كاترينا؛ حيث كانت مستلقية على السرير وقبّلها، فأحسّت بقبلته فقبلته وفتحت عينيها وابتسمت..

- أحبك.

- وأنا أحبك أيضًا.. اقتربي مني.مرّ اليوم التالي سريعًا، إذ لم تكن أمامهم إلا ساعات معدودة قبل موعد ذهابهم إلى المطار.. ذهبوا إلى السوق، وهناك ذكّرت كاترينا جورج بهديّة آدم، الحقيبة الجلدية الفاخرة جدًّا والرخيصة جدًّا، حتى وقفوا أثناء التسوّق على محل للحقائب الجلديّة الأصليّة، وكانت عنده تصفية على بعض الأنواع، حتى إنّه يبيع بعضها بخصم بلغ ٨٠٪، فاشترى لآدم حقيبة فاخرة ورخيصة.. وخرجوا من المحل وهم يضحكون على الطلب الغريب، وعلى الصدفة التي مكّنتهم من تحقيقه.

وبعدما تناولوا الغداء في مطعم قريب من السوق، عادوا إلى الفندق ليأخذوا حقائبهم.. ومضوا إلى المطار.

تساقط الأقنعة

١٣ تساقط الأقنعة

تساقط الأقنعة

(١)

أحسّ جورج بعد عودته من رحلة روما بأنّه أصبح أكثر حيويّة وراحة، وشعر بنفسه متخفّفًا من كثير الضغوطات والهموم، حتى بات يتساءل: هل ما كان يشعر به هو بسبب كثرة الأشغال والقراءات التي كانت تأخذ أكثر وقته، أم أنّها الحيرة والأفكار السلبيّة المتعلقة بالإنجيل وبالرب، بل بالمسيحيّة بكل فرقها؟ أم أن ما يشعر به الآن لا يعدو أن يكون فرح طفل بكسر لعبته، فماذا بعد أن تحطمت الكنيسة أو بابويتها وإنجيلها في نفسه، أين سيجد لعبة جديدة؟! أم أنه سيجلس ملحدًا فاقدًا لأي معنى لروحه وحياته وسعادته؟ ثم صرخ بصوت جلجل روحه، يا الله يا الله...

حتّى كاترينا أحبّت هذه الرحلة، وعادت بروح مختلفة.. أتراها السعادة لسعادة زوجها وأبنائها؟! أم هي سعادة تكشف الأقنعة التي كانت تراها وتعجب بها، فقد أصبحت تنظر للحياة بمنظور مختلف؟ كانت تتذكر صدمتها من حيرة القس وضعفه، وتتذكر ضعفها أمام المصري وكتابه، وصمتها أمام جانولكا وحججه؛ فتقول لنفسها: لكني أحمل يقينًا هو أفضل من شك مريع، ثم تعود لنفسها: لماذا أنا أسعد الآن؟!

بعدما وصلوا إلى البيت، وترتبت وانتظمت أغراضهم وأنفسهم، فتح جورج بريده الإلكتروني؛ لينظر هل وصلت ردود أصحابه أم لا؟ فوجد ردودهم جميعًا، فنسخها وأعاد إرسالها إليهم جميعًا كما كان يفعل في المرات الأخيرة.

ليفي: نعم، رغم كرهي للمسلمين الذين قتلوا أبي، لكن من أجل معرفة الشر الذي يسكنهم وكيفيّة السلامة منه.

حبيب: نعم، فهو دين سماوي، ومع ذلك معلوماتنا عنه قليلة جدًّا.

توم: نعم، ربما أجد فيه ما لم أجده في غيره.

آدم: قطعا نعم، الموضوعية تقتضي أن نبحث ونتعرف على كل الأديان السماوية.

جانولكا: نعم، فأنا أحب أن أتعلم وأتعرف على كل شيء.

لم يجد من بينها إجابة كاترينا، فهي لم تفتح بريدها مذ سافروا إلى روما.. فكتب جورج الحلقة

الخامسة وأرسلها إليهم جميعًا..

«الحلقة الخامسة: لقد فاجأني أن إجاباتكم كلها نعم، وإن اختلفت الأسباب، ولذا فسؤال اليوم هو: أود أن يقارن باختصار كل شخص بين كتب الأديان السماوية الثلاثة (العهد القديم ـ العهد الجديد ـ القرآن)

جورج ـ لندن»

مرت دقائق معدودة بعد إرساله الرسالة، فإذا بهاتفه يرنّ، كان المتصل توم، وكان صوته ينبئ عن توتّر وقلق..

- ما الأمر؟
- لا شيء، فقط أحببت أن أطمئن على وصولكم، وأود أن ألقاك، فمتى يمكن أن نلتقي؟
- وصلنا قبل ٤٥ دقيقة، والوقت متأخر، هل يناسبك غدًا صباحًا، وإلا فتعال الآن؟
- آسف لم أنتبه للوقت، أعتذر إليك، لم أنتبه للوقت، وسآتيك غدًا الساعة العاشرة صباحًا في منزلك.
- أنتظرك، ولن يكون إلا الخير بإذن الرب.
- شكرا لك جورج، وأكرر اعتذاري.

أرّق جورج اتصال توم وأقلقه، وعلى الفور تذكّر رسالة توم واختراق حسابه في الفيس بوك ومشكلته مع براد، ففتح حاسوبه مرة أخرى، وفتح على صفحة توم في الفيس بوك، وكانت المفاجأة.. وجد صور لكاترينا بملابس فاضحة مع توم! حاول أن يدقق فيهما فإذا البراءة المرتسمة على وجهها واضحة في الصور، كانت الصور صدمة قاسية عليه، صدمة أنسته سعادة رحلة روما ومتعتها، فقال لنفسه:

- يبدو أن كل شيء خداع وتزييف حتى البراءة!

فكر أن يعيد الاتصال بتوم، لكنه آثر أن ينتظر إلى الغد الساعة العاشرة ليرى ماذا يكون.. حاول النوم فلم يستطع، فخيال كاترينا مع توم لا يفارقه أبدًا، لا يدري كيف صدّق الكذبة التي اتفق عليها توم مع كاترينا؟ تبًّا للحياة.. وتبًّا للقيم الفاضلة التي يدعيها الناس وهم كاذبون فيها.. وما أطول الوقت الذي لا يريد أن يتحرك! حتى الوقت يحسن التزييف والتمثيل، فيظهر الوقت نفسه طويلًا تارة، ويظهر نفسه قصيرًا تارة أخرى، مع أنه في الحالين واحد.

استيقظت كاترينا الساعة التاسعة صباحًا، فتظاهر جورج بالنوم.. اقتربت منه وقبّلته وهمست:

- حبيبي أنا ذاهبة لشراء بعض أغراض المنزل، أستأذنك، سأخرج لشراء بعض أغراض المنزل.

فور خروج كاترينا قام جورج من على الفراش ينتظر توم الذي قدم بالضبط في الساعة العاشرة، فاستقبله جورج متجهمًا..

– آسف لإزعاجك، المسألة بسيطة جدًّا، لكنها مقلقة جدًّا.

– قل ما عندك.

– لقد بدأت المعركة مع براد بشراسة.

– ألم تكن تتوقع ذلك؟

– بلى، ولكنها حرب قذرة.

– وهل تتوقع من براد غير ذلك؟

– لا، دعني أكمل لو سمحت، لقد ساومني أن أكون متعاونًا معهم في عصابة بيع المخدرات أو الفضيحة، فرفضت التعاون، هددني وكرر تهديده فرفضت، وفوجئت قبل عدة أيام أن حسابي على الفيس بوك لا يفتح؛ فقلت لعله خلل فني في الموقع، ثم فوجت ببعض صوري السابقة غير الأخلاقية تظهر على حسابي.

– وهذا متوقع ١٠٠٪، أليس كذلك؟

– دعني أكمل لو سمحت، وبعد أن بدأ يظهر صوري كرر طلبه لي بالتعاون، فكررت رفضي، وهنا بدأ في عمل أقذر من السابق، لقد بدأ بتلفيق صور لي غير حقيقية، وإنزالها على الموقع.

– ثم ماذا تريد مني..؟

– لا أعلم ما أقول، لكنه ركب صور كاترينا ونحن في الكنيسة على صور عارية معي.

– تريد أن تقول أن صور الخيانة التي على صفحتك في الفيس بوك ليست حقيقية؟

– هي بالفعل ليست حقيقية.

– أظن التي تتكلم عنها زوجتي وأنا متأكد أنها صورها.

– نعم هي صورتها، ولكنها صورة مركبة وليست حقيقية.

– يكفي يا توم.. يكفيك تلاعبًا بي!

– دقق في الصور، وسيتضح لك التركيب.

– اخرج من بيتي.. اخرج!

– لا تظلمني وتظلم كاترينا يا جورج.

– اخرج.. اخرج.

ارتمى جورج على مقعد في الصالة لا يعرف ماذا يفعل، كان في حالة عصبية شديدة.. دق جرس هاتفه فنظر في الرقم فإذا هو آدم، فتمتم: يبدو أن الجميع يمثل علي، وأنا الوحيد الأبله في المسرحية.. ماذا يريد هذا الآن؟!

- ألو نعم يا آدم!
- مرحبًا اشتقنا إليك.
- ماذا تريد؟
- لا شيء، فقط أحببت أن أسلم عليك!
- شكرًا لك، مع السلامة.

وضع جورج الهاتف وهو يفكر ماذا سيقول لكاترينا التي يتوقع أن تصل خلال دقائق، لقد شعر بالإهانة، إهانة الخيانة، وإهانة الاستغفال والاستغلال.. تماسك قليلًا حينما رأى كاترينا تدخل مبتسمة..

- لا يوجد إفطار جاهز في الفندق مثل روما، هل أفطرت أم تريد أن أجهز لك شيئًا؟
- لا أريد شيئًا.
- تشرب إذن كوبا من الحليب أو من الشاي؟
- شكرًا.
- شاركني ولو بشيء يسير.
- قلت لك لا أريد شيئا ألا تفهمين؟
- جورج ماذا هناك؟
- لقد تكشفت الأقنعة يا كاترينا.
- أي أقنعة؟

فتح صفحة توم أمامها.. ومضى غاضبًا إلى غرفة النوم وهو يزمجر..

- انظري، أيتها التقية العابدة، أنت وحش صغير، ولو ترهبنت لأصبحت وحشًا كبيرًا كقساوسة ورهبان الكنائس، انظري..

شاهدت كاترينا الصور، ولحقت بجورج وهي تبكي..

- توم رجل كذاب وقح، هذه ليست أنا.
- هل تريد الممثلة البارعة أن تكمل المسرحية؟ لتناما غدًا سويًا...
- صدقني ليس أنا من يفعل هذا، هذه وقاحة وكذب من توم، ألم تقل لي مرارًا أنه رجل غير أخلاقي وملحد؟

- ألست أنت من ألح عليّ بالذهاب إليه تحديدا؟ ألست أنت من علمتهِ الدين؟ ألست أنت من تقولين أنه تغير!

- لم أتوقع أن تشك فيَّ أبدًا..

انهارت كاترينا تنتحب.. ثمّ تحاملت على نفسها، وقامت إلى الجهاز مرة أخرى، وأخذت تنظر في الصور، وهي تسبّ وتلعن توم، وأثناء ذلك وقعت عينها على صورة واضح فيها التركيب، فحملت الجهاز إلى جورج مسرعة..

- انظر، الصورة مركبة بل واضحة التركيب هل هذا الصدر يصلح على هذا الرأس؟!

- نفس كلام توم، صورة مركبة، هو فصل جديد من المسرحية؟

- انظر جيدا.

- ربما، لكني لا أحب أن أكون أبلهًا مرة أخرى، وأصدق تمثيلكما عليّ!

- كيف يقول توم أنها مركبة وهو الذي وضعها؟!

- جاء توم قبل قليل وقال إن براد سرق حسابه، وأنه هو الذي ركب هذه الصور انتقامًا منه.

- براد! ولماذا ينتقم منه؟

- تكملة سيناريو المسرحية، أنه رفض أن يتعاون معهم في بيع المخدرات.

- لم أعد أفهم ما تقوله، لكني متأكدة من أن الصور مركبة، بل واضحة التركيب.

- يمكن أن تكون مركبة ويمكن أن تكون حقيقية، ألم يرسل لك توم أن حسابه على الفيس بوك سرق؟! أم أننا بدأنا فصلًا جديدًا في المسرحية؟!

- لم أر بريدي منذ سفرنا لروما، أعطني الجهاز أفتحه لعلي أفهم.

فتحت كاترينا حسابها؛ فوجدت رسالتين من توم.. الرسالة الأولى يخبرها بأنّ حسابه قد سرق، بينما كانت الرسالة الثانية تحوي صورًا فاضحة، نفس صور توم التي على الفيس بوك، ومكتوب معها «هذا دليل البراءة والصدق»، دققت النظر فإذا الشخص الذي بجوار توم هو جورج وليس هي..!

- بل أنت الذي تخونني، انظر في الصور.

- أخونك مع من؟!

- مع توم، أليس هذا شذوذًا يا بروتستانتي؟!

نظر جورج في الصور ودقق فيها، كان واضحًا أنها نفس الصور وأنها مركبة.. أطرق جورج لفترة، ثم رفع رأسه متنهدًا مضطربًا..

- لقد طردت توم من المنزل.

- تشك فيّ يا جورج؟!
- وقطعت مكالمة آدم ظنًا مني أنه يريد أن يكمل التمثيلية بالاتفاق مع توم!
- لماذا كل هذا يا جورج؟!
- نصحني أكثر من مرة آدم بألا آخذ قرارا في فترة غضب أو ضعف، لا أدري ماذا أفعل الآن؟! أعتذر إليك كاترينا، لقد أخطأت في حقك.
- فقط اعتذار بعد كل هذا!!
- وماذا تريدينني أن أفعل؟
- لا أدري، لكن الاعتذار يكون بحجم الخطأ.
- أرجوك سامحيني، وسأنظر ماذا يمكنني أن أفعل مع توم وآدم.
- رغم أنك جرحتني جرحا عميقًا لم أتوقعه منك، لكني سامحتك بشرط أن تأخذ بوصية آدم التي ذكرتها.
- شكرا كاترينا، أنت طيبة القلب جدًّا، لا أعرف كيف أشكرك وأنسيكِ خطئي الكبير في حقك.. ثم قام وعانقها، ثم قال: سأتدبر أمري مع توم وآدم، فهل تسمحين لي أن أجلس لوحدي قليلًا؟
- تفضل، رغم جرحي لكني أدعو الرب أن يمدك بعونه.

جلس جورج أمام الحاسب الآلي، وفتح بريده الإلكتروني، وكتب الرسالة التالية:

«عزيزي توم

بعد ما حدث منك ومني وبلا مقدمات، أنا أخطأت في حقك وأعتذر.. أنت أتيت إلى منزلي واعتذرت، وكنت تتوقع مني العفو، عاملني بالمثل.. ولو أردت أن آتي إلى عيادتك وتطردني فأنا مستعد.. أكرر اعتذاري

جورج».

بعدها اتصل مباشرة بآدم، ليعتذر له..

- آدم لقد أحضرت لك الحقيبة الفخمة جدًّا والرخيصة جدًّا.
- وهل وجدتها؟ وبهذه المواصفات؟
- نعم، فمتى تزورني وتأخذها؟
- ههههه.. الوقت الذي يناسبك حتى لا تكلمني كما كلمتني اليوم.
- أي وقت يناسبك، واعذرني فقد كنت في حالة ضعف وتوتر، لعلّي أخبرك بها عندما ألتقيك.
- زرني في المقهى؛ فمن فترة طويلة لم تزرني فيه.

- حسنًا.. سأزورك اليوم أو غدًا.

أنهى المكالمة، وعاد يتفقد بريده منتظرًا رسالة من توم.. فوجد نفس الرسالة التي أرسلها توم لكاترينا قد أرسلها له، وبينما هو يتفحصها، جاءته رسالة ردًا منه على رسالته:

«اسمع ونفذ تعليماتي؛ لعلي أعفو عنك:

تأتيني غدًا في العيادة الساعة الواحدة مساءً، وأنا أقرر أطردك بعد ذلك أم لا.

لا تكرر هذه التصرفات الرعناء.

أكد التزامك بالتعليمات في رسالة مباشرة بمجرد قراءتك لها.

د. توم»

فردّ عليه..

«عزيزي توم أنا موافق حتى لو طردتني فأنا أخطأت.

جورج».

ما إن بعث ردّه على الرسالة، حتى اتصل به توم..

- مرحبًا.
- مرحبًا، أكرر اعتذاري لكني كنت غاضبًا.
- لا بأس، ولكني نسيت شرطًا لم أذكره، ويجب أن توافق عليه..
- ما هو؟
- ههههه.. جورج انتهى كل شيء، كنت فقط أمثل عليك، وموعدنا غدًا في جلسة مهمة جدًّا.
- شكرا لك توم.
- فإن تأخرت فـــ... ههههه، أنا في انتظارك.
- سآتي في موعدي لتطردني.. وأكرر اعتذاري.

(٢)

في نهاية اتصال جورج بتوم، تذكر جورج موعده مع آدم..

- سأذهب الآن لزيارة آدم في المقهى.
- آدم رجل عاقل حكيم، ولو لم يكن عندي مشاغل لذهبت معك.
- فعلًا، ولا أدري ماذا يستفيد من مصاحبتي؟!
- الصداقة معنى لا يحتاج إلى تبادل فوائد بالمعنى المادي.
- ربما نتناول وجبة الغداء معًا، فهذه الفائدة الوحيدة التي يكسبها مني، فهو يعيش وحيدا.

وصل جورج للمقهى؛ فاستقبله آدم مرحبًّا، وأخبره بأنّ دوامه سينتهي بعد نصف ساعة، ويمكنه أن يشرب قهوته في هذا الوقت. وبعدما أنهى آدم فترة دوامه توجه إلى جورج، وقررا أن يتناولا غداءهما في مطعم السعادة.

- أمامنا ساعة واحدة للذهاب والعودة وتناول الوجبة، اتفقنا.. الآن أخبرني كيف كانت معقل الكاثوليكية ومركزها؟
- ألن تغضب لو قلت لك؟
- يبدو أنك أصبحت حساسًا جدًّا، وما يغضبني يا جورج؟!
- لا يمكن أن أصدق العهد القديم أو أعتقد به؛ ولذا لا تناسبني لا اليهودية ولا الكاثوليكية والبروتستانتية ولا الإسلام.
- أولًا: لماذا هذه الحملة على التوراة؟ هل ذلك بسبب الفقرة التي أرسلت لنا؟
- هذه واحدة، ولدي مثلها مائة سبب لأعتقد أنها محرفة.
- والعهد الجديد؟!
- مثلها، وإن كان أحسن حالًا.
- والقرآن؟!
- بما أنه يؤمن بالعهد القديم والجديد فهو مثلهما.
- أتمنى ألا تتسرع في إصدار الأحكام.
- رغم كل هذا، هناك بقايا إحساس لدي بأني سأجد الإجابة على تساؤلاتي.
- قطعًا ستجد الإجابة.
- المشكلة أنه إن لم يصح أيّ دين؛ فمعنى ذلك أن الحل في الإلحاد!
- لم ولن يصبح الإلحاد طريقًا للسعادة وإجابة لتساؤلات الحياة.
- إذن ما هو الطريق؟
- استمر في بحثك وستجده.
- ههه، ربما كان الإسلام أو دين الإرهاب!
- عندما سألتنا عمن يريد أن يتعرف على الإسلام كانت الإجابات التي أرسلت لنا رغم اختلاف الأديان نعم، فلماذا لا تريد أنت أن تتعرف على الإسلام؟!
- أنا أكثركم حرصًا على التعرف على الإسلام؛ لأسباب كثيرة أكثر مما ذكرتموه، يكفي منها أنه إن كان لا يصلح فلن يصلح أي دين.
- لا أرى أن تدرس أي دين بهذه الطريقة!

- وصلنا لمطعم السعادة فليتنا نصل لطريق السعادة، نكمل في الداخل.

اختارا طاولة مناسبة، وما لبث النادل أن كتب ما طلباه للغداء.. ومضى، وعندها نظر آدم إلى جورج بحزم..

- سأكمل ما كنت أقوله إذا سمحت، لما تجهزت للسفر إلى روما، وأخذت في القراءة عن المسيحية ماذا قلت لك؟

- قلت: تعامل بانفتاح ولا تضع أحكامًا مسبقة.

- وأنا أقول لك ذلك الآن، ولا أود أن تدرس الإسلام بغير هذه الطريقة.

- بدأت وأنا في الطائرة أفكر في الكتب التي سأقرأها للتعريف بالإسلام.

- تريد نصيحتي؟! ابدأ بقراءة القرآن قبل أي كتاب آخر.

- ولماذا لم أبدأ في اليهودية والمسيحية بكتابهم المنزل أولًا؟

- لأن اليهودية لا تدعوك لقراءة العهد القديم، بل يخفون منه ـ قصدًا ـ بعض النصوص، والمسيحية لا تدعوك لقراءة العهد الجديد مباشرة، بل يجب أن تفهمه كما يفهمه الحاخامات والقساوسة.

- والقرآن؟!

- ألم أقل لك إنك لا تفهم الإسلام، الإسلام جعل القرآن هو الأصل في التعليم والبشارة والنذارة والتبليغ للمسلم وغير المسلم.

- آدم تبدو عالمًا بالإسلام، هل درسته في دراستك للأديان؟

- نعم.

- بصراحة ما رأيك به؟

- مثلك لا يُملي عليه أحد رأيًا، اقرأ القرآن واتخذ قرارك بنفسك.

- بصراحة ما دينك؟ ظننتك في البداية يهوديًّا ثم كاثوليكيًّا والآن تبدو مسلمًا!

- أليس من الممكن أيضًا أن أكون بوذيًّا أو هندوسيًّا عندما قلت لك تعرف على البوذية والهندوسية، أود أن أؤكد لك أنه ما لم يكن لدى الإنسان انفتاح عقلي، وخروج من الصندوق المسيطر على رأسه؛ فلن يتطور أبدًا، كما أود أن أخبرك بديني ومذهبي بعد أن تتعرف على كل ما تريد في طريق السعادة، فربما كان هذا الطريق بديلًا للأديان كلها.

- لم يخطر في ذهني أن يوجد بديل للأديان أبدًا!

- اقرأ القرآن، ثم اقرأ ما كُتب عن الإسلام ونبيه، ثم حاول أن تقيم مقارنات بين الأديان كلها، القدرة على الربط بين الموضوعات والمعلومات التي لديك قضية مهمة جدا للنجاح.

- كيف أربط بين الموضوعات؟

- حتى لا تفقد البوصلة التي تسير عليها، تذكر ما كرهته في البوذية أو الهندوسية، وتأكد أنه غير موجود في اليهودية، ثم غير موجود في المسيحية، والآن غير موجود في الإسلام، وما أحببته في البوذية مثلًا تأكد من وجوده في اليهودية والمسيحية والإسلام، وبذلك تربط بين الموضوعات.

- تعجبني النظرة الكلية المتكاملة بين ما أريد وما لا أريد.

- وانظر في التشابه الذي بين الأديان وفي الفروق أيضًا.

- للأسف إني أرى التشابه بينها أكثر مما أرى الفروق!

- الربط يزيد العقل والتفكير، وتأكد من أنك تربط في القضايا الكلية، وليس فقط في الأشياء الجزئية.

- لأني أرى التشابه؛ فأنا أرى أن كلهم يؤمنون بالعهد القديم، وأعتقد أن من يؤمن به مجنون حقيقة.

- لكن المسيحيين يؤمنون أن العهد الجديد جاء ليكمل العهد القديم ويؤمنون به؛ بينما لا يؤمن به اليهود، والمسلمون كما يؤمنون بهما يؤمنون أيضا أنهما محرفان، وأن هذا الموجود الآن ليس من عند الله، ويؤمنون بالقرآن، ويرون أنه ناسخ لما قبله، ألم تلاحظ أنها فروق كبيرة؟

- نعم.. كبيرة جدًّا، طبيعتي أنظر في التشابه أكثر مما أنظر في الاختلاف، ولا أربط الموضوعات كثيرًا.

- رائع، معرفة المشكلة هو الحل، إذن قد توصلت لحل الموضوع، وستنظر بتكامل، إن كنت قد انتهيت من الأكل فيجب أن أتحرك حتى لا أتأخر عن العمل.

- نعم انتهيت، هيا بنا، وحتى لا أنسى؛ فحقيبتك الفخمة جدًّا والرخيصة جدًّا في السيارة.

- رغم أنك ضحكت عليّ فإنك أحضرتها طبقًا للمواصفات.

- صدفة كان هناك محل يقوم بالتصفية لبعض الحقائب، وكانت آخر حقيبة بهذه الفخامة.

- الصدفة تبين عجز البشر أن يعرفوا ما يمكن أن يقدره الله، للأسف إننا كثيرًا ما نستخدم كلمة «صدفة» عندما لا نعرف كيف حدث الشيء، وهذا يعني أننا نرى أنا عالمون بكل الكون، وعندما يأتي شيء لا نعلمه نقول «صدفة»، وكأن عدم علمنا يعني عدم وجود علم، وهو بلا شك نوع من الإعجاب والغرور المذموم.. أو ربما نوع من التأثر بالإلحاد من غير أن ننتبه لذلك.

- أتعبتني بفلسفتك وبدقتك في المصطلحات، ههههه، قدر الله أني جئت وباقي حقيبة واحدة، هل نجحت في الاختبار؟
- ههههه، بشرط أن تكون الحقيبة فخمة جدًّا ورخيصة جدًّا.
- إذن نجحت، هذه هي الحقيبة، تفضل.
- رائعة، لقد اجتزت الاختبار، وهذا يعني أنه يمكن أحيانًا ألا نعي الحقيقة بأذهاننا المجردة.
- لكن لا يمكن أن تكون الحقيقة مخالفة للعقل، إذ لا يمكن أن تكون الحقيقة الواقعية مخالفة للحقيقة العقلية، وإلا كان أحدهما ليس بحقيقة.
- صدقت، فارق دقيق، من إذن الفيلسوف؟!
- اليوم أخطأت في حق توم وطردته من البيت، واعتذرت له وصفح عني، وبالمناسبة غدًا جلستي معه.
- طردته من البيت واعتذرت له فصفح عنك! خلق راق،لم أكن أتوقع من توم أن يصل لهذا المستوى بهذه السرعة!
- ماذا تعني؟
- توم كما ذكرت لي يتحسن، وفي الغالب إنه لا يصعد شخص من الحضيض إلى أخلاق القمة بسرعة.
- ألم تلتق مع توم بعد أن تعرفتما في المستشفى؟
- بلى، أكثر من مرة.
- أكثر من مرة؟!
- نعم، في الحقيقة ارتحت له، ويبدو أنه ارتاح لي أيضًا.
- وما تقييمك له؟
- ذكي، عاقل، يمر بفترة تحول كبيرة.
- يتحول من ماذا إلى ماذا؟
- يتحول مما كان عليه إلى وضع أفضل.
- وما هو الوضع الأفضل؟
- قد يكون طريق السعادة الذي تبحث عنه.
- ويجده.. ولم أجده أنا؟!
- ألست في فترة تحول كبيرة مثله؟ كأنك تغار منه ولا تريده أن يجده!
- المهم ماذا سيكون الأمر عليه في الجلسة؟

- كالعادة.
- ما العادة؟
- أنت أعرف بها مني.
- العادة أن يسألني عما سبق من قراءات ومناقشات، ونبدأ في المرحلة الجديدة.
- إذن هذا المتوقع.
- هل تتوقع أن أتناقش معه في النصرانية المحرفة؟ أو أن أدرس الإسلام المتخلف؟
- نعم أتوقع هذا وذاك.
- ولكي أكمل بنفس الطريقة وبالعدل كما فعلت في الديانات الأرضية واليهودية والنصرانية أسافر إلى جبال تورا بورا، أما زلت بعقلك يا آدم؟
- ههههه، نعم.. أظن أني ما زلت بعقلي، كما تفضلت مقتضى العدل أن تسافر كما سافرت للديانات الأخرى.. هههههه، لكن ليس بالضرورة إلى تورا بورا.
- لست مسلمًا لأسافر إلى مكة، إلا في حالة أن أدّعي الإسلام، ثم أسافر إلى مكة.
- هل تتخيل أن تصل إلى طريق السعادة بالكذب؟!
- وماذا أفعل إذا كان الإسلام معقدًا؟ لقد ذهبت إلى روما وأنا لست كاثوليكيًّا، بل يمكنك الدخول للفاتيكان حتى لو كنت ملحدًا.
- أفهم ما تعنيه، فهل يمكن لشخص من مكة أن يدخل بريطانيا ما لم يستوف شروط الدخول؟
- فهمت ما تعنيه، لكن الأمر مختلف.
- ليس هناك اختلاف، فإذا لم تستوف الشروط لا يمكن أن تدخل أي مكان في الدنيا، هل بإمكان فقير لا يمتلك شيئا أن يدخل مطعم السعادة ويأكل كما أكلنا؟
- صحيح.. لكن ربما ليس لدي شروط أن أكون مسلمًا.
- ربما، ومن يدري.
- أنت اليوم غريب جدًّا، وقد اقتربنا من المقهى، لكن لي لقاء معك قريبًا.
- ههههه، بكل سرور وحبور أنتظر اتصالك.. أو نتقابل في تورا بورا.

(٣)

وصل جورج لتوم في موعده فوجد باب العيادة مغلقًا، فطرق الباب ففتح له توم مرحّبًا..

- تفضل.. آسف العيادة مغلقة حتى تنتهي زوبعة براد ومشاكله، فهو لا يزال يثير علي كل الأطراف الشخصية والمهنية والنظامية.

- وماذا ستصنع؟

- لا أدري، لكنها ستحل على كل حال.

- ولماذا لا تفاوضه؟

- أفاوضه! على ماذا؟

- لا أدري، المهم أن تكف شره وأذاه.

- شره وأذاه خير مما يدعوني إليه، العجيب أني رغم أذيته الشديد، إلا إنني أسعد مما كنت رغم خدماته الكبيرة!

- الحياة مليئة بالمفارقات والعجائب، راهب يعمل الفاحشة، ونبي يتعرى، وإله يقتل، ومع ذلك يجب ألا نعترض أو ننتقد!

- دعنا ندخل في موضوعنا إذن، كيف رأيت الكنيسة الكاثوليكية بصراحة؟

- بصراحة رأيتها على حال لا يمكن أن يصدقها عقل!

- ربما هذا لأنك بروتستانتي!

- والكنيسة البروتستانتية تشبهها كثيرا، أعتقد أن المشكلة ليست في هذا أو ذاك، المشكلة...

- المشكلة في ماذا؟

- بصراحة المشكلة في الوثنية.

- الوثنية؟!

- كم أرهقني التفكير في هذا، لكن هذه الحقيقة، وثنية البابوية، وثنية التثليث، وثنية الأصنام، وثنية...

- ربما تقصد أن المشكلة في الكنيسة؟!

- لا، المشكلة الحقيقية في الكتاب المقدس نفسه، سواءً العهد القديم أو الجديد، ولحل هذه المعضلة رأت الكنيسة الكاثوليكية ألا يقرأ الكتاب المقدس إلا رهبانهم، وهم الذين يوضحونه، ورأت الكنيسة البروتستانتية أن تقرأه وتتفلت منه كما تشاء.

- تحليل دقيق، لكن ما سبب ذلك من وجهة نظرك؟

– السبب أن الذي كتب الكتاب المقدس عدّل فيه، ثم اجتمع القساوسة والرهبان وعدّلوا، ثم عُدِّل وعُدِّل، ولم يعد هذا الكتاب المتناقض والذي يخالف الحقيقة العقلية من عند الله.

– ولماذا لم يكتب من أيام المسيح؟

– لأن المسيحيين كانوا مضطهدين ملاحقين؛ ولذا لم يكتب إلا بعد وفاته بمدة طويلة وعلى يد أشخاص غير معروفين تاريخيًّا ومختلف فيهم، وبلغة أخرى غير لغة المسيح عليه السلام، المهم أنها معضلة لا يمكن الخروج منها أبدًا، ولذا كثرت التناقضات فيها وبين نسخها؛ بل وفي النسخة الواحدة، والتناقضات مع العقل والمنطق والواقع والعلم..

– يكفي هذا، يبدو أنك متحامل على الكتاب المقدس!

– لست متحاملًا أبدا، لكن صدقني حاولت أن أطيع الكتاب المقدس وأسلم له وما استطعت!

– وضح لي كيف؟

– سأعطيك مثالين، الأول: لأؤمن بكل ما ورد في الكتاب المقدس أنا مضطر أن ألغي عقلي، فإن ألغيت عقلي لم أفهم معناه أصلًا.

– فلسفة جميلة وعملية.. عقلية رائعة.

– ثانيًا: لو قررت أن أفهم وأسلم وألغي عقلي؛ فالكتاب المقدس يقول لي إنه ليس لي!

– كيف ليس لك؟! وضح.

– أليس في الكتاب المقدس قول اليسوع: (لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ)، وأنا لست من بني إسرائيل، إذن هو لم يرسل لي أصلًا.

– إذن أنت لست مسيحيًّا؟!

– ربما، صدقني لا أدري.. أخشى أني أصبحت ملحدا بسببك!

– كانت هذه خطتي لتصبح ملحدًا، وأخشى أنها تكون قد نجحت، ولكني قطعًا تغيرت عما كنت عليه، وأكرر لك بحكم أني أَعْرَفُ منك على الأقل بالإلحاد، فلا يوجد إلحاد حقيقي؛ إنما هو ادعاء للهروب من مثل هذه القضايا، فبإمكانك أن تهرب بالإلحاد، أو بالخمر، أو بالجنس، أو بأي شيء آخر، لتعيش أسوأ وأنكد حياة، فهو هروب من حقيقة أكثر من كونه حقيقة داخلية.

– نعم يبدو أن خطتك نجحت للأسف، أخشى أن أفقد الأمل في الوصول إلى طريق السعادة.

– ربما نكون لجهلنا تجاوزنا شيئا لم نمحصه أو لم نفهمه، على كل حال اتفقنا ألا نتخذ قرارًا حتى ننتهي.

– ماذا تعني بقولك: لجهلنا تجاوزنا شيئًا دون فهم؟! هذا هو نفس منطق الكاثوليك.

– صحيح إلى حد ما، لكن ألا يمكن للعقل والمنطق أن يتقبل فكرة أننا أخطأنا، أو أننا عرضة

للخطأ على الأقل؟

- بلى، العقل يقبل ذلك، بل خلافه هو غير المقبول، واعتبار أنك دائمًا على صواب هو لذي خلاف العقل.

- ههه، جيد.. إذن الكاثوليكية تتناسب مع العقل.. المهم أننا اتفقنا ألا نتخذ القرار حتى ننتهي.

- أرجو ألا تكون هذه مقدمة كالعادة؛ لتقول لي نبدأ بدراسة الإسلام.

- قطعًا.. سأقول لك ذلك، بل أنا قد بدأت بدراسة الإسلام، وأجاهد نفسي أن أدرسه بانفتاح، ألم أقل لك أني أصبحت أبحث معك عن طريق السعادة؟

ضرب جورج بيده على يده الأخرى:

- يبدو أننا بدأنا طريقا لا نهاية له.

- لقد بدأت بالأمس في قراءة القرآن، كتاب المسلمين المقدس.

- ههه، حتى أنا حاول آدم أن يقنعني أن أقرأه، ولم أرد عليه، لكني أشعر بأني أضيع وقتي.

- آدم هو الذي أعطاني نسخة منه مترجمة إلى اللغة الإنجليزية.. فهو يتوقع أني عندما أقراها ربما أدخل في الإسلام.

- يريدك أن تدخل في الإسلام! وما مصلحته في ذلك؟

- كل الناس يدعون إلى ديانتهم وأفكارهم.

- لم أفهم! ماذا تعني؟

- ما الشيء الذي لم تفهمه، آدم يريدني أن أدخل في دينه، ما الشيء غير الواضح؟

- آدم مسلم!!!

- نعم، واضح من شكله فهو عربي، ألا تعرف ذلك؟

- نعم، لم أكن أعرف، فاسمه غير عربي، وكان يغلب على ظني أنه كاثوليكي من أصول هندية، أخشى أن يكون آدم يتلاعب بي.

- أما اسمه فاسم أبو البشر جميعًا، وموجود عندنا وعند العرب، وأما أنه يتلاعب بك فلا أظن، إلا إذا كان قد كذب عليك، فهل سألته وكذب؟

- سألته ولم يجبني أكثر من مرة، المهم هل كان يوجهني لأصِل إلى الإسلام؟ لا أحب أن أكون مغفلًا.

- هل إذا دعاك لدينه تصبح مغفلًا؟!

- لا، ولكني أخشى..

- لا يوجد شيء لتخشاه، إلا إذا كنت تخشى أن تدخل في الإسلام؟!

- نعم أخشى أن أساق إلى شيء بدون علم أو عقل.
- وهل أنت ضعيف لدرجة أن يسوقك آدم، ولم يستطع القساوسة ولا غيرهم أن يسوقوك ويقنعوك؟! أم أن آدم قوي إلى درجة كبيرة تجعلك خائفا منه؟
أشار جورج بيده:
- لا هذا ولا ذاك، لماذا تكلمني هكذا؟!
- لأنك تحولت من أسد على كل الأديان إلى أرنب خائف من الإسلام.
- لست خائفًا، وسأدرس الإسلام.. وبمناسبة حديثك عن تحولي، فإن آدم يكتب عن تحولاتك.
- تحولاتي؟! أنا لا زلت لم أنته من براد، فماذا يكتب هذا هو الآخر؟
- ادخل صفحته على الفيس بوك واقرأ ما كتب.
- سأرجع إليه، لكن دعنا من هذا، المهم ستدرس الإسلام بعقلية منفتحة كما درست الأديان التي قبله؟
- نعم، اتفقنا.
- وستنقده كما نقدت ما قبله؟
- نعم، بل أشد.
- لا، هذا ليس الانفتاح الذي نتحدث عنه، فمعنى قولك أشد انتقادًا؛ أي أكثر تحاملًا وانغلاقًا، تعامل معه بانفتاح كما تعاملت بالمثل مع الأديان الأرضية أو اليهودية أو المسيحية.
- ههعه، هل تريدني إذن أسلم ولا أنتقد؟!
- بل أريدك أن تكون منفتحًا، حريصًا على العلم، ثم انقده بأريحية كما انتقدت اليهودية أو المسيحية أو البوذية.
- لكنني نقدت ما ذكرت بقوة وكشفت زيفها بالنسبة لي على الأقل.
- واكشف زيف الإسلام كما كشفت زيفها أيضا، وإن كنت أستحسن أن نتعلم، ونترك القرار بعد ذلك، فقد يتضح لنا شيئًا لم يكن في أذهاننا.
- وبعد كشف زيف الإسلام وتناقضاته، ماذا سنصبح؟ هل سنعود للإلحاد؟
- لا أدري؟! كل ما أعرفه أنه قد يبدو لنا شيئًا غير متوقع كما قلت لك سابقًا.
- بما إنك قد بدأت بقراءة القرآن، فكيف وجدته؟
- بدأت بالأمس، ولم أقرأ إلا شيئًا يسيرًا جدًّا، ولكنه ممتع.
- ههه، يبدو أني بدأت أوسوس، وأخشى أن تكون أنت أيضا مسلمًا.
- لا.. اطمئن أنا لست مسلمًا.

- إذن أنت ماذا؟
- أنا مثلك، لا أدري، أشعر بأني أتقلب بسرعة.
- نفس كلام آدم عنك، أنك تتحول.
- ربما كان كلامه حقًّا، سأقرأ ما كتب عني اليوم، ولكن ما اسمه الكامل حتى أجده على الفيس بوك؟
- لديك بريده ستجده في رسائلي، يمكنك بذلك أن تجد صفحته.
- جيد، المهم أننا سندرس الإسلام بانفتاح.
- ههههه، وسنذهب إلى أفغانستان أو تورا بورا بانفتاح.
- لا أدري لماذا تتحدث وكأنك متأكد من أنك ستتحول للإسلام؟
- مجرد سخرية لا أكثر ولا أقل.
- بالمناسبة ألم تتشاجر مع كاترينا بخصوص رأيك في الكاثوليكية؟
- نعم، يبدو أنها استسلمت لي.
- لما ذهبت للكنيسة؟ كنت أشعر بصدق تعبدها وحبها لليسوع.
- نعم، نفس شعوري، لكن الصدمات التي جاءتها من الكاثوليكية وعقائدها كبيرة.. تخيل أنها ارتبكت كثيرًا عندما قابلنا مسلمًا في روما!! وارتبكت كذلك عندما عرفت أن القس الذي علمها الإيمان واليقين لا يعرف إجابة شكوكي!
- كم يعجبني تدينها!
- إذن تحول للكاثوليكية.
- وكم أكره التناقض ومخالفة العلم!
- ههههه، إذن تحول للإسلام؟! واذهب إلى جبال تورا بورا.
- صدقني لو اقتنعت بالإسلام وكان شرطه أن أذهب لتورا بورا لفعلت.
- أحب العزيمة القوية، لكني للأسف لا أرى نفقًا في نهاية الطريق.
- ولا أنا، لكني متأكد أنه سيظهر ولو فجأة، أما كيف؟ فلا تسألني، لكني واثق.
- لدي شعور وواثق مثلك.
- لم ترسل لنا تلخيصًا لإجاباتنا على رسالتك كالعادة؟

– صدقت..لم أر البريد في الأمس بسبب صورك، سأرسل اليوم، واليوم سأنتبه لإجابات آدم أنها إجابات مسلم.
– كان واضحًا من إجاباته السابقة.
– ربما، لكني لم أنتبه، عمومًا ربما لذلك كتب عني أني لا أربط المواضيع والأحداث والمناقشات والمعلومات.
– الربط مهم جدًّا.
– نفس كلام آدم، تبدو معجبًا به.
– لم أكن أعرف أن هذا رأيه، حقيقة لست معجبًا برأيه بقدر ما أنا معجب باتزانه الداخلي.
– اتفق معك في اتزانه الداخلي، وأنا معجب برأيه أيضا، بالمناسبة هل أزلت أجهزة التنصت التي وضعها لك براد؟
– نعم، كم أتمنى أن أنتهي من براد وموضوعه، فهو يربطني بعالمي القديم التعيس!
– ستنتهي منه قريبًا، هل تأذن لي بالانصراف؟
– نعم، فقد انتهينا من جلسة اليوم، وقد كانت في نظري من الجلسات المهمة الجيدة.
– إذن سنبدأ بالإسلام، وسأعود إلى عملي وسأقابل كاخ، كم أكرههما!
– ما هما اللذان تكرههما؟
– الإسلام وكاخ.
– عدنا للتحامل مرة أخرى.
– أوه.. لم أنتبه، ههههه، الصحيح أن أقول كاخ والإسلام.. أيّ شيء ينتظرنا يا ترى!

(٤)

فتح جورج بريده مساءً عندما وصل إلى المنزل.. فلقي ردود زملائه على رسالته التي طلب فيها المقارنة بين كتب الأديان الثلاثة:

ليفي: لم أقرأ القرآن، ولكني أظن أن الأديان الثلاثة متشابهة جدًّا.
حبيب: متشابهة من جهة أنها كلها من عند الله، لكن القرآن يختلف في ثبوت كتابته ونقله من جيل لآخر، ولكني لم أقرأه بتأنٍّ.
آدم: كلها من عند الله، وللأسف حرفت التوراة والإنجيل.
توم:لم أقرأ القرآن لأقارنه بالتوراة والإنجيل.

كاترينا: العهد القديم والجديد من عند الله، ولا أظن القرآن كذلك، وإن كنت لم أقرأه وربما أفعل ذلك.
جانولكا: بدأت بالأمس بقراءة القرآن لأول مرة، وأرى أنه مختلف عن التوراة والإنجيل، وإن كنت لا أعرف في ماذا.
ركّز جورج على إجابة آدم، وتنبّه لأسلوبه التي يستخدمه معه.. كلّ أصدقائه ذكروا صراحة أنهم لم يقرأوا القرآن، أو أنهم قرؤوه قراءة عابرة، إلا آدم هو الوحيد الذي لم يشر إلى ذلك. أعاد إرسال الإجابات إلى جميع أصدقائه، ثمّ كتب لهم الحلقة السادسة:
«الحلقة السادسة: مَن يستطيع منكم أن يقرأ القرآن، وأن يبحث في قضية محددة، وهي ثبوته أو عدمه، وتحريفه أو عدمه، وأنتظر نقدكم له خلال أسبوع من اليوم
جورج».
بعدما أرسل الرسالة مباشرة، اتصل على آدم..
– رغم أننا تقابلنا، لكنني اشتقت إليك وأود مقابلتك مرة أخرى، فهل يناسبك غدًا؟
– لا بأس، ولكن بعد الساعة الثامنة، فدوامي لا ينتهي غدًا إلا الساعة الثامنة، هههههه، ونتعشى معًا.
– مناسب، فأنا سأعود للدوام لأول مرة غدا؛ فمنذ قرابة الثلاثة أسابيع لم أر وجه كاخ.
– أنتظرك إذن، مع السلامة.
عادت كاترينا إلى المنزل، لتجد جورج شاردًا أمام شاشة الحاسوب، فقبلته، ثم ربتت على كتفه..
– حبيبي أعتذر عن التأخير، لكنّي ذهبت إلى مركز التسوق؛ لإحضار بعض الأغراض المهمة، فالمنزل خالٍ منذ عدنا من السفر.. يا لها من سفرة جميلة.
– نعم، رائعة جدًّا، وأروع ما فيها هو أنتِ.
– شكرا لك على هذه الكلمات الرقيقة، انتهت الرحلة سريعًا.
– كل الأشياء الجميلة تنتهي سريعًا، وتبقى اللحظات الكئيبة طويلة مملة، حتى الكتاب الممتع تنهيه في جلسة واحدة أحيانًا، والكتاب الممل تجلس معه أيام بل وأسابيع.. لذلك أنهيت الكتاب الذي أعطاك إياه خالد في جلسة واحدة.
– تعني كتاب «حبي العظيم لعيسى أدخلني الإسلام»؟! لم يكن ممتعًا بقدر ما كان مثيرًا جدًّا.
– ولذا تفكرين أن تقرأي القرآن، كما في رسالتك التي أرسلت؟
– بالفعل، ولقد اشتريت نسخة من القرآن بالأمس، من أجل أن أقرأها.
– ههههه.. أووووه، هذا تغير خطير يا كاترينا، كاترينا تقرأ القرآن! هل ستصبحين مسلمة؟

– سأقرأه؛ لنقده وبيان عيوبه وتناقضه.
– أرسلت لكم قبل قليل طلبًا بأن نقرأ جميعًا القرآن، عجيب هذا التوافق، أما أنا فسآخذ نسخة من آدم غدًا.
– ولماذا من آدم بالذات؟
– هو كتابهم المقدس.
– هل آدم مسلم؟! ألم تقل لي أنه كاثوليكي؟!
– كانت مفاجأة لي حقيقة لما عرفت أنه مسلم، وسأقابله غدًا من أجل هذه القضية بالذات.
– رغم ارتياحي لآدم لكنني لا أرتاح للمسلمين، ربما ارتحت له؛ لأني حسبته كاثوليكيًّا.
– وهل ما تقولين من العدل والمنطق في شيء؟ أليس المفترض أن نقيمه بغض النظر عن معتقده؟
– لا، من أهم معايير التقييم الدين، هل تريدني أن أعامل مؤمنًا كاثوليكيًّا مثل مسلما إرهابيا؟! ألسنا نعامل المثقف أفضل من غيره، ونعامل الخلوق أفضل من سيء الأدب والخلق؟ الخلق والثقافة والديانة هي معايير تقييم بلا شك.
– ممكن، لكن يصح ذلك لو كنت تعتقدين أن دينك لا شك في صحته، كما لا شك في صحة الخُلق الحسن والثقافة، فهل تعتقدين ذلك؟
– إلى حد ما، لكن هل الدين عندك أقل درجة من الخلق الحسن والثقافة العالية؟!.. ههههه يبدو لديك لوثة إلحادية يا جورج.
– ربما، لكن لماذا كنت خائفة على سالي ومايكل في الكنيسة؟ هل كانت لديك لوثة إلحادية أيضًا؟
– لم أكن خائفة من شيء، أنت تتخيل وتصدق نفسك، ثم من ماذا أخاف؟
– كنت أمزح معك فقط، فأنت لم تكوني قلقة عليهما في الكنيسة، ولم تكوني خائفة من الكتاب الذي أعطاك المسلم، المهم أين الكتاب لأني لم أقرأه؟
– أفهم تلميحاتك جيدًا، كل الناس يؤثر فيهم ما يسمعونه وما يقرؤونه وما يفكرون فيه.
– سأسلك سؤالًا وأود أن تجيبي بصراحة.
– تفضل..
– هل يمكن أن تتركي الكاثوليكية؟
– أترك الكاثوليكية؟! إلى ماذا؟
– إلى البروتستانتية أو اليهودية أو الإسلام أو أي دين.
– لو سألتني قبل شهر لقلت لك لا بكل ثقة.. أما الآن فللأسف؛ سأقول لك لا أيضًا، ولكن لا أدري لماذا إيماني أضعف من السابق، رغم أنك تحرجني بأسألتك إلا أنك تجعلني أكثر صراحة

مع نفسي.
- أنتِ مثال الإيمان عندي، وما تذكرين من تحول ربما كان دليلًا على زيادة في إيمانك، ورغم كوني بروتستانتيًّا ولست كاثوليكيًّا إلا أني أشعر بصدق إيمانك، فأنت تنيرين لي الطريق.
- بل أنت مثال للبحث عن الحقيقة وستصل، أحبك جورج.

(٥)

في الصباح ذهب جورج إلى عمله، وتوجّه إلى مكتبه مباشرة.. لم يرد مقابلة كاخ، وكان يشعر بنفور وكراهية تجاهه، ترى هل يرجع ذلك إلى كونه يهوديًّا، أم لكونه جشعًا، أم لسوء أخلاقه، أم لاجتماع ذلك كله فيه؟ ما يعرفه أنه يرتاح كثيرًا لليفي رغم كونها يهوديّة، ومتدينة أيضًا.. هو لا يكره أحدًا لدينه، بل يكره تناقضات الأديان وخرافاتها.

لكن لابد من مقابلة كاخ على أيّة حال، ولذا عليه أن يتصل به قبل أن يعلم كاخ بمجيئه ويتصل به.. وبينما هو منهمك في أفكاره عن كاخ إذ رأى ورقة على مكتبه تتضمن مكافأة كبيرة له على جهوده الكبيرة في الشركة، وتعداد للمنجزات والعقود التي وقعها في كل من الهند وتل أبيب مذيلة بتوقيع كاخ. تساءل في نفسه: هل بالغ في كرهه لكاخ، أم تراه تراجع قليلًا عن المشاعر السلبية تجاهه لـمّا علم بالمكافأة؟ هل المكافأة تدل على طيبته، أم أنها رشوة كالرشوة التي قدمها لبنيامين في القدس؟!

دق جرس الهاتف، رفع جورج السماعة؛ فإذا كاخ على الطرف الآخر..
- مرحبا جورج، لما علمت بمجيئك انتظرتك في مكتبي فلم تأت لي، هل تأتيني أم تود أن آتيك في مكتبك؟
- سآتيك بعد دقائق، كنت أنظم أوراقي فقط.
- أنتظرك إذن.

جمع جورج بعض الأوراق ورتبها، لكنه لم يستطع أن يرتب أفكاره وذهنه المشوش الذي كان مشغولًا بجفاوة كاخ به، ومضى إلى مكتبه، فلما دخل عليه رحّب به أيما ترحيب..
- مرحبا لقد اشتقنا لك جورج، كيف صحتك؟ وكيف روما؟ بل وكيف تل أبيب؟

- أنا بخير؛ فقد شفيت من المرض الذي أصابني، وبالنسبة لتل أبيب؛ فقد وقعت العقود بالكامل وأرسلتها لكم، وبالنسبة لروما؛ كانت رحلة رائعة، كيف أخباركم أنتم؟ وأخبار الشركة؟
- عقود تل أبيب ستشكل دفعة كبيرة للشركة، فاللوبي اليهودي متغلغل في كثير من الدول، وبما أننا وقعنا مع تل أبيب فهذا يفتح لنا أوربا كلها، بل وأمريكا، وقد صرف لك مجلس الإدارة مكافأة جيدة، هل رأيتها؟
- شكرا لك كاخ على هذه المشاعر، لم أقم إلا بعملي.
- لا أدري كيف تستطيع أن تتجاوز العقبات، أنت مسوق مبدع!
- لم يكن هناك أي عقبات، لقد وقَّع مباشرة.
- ألم يطلب المبلغ الخاص به؟!
- تعني الرشوة، لقد أخذها.
- ألم يطلب شيئًا آخر؟
- مثل ماذا؟
- دعني من ذلك، كم ليلة بت مع ليفي؟ أعرف أنها تتمنع أحيانا، فهي متدينة.
- لم أبت معها أبدًا، ولا يمكن أن أفعل ذلك.
- بنيامين قذر.. لم يطوعها لك.
- بل قذر؛ لأنه أخذ الرشوة، فأنا لم أطلبها منه، ثم كيف تريدني أن أقبل أن يكرهها بنيامين على الجنس؟!
- هههههه، المهم أنه وقّع العقد، وكم كنت أتمنى لك المتعة، ولكن أنت الذي ترفض، لو كنت مكانك لما بت إلا معها، ألم تعجبك؟
- أنا متزوج يا كاخ، فهل تريدني أن أخون زوجتي، أنا لا يمكن أن أتنازل عن مبادئي.
- دعني من كلمة المبادئ؛ فنحن نستخدمها فقط عندما نريد أن نحقق شيئًا من أهدافنا.
- ربما تتكلم عن شيء آخر غير المبادئ، أما المبادئ فلا يمكن تجاوزها.
- هل تعرف أن ليفي تبيت معي كل يوم عندما أذهب لتل أبيب؟ وهي أكبر متحدثة بالمبادئ.
- الضعف البشري فقط.
- هذه هي فلسفة المبادئ، إذا أردنا تحقيق هدف قلنا مبادئ، وإذا أردنا شيئًا آخر قلنا ضعف بشري.

أثار كلام كاخ شيئًا في نفس جورج، كلامه صحيح، هو أيضًا دفع الرشوة لبنيامين، وبرر ذلك بالضعف، هل هو يسير على نظريّة كاخ في المبادئ؟

- ربما، لكن من أسوء الأمور أن تكون حياتك بلا مبادئ، وإنما حسب مصالحك، عند ذلك لن

نختلف كثيرًا عن الحيوانات.
– ههههه، عذرا الحيوانات خير من البشر، على الأقل لديها أمور فطرية لا تغيرها، سمِّها إن شئت مبادئًا.
– صدقت.. الناس بلا مبادئ وقيم أسوأ من الحيوانات، ويتحولون إلى وحوش لا يهمها إلا المال والجنس والسلطة.
– محاضرة رائعة يا صاحب المبادئ، دعني من هذا الآن، ولتعد للعمل، هل أنت جاهز لسفر جديد لتوقيع عقد في السويد؟
– سفرة جديدة إلى السويد؟
– نعم.. بعد أسبوع تقريبًا، ومجلس الإدارة مجمع على ألا يذهب إلا أنت؛ ولذا أجلوا الموعد أكثر من مرة لحين عودتك.
– عقد ماذا؟
– تقريبًا نفس عقد تل أبيب، بل وظروفه مشابهة جدا.
– كيف؟ لا أفهم!
– مبلغ لمدير القسم التقني، مع طريقتك الدبلوماسية، وينتهي الموضوع ويوقع العقد.
– فهمت ما تقصد، المدير التقني هنا هو بنيامين هناك، لكن هل هناك ليفي أخرى في السويد؟
– ههههه.. ألم تقل لي إنك لم تستمتع بليفي، فلماذا تبحث عن ليفي في السويد؟ أين المبادئ؟
– لم أقصد، فقط أبحث عن نقاط التشابه.
– نعم.. يوجد مثل ليفي في السويد واسمها إنغريد، وهي بنفس جمال ليفي فاطمئن.
– جيّد، فقط حتى لا تظن أن رفضي بسبب الجميلة.
– لا أفهم؟
– لن أذهب، وحتى لا تفهم أن المشكلة في أنه لا توجد ليالٍ حمراء.
– ولماذا لن تذهب؟
– ألم تسمني صاحب المبادئ؟ الرشوة تتعارض مع مبادئي.
– ألم تعط بنيامين مبلغه لكي يوقع العقد يا صاحب المبادئ؟!
– نعم أخطأت، وإن شئت فقل ضعف بشري!
– ألم أقل لك أننا نستخدم المبادئ لتحقيق أهدافنا ومصالحنا، ماذا تريد؟
– لا أريد شيئا، فقط لا أريد أن أذهب.
– وماذا لو قلت لك مكافئتك القادمة ضعف السابقة، مما يعني أنها مقاربة لراتب ثلاثة أشهر.
– ليست المسألة..

– لا أريد جوابا الآن، اليوم لديك يومان للتفكير، فأنا متأكد أنك لن تضيع هذه الفرصة.
– وما هي الفرصة؟
– سفر ومكافأة وترقية.
– ترقية؟!
– نعم، فمع التشكيل الجديد ـ إن وقعت العقد في السويد ـ تصبح المدير العام للشركة، أي تصبح مكاني؛ فمجلس الإدارة معجب بمنجزاتك.
– وأنت!
– ربما أصبح المدير العام للشركة القابضة لشركتنا، فكر مليًّا، أنا متأكد أنك لن تضيع الفرصة، ويمكن وضع الموعد في الوقت الذي يناسبك، ههههه، وستصبح المبادئ أن توصل المبلغ، أو بتعريفك أنت أن تدفع الرشوة.
– وإن لم أسافر؟!
– تكون جنيت على نفسك في الشركة، ولا أظن عاقلًا مثلك يفعل ذلك، صدقني كنت أود أن أسافر بنفسي، لكن مجلس الإدارة مصر على أن تسافر أنت لتوقيع العقود الكبيرة، فهم معجبون جدًّا بك.
– سأرد عليك خلال أيام.
– أنا متأكد من عقلك وحكمتك، ولذا سأكلف العلاقات العامة بترتيب حجوزاتك من الآن، وستصل لمكتبك الأوراق والعقود، وتعريف كامل بالاتفاقية.
– أستأذنك؛ أود أن أنجز بعض الأعمال.

مضى جورج إلى مكتبه، وهو يتساءل في نفسه.. هل المبادئ كما قال كاخ مجرّد مصالح؟ تتغيّر بحسب ما نحتاج إليه؟ أم أنّها منارات ثابتة ترينا الطريق، وينبغي أن نمشي على هداها؟ إن كان كذلك فلماذا أعطى الرشوة لبنيامين في تل أبيب؟ ترى ماذا يفعل؟ يبدو موضوع السفر مهمًا جدًّا عند كاخ، بل ربّما يكون حاسمًا في مسألة استمراره في العمل أو فصله.. إذا كانت المبادئ حقًّا بلا قيمة؛ فذلك يعني أنّنا ستتحول إلى وحوش يفترس بعضنا بعضًا، آه.. لماذا لم ينظم الربّ هذه الأمور؟ أم أنّ الرب ترك للناس أن يرتبوا أمورهم بمعزل عنه؟!

فيما كان غارقًا في تفكيره وصلته جميع الأوراق ومستندات السفر، بدأ في تفحصها بلا مبالاة، إذ إنّ قراره: هل يسافر أم لا هو الأهمّ لديه، فإذا كان لن يسافر فلماذا يتعب نفسه في قراءتها؟

انتظر جورج نهاية يوم العمل الذي بدا له طويلًا جدًّا؛ ليذهب للمنزل ويستشير كاترينا في قرار سفره، وصل إلى بيته فوجد كاترينا تقرأ باندماج واهتمام بالغ..

– يبدو أن الكتاب الذي تقرئينه ممتع جدًّا!

- إلى حد ما أقرأ في الكتاب المقدس للمسلمين القرآن.
- إذن بدأت في قراءته؟
- نعم، لكني رغم انهماكي فيه وفهمي له؛ أجد أني أعيد قراءة ترجمة السورة أكثر من مرة.
- لماذا؟
- لا أدري؛ ربما لأنه يختلف كليًّا عما اعتدت عليه.!
- جيد.. لكن هل يمكن أن نترك هذا الموضوع والكتاب؛ فلدي قضية أود أن أستشيرك فيها.
- تفضل.
- عرض علي كاخ أن أسافر سفرًا جديدًا.
- هذه أول مرة منذ بدء عملك في الشركة تكون رحلات العمل بهذا التتابع، إلى أين؟
- إلى السويد.
- السويد دولة خلابّة.
- ليست هذه القضية.
- إذن ما القضية؟!
- عندما سافرت إلى القدس لتوقيع الاتفاقية والعقود كنت قد حملت لمدير الشركة الأخرى رشوة كبيرة؛ لكي يوقع العقد، وهم يريدونني أن أفعل ذلك مرة أخرى في السويد.
- مع كراهتي للرشوة وعدم حبي لها، لكن ما الجديد؟! لقد دفعتها سابقًا.
- نفس كلام كاخ.
- أكره مديرك هذا، لكن..
- افترضي أني أخطأت المرة الأولى؛ هل أكرر الخطأ؟! أليس هناك طريقة لكي يتخلص الناس من أخطائهم؟
- في المسيحية قد خلصنا ونقانا اليسوع بتضحيته بنفسه من أجل البشر.
- وهذا ليس خاصًا لأحد فهو للمجرم ولغيره.
- لم أفهم؟!
- أي أننا كلنا خلصنا من أخطائنا؛ فلماذا نتركها وقد خلصنا منها؟! أظن هذه مقدمة جيدة لتجارة بيع صكوك الغفران.
- فهمت ما تعنيه، هكذا في المسيحية، أما في الإسلام فمن تاب واستغفر الله تاب الله عليه.
- ما هذا التقدم، أصبحت تتحدثين عن الإسلام، أكل هذا بعد قراءة كتاب واحد؟! ألا يتوب المسلمون عند رهبانهم وقساوستهم؟ أم كيف يتم قداس التخلص من الخطيئة؟
- لا يوجد أي قداس، مجرد أن تتوجه إلى الله، وتطلب منه الغفران، وتقلع، وتعزم ألا ترجع.

- بهذه السهولة!
- نعم.
- كل هذه المعلومات من الكتاب الذي أعطاك المسلم في روما!
- بل من كتاب المسلمين المقدس الذي يسمونه القرآن.
- لنعد لموضوع كاخ.
- لا أدري، الخيارات صعبة، فإما أن توافقهم فيما يخالف مبادئك؛ فتفقد قيمتك أمام نفسك، وإما تعارض؛ فتفقد عملك ووظيفتك.
- نعم الخيارات صعبة، ولدي فرصة للرد عليه لمدة يومين، لكن لو كنت مكاني ماذا ستفعلين؟
- أنا في مثل حيرتك، وكنت سأستشيرك في أمر خاص بالنسبة لي، لكنك سبقتني فلا أحب أن أجمع عليك حيرتين.
- كيف؟
- لم أعد مقتنعة كثيرًا بما أدرِّس في المدرسة، ولذا أفكر في ترك عملي.
- تتركين عملك؟!
- كما أنك لا تود أن تخالف مبادئك؛ فأنا لا أود أن أخالف مبادئي أيضًا، فكثير مما أقوله في الدرس غير مقتنعة به، فإما أن أقوله وأخالف مبادئي في ألا أقول إلا ما أعتقد، وإلا أقدم استقالتي، وبالتالي ينقطع المبلغ الشهري الذي أحصله منهم.
- تحول خطير، ألست تدرّسين هذا من عشر سنين؟ ما الجديد؟ ثم إذا خرجنا جميعًا من عملنا كيف سنعيش في ظل البطالة المتزايدة في بريطانيا بل في العالم؟
- الجديد أني اهتزت قناعاتي بالكاثوليكية، أليس هذا ما كنت تريد؟! وعمومًا أنا لم أتخذ قراري حتى الآن.
- أنا آسف إن ضايقتك، كنت أمزح معك فقط.
- بالعكس لقد أزلت غشاوة كانت على عيني، لكن ألم أقل لك لم أرد أن أخبرك حتى لا أزيدك حيرة؟
- صدقت، لقد ازددت حيرة على حيرتي.. سأفكر أكثر وسأتخذ قراري خلال يومين، واتخذي قرارك، حقيقة.. الحياة قرار.
- يجب أن تستشير يا جورج.
- لكن من يفهم مشكلة في داخل العمل؟
- أي شخص من أصدقائك، لماذا لا ترسله سؤالًا في قائمتك البريدية الدورية التي ترسل لنا؟
- فكرة رائعة، سأرسل الآن.

صعد جورج إلى غرفة المكتب، وفتح حاسوبه، وكتب إلى أصدقائه رسالة يستشيرهم فيها:

«الحلقة السابعة: واجهتني مشكلة فأحببت أن أستشيركم قبل إجابتكم على المرحلة السادسة، وملخصها: هل أستجيب لمبادئي ولو أفسدت حياتي؟ أم أنظر في مصلحتي ولو أفسدت مبادئي، آمل أن تكون الإجابة بصراحة وبوضوح، كما لو كنت أنت هذا الشخص، وهل هناك طريق يجعل المبادئ والمصالح في طريق واحد لا تتعارض؟

جورج»

بعدما أرسلها، فتح صفحة توم على الفيس بوك، فوجد أنها عادت كما كانت سابقًا، وكتب اعتذارًا عما نشر في الصفحة من صور مزورة مركبة.. شعر بشيء من الراحة؛ إذ يبدو أن توم قد استطاع استعادة الصفحة وإنهاء مشاكله مع براد. ثم فتح صفحة آدم، فوجده قد كتب مقالًا جديدًا بعنوان «دروس من صديقي الباحث عن السعادة ٤»:

«يواجه صديقي أصعب فترة على الإطلاق، ويمكن ملاحظة النقاط التالية في هذه المرحلة من بحثه:

معرفة الإنسان بما لا يريد أيسر من معرفة ما يريد، ومعرفة الإنسان أن هذا ليس طريق السعادة أيسر من معرفة أن ذلك هو طريق السعادة، فالتغيير والتحول والجديد صعب على أي شخص.

يحتاج أي قرار شجاعة كبيرة مع النفس، فالشجاعة عنوان لأي نجاح فكري أو عسكري أو أدبي، وصاحبي شجاع بلا شك، لكن حاجته للشجاعة الآن أكثر من السابق، فهل يستطيع أن يكون كذلك؟

يعيش صاحبي ومن حوله فترة من التحولات التي لا يركز عليها كثيرًا، ولا ينتبه لها، فهو ـ وهذا شيء غريب ـ إلى الآن لا يعرف أني مسلم، وسيفاجأ بأن أقرب الناس إليه يعيشون فترة تحولات كبيرة مثله.

رغم حرص صاحبي على التعلم إلا أنه لم يتخذ القرار أن يتعلم الإسلام بسهولة، ربما يرجع ذلك لكثرة الشبه المثارة في وسائل الإعلام عن الإسلام، وربما كان جزء منه لتقصير المسلمين وأخطائهم.

لا زلت أعتقد أن صاحبي في الخطوات الأخيرة في طريق البحث عن طريق السعادة وإجابة تساؤلات الحياة الكبرى، وسأوافيكم بالدروس القادمة قريبًا»

آدم».

أعاد جورج قراءة ما كتب آدم مرة ثانية باهتمام شديد، ثم تساءل في نفسه: هل يعتقد آدم أن الإسلام هو وحده طريق السعادة؟! إذن لماذا لم يقل لي ذلك من البداية؟ هل هو يتلاعب بي؟!

أم أن الإسلام يقوم على الخداع؟! فإذا كان يعتقد أن الإسلام طريق السعادة؛ فلماذا يخفيه ويستتر منه؟! هل هو عار يهرب منه؟ أم سر من أسرار الدين يشبه أسرار الكنيسة؟ وبينما هو في أفكاره دخلت عليه كاترينا..

- تعالي واقرأي ما كتبه آدم عني؟ بدأت أشك في هذا الشخص.
- وماذا كتب؟
- تفضلي، اقرئي.

قرأت كاترينا المقال بتركيز شديد، ثم التفتت إلى جورج..

- لم أفهم وجه الشك عندك!
- هو مسلم ويعتقد أن الإسلام هو طريق السعادة الذي سيجيب عن تساؤلات الحياة عندي!
- نعم، وهذا هو الطبيعي، طبيعي أن يعتقد أن ما لديه هو طريق السعادة.
- لكن.. لماذا لم يخبرني سابقا، لماذا يخدعني؟
- هل خدعك وذكر لك شيئًا غير الواقع؟
- لا، لكنه أخفى عني دينه وعقيدته.
- أظن أنه قال لك ذلك صراحة، لكنك لم تنتبه.
- كيف؟
- لقد كتب ديانته في صفحته في الفيس بوك في المعلومات، فهو لا يخفيها أبدًا، بل يفتخر بها؛ فقد كتب في الديانة «مسلم وأفتخر».
- تخيلي أني لم أر هذا مع كثرة فتحي لصفحته، صدق آدم؛ فأنا لا أربط بشكل كافٍ.
- ألم تقل لنا في البريد أنا جميعا سنقرأ القرآن ونرد عليك؟ هل بدأت أنت في قراءته؟!
- لا أشغلني كاخ بمشاكله، سأقابل آدم اليوم، وسأبدأ في قراءة القرآن اليوم أيضا، وسأحاول أن أتخذ قراري في الشركة اليوم أو غدًا.
- لا يكن آدم أحكم منا، اسمع منه بهدوء، ودعنا نتعلم أفضل؛ حتى نرد عليه بشكل أقوى.. ربما هو يريدنا أن ندخل في الإسلام معه، فلنجعله يتنصر معنا.
- ربما، سأذهب إليه الآن، وسأحاول أن أسمع بهدوء وأتعلم؛ حتى أرد عليه بعلم، وأظن أني سأتناول وجبة العشاء معه.

تحولات وتغيرات

١٤ تحولات وتغيرات

تحولات وتغيرات

(١)

توجّه جورج إلى المقهى لمقابلة آدم، لكنّه لم يجده، سأل عنه النادل فأجابه بأنّه لم يأتِ اليوم وهو لا يعلم عنه شيئًا..

- رأيته بالأمس واتفقنا أن نلتقي اليوم.
- ليس لدينا أي معلومة عنه، وعدم حضوره شيء غريب، عموما ربما يأتي غدًا.

خرج جورج من المقهى، واتجه مباشرة إلى منزل آدم، فطرق الباب فلم يرد عليه أحد، حاول الاتصال بجواله فوجده مغلقًا.. فعاد إلى بيته متوتّرًا..

- كاترينا.. اختفى آدم، ولم أجده في العمل ولا في بيته وجواله مغلق.
- هذه ليست المرة الأولى، ألا تذكر مثل هذا قبل فترة من الزمن؟
- نعم، وأظنه كان مع الذين سجنوا سابقًا باتهام التفجير الإرهابي، لكنني لم أكن أعرف بأنه مسلم.
- لم أتعامل كثيرا مع آدم، لكنني أحترمه كثيرًا، فقد رأيت شفقته وحرصه عليك أثناء مرضك، ورأيت تعامله مع صفاقة ووقاحة كاخ.
- وما لا تعرفينه عنه وأعرفه أنا جيدا أنه من أكثر الناس نصحًا ومحبة للخير لي، ولقد رأيت ذلك في أكثر من موقف، وأستغرب لماذا هذا الحرص والصدق معي؟
- وما الغريب في ذلك؟!
- لم يكن في الأمر غرابة حتى علمت أنه ليس مسيحيًّا.
- لم أفهم، لماذا؟!
- لأنه هو من كان يحثني على الذهاب لتل أبيب وتعلم اليهودية، وهو الذي حثني أيضًا على تعلم المسيحية والذهاب إلى روما، فكيف يفعل ذلك وهو ليس مسيحيًّا؟
- ربما يكون هذا علامة ثقة بالنفس.
- أو ثقة بالمنهج والطريق؟!

- ربما، عمومًا القرآن كتاب غريب جدًّا، ألن تقرأه خلال هذا الأسبوع كما ذكرت في رسالتك؟
- كما أخبرتك سابقًا، كنت أود قراءته، لكن موضوع كاخ أزعجني، ثم اختفاء آدم، على كلٍ هل انتهيت من قراءته لآخذه للقراءة؟!
- نعم أنهيته، لكني أشعر أنه لا بد من إعادة بعض الأمور فيه، هل تريدني أن أشتري لك نسخة؟
- إن ذهبت قريبًا من المكتبة فاشتري لي نسخة، لكن بالمناسبة هو بأي لغة أصلًا؟
- القرآن باللغة العربية فقط.
- وكيف تقرأينه إذن؟
- أنا أقرأ ترجمته فقط.
- ألسنا نقرأ ترجمة العهد القديم والجديد، ونقول أنا نقرأهما؟ فلماذا التفريق هنا؟
- بناءً على سؤالك في الرسالة راجعت الموضوع وقرأت وبحثت عنه، نقل القرآن عبر العصور أدق نقل عرفه التاريخ، فعن رسولهم محمد نقل جموع كبيرة، ونقل عنهم جموع كبيرة إلى يومنا هذا، ولم يحدث فيه تحريف، أما الترجمات ففيها يتم التحريف والخطأ.
- كيف؟
- ترجم عدد من القساوسة معاني القرآن، فترجموه كما أرادوا، كما أن هناك أخطاء في بعض التراجم.
- إذن.. القرآن خاص للعرب، وما عداه فمحرف وخطأ؟
- ربما، لكني لم أقل ذلك! القرآن ينص على أنه ليس خاصًّا للعرب في أكثر من موضع منه: «كافة للناس»، كما أن التراجم كثير منها جيدة، لكن عند الاختلاف يرجع للنص العربي، المضحك أن النص العربي ليس منقولًا مكتوبًا أو حفظًا فحسب، بل لدى المسلمين نقل حتى لطريقة أداء الصوت في القراءة.
- وما معيار صحة الترجمة؟
- المترجم يترجم معاني القرآن وليس القرآن، فالقرآن بالعربية فقط، عموما عندما تقرأ ستشعر بذلك.
- أنا متعب وأود أن أنام، وجائع وأود أن أتناول وجبة العشاء، وقلق وأود أن أطمئن على آدم، ومحتار وأود أن أرد على كاخ، وعاشق يريد معشوقته، وأنت مشغولة بتراجم القرآن!
ابتسمت كاترينا، وقالت بدلال:
- إذن لنبدأ بالعشاء، ثم العشق، ولنؤجل الباقي.

استيقظ جورج صباحًا وتجهز للذهاب إلى العمل، خرج وهو يشعر بثقل وكره، لا يدري هل شعوره بسبب كاخ؟ أم بسبب الحيرة التي لم يحسم أمرها بعد؟

دخل مكتبه، واتصل مباشرة على آدم؛ فوجد جواله مغلقًا، فأرسل له رسالة يطلب منه أن يطمئنه عليه.. دقائق مرت حتّى اتصل به كاخ يطلب حضوره إلى مكتبه..

- كأنك تحمل الدنيا على رأسك، ما بك؟
- لا شيء، متعب قليلًا.
- والهم الذي بك!
- لا شيء، لم أجد أحد أعز أصدقائي وأبحث عنه، وقد قلقت عليه.
- هل بحثت في مكان عمله وفي بيته وعند أصدقائه؟
- نعم، والغريب أنه حتى زميله النادل في المقهى مستغرب من أنه لم يعتذر، وليست هذه عادته.
- ههههه، أعز أصدقائك! أهو النادل الذي قابلته في المستشفى عندك؟!
- نعم.
- كدت أطرده من المستشفى، كيف تصادق نادلًا؟!
- بل كادت كاترينا تطردك لما تهجمت عليه، آدم أعز أصدقائي، ولا أحب أن تتحدث عنه هكذا.
- أنت مرشح لتكون المدير العام للشركة، ثم تحدثني عن صديق نادل! أخشى أنك رغم كفاءتك الوظيفية إلا أن ذكاءك الاجتماعي ضعيف جدًا، وللأسف الذكاء الاجتماعي أهم من الكفاءة الوظيفية خاصة في المناصب العليا.
- هل الذكاء الاجتماعي يعني أن أعامل الناس بطريقة فجة وقحة بغرور؟!
- يعني أن لديك مهارة لكسب الأشخاص المهمين الذين يزيدون من دخلك ومن فرصك.
- هل الصداقة بالنسبة لك فرص ودخل مالي؟
- نعم، بل الحياة كلها كذلك، ولا أدري متى ستفهم ذلك؟
- لا أود أن أفهم.
- صديقي لا تكن حادًا، متى تسافر؟
- لا يشرفني صداقتك، وصداقة آدم أحب إليّ.
- ههههه، يهمني عملك لا صداقتك، متى ستسافر للسويد؟
- سأرد عليك غدًا، أستأذنك.

- لقد حجزنا لك، ويمكنك أخذ التذاكر من وليام مدير العلاقات العامة.. هههههه وبشرنا عندما تجد النادل.

رجع جورج إلى مكتبة لائمًا نفسه، لماذا لم يتشجع ويخبر كاخ بأنّه لن يسافر ويخالف مبادئه؟ هل جبن وخاف أن يفقد عمله؟ إذن هو مثل كاخ تمامًا يهمّه المال، لكنّه يتقنّع بالمبادئ.. كاخ أكثر صراحة مع نفسه ومع الناس، يبدو أنه كان صادقًا عندما قال أننا نثبت على المبادئ عندما تكون في صالحنا، وعندما لا تخدمنا نتنازل عنها.. همّ أن يرجع إلى كاخ ويخبره بقراره وليكن ما يكن، لكنّه تراجع وقرّر أن يكتب خطاب اعتذار.. وفي هذه الأثناء دخل عليه ويليام مدير العلاقات العامة..

- تفضل هذه التذاكر مرسلة من كاخ.

- أنا مستغرب من حماس كاخ لسفري، رغم عدم رغبتي فيه.. وحسب علمي أنك أنت أو مدير التسويق ليس لديكما مانع من السفر، بل هو من صميم عملكما لا عملي!

- هو مضطر لذلك، وليس باختياره.

- كيف؟! لم أفهم!

- في اجتماع مجلس الإدارة أثناء سفرك لتل أبيب أُتخذ قرار بترقيتك إلى المدير العام، ونقل كاخ لعمل آخر، ولم يجد كاخ طريقة لتأجيل هذا القرار إلا بإخبارهم بأن هناك مهمة لا يمكن أن يقوم بها غيرك، وأنه سيؤجل القرار حتى تقوم بها.

- وفي حالة عدم قيامي بالمهمة؟

- لا أعرف، كنت أود أن أسافر أنا لكنه رفض، تفضل هذه التذاكر فقد حجزنا لك بعد تسعة أيام من اليوم.

- بدأت الأمور تتضح لي، فهمت الآن سبب إصراره، هل يمكن أن ترسل لي على البريد هاتف وبريد العميل في السويد؟

- بعد خمس دقائق ستجدها على بريدك.

- وأرقام هواتف وبريد جميع أعضاء مجلس الإدارة.

- سأرسلها لك.

- شكرا وليام.

عاد جورج لكتابة الخطاب، لكنه عدل عن كتابته لكاخ، وكتبه إلى مجلس الإدارة:

«السادة أعضاء مجلس الإدارة
يشرفني خدمة الشركة التي لي فيها قرابة أربع عشرة سنة، كما يشرفني ثقتكم بي، وآمل أن أكون أهلًا لهذه الثقة، فنجاح شركتنا ينبغي أن يكون مهمتنا جميعًا، وأحب أن أشيد بدعمكم الذي جعلني أتمكن من إنجاز ما أنجزته للشركة.
وأتقدم إليكم باستقالتي من العمل، وذلك لأني ظننت أنكم ستثمنون الجهود، لكني فوجئت بالتهديد بالفصل إن لم أخالف أخلاق مهنتي ومبادئي، فآمل تصفية مستحقاتي، فاستقالتي أفضل لي وللشركة من فصلي، وأفضل من أن أبيع مبادئي.
شاكرا لكم جميعًا حسن تعاملكم وفضلكم

جورج نيسون»

عندما انتهى من الرسالة نظر في بريده فوجد العناوين البريدية لجميع أعضاء مجلس الإدارة قد وصلت، فأرسل الرسالة السابقة لجميع أعضاء مجلس الإدارة بما فيهم كاخ، ثم خرج مباشرة من الشركة.. واتجه لمنزل آدم فلم يجبه أحد، فذهب إلى المقهى، فلم يجده أيضًا، سأل زميله النادل، فرد عليه:

– أنت الذي أتيت بالأمس، لم يأت اليوم أيضًا، ولكن اتصل شخص قبل ساعة تقريبًا وأخبرنا أنه أصيب في حادث، وهو في المستشفى وصحته تتحسن.

(٢)

سأل جورج عن المستشفى، وذهب إليها مباشرة، وفي طريقه اتصل بكاترينا وأخبرها..

– لقد وقف معي وقفة رائعة عندما كنت في المستشفى، ولا بدّ أن أردّ له الجميل.

– ما رأيك أن تمر بي ونزوره معًا؟

– أنا قريب من المستشفى، سأزوره الآن، ويمكنك أن تزوريه في الزيارة المسائية.

دخل جورج المستشفى، وسأل عن غرفة آدم، فلما دخل وجد آدم نائمًا على السرير ورجله ملفوفة بالكامل بالشاش والجبس وحوله عدد من الناس..

– مرحبًا آدم.. ما الذي حدث لك؟

– مرحبًا جورج، عذرا رأيت رسالتك على الجوال قبل خمس دقائق؛ فلم يأتني جوالي إلا قبل قليل، كيف حالك أنت؟

– ما الذي حدث؟

- سقطت وأنا أنزل الدرج، وحصل لي كسر في ساقي، وأتيت المستشفى بالأمس وأجريت لي عملية جبر العظم، وأنا بخير.
- لماذا لم تتصل بي؟
- شكرًا جورج أنت صديق وفيّ، في الحقيقة لم أكن أستطيع أن أتصل بأي أحد، صاحبي الذي أخذني للمستشفى هو الذي اتصل بمن يعرف من أصدقائي، أعرفك عليهم: أحمد من سوريا مهندس إلكترونيات، أدريان صيدلي من بريطانيا، علي من السعودية طالب دراسات عليا في الجامعة، الشيخ باسم الأزهري من مصر إمام المركز الإسلامي في لندن.. وأعرفكم صديقي جورج مهندس برمجيات ونائب مدير شركة البرمجيات المتقدمة.. الذي أحضر لي الحقيبة الفاخرة التي أعجبتكم.
- مرحبًا، لأول مرة أتعرف على أصدقاء صديقي.
- صديقي جورج كثير الانشغال والسفر، وإلا فهو لا يقصر أبدًا.
- كما عرفني آدم أنا نائب مدير شركة البرمجيات المتقدمة سابقًا، وقد استفدت من آدم كثيرًا جدًّا.
- سابقا؟! منذ متى خرجت من الشركة؟
- قبل قرابة الساعة قدمت استقالتي وجئت لك.
- لماذا؟
- قصة استقالتي طويلة، دعني من هذا.. ما أخبار رجلك؟ وماذا يقول الطبيب؟
- الحمد لله.. لا بأس خفّ الألم تقريبًا؛ إلا أني مضطر أن أجلس في المستشفى لمدة خمسة أيام، ثم سأجلس في البيت لمدة شهر تقريبًا، ثم لمدة شهر سأسير بالعكازات.
- باسم الأزهري مبتسمًا: لا أود أن أقطع نقاشكم، لكن نستأذنكم لنؤدي صلاة الظهر، وسنعود مرة أخرى.
- أنتظركم.
- الشيخ باسم أستاذي وشيخي منذ كنت صغيرًا.
- أين ذهبوا؟
- ذهبوا لصلاة الظهر.
- اليوم الثلاثاء، فأي صلاة؟
- نحن مسلمون، والمسلمون يصلون كل يوم خمس صلوات، وفي أوقاتها.
- علمت أنك مسلم وكانت مفاجئة لي! لماذا لم تخبرني سابقًا؟!
- ألم أقل لك سابقا أنك لا تربط بين النقاشات، اسمي ونقاشاتي، بل وشكلي وسحنتي دلالتها

واضحة على أني عربي ومسلم، عمومًا لم أرد أن أخفي عنك ذلك، لكنك سألتني وأنت تتهمني بأني كاثوليكي أو بروتستانتي، أكرر اعتذاري إن شعرت أني أخفيت عنك ذلك.

- ألا تتعبكم خمس صلوات كل يوم؟!
- الصلاة تريحنا من شقاء وتعب الدنيا، ولا تتعبنا.
- كذلك نحن نرتاح بالصلاة أسبوعيًا، لكن خمس مرات يوميا أظنها متعبة!
- نحن نتعب إذا لم نصل خمس مرات يوميًّا، وصلاتنا لا تحتاج لكبير جهد، ولا حتى الذهاب إلى المسجد.
- تذهبون إلى المسجد؟
- إن تيسر الذهاب للمسجد فهو حسن، وإلا فأي مكان يصلح للصلاة، وأنا سأصلي بعد قليل على كرسي.
- تصلي وأنت في هذه الحالة!
- نعم، بل كوني في هذه الحالة أدعى للصلاة، فأنا محتاج إلى ربي في كل وقت، والآن حاجتي له أكثر، وإلا اختبارات الحياة تفقد الإنسان قدرته على التحمل؛ وبالتالي ينحرف عن أخلاقه ومبادئه.
- حقيقة.. المبادئ متعبة.
- ولذا الصلاة والاتصال بالله هي نوع من أنواع المدد؛ ليتزود الإنسان بالصبر والثبات.
- أرسلت لكم رسالة أن نقرأ القرآن، ولكني لا أعرف أقرأ أي ترجمة للقرآن.
- أتمنى أن تفهم العربية؛ لتتلذذ بالقرآن كما نتلذذ، عموما سأهديك نسخة من ترجمة معاني القرآن، لكن بعدما يعود الشيخ باسم.
- هل الإسلام للعرب فقط؟
- عدد المسلمين الذين في العالم غير الغربي أضعاف عددهم في بلاد العرب، فالإسلام كما قال الله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
- رحمة!
- نعم رحمة.. ولو درسته أو لو قرأت القرآن ستكتشف كم هو رحمة ولكل العالمين!
- نفس منطق كاترينا عندما تتكلم عن الكاثوليكية.
- كما درست الكاثوليكية.. ادرس الإسلام، ثم ردّه إن لم تقتنع.
- نعم قررت أن أدرسه وأن أبدأ بقراءة القرآن، ولكن بعقلية ناقدة.
- جيد ومناسب جدًّا، الإسلام دين العلم، ولا يريدك أن تؤمن بدون أن تتعلم أولا، ولذا كان

أول أمر نزل على الرسول: (اقرأ).

- تبدو واثقًا من الإسلام.. قابلت في روما مسلمًا من مصر، كان يقول لي أنه يتمنى لو كانوا مثلنا، ونصحني ألا أتعرف على الإسلام.

- وستقابل من المسلمين أيضًا من يقول: إن الإسلام دين التخلف والرجعية والإرهاب.

- كان يقول ذلك أيضًا.

- وستقابل من المسلمين من يتحدث عن ظلم الإسلام للمرأة، وعن الإكراه على الإسلام.

- يبدو أنه اجتمع ما قلته في المسلم الذي قابلته في روما.

- أليس من الممكن أن تقابل شخصا يسب وينتقد علم الرياضيات أو الهندسة أو الطب أو الحاسب؟!

- كثير جدًّا.

- هل ينقص من قدر هذه العلوم شيئًا؟ أو ينقص من قدرها وحاجتنا إلها شيئًا؟

- قطعا لا، لكن الأمر مختلف هنا.

- لا أرى وجها لاختلافه؛ إلا أن هناك هجمات ممنهجة على الإسلام، بينما لا يوجد مثل ذلك على العلوم.

- ماذا تعني بهجمات ممنهجة؟

- أتذكر التفجير الإرهابي في لندن الذي فجره المسلمون؟

- نعم، وقد ثبت بعد ذلك أنه ليس تفجيرًا إرهابيًّا.

- ثبت ذلك بعد أن تحدثت وسائل الإعلام عن إرهاب المسلمين لفترة طويلة، ثم جاء النفي مقتضبًا كالعادة، هل تعرف أني أنا أوقفت وسجنت بسبب التفجير؟ والتهمة أني مسلم؛ مما يعني أني إرهابي، هل تعرف أن كل الأدلة كانت واضحة أن المسلمين بريئون من القضية، لكن الإعلام لديه التهمة الجاهزة؟

- لكن ألا ترى أن ذلك بسبب أفعال المسلمين المتكررة؟

- في كل مجتمع وفي كل دين يوجد متطرفون، لكن الفرق أن القضية جنائية عندما لا يكون لها علاقة بالمسلمين، وإرهابية عندما يكون لها علاقة بهم! أليس ذلك شيئًا مضحكًا!

- تبدو متحمسًا جدًّا للإسلام!

- دعني أكون مباشرًا معك، ما الذي يمنعك من أن تكون مسلمًا؟ وتسعد بحياتك؟!

- سؤال مباغت لم أكن أتوقعه، هل الدخول في الإسلام بهذه البساطة؟!

- نعم، لا أظنك تحتاج لطقوس الكنيسة ولا لتعقيدات بعض الأديان، هو شيء بسيط لكنه نقلة كبيرة.

- وهل تتوقع أن أدخل في الإسلام يا آدم؟
- نعم بل أعتقد أنك قريب جدًّا.
- عفوًا، يبدو أنك لا تعرفني جيدا يا آدم، أنا لا يمكن أن أتبنى شيئا لا يتوافق مع عقلي ومنطقي وفكري ومبادئي.
- عفوا.. بل أنت الذي لا تعرف الإسلام!
- لم أفهم، ماذا تقصد؟
- الدخول في الإسلام بسيط جدًّا، لكن لا يمكن أن تدخل في لإسلام قبل أن تكون القناعة به داخلية وكاملة، فليس المقصود أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يكون ذلك حقيقيًّا في داخلك، ولذا الأهم ما في قلبك من معتقدات وإيمان قبل مجرد الأشكال.
- رغم أني لا أظن أني سأسلم يومًا، لكن من يدري؟!
- رغم قناعتي الكبيرة بأنك ستدخل في الإسلام، لكنني أعتقد أن بوابتك للدخول في الإسلام هي العلم؛ ولذا أعتقد أنك يجب أن تتعرف على الإسلام أولًا، وستدخل فيه بعد ذلك، فأنت تحب العلم والمنطق والعقل والمبادئ.
- لا أدري هل أنت بما تقول تمدحني أم تمدح الإسلام أم كليهما؟ لكنك تذكرني بالمسلم الذي قابلته في روما وقال قريبًا من ذلك لكاترينا، قبل أن يهديها كتاب بعنوان: (حبي العظيم للمسيح أدخلني الإسلام).
- ألم تقل لي قبل قليل أن المسلم الذي قابلتموه في روما كان يتنكر ويتبرأ من الإسلام؟
- من المفارقات أن هذا الأخير أخو الأول الذي حدثتك عنه، وقد قابلناهما معا.
- وأيهما في نظرك أفضل؟!
- لا أدري، لكن رغم أن الأول أكبر، إلا أن الثاني أكثر احترامًا لأمه وأبيه، وهما يحترمانه كثيرًا، ولم يكن يهمني المفاضلة بينهما.
- وهل قرأت كاترينا الكتاب؟
- نعم، بل وقرأته مرتين، وأعرف أنه هزها من الداخل.
- وهل قرأته أنت؟
- نعم قرأته، لكنك قلت لي أن أبدأ بالقرآن، وأنك ستهديني ترجمة له.
- سيأتي الآن الشيخ باسم فقد تأخروا قليلًا، وأتوقع أن يصلوا الآن، وأستأذنك لأصلّي.. ولو أردت أن تسأل عن الإسلام؛ فالشيخ باسم عالم وأنا مجرد تلميذ له، ونسختك من القرآن هدية مني لك عند الشيخ باسم.

– سأنتظرك إلى أن تنهي صلاتك.. فإن جاؤوا وإلا فأستأذنك بالانصراف.

– حسنًا.

كبّر آدم وبدأ في الصلاة وجورج يراقبه، وفي هذه الأثناء وصل الشيخ باسم وزملائه.. فالتفت لهم جورج..

– أخبرني آدم أنك رجل دين في الإسلام، وأهداني نسخة من ترجمة القرآن، وقال أنك الذي ستعطيني إياها.

– لا يوجد في الإسلام رجال دين، فالدين للجميع، ونسخة المصحف في السيارة في الخارج، ما رأيك أن نخرج معا وأعطيك إياها؟

– جيد.. فقد تأخرت كثيرًا، وأود أن أنصرف، ولكن لننتظر انتهاء آدم من الصلاة، إلا إذا كانت ستطول.

– صلاتنا كديننا يسر كله، وسعادة كله.

– سعادة؟!

– نعم.. سعادة الدنيا والآخرة، غريب أن تكون صديق آدم ولم يحدثك عن ذلك، سأعاتب آدم إذ لم يعرفك بهذا الدين العظيم مع أنك صديقه، ولن يجد ما يهديك خير من تعليمك الإسلام، ألا ترى أن كثيرا من البشرية يتقلب في طرق ومسالك الضلال والغواية بحثا عما يصلح لها شأن دينها ودنياها ويغفل عن دين آخر الأنبياء والمرسلين؟

– ربما لذلك أهداني ترجمة القرآن من عندك.

أنهى آدم صلاته، فالتفت نحو جورج والشيخ باسم..

– يا شيخ باسم لا تعاتبني؛ فقد قلت له إن الإسلام سعادة الدنيا والآخرة..

ابتسم باسم وهو يقول:

– يا جورج نحن بعد كل صلاة نشعر بسعادة في الدنيا غريبة، إذ نلقي بأحمال الحياة على رب أحد قادر رحيم كريم سميع عليم، تعلم الإسلام فهو طريق السعادة.

– أحب لك يا جورج سعادة الدنيا والآخرة التي ذكرها لك الشيخ باسم.

– لا يمكن أن أغير ديني إلا بعد أن أتعلم وأقتنع، وأعرض ذلك على التفكير الناقد الدقيق، ألم أفعل ذلك يا آدم مع جميع الأديان؟

– بلى، وهذا طلبي أن تبقى بنفس الطريقة، مع محبتي لأن تسلم، لكن الإسلام يعلمنا أن العلم أولا.

– لا بد أن تتعلم أولا، ثم بعد ذلك ليس لك عذرا إن لم تسلم يا صديقي، هل تود أن ننزل الآن؟

– لا أعرف ما مصدر ثقتكما في أني إن تعلمت سأدخل في الإسلام؟
– ثقتنا في الإسلام الذي جاء من عند الله.
– سأرى!! أعدكما أن أقرأ القرآن، وأقرأ عن الإسلام، وأتناقش فيه، وبعد ذلك أتخذ قراري.
– رائع جدًّا.. فهذا هو الأفضل.
– ولا تنس أن تسافر كما سافرت للتعرف على الأديان الأخرى.
– لننزل الآن.. وسأقرأ كتابكم المقدس، ثم لكل حادث حديث، وسأحاول أن أزورك غدًا فأنا أصبحت بلا وظيفة.
– لقد فاجأتني بأنك تركت عملك، ولكن يبدو أنك مستعجل، إن لم تأت غدًا فليكن بيننا اتصال بالهاتف، كان الله معك.

عاد جورج إلى منزله ومعه نسخة من ترجمة القرآن، لم يجد كاترينا في المنزل، اتصل بها فأخبرته بأنها في الطريق إلى المستشفى لزيارة آدم.. فقرر البدء في قراءة القرآن، كان متعجبًا من احتفاء آدم به، وتقديمه على كل الكتب الأخرى التي تعرف بالإسلام. وبعد قرابة ساعتين عادت كاترينا إلى المنزل..

– عدت الآن من زيارة آدم.
– أعرف أنك لم تزوريه إلا لأنه صديقي وكذلك مجاملة لي.
– لكنه شخص عجيب جدًّا!
– كيف؟
– لا أدري، لكنه هو وجميع أصدقاءه المسلمين الذين عنده لا يصافحون النساء، واعتذروا بأدب، فهل هذا تمييز ضد المرأة على طريقة اليهود أو المسيحيين؟
– ربما.. لا أدري، أنا بدأت قبل ساعتين القراءة عن الإسلام بقراءة كتابهم المقدس القرآن، والحقيقة أنه فيما قرأت حتى الآن ينصف المرأة ويحترمها ويقدرها.
– نعم.. قرأت ترجمة القرآن، هو كذلك لكني تعجبت من طريقتهم في التعامل معي!
– لماذا؟ هل كان هناك أي نوع من الإهانة أو الازدراء لك؟
– أبدًا، كانوا في غاية اللطف واللباقة، لكنهم لم يصافحوني، بل ولم ينظروا إلي.
– لكنك تأخرت، ألم تتحدثوا معا؟
– تحدثنا كثيرًا، وكان غالب حديثهم عن الإسلام، لا أدري لماذا ذكروني ببعض القساوسة.
– ربما لأن صاحبه باسم رجل دين.
– لا، باسم ليس رجل دين ويرفض هذا الوصف، ويقول ليس في الإسلام رجال دين كالبابوية

عندكم، لكنه عالم بالدين على كل حال.

– نعم.. صدقت، قال لي نفس الكلام، وهو رجل خلوق وابتسامته مشرقة، وقد أعطاني بطاقته لأتواصل معه، تصوري!! يريدني أن أدخل في الإسلام، كم أتعجب من ثقتهم!

– نظرت كاترينا إلى السقف، وكأنها تستحضر شيئًا في ذهنها: جميعهم خلوقين، وكثيرو العبادة، وإن كانوا ليسوا كالرهبان فجميعهم يعمل في الحياة وليس متفرغا للعبادة، بل الطريف أنهم يرون عملهم وتعلمهم عبادة، فليس لديهم فصل بين الحياة والعبادة كما لدينا، تخيل صلى آدم على سريره! وقال لي: نحن نصلي في كل مكان؛ فالدين يسر.

– وصلى وأنا عنده وأخبرني أنهم يصلون في اليوم خمس مرات، وأن صلاتهم تجلب لهم السعادة، لم أقتنع بما قالوا رغم أنهم يتكلمون بقناعة كبيرة.

– نعم.. قناعتهم كبيرة جدًّا، وكلامهم مؤثر جدًّا، وعلاقاتهم وابتساماتهم مؤثرة جدًّا.

– يبدو أنك معجبة بهم!

– ليس الإعجاب هو القضية، القضية أن المسلمين والقرآن والإسلام نظام وطبيعة مختلفة كليا عما اعتدت عليه.

– وضحي أكثر، نفس الشعور وجدته عندما بدأت أقرأ كتابهم المقدس «القرآن»، ولم أستطع أن أدركه بشكل متكامل، شعور غريب في داخلي، خاصة في موضوعات؛ مثل: توحيد الله وتمجيده وأسمائه وصفاته، أو قصص الأنبياء وبالذات اليسوع ومريم، أو الأخلاق والآداب.

– نفس الشعور لدي، لكني أرى ألا نستعجل في الحكم، فستتبين لنا الأمور بزيادة العلم بهذا الدين، ونعرف نقاط ضعفه ونقصه وتناقضه، ولا أدل على وجود مثل هذه الأمور في الإسلام من حال المسلمين الدكتاتوريين المتخلفين.

– رغم إعجابي بآدم لا أجد عندي رغبة في التعرف على الإسلام، لكن سأجاهد نفسي على ذلك، وإن كنت استمتعت قبل قليل وأنا أقرأ القرآن.

– القراءة في كتابهم المقدس عجيبة حقًّا!

– أبشركِ.. قدمت استقالتي اليوم من العمل، كم أكره كاخ الكاذب المراوغ، فقد علمت أنه

حجب عني الترقية وكلفني بالسفر للسويد، فقدمت استقالتي بطريقة تثير مجلس الإدارة معي، فإن لم يردوا علي فهي استقالة نهائية.

- إذن انتصرت مبادئك على رغباتك ومصالحك؟

- ربما، لكن ربما شجعني على القرار ما علمته من قرار مجلس الإدارة ورد فعل كاخ، وأملي في وقفة مناسبة منهم، وعلى كل حال إن لم يأتني رد إيجابي منهم فسأرفع تظلم إلى نقابة العمال.

- أما أنا فما زلت أتصارع بين مبادئي وبين عملي.. كنت أغطي شكي وأهرب منه، لكنك أنت صممت على كشف المستور.

- منذ زواجنا لم أركِ سريعة التغير والتحول مثل الشهر الأخير هذا، وخاصة بعد قدومي من تل أبيب!

- ليس التغير والتحول شر كله ولا خير كله، وأتمنى أن يكون تحولي لخير مما كنت عليه.

- ههههه، وهل هناك خير من الكاثوليكية؟

- عقيدتي في اليسوع مخلصنا كبيرة جدًّا، وفي الكاثوليكية أيضًا، ولا أظن هناك خير منها، لكن من يدري؟!

- ههههه، أود أن أنام مبكرًا اليوم، ولكني سأقرأ البريد سريعًا.

فتح جورج البريد، فوجد بعض الردود على رسالته التي سأل فيها عن المبادئ، لخصها سريعًا وأعاد إرسالها للجميع فهي تتوافق إلى حد ما مع قراره..

«جانولكا: المبادئ أولا بلا شك لمن يملك الشجاعة، لكن معها التعب والنصب.

ليفي: الصحيح أن المبادئ أهم، لكن ليس بالضرورة أننا قادرون على ذلك، فنحن نضعف أمام ضغوط الحياة.

حبيب: تقدم المبادئ، وإلا تحولنا وكأننا حيوانات في الغابة.

كاترينا: يفترض أن تقدم المبادئ، لكنه قرار صعب.

ما زلت أنتظر منكم ردًّا على رسالتي السابقة حول القرآن.

جورج»

تابع تصفّح بريده فوجد رسالة من جانولكا..

«صديقي جورج..

رغم قصر الفترة التي تعرفنا فيها على بعضنا إلا أني وجدت تقاربًا، بل تطابقًا في التفكير بيننا، ولذا أود أن أستشيرك في أمر ربما تستغربه.

بعد سفركم قرأت الكتاب الذي أهداه المسلم لزوجتك، قرأته على الإنترنت، ثم عدت وقابلت المهندس المعماري المسلم وتناقشت معه فيه وطلب مني أن أقرأ ترجمة القرآن أولًا، فقرأته كاملًا أكثر من مرة، ثم تقابلنا مرة أخرى وتناقشنا، ولا أدري ما سر السحر الذي في هذا الكتاب! فسألته عن أمور تفصيلية في الإسلام؛ فقال لي أنه لا يعرف عنها شيئًا فهو مجرد مهندس، فقلت له: من يمكن أن يعرفني بالإسلام أكثر، فقال إنه لا يعرف أحدًا في إيطاليا فهو غريب عنها، وإن أردت أن تتعلم أكثر عن الإسلام فأمامك طريقين: إما أن تقرأ المكتوب وتسمع وترى المنشور عن الإسلام وهو كثير إلا أن بعضه مكتوب من أعدائه، وإما أن تبحث عن عالم بالإسلام في إيطاليا أو تسافر له، فقررت أن أسلك الطريقين فأنا أقرأ منذ سفركم بما لا يقل عن خمس ساعات يوميًّا عن الإسلام، وأود أن أسافر قريبا إلى مصر أو إلى ليبيا، فهل تنصحني بشيء؟

تحياتي لك ولكاترينا

جانولكا»

فردّ عليه..«صديقي جانولكا

قرأت رسالتك وأعجبت بشجاعتك، ويبدو أن التحولات التي حدثت لك في الفترة القصيرة من سفرنا كبيرة وأكثر مما كنت أتوقع، أؤيدك في سلوك الطريقين وأود أن تفيدني بما تتوصل إليه فأنا أستفيد منك ومن عقلك الناقد كثيرًا، تحياتي لك

جورج»

(٣)

استيقظ جورج؛ ليجد كاترينا قد أعدّت طعام الإفطار.. فجلسا يتناولانه..

– ليس لدي عمل اليوم ولا أدري ماذا أفعل؟

– اذهب للعمل، فأظن أنه لم يأتك قبول أو رفض لاستقالتك، وغيابك سيكون حجة عليك في النقابة.

– لم يخطر هذا في ذهني، عندكِ حق.

– أما أنتَ فحسمت أمرك، وأما أنا فسأحاول أن أحسم أمري أيضًا اليوم.

- تحسمينه.. كيف وبماذا؟
- لا أدري، لكني سأذهب وأحاول أن أحسم أمري.
- أرسلت لك البارحة ملخص ما جاءني عن الصراع بين المبادئ والمصالح على بريدك اقرئيه ربما يفيدك قبل اتخاذ القرار.
- سأقرأه قبل أن أتخذ قراري، سأذهب الآن حتى لا أتأخر.
- وأنا كذلك سأخرج الآن.

مضى جورج إلى عمله، ودخل مكتبه، وما إن جلس حتى جاءه مدير العلاقات العامة منفعلًا:

- ماذا صنعت؟!
- لم أصنع شيئًا ما الذي حدث؟!
- بعد خروجك بالأمس استدعاني كاخ غاضبًا، ولأول مرة أراه بهذا الغضب، وسألني من أين جاء جورج بعناوين مجلس الإدارة؟ فقلت له لا أدري.
- ولماذا لم تقل له إنك أعطيتني إياها؟!
- ربما يضرني! فأنت تعرف أنه ظالم لا يفكر إلا في مصلحته.
- هكذا نحن نخاف من بعضنا.. عجيب جدًّا.. لن أقول أنها منك فاطمئن، لكن هل تعرف سبب غضبه؟
- يبدو أن أعضاء مجلس الإدارة اتصلوا به وطلبوا عقد اجتماع عاجل خلال ثلاثة أيام، بناءً على رسالة منك.
- اجتماع لماذا؟
- لا أدري؟ كل ما أعرفه أنه في موضوع يتصل بك أنت، ولذا سألتك ماذا كتبت في الرسالة؟
- إذن الوضع مشجع جدًّا، لم أكن أتوقع ذلك!
- مشجع! ما هو المشجع؟!
- لا شيء، أرسلت لهم استقالتي، على كل حال ثق أنه لن يعرف أحد أنك أعطيتني عناوينهم البريدية.
- شكرًا لك.. أستأذنك.

استغرق جورج في التفكير في الخطوة التالية التي ينبغي عليه أن يفعلها الآن، فهو يعرف جيدًا أساليب كاخ في المراوغة والكذب، ومن الممكن أن تنطلي هذه الأساليب على مجلس الإدارة بسهولة أثناء الاجتماع، وهو لا يريد أن يترك الشركة، فهل يطلب الحضور أثناء اجتماع مجلس الإدارة، أم يقدم لهم معلومات تفصيلية، أم ماذا يفعل؟ العجيب أنه لم يرد عليه أحد من أعضاء مجلس الإدارة على بريده حتى الآن! مما يعني أنهم سيسمعون من كاخ، وهذا ما لا يريده قطعًا، فكر مليًّا، ثم قرر أن يرسل رسالة ثانية لمجلس الإدارة فكتب:

«السادة أعضاء مجلس الإدارة:

يشرفني خدمة الشركة التي لي فيها قرابة أربع عشرة سنة، كما يشرفني ثقتكم بي، وآمل أن أكون أهلا لهذه الثقة، فتطور شركتنا ينبغي أن يكون مهمتنا جميعًا، وأحب أن أشيد بدعمكم الذي جعلني أتمكن من أنجاز ما أنجزته لكم.

وتقدمت إليكم متظلمًا وقدمت استقالتي ولم يأتني رد منكم، فهل يعني ذلك استمرار ظلمي وقبول الاستقالة، أم يعني إنصافي واستمراري في العمل، آمل أن يتم النقاش معي مباشرة من مجلس الإدارة.

شاكر لكم جميعًا حسن تعاملكم وفضلكم

جورج »

وكان يود بهذه الرسالة أن يُدعى لحضور مجلس الإدارة؛ ليكشف كل الأوراق لأعضاء المجلس، لكن ما إن أرسل الرسالة حتى جاءه اتصال مباشرة على مكتبه، وإذا كاخ على الطرف الآخر..

– كل هذا من أجل المبادئ يا صاحب المبادئ! هل يمكن أن تأتيني الآن في مكتبي؟

– نعم من أجل المبادئ، ولن أغير مبادئي.

– هل ممكن أن تأتي إليّ؟

– سآتيك الآن.

دخل جورج على كاخ فرآه غاضبًا.. وبادره بالحديث..

– ماذا تريد يا جورج؟

– أريد ألا أخالف مبادئي.

– كأنك تسعى لتكون رئيس الشركة.

– لم أسع إليه، وإن جاءني وأنا أستحقه فلا بأس.

– إذن المسألة ليست مبادئ، وإنما مناصب.

– افهمها كما تشاء، أنا لن أغير مبادئي، ولم آت إليك إلا بعد أن طلبتني وأخبرتني أننا سنتفق،

ثق يا كاخ أني لن أتنازل عن مبادئي.

– إن كانت المسألة كما تقول مسألة مبادئ، وليست مسالة مناصب، فلدي عرض آخر لك.

– ما هو؟

– سأسافر أنا للسويد، لكن بشرط أن تسافر أنت من لندن.

– لماذا؟!

– الموضوع يرتبط بي شخصيا، فأنا لا أود أن أخرج من الشركة الآن، فإن اجتمع مجلس الإدارة وأنت في لندن فسيتخذ القرار بترقيتي وإخراجي من الشركة، ولذا أقنعتهم بأهمية سفرك للسويد، ثم ابتسم وقال: ونظرا ومراعاة لمبادئك سأسافر أنا، لكن يجب أن تكون أنت خارج لندن في نفس الفترة حتى يتأجل اتخاذ القرار.

– أسافر إلى أين؟

– إلى أي مكان تريد، فلدينا عمل في ألمانيا، وفي أوكرانيا، وفي مصر.

– وإن رفضت؟

– سيكون واضحًا أن القضية قضية مناصب أو مصالح وليست مبادئ! وعند ذلك لكل حادث حديث.

– سأفكر وأرد عليك غدًا.

– ترد عليّ أنا.. وليس على جميع أعضاء مجلس الإدارة.

– أعدك بذلك..

خرج جورج من الشركة، وفي الطريق إلى سيارته اتصل بتوم..

– هل الوقت مناسب لأزورك؟

– مرحبًا أهلا بك.

– بعد نصف ساعة سأكون عندك، مسافة الطريق فقط.

وصل جورج إلى عيادة توم ودخل، فوجد في الاستقبال موظّفًا جديدًا، رحب موظف الاستقبال بجورج..

– د. توم في انتظارك تفضل.

– أهلًا جورج.. أول مريض بعد فتح العيادة؛ فهي لم تفتح إلا اليوم، ولم أعط مواعيد إلا ابتداءً من الغد.

– خبر سار، أعتذر لم أتابع الموضوع، هل انتهى موضوع براد؟!

– ولّى إلى غير رجعة.

– أين ذهب؟
– السجن، ضبط وهو يبيع كمية من المخدرات.
– كم أكره براد!
– لماذا تكرهه؟
– شخص ليس لديه مبادئ، وعندما يفقد الإنسان مبادئه يصبح أقرب ما يكون لحيوانات الغابة.
– ما أصعب الامتحانات! كان أمامي خياران أن أتنازل عن مبادئي وتحل كل مشاكلي بسرعة، أو أثبت على مبادئي وأدخل في امتحان صعب، وقررت الثبات على مبادئي وكدت أن أفقد كل شيء، لكنني مقتنع أن الثبات على المبادئ نهايته حسنة، وهذا ما تم.
– كأنك تعرف ما جئت من أجله!
– ما هو؟
حكى جورج لتوم مشكلته مع كاخ بالتفصيل، حتى وصل إلى موضوع السفر، وتردده فيه..
– كنت أود أن أستشيرك: هل تعتقد أن سفري بدون شروطه اللا أخلاقية تنازلًا عن مبادئي؟
– لم أفهم! كيف يمكن أن تتنازل عن مبادئك؟ أنت ستسافر لعمل آخر.
– لكني سأحقق أهداف كاخ السيئة.
– وربما تفضح كاخ أكثر أمام مجلس الإدارة.
– إذن رأيك أن أسافر؟
– نعم.. وإلى مصر.
– لماذا؟
– ألم نصل في نقاشنا سابقًا إلى أنه يجب أن تدرس الإسلام، وهذه الفرصة جاءت إليك، ولولا أني فتحت العيادة اليوم لسافرت معك.
– لا أود أن أسافر، فقد سافرت كثيرًا في الفترة الأخيرة، ولو كنت مسافرًا فأحبذ السفر إلى ألمانيا.
– الأمر إليك، لكني أرى أن سفرك مهم؛ فسترى المسلمين من الداخل، وستعرف عيوبهم وأخطائهم.

– سأفكر، وعلى كل حال أنت أول شخص أستشيره، سأفكر أكثر وسأستشير، وسأخبرك بما أصل إليه.. أستأذنك؛ فاليوم أنت مشغول بأمور عيادتك.. وأنت تستحق ذلك بثباتك على المبادئ، أستأذنك.

في طريقه اتصل بآدم، وأخبره أنّه يود زيارته، فاعتذر له؛ لأنّ الطبيب سيجري له بعض الفحوصات الآن، وسينتظره في الزيارة المسائيّة.. فاتّجه إلى البيت، وقرر أن يشغل وقته بقراءة الكتاب المقدس عند آدم وهو القرآن..

وفيما كان يقرأ دخل عليه أولاده مايكل وسالي..

– بابا عدت مبكرًا اليوم؟!

– نعم، لدينا في العمل ظروف جعلتني أعود مبكرا.

– ماذا تقرأ يا بابا، لقد كنت في ذهول وأنت تقرأ؟!

– كنت أقرأ كتاب يعرف بأنه كتاب المسلمين.

– المسلمين الذين يسمون بالإرهابيين؟

– نعم.

– في مدرستنا طالب مسلم من الهند، هو كسول في الدراسة، لكنه طيب وليس إرهابيًّا.

– الإرهاب ليس له دين، دعك مما يقولون، ويمكنك أن تتعامل مع الناس حسب أخلاقهم.

– لكنه رغم طيبته أشعر بأنه منعزل قليلًا عنا.

– لماذا؟

– لا أدري! لكن ربما من كثرة ما يقولون له بأنه إرهابي، أو بسبب سخرية بعض الطلبة من شكله.

– من الذي يقول له ذلك؟

– أنا لا أحب ذلك، لكن بعض الطلاب يفعلون ذلك.

– يا بني مبادئ الناس وأخلاقهم هي ما ينبغي أن ترفع أو تضع الناس.

– نفس كلام إقبال.

– من هو إقبال؟

– زميلي المسلم الهندي الذي أخبرتك.

– نعم، في القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]؛ فلا فضل لأحد على أحد أيًّا كان لونه أو جنسه إلا بالتقوى.

– أليس الإسلام خاصا بالعرب؟ أنا فوجئت لما عرفت أن إقبال مسلم!

– عدد المسلمين يقارب المليار ونصف، وينتشرون من الصين إلى أمريكا، بل الغريب أن ٨٠٪ من المسلمين خارج العالم العربي.

– كم أتمنى أن تكون هذه المساواة عندنا!

– ماذا؟!

– يعيرني بعض الطلاب بأني هندية ولست بريطانية، بسبب سحنتي وشكلي وبسبب أمي.

– هذا ممنوع يا بنيتي، وبإمكانك أن تخبري المعلمة.

– سأخبرها، لكني أعرف أنهم لن يوقفوا كلامهم إلا أمام المعلمة فقط.

تمتم جورج في نفسه على إثر خروج الأطفال من عنده:

– حتى سالي تفهم الفرق بين النظام الأخلاقي وبين الأخلاق المجردة!

واصل جورج قراءته للقرآن حتّى قدوم كاترينا..

– كم كان يوما طويلا!

– لحظة لو سمحتِ.

– ماذا تقرأ؟

– أقرأ كتاب المسلمين، هل يمكنكِ أن تنتظري لحظة أنا مشغول؟

– أين وصلت؟

– لم أنته.

– تبدو مندمجًا جدًّا.

– اسمعي ماذا يقول الرب في كتاب المسلمين: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [الحجر:١ـ٣]

– لماذا اخترت هذه الآية أو المقطع بالذات؟

– لا أدري لماذا أشعر بأن بعض مقاطع هذا الكتاب تخاطبني بالذات؟ ومنها هذا المقطع.

– وما الذي يخاطبك في هذا المقطع؟!

– كتاب مبين.. يود الكفار الإسلام.. يلهي هؤلاء الكفار الأكل والتمتع، لا أدري لماذا أشعر أن كل ذلك يخاطبني أنا؟

– هل تقصد أنك أنت تود لو تكون مسلمًا؟!

– تخيلي، غير ممكن.. لكني أود أن أجد الإجابة على تساؤلاتي، وأن أجد طريق السعادة، وألا أنشغل عن ذلك بالأكل والشراب والمتع، لا أدري لماذا أشعر بأن بعض المقاطع تخاطبني شخصيًّا؟

- أليس من الممكن أن يكون طريق السعادة هو الإسلام؟!
- ههههه، نفس كلام آدم، ورغم أني لا أظن ذلك، لكنني سأرد على الإسلام علميا كما رددت على الأديان الأخرى وليس بمجرد الظن.
- بالمناسبة ما أخبار آدم؟
- أنت رأيته بعدي، فأنا لم أره اليوم، فقد جدّ عليّ في العمل أمور كثيرة.
- بشر، ما الجديد؟!
- قدم لي كاخ عرضًا جديدًا بأن أسافر لألمانيا، ودون أن أتنازل عن مبادئي.
- وهل وافقت وانتهت المشكلة؟
- لا، قلت له سأفكر، فأنا لا أود السفر الآن.
- إذن لم تعد المسألة مسألة مبادئ، وإنما مسألة رأي الآن؟
- هكذا قال لي كاخ.. وفي الحقيقة ظهر بعد ذلك سبب آخر، فقد استشرت توم وله رأي آخر.
- وما رأي توم؟!
- يريدني أن أسافر إلى مصر.
- قلتَ لي ألمانيا؟
- أعطاني كاخ خيارات: ألمانيا أو مصر أو أوكرانيا، وأنا أرغب في ألمانيا، وتوم يحثني على مصر.
- من أجل البحث عن تساؤلاتك إذن؟
- نعم، لكني لا أود أن أذهب لبلد متخلف في أفريقيا بدلًا من دولة قوية كألمانيا.
- لكن مصر خلاف التعرف على الإسلام والمسلمين هي بلاد الأقباط أيضا وبلاد الأهرامات والنيل.
- يبدو أنك تعرفين مصر جيدًا!
- نعم، بلاد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وبلاد أحد عجائب الدنيا الأهرامات، وبلاد أطول نهر في العالم نهر النيل، فقد كنت أعرف قبطيا أرثوذكسيًا وكان دائما ما ينتقد كاثوليكيتي.. ينتقد أنني متساهلة كما ننتقد نحن تساهلكم أيها البروتستانت.
- لأنكم انشققتم منهم كما انشق البروتستانت عنكم، هل أفهم من كلامك أنك مثل توم تؤيدين مصر بدلًا من ألمانيا؟
- ربما، لكن الأمر إليك، أنا أحب البلاد ذات الحضارات القديمة، وربما تكون أنت تحب البلاد المتطورة حديثًا، رغم أنك ارتحت جدًّا في الهند.
- سأتأمل في الأمر، لكن يبدو أنك تؤيدين السفر من حيث المبدأ.

– رغم أني أود أن نجلس معا ونرتاح بعد أسفارك المتعاقبة، لكن التنازل عن المبادئ يجعل الإنسان يخسر نفسه، ولو ثبت على مبادئك ربما خسرت عملك، فربما كان هذا مخرج جيد لموضوعك.
– نعم، ربما كان هذا أفضل مخرج، على كل حال لدي فرصة إلى الغد للتفكير أكثر في الموضوع، وهل من جديد في موضوعكِ أنتِ؟
– نعم، أعتقد أنه ربما يكون قد انتهى.
– انتهى؟! ما هو الذي انتهى؟
– أظن أن هذا آخر شهر لي في العمل عندهم.
– وبعد ذلك؟
– بدأت في ترتيبات التقديم لوظيفة أخرى، لا تشغل نفسك سأخبرك أولًا بأول، أود أن أجهز الغداء لسالي ومايكل.

(٤)

في موعد الزيارة المسائية توجه جورج إلى المستشفى لزيارة آدم.. دخل عليه الغرفة فلقيه يتحدث مع الشيخ باسم وهما يضحكان..
– مرحبا تبدوان اليوم في سعادة.
– الحمد لله أنا سعيد دائمًا، وسعادتي اليوم أكثر بك وبأخي آدم، ما أخبارك؟
– بخير، كيف حالك يا آدم؟
– أنا بأتم نعمة، ولله الحمد والفضل.
– جئت لأطمئن عليك وأستشيرك في أمر!
– تفضل.
– لن أطيل عليك، أنا دخلت في اختبار بين مبادئي وبين عملي، وبعد صراع اخترت مبادئي، فتيسرت أموري، لكن بسفر مفاجئ.
– كل من ثبت على المبادئ حتى لو بدا له أنه سيخسر سيكسب في النهاية.
ابتسم باسم وقال:
– اسمحا لي أن أضيف، ألم تقرأ في القرآن كيف انتصر الأنبياء بصبرهم على مبادئهم؟
– لديكم أيها المسلمون كما في القرآن أن كل الأنبياء انتصروا، بل حتى عيسى انتصر ولم يقتل، أما نحن فلدينا أن عيسى افتدى البشرية بنفسه ليخلصها.
باسم مبتسمًا:

- ههه، ولذا فالإسلام يقدر عيسى عليه السلام ويحبه أكثر منكم.
- لكنه لا يعطيه من الخوارق والطيبة والدفاع عن البشرية كما نعطيه نحن.
- بل يعطيه أكثر، يبدو أنك لم تقرأ القرآن، ألم تقرأ في القرآن قصة عيسى عليه السلام، وفي أكثر من موضع؟
- أنا لم آخذ الترجمة منك إلا بالأمس، لكني قرأت معظمه، وقرأت قصة عيسى عليه السلام.
- إذا كنت قرأت معظمه؛ فأتوقع أنك قرأت ترجمة قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم:٣١]، وقوله:﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٣]، وترجمة قوله في سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].
- نعم قرأت كل ما ذكرته، لكن الأعجب حفاوتكم بالمسيحية!
- هل تحب الصراحة؟
- ههه، أكيد.
- أنتم لا تحتفون بعيسى عليه السلام مثلنا.
- كيف؟
- أنتم ترون أنه صلب، ونحن نعتقد أن الله رفعه ألم تقرأ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:١٥٧].
- نعم.
- أنتم أو على الأقل بعضكم يعتقد أن الطاهرة مريم عليها السلام زنت والعياذ بالله.
- وأنتم من تعتقدون أنه أبو اليسوع؟
- ليس له أب، فكما خلق الله آدم من غير أم ولا أب خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولذا تكلم وهو في المهد؛ ليدافع عن أمه الطاهرة.
- بل حفاوتنا بالأديان كلها منذ أبي البشرية آدم عليه السلام، فكل الأنبياء كانوا يدعون لشيء

واحد هو التوحيد لله، وكل نبي كان يوطئ ويبشر بالنبي الذي بعده، ألم تقرأ في الترجمة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف:٦]، أليس كذلك في كتبكم؟!

– لا لم أقرأ ما ذكرت، ربما كان في الباقي الذي لم أقرأه، وهو كما قلت في بعض كتبنا فقط.

– مشكلة الإنجيل أنه حرف وكتب عدة مرات بكتابات مختلفة، خاصة في فترة اضطهاد اليهود للمسيحيين.

– أظن هذه مشكلة الكتب المقدسة كلها، هات لي كتابا لم يحرف.

– القرآن لم يحرف أبدًا بإجماع الأمم المسلمين منهم وغير المسلمين، بل لا يُعرف شيء أضبط في النقل على مستوى البشرية منه، وأظن هذه مُسَلَّمة حتى عند غير المسلمين، فقد نقله عن الرسول الآلاف، ونقله عن كل شخص منهم الآلاف، ولا يختلف في نقله واحد عن الآخر ولو بحرف، بل بما هو أدنى من الحرف.

– وما هو الأدنى من الحرف؟!

– في اللغة العربية لدينا شيء نسميه التشكيل، وهو صوت الحرف، وهو متفق عليه في القرآن، بل متفق حتى على طريقة قراءته ومده.

– ألا يوجد أي اختلاف بين نسخه؟

– أبدًا، صحيح أنه يوجد قراءات متواترة مختلفة، لكن ليس بينها فروق إلا في اللهجة.

– كلامك يعني أنه يمكن أن يكون عيسى عليه السلام في قراءة أخرى قتل، وفي قراءة أخرى فدى نفسه؟

– لا يمكن! القرآن واحد لا يمكن أن يختلف، ما أتحدث عنه اختلاف في النطق فقط، وغالبًا ما يكون نفس المعنى أو حتى نفس الكلمات، فقط تختلف طريقة النطق.

– إلى هذه الدرجة؟ أظنك تبالغ!

– يمكنك أن تقرأ ما يقوله مؤرخوكم ستجده متسقا مع ما أقول.

– لكن.. ألا ترى أنك مبالغ أو متحمس أكثر مما ينبغي؟

– ربما، لكن آدم أخبرني بأنك تبحث عن إجابة تساؤلاتك من فترة طويلة، وأنك مررت على الأديان كلها تتعرف عليها، ووصلت إلى التعرف على الإسلام، وأخبرني أنك تحب الطرح العلمي المتزن بالحقائق.

اعتدل آدم في جلسته مقاطعًا:

– نقاش رائع، لكن أعتذر عن قطعه.. أخبرني في ماذا كنت تود أن تستشيرني يا جورج؟
– لقد أنسيتني يا باسم موضوعي.
– أعتذر لك يا جورج.
– المهم.. بعد ثباتي على مبدئي وصلت إلى مفترق طرق؛ إما أن أسافر سفر عمل لا يتعارض مع مبادئي، أو أترك عملي، وأنا أميل إلى أن أسافر، وأحيانًا أشعر بأني متعب من السفر.
– أنت من سفر إلى سفر!
– نعم صدقت، لا رغبة لي في السفر صدقًا، لكن يبدو أنه المخرج الأفضل للأزمة التي لدي في العمل.
– تعب البدن أسهل من تنازل الشخص عن مبادئه، لأنه لو تنازل عنها؛ فقد تعبت روحه، إلى أين ستسافر؟
– إلى ألمانيا أو أوكرانيا أو غيرها.
– كنت أتمنى أن يكون لبلد إسلامي، فكما سافرت للتعرف على المذاهب الأرضية، ثم للتعرف على اليهودية، ثم للتعرف على المسيحية، كنت أتمنى أن تسافر؛ للتعرف أكثر على الإسلام.
– ألمانيا، أو أوكرانيا، أو مصر.
– نظر آدم إلى الأرض وأرخى يديه: آه، كم اشتقت لمصر، أنا والشيخ باسم من مصر، أتوقع أنك ستتعرف على الإسلام أكثر لو سافرت إلى مصر.
– أأنت مصري؟!
– نعم.. وأظنني أخبرتك بذلك سابقًا.
– ربما، لا أذكر.
– إن ذهبت إلى مصر فسأكلم بعض أصدقائي ليستقبلوك هناك، ويذهبون معك إلى الأماكن السياحية.
باسم بصوت فرح:
– أخي مدرس رياضيات في القاهرة، يمكن أن يجهز لك كل ما تريد.
– رغم أني كنت أود أن أذهب لألمانيا، إلا أنني أرى كل من استشرته يقول لي سافر إلى مصر، ربما أرد على كاخ غدًا بالسفر إلى مصر.
– وأنا بانتظار ردّك لأكلم أخي.
– ليتني أسافر معك، اشتقت لمصر، اشتقت للناس وللمكان فلي قرابة السنتين لم أرجع إليها.
– ولماذا لا تسافر معي؟

- سأخرج من المستشفى بعد غد إن شاء الله، واختبارات الجامعة بعد ثلاثة أسابيع.
- بما أنك بخير فهذا يكفي، وماذا تريد هدية من مصر أنت وباسم؟
- هههههه، أحضر لي مصر كلها.
- ههههه.

في الليل فتح جورج بريده، فوجد الردود توالت من زملائه عن القرآن على رسالته فلخصها وأعاد إرسالها..

«ليفي: ليس عندي جواب واضح، قرأت أجزاء منه فقط؛ فالفترة لم تكن كافية.

حبيب: أكثر انضباطا في النقل من الكتب السماوية الأخرى.

توم: أعتذر.. انشغلت بالعيادة، ولم أقرأ من كتاب المسلمين المقدس إلا القليل، ولكني سأقرأه.

كاترينا: يبدو أنه من عند الله حقيقة.

جانولكا: علميًّا القرآن ثابت النقل عن محمد بلا تحريف؛ فمن صدَّق بمحمد يجب أن يصدق بأن القرآن من عند الله».

وكان مما فاجأه أن جانولكا ذيل رسالته باسمه، ثم طرابلس ـ ليبيا، ثم فتح نافذة لرسالة جديدة.. وكتب لهم جميعًا..

«الرسالة الثامنة: أود أن نتعرف على الإسلام أكثر، ويحتمل أن أسافر لدولة مصر؛ لقضية طارئة، فمن لديه:

مراجع ينصحني بها؛ للتعرف على الإسلام أو مصر.

مسائل يود مناقشتها أو إثارتها.

ردود يود إيصالها.

انتظر ردكم خلال يومين أو ثلاثة، وسألخصه وأعيده إليكم كالعادة

جورج».

السرقة..

١٥ السرقة..

السرقة..

(١)

- كاخ أنا جاهز للسفر.. فقط لتدرك أنّ القضية قضية مبادئ لا مصالح.
- جيّد.. لكن عندي شرط!
- شرط؟!! وما هو؟
- ترسل لمجلس الإدارة تخبرهم بعدولك عن الاستقالة، وقبولك بالسفر.
- لماذا؟
- حتى تُنهي الزوبعة التي أثرتها.
- حسنًا لا بأس، ومتى السفر؟
- في أقرب وقت يمكن الحجز فيه، ولكن إلى أين ستسافر؟
- اتفقنا، سأسافر إلى مصر.
- ههههه.. يبدو أنك لازلت تبحث عن طريق السعادة! سيأتيك بعد قليل مدير العلاقات بالحجوزات، ولتذهب لسعادتك.
- شكرًا لك.

غادر جورج إلى مكتبه، فلم تمرّ عشر دقائق حتّى جاءه مدير العلاقات العامة..

- حجزت لك إلى مصر بعد غد فهل يناسبك؟
- ولماذا العجلة؟
- لا أدري هذا طلب كاخ، وعمومًا أسعدني الخبر؛ إذ هذا يقتضي أنك ستستمر معنا في العمل.
- ومن قال غير ذلك؟
- إشاعة قوية بين الموظفين بأن كاخ يريد فصلك.
- كنت خائفًا، أما الآن فلا أدري لماذا أعتقد أنه إن كان أحد سيفصل الآخر، فأنا الذي سأفصله، شكرًا لك على مشاعرك.
- وقال لي كاخ أن أذكرك بالبريد.

- لقد أصبح يخاف منّي، سأرسل البريد الذي يريده بعد قليل.
- وسترسَل لك المستندات والمعلومات كاملة على بريدك اليوم، فهي لم تجهز بعد؛ فقد فوجئنا بالخبر.
- أنتظرها.. شكرًا لك.
- وصيتي لك كصديق: انتبه لنفسك من كاخ يا جورج، أما من حيث عملي فأنا بلغتك به، أستأذن.
- شكرًا لك، صدقني أن الأخلاق والمبادئ تغلب المكر والخداع.

أمسك جورج هاتفه، واتصّل بآدم ليبلغه بسفره..

- مرحبا.. لقد حجزت إلى بلادكم يا مصري.
- مبارك عليك.. هذا خبر سار، سأخبر الشيخ باسم ليكلم أخاه لاستقبالك، فأخوه يتحدث الإنجليزية، وليس مثل أخي، متى موعد السفر؟
- بعد غد، يبدو أن الموضوع أسرع ممّا توقعت.
- هل تستطيع أن تأتيني اليوم، فأنا وحدي في المستشفى؟
- إن كان مناسبًا جئتك بعد قليل، سأتحرك الآن.
- مناسب جدًّا.. أنا أنتظرك.

وصل جورج إلى المستشفى، ولقي آدم على سريره يقرأ..

- مرحبًا تبدو منهمكًا في القراءة، ماذا تقرأ؟
- أقرأ في كتاب الله «القرآن».
- ألم تقرأه سابقًا؟
- بلى قرأته كثيرًا جدًّا، ولكنني أحب أن أقرأ فيه كل يوم.
- كل يوم؟! ألا تملون؟!
- نعم نحن نقرأ فيه كل يوم، ونستلذ بذلك، فكما أن معجزة عيسى عليه السلام أنه يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذا القرآن الخالد.
- ماذا تعني بالخالد؟
- أعني أن الله تكفل بحفظه، ألم تقرأ ترجمة قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩].. بصدق.. ألا تشعر وأنت تقرأ ترجمته بإعجازه؟
- صدقًا.. تمنيت وأنا أقرأ الترجمة أن أقرأ الأصل لا الترجمة، فرغم أني أقرأ ترجمة إلا أنني أشعر أنه يخاطبني في كثير من الموضوعات.

- أنا أعرف أكثر الموضوعات مخاطبة لك.
- وكيف عرفت؟
- يبقى توحيد الله وأسماءه وصفاته وجلاله وجماله أعظم ما يهز أي بشر، ولا أحتاج أن أعلم الغيب لأقول ذلك.
- آه، نعم صدقت، كما أن التكامل في الإسلام بين الدنيا والآخرة، والروحانية المتفردة هي أيضًا مما أتعجب له.
- الإسلام يجعل حياة الإنسان متكاملة؛ فليس فيه رهبانية ولا بعد عن الله، بل يجعل الحياة كلها عبادة لله إذا أخلصت النية.
- المهم أنا سأسافر بعد غد إلى القاهرة، فبماذا توصني؟
- ههههه، أن تشرب من النيل.
- هل لديكم في الإسلام أن الشرب من النيل عبادة؟
- ههههه، لا، كنت أمزح معك، لدينا المصريين أن من يشرب من النيل لا بد وأن يرجع إليه؛ وذلك لجمال البلد وأهلها.
- يبدو أن أحب البلاد إليك مصر!
- بلا شك أني أحب مصر حبًّا كثيرًا، وكم أتمنى أن أعود إليها، لكني أحب مكة والمدينة أكثر.
- عجيب! لماذا؟
هي بلاد حبيبي محمد ﷺ.
- هل تعدون نبيكم مخلِّصًا لكم، كما نعد عيسى مخلِّصًا لنا؟
- فكرة الخلاص فكرة لا تستقيم مع العقيدة الإسلامية البتة، فعيسى عليه السلام نبي مرسل، ومحمد صلى الله علي وسلم نبي مرسل، ويفترض ألا نفرق بين أحد منهم في الإيمان به؛ فنحن نؤمن بالأنبياء جميعًا، ومن قدح أو انتقص عندنا في أي نبي كفر.
- حتى لو قدح شخص في موسى نبي اليهود، أو عيسى نبي النصارى؟
- نعم، ألم تقرأ في القرآن قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦].
- قرأته.. وهذا شيء ممّا بهرني في القرآن، فأنتم تقدرون موسى وعيسى ولوط وآدم أكثر من أتباعهم، ذكرتني بشيئين: بالكتاب الذي أهداه المصري لكاترينا: «حبي العظيم لعيسى أدخلني الإسلام» لكاتب فنزولي، وذكرتني بالأنبياء في العهد القديم.
- كل الأنبياء جاءوا بالتوحيد لله وبعبادته وحده، لكن التحريف أدخل الشرك في الأديان.
- عذرًا لن تعلمنا في ديننا، ولن تكون أعرف من اليهود باليهودية، ولا أعرف من المسيحيين

بالمسيحية.

– صدقت، ربما اليهود أعرف مني بدينهم الآن، والمسيحيون أعرف مني بدينهم الآن، لكنه من المحال عقلًا وشرعًا أن يكون هناك آلة مع الله!

– كيف؟

– أما عقلًا: فقد ذكر الله الاستدلال العقلي في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢]، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختل نظامه، وتقوضت أركانه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، كما أن اتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذًا يتعين أن يكون القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]

– منطق فلسفي رائع! وإن كان يخالف المسيحية وينقضها بالكامل!

– ليس فلسفيًّا بل ربانيًّا، ولا ينقض المسيحية بل ينقض الوثنية والشرك، وإلا فعيسى عليه السلام جاء بالتوحيد الخالص، دعني أسألك ما سأل نبي الله يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن كما في القرآن: ﴿ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]، فأيهما خير؟!

– لكن كيف تقول ما أنزل الله بها من سلطان؟! والعهد الجديد مليء بذكر ألوهية عيسى!

– رغم أنك حِدت عن السؤال، لكن سنكمل نقاشنا، أنت تعرف أكثر مني أن العهد الجديد مليء بالتحريف، وتعرف أكثر مني أن بعض نسخ العهد الجديد ذكرت التوحيد لله، ولا أعرف حتى عقلًا كيف يمكن أن يكون هناك إلهين؛ فربما تصارعا أو اختلفا؛ ففسدت السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، أو بان خلافهما كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۚ﴾ [المؤمنون:٩١].

– هذا موضوع كبير جدًّا، كم أكره الصور والأصنام التي نجدها في الكنائس الكاثوليكية، وأشعر أنها نوع من الوثنية التي تذكرني بعبّاد الأصنام، لكن لم آت لهذا النقاش!

– لا يوجد شيء محببًا في الإسلام مثل جمال التوحيد وطمأنينته وسعادته وأمنه.

– سعادته! وطمأنينته! وأمنه!
– نعم، فالشرك يجعل القلب ضيقًا مشتتًا، ألم تقرأ ترجمة قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨٢]، أو قوله:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٨]، أو قوله:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[طه:١٢٤].. أعرف أنك لم تأت لهذا! عمومًا أعتذر؛ فربما أطلت عليك لكن أنت الذي سألت.
– قبل أن نقفل هذا الموضوع أود أن أسألك سؤالًا ورد في ذهني كثيرًا وأنا أقرأ القرآن، ذكرت في آخر نقل من القرآن تهديد الله بأن يحشر بعض الناس عميانًا! أليست هذه سادية من الله؟!
– تعالى الله وجل سبحانه، القرآن مليء بوصف الله (ذو الجلال والإكرام)، فهو الكريم الرحمن الرحيم العفو الغفور الجواد الشكور.. إلى آخر أسماء الجمال فيه سبحانه، كما أنه فيه صفات الجلال والقوة والقدرة، كما قال تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٧٨].
– ربما ذلك ورد في ذهني بسبب ما أذكر من وصايا الله في العهد القديم بالقتل والسلب والقسوة.
– نعم هذا سبب، وربما أضيف سببا آخر، وهو أن المسيحيين اعتادوا على فكرة الخلاص، مما يعني أنه لا يوجد يوم القيامة نار، إلا للفقير الذي لا يستطيع أن يدفع قيمة صك الغفران.
– بدأت بالهجوم، ليس لدينا نحن البروتستانت صكوك الغفران، كما لدى الكاثوليك والأرثوذكس، وإن كانت فكرة الخلاص لدينا جميعًا.
– كما تفضلت.. فكرة وعقيدة الخلاص بكل تطبيقاتها تؤول إلى أن الجميع سينجو فقد خلصه المسيح عليه السلام؛ مما لا يجعل ليوم القيامة فائدة ولا معنى، كما لا يجعل العمل عبادة فسواءً عملت أم لم تعمل فقد خلصك المسيح عليه السلام، ألا ترى أن ذلك مكافأة وتشجيع لعدم طاعة الله وللعمل بالمبادئ لا المصالح؟
– ربما، وبمناسبة المبادئ ذكرتني بكاخ وبالعمل، سأسافر بعد غد للقاهرة عندكم، فما الترتيبات المقترحة؟
– أتوقع أن يصل الآن الشيخ باسم فقد اتصلت به بعد اتصالك وأخبرته، وقال لي بأنه سيصل إلينا بعد ساعة تقريبًا، وأظنه على وشك الوصول، سيكون أخاه مرافقًا لك هناك، ويريد أن يسمع منك كل ما تريد أنت أن يرتبه قبل سفرك، اعتبرنا جميعًا في خدمتك.
– ههههه، لماذا؟
– لم أفهم!
– لماذا تخدمونني؟! ماذا تكسبون مني ومن خدمتي؟! عذرًا على السؤال لكنه يأتيني كثيرًا.

- أنت صديقي فلذلك أخدمك، والشيخ باسم يخدمك خدمة لي فأنت صاحبي، كما أن هناك سببا آخر أود أن أحتفظ به.
- عذرًا، هل يمكن أن تذكر لي السبب الآخر؟
- بصراحة.. أنا وهو نأمل أنك ربما تُسلم، ولدينا في ديننا أنه لو أوصلنا شخصًا لسعادة الإيمان بالله فهذا من أفضل القربات لله.
- أعتذر لك يا آدم رغم حرصك الشديد، لكن أظن أني لن أسلم أبدًا، ولذا أقترح ألا تتعبان نفسيكما، في تعريفي بالإسلام أو في خدمتي.
- لا تخف علينا، الأجر يقع لنا بمجرد البذل، حتى لو لم تسلم، والخدمة أقدمها لك صداقة، وفيها الأجر من الله أيضًا، فخدمة الناس ومساعدتهم من أفضل القربات إلى الله، ومع ذلك أنا أعتقد أنه من يرد الله به خيرًا يشرح صدره للإسلام، ولدي شعور قوي أنك ستدخل في الإسلام، فأنت صاحب عقل ومنطق.
- ربما، لكن لا أظن، وآمل ألا يزعجك ذلك، لكن لماذا تغيرت لهجتك عن السابق؟
- ماذا تعني؟
- لم تكن تذكر لي شيئا عن دينك أو عن القرآن، والآن طوال وقتك تتحدث عن ذلك، هل كنت تتلاعب بي وتضحك علي؟
- كنت متأكدا أنك ستصل للإسلام، وستترك كل الأديان، وأنت تسير في طريق يوصلك للإسلام، فلماذا أقطعك عن الطريق؟ ولم أغير رأيي إلا في لحظة واحدة!
- متى؟
- عندما كنت مريضًا قبل إجرائك للعملية.
- لماذا؟!
- بصراحة خشيت أن تموت، وأنا أحب لصديقي أن يكون رفيقي في الجنة.. هذا الشيخ باسم قد وصل، أهلا بك يا شيخ.
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
جورج مستغربًا:
- مرحبًا، ماذا يعني ما قلتما؟

- هي تحيتنا نحن المسلمون، وهي دعاء للآخر؛ تسأل الله تعالى أن يسلمه من الآفات الحسية والمعنوية؛ فالسلامة الحسية سلامة البدن والعرض والمال، والسلامة المعنوية سلامة الدين من الآفات، ثم دعاء له بالرحمة والبركة، فديننا دين السلام والرحمة.

- مرة أخرى ستعيدونني للنقاش عن الدين! أنا مسافر بعد غد، فما هي الترتيبات المقترحة؟

- الذي تريد، أخي هناك، ويمكن أن يرتب لك كل ما تريد.

- لا أعرف المطلوب مني هناك من الأعمال حتى الآن، وأتوقع أنه أرسل لي على بريدي الإلكتروني، لكن أنا بعد التأمل أود زيارة ورؤية بعض الأشياء الشخصية طبعًا غير العمل، وأتوقع أن تقترحا لي أماكن وأشياء أخرى.

- ماذا تريد أن تزور؟

- أود زيارة الأهرامات، والكنيسة الأرثوذكسية، ومقابلة بعض قساوستهم، كما أود أن أرى بعض علماء المسلمين.

- كل ما ذكرته سهل جدًّا، وسيرتبه لك أخي فقد كلمته، وأقترح عليك ـ والأمر لك ـ أن تعايش بسطاء الناس وتسمع منهم.

- جيد ومهم، لكن.. كم تكاليف هذه الجولات السياحية التي ستقدمونها لي؟

- لسنا شركة سياحية، ستدفع بنفسك تكاليف الخدمات السياحية، وبالنسبة لأخي فهي خدمة للضيف، وذلك من العبادة المأمور بها المسلم.

- كل المسلمين هكذا؟

- هههه، لا طبعًا.

اعتدل آدم، وقال مازحًا:

- انتبه لنفسك من اللصوص والنشالين، ومن المشعوذين والمخرفين، ومن غيرهم من الأصناف، لا يوجد مجتمع مثالي في هذه الحياة، المدينة الفاضلة في أذهان وأحلام أصحابها فقط.

- ألا يدعوا الإسلام لمكارم الأخلاق؟!

بل بعث النبي ﷺ لإتمامها، كما يقول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، وبقدر التزام المسلمين بالإسلام بقدر التزامهم بالأخلاق، ومكارم الأخلاق موجودة حتى قبل مبعثه ﷺ، وهو إنما جاء لإتمامها، المهم انتبه لنفسك، فللأسف بلادنا أضعف اقتصاديًّا وأضعف نظامًا.

مد باسم يده ببطاقة..

– تفضل هذه البطاقة فيها معلومات أخي كاملة، وسينتظرك في المطار إذا أرسلت له رسالة على البريد بالموعد أو اتصلت عليه.. ولا تخش شيئًا؛ فأخي يتحدث الإنجليزية.
– كلمت أخي أيضًا قبل قليل؛ ليسضيفك في البيت عندنا، إلا أنه لا يتحدث الإنجليزية؛ ولذا لا يصلح أن يكون مرافقًا.
– أنا شاكر لكما، ومضطر للانصراف لأني تأخرت، وأتوقع أن أكون غدًا طوال الوقت في الشركة؛ لإكمال التجهيزات للسفر، ولديّ بعض الأعمال التي لا بد أن أنجزها اليوم، وسأتواصل معكما من مصر، أنا شاكر لكما جدًّا.
– مصر في انتظارك، مع السلامة.
– في أمان الله.

(٢)

فتح جورج بريده الالكتروني؛ ليرى هل أُرسلت له تفاصيل العمل في مصر أم لا، فوجد رسالتين، الأولى من جانولكا، والثانية من مدير العلاقات العامة، ففتح رسالة جانولكا أولًا..

«عزيزي جورج
أنا مستمتع في ليبيا أكثر مما توقعت.. صحيح أن هناك مشكلة في الأمن في ليبيا هذه الأيام، ومشكلة في الطقس، لكن أشعر بسياحة روحانية لطيفة ندية رغم الجفاف الصحراوي فيها.
سأوافيك بأخباري أولًا بأول وأتمنى أن توافيني بأخبارك أولا بأول؛ حتى نجد طريق السعادة.
ملاحظة: لو كنت أخبرتني أنك ستسافر لمصر لجعلت سفري لمصر، بدلًا من ليبيا
جانولكا»

فردّ عليه..

«عزيزي جانولكا
أعتذر عن عدم إخبارك بسفري لمصر؛ فلم أكن أتوقع، بل لم يتأكد إلا اليوم، وسأوافيك بأخباري عند سفري.
ملاحظة:لم أفهم ماذا تعني بالسياحة الروحانية اللطيفة الندية؟! لكني أشعر حقيقة بجفاف روحي ممل.
جورج»

ثم فتح رسالة مدير العلاقات العامة، وقرأ التفصيلات المطلوبة منه في مصر، قرأها بتركيز شديد؛ فالمهمة صعبة جدًّا، حيث طلب منه فتح مكتب تمثيل تقني وتجاري في القاهرة؛ ليكون مركز تمثيل في الشرق الأوسط كله. كان واضحًا أن كاخ لا يرغب في عودته سريعًا، لذلك حرص على أن يجعل المهمة صعبة، بل شبه مستحيلة؛ فقرر أن يتفرغ بقية اليوم وغدًا للتجهز للسفر لينجح في مهمته الصعبة تحدّيًا لكاخ.

بدأ جورج بمراسلة شركات التوظيف التقني في مصر، وأخبرهم بأنه سيصل بعد يومين، ويريد أن يكون بعض المتقدمين للوظائف جاهز لمقابلته في أقرب فرصة، وحجز عبر الإنترنت في فندق فخم لأول ليلة، ثم سينظر في السكن باقي الأيام بالتنسيق مع جمال أخي باسم الذي قابله في المستشفى عند آدم. وبدأ في البحث في الشبكة العالمية عن أي معلومات تفيده في النجاح في رحلته، وفي تجهيز صياغة مناسبة للعقود، والبحث عن فرص النجاح.

دخلت عليه كاترينا فيما كان مستغرقًا في تفاصيل عمله ومهمّته، فهو يعلم أنّه أمام تحدٍّ كبير مع كاخ، وأنّ كاخ لن يتركه في شأنه، ولا بدّ أن يستعدّ جيّدًا لما سيأتي..

– كان يومًا شاقًّا جدًّا، بشر ما جديدك؟

– سأسافر بعد غد إلى مصر.

– بعد غد، لماذا هذه العجلة؟!

– وبمهمة طويلة وصعبة جدًّا، ربما أكون أخطأت عندما اخترت مصر، أو أراد كاخ أن ينتقم مني بهذا ويشوه سمعتي أمام مجلس الإدارة.

– أنا متأكدة أنك ستنجح في مهمتك رغمًا عنه، فالرب معك.

– أحبك كاترينا، وأخشى أن هذا السفر سيأخذ مني أكثر من شهر، وفي بلد غريب عن عالمنا، غريب في لغته، في دينه، في حضارته، في أنظمته.

– ربما، لكن لدي شعور داخلي بأنك سترتاح في سفرك.

– أتمنى ذلك، وآدم يؤكد لي أن البلد جميل، يبدو أن آدم يحب بلده جدًّا.

– كل الناس يحبون بلادهم!

– نعم، لكن الأغرب، أنه يحب مكة أكثر مما يحب مصر، والسبب أن نبيهم يحبها أكثر، أيّ طاعة ومحبة هذه؟! ألا تذكرك بمحبة النصارى للرهبان؟

– أبدًا، تذكرني بمحبتنا لعيسى، وإن كانت تختلف عنها.

– تختلف في ماذا؟

– نحن نرى عيسى في مرتبة الألوهية، وهم يرونه نبيًّا رسولًا فقط، نحن نركز في حبنا لعيسى على أنه ضحى بنفسه ليخلصنا، وهم يركزون على أنه أُرسل من عند الله وعلمهم كل خير.

– أي خير!

– الإسلام، فهم يرون أن كل الخير فيه.

– كل الخير!

– هم يرون ذلك، ويقدمون رؤية إسلامية لكل مجالات الحياة، يقولون أنها جاءت من الله.

– ماذا تعنين بقولك «يرون.. يقولون»؟!

– المسلمون.

– قلت في رسالتك الأخيرة على البريد عن القرآن: «يبدو أنه من عند الله»، كانت رسالتك مفاجئة لي بكل المعايير.

– بل كان بحثي في سؤالك عن صحة نسبته لله هي المفاجئة لي، فلا شك في أن هذا الذي يقرأه العرب هو ما جاء به محمد بلا أدنى تحريف، لكن السؤال هل محمد صادقًا أم لا؟

– الذي أفهمه من رسالتك أنك ترين أنه صادق؛ ولذا قلتِ: يبدو أنه من عند الله.

– لا لم أكن أقصد ذلك، ما أقصده أنه ليس كالعهد القديم والجديد فيه نسخ مختلفة متضاربة.

– رغم جمال النقاش، أنا مضطر أن أقطعه؛ فلدي عمل كثير لتجهيزه قبل السفر، بالمناسبة أين الأطفال؟

– ذهبوا في رحلة مدرسية، لقد أخبروك بالأمس، أنسيت؟! عمومًا أتوقع أن يصلا بعد قليل ويكون الغداء جاهزًا وإن كان متأخرًا جدًّا.

– أووه لقد نسيت، وأنا جائع جدًّا فشكرًا حبيبتي، وأستأذنك سأكمل عملي حتى يأتي الغداء.

(٣)

ودّع جورج كاترينا وأطفاله، ومضى إلى المطار.. وصل إلى القاهرة في السادسة مساءً، أنهى إجراءات الوصول واستلم حقائبه، وخرج إلى صالة الاستقبال، فوجد شخصًا يحمل لوحة كتب عليها اسمه: جورج نيسون، بخط كبير يشي بعدم إتقان صاحبه للإنجليزيّة، تقدّم صوبه فأشار، فابتسم له، ونادى صاحبه الذي جاء مرحّبًا بجورج..

– أهلًا أهلًا بك في مصر، أنا أخو باسم «جمال»، وهذا أخو آدم «محمد»، المعذرة هو لا يتقن الإنجليزيّة، ولكنّه حرص على الترحيب بقدومك.

– شكرًا لكما.. لنمضِ إلى فندق المطار، فقد حجزت غرفة فيه.

– الأمر إليك لكنه فندق بعيد عن البلد، والقاهرة شديدة الزحام، كما أنه غال جدًّا.
– لا بأس بتغييره غدًا، فأنا لم أحجز إلا يوما واحدا، لكني آمل أن ننتقل بعد ذلك إلى فندق نظيف وقريب من وسط البلد، وقريب من الشركات الكبرى في البلد.
– هناك فنادق كثيرة داخل البلد، وغدًا تختار أنت الفندق الذي تريده.
– أقترح أن تختار لي أنت وتحجزه غدًا؛ فإن أعجبني استمريت فيه، فأنا مشغول جدًّا.
– الذي تريد.. أنا متفرغ لخدمتك، لا تعرف مقدار توصية باسم بك.
– عجيبة حفاوة باسم بي!
لأسباب عدة: أنت ضيف والنبي ﷺ أمرنا بإكرام الضيف، وأنت تبحث عن الإسلام، ويجب علينا أن نعرفك على الإسلام، وأنت صديق أخي، والله أمرنا بالوفاء.
أولًا: لماذا كل ما قلت لكم شيئا قلتم النبي ﷺ؟! ثانيًا: من قال لك أني أبحث عن الإسلام؟
أولًا: لأن النبي ﷺ حبيبنا وقدوتنا، ثانيًا: أخبرني أخي باسم بأنك تبحث عن السعادة.
– عن السعادة لا الإسلام!
– لا أفهم فرق بينهما، إذ لا سعادة بلا إسلام، وإلا لسعدتم أنتم في الغرب، فليس سرًا أن دولة مثل السويد نسبة الملاحدة واللادينيين فيها قرابة ٨٠٪ هي من أكثر دول العالم انتحارًا، رغم أنها أكثرها رفاهية، أليس الانتحار هو قمة التعاسة والشقاء؟!
– لكن ألا ينتحر المسلمون أيضًا؟
– للأسف نعم! لكنهم الأقل في الانتحار بفارق كبير، ففي دراسة قام بها الدكتور جوس مانويل والباحثة أليساندرا فليشمان، وهي دراسة علمية شاملة استندا إلى مراجع الأمم المتحدة الموثقة عن علاقة الدين بالانتحار، وجدا أن أكبر نسبة للانتحار عند الملاحدة؛ فهم يشكلون من المنتحرين قرابة ٢٥٪، ثم يليهم البوذيون، ثم المسيحيون، ثم الهندوس، ثم المسلمون بنسبة أقل من ١٪، بل قال الباحثان بالحرف: «إن نسبة الانتحار في الدول الإسلامية ـ بخلاف كل الدول الأخرى ـ تكاد تقترب من الصفر، وسبب ذلك أن الدين الإسلامي يحرم الانتحار بشدة».
– هل يحرم الإسلام الانتحار؟
بالطبع، بل يحرم كل ما يضر الإنسان، بل العجيب أن النبي ﷺ ذكر بالنص ما يشكل ٩٠٪ من الانتحار حسب الإحصائيات؛ عندما قال: (من قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب سمًّا فقتل نفسه، فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا).

- يبدو أن تخصصك مؤثر عليك! ولذا تحب الأرقام كثيرًا!

- شكرًا للمجاملة، فعلًا تخصصي رياضيات كما أخبرك أخي، والرياضيات العقلية تزيد في المنطق العقلي بلا شك، لكني تعلمت الأسلوب العلمي من ديني أولًا.

- كل شيء من النبي ومن دينكم! أنتم تبالغون!

- ربما، لكن ألا ترى أن المنهج العلمي يقتضي أن تحدد فيم أبالغ، لا أن تتهمني مباشرة بالمبالغة؟

- غلبتني! كيف يحث دينكم على المنهج العلمي؟

- إليك بعض مسلمات الإسلام المرتبطة بالمنهج العلمي، فمثلًا: حذر الإسلام من التقليد بلا عقل: يقول سبحانه عن المشركين: ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]، وعن اتباع الظن بدون منهج علمي: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦]، وعن الهوى الذي يخالف العلم والمنطق والعقل والدراسة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام:١١٩]، وعن البغض والكراهية التي تبعد عن العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨]، وعن الموضوعية العلمية، قال تعالى عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء:٤٦]، وعن عدم البغي والشقاق: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الشورى:٤٢]، وعن الأمانة العلمية مع العدل بين الناس: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء:٥٨]، وعن العدل والقوامة بالقسط والشهادة بالحق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]، وعن أهمية البحث عن الدليل والبرهان والحجة: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤]، وعن...

- اقتنعت.. يكفي، هل أنت رجل دين كأخيك؟

- أنا وأخي لسنا رجال دين بالمفهوم الكنسي عندكم، تخصص أخي دراسات إسلامية وتخصصي رياضيات.. وعلى فكرة أنت مدعو على وجبة عشاء من محمد أخي آدم.. وهو يسألك هل تريد أكلًا مصريًّا؟ أم تريد أكلًا من الوجبات السريعة؟

- وجبة مصرية خفيفة.

- لدينا وجبة نسميها (كشري)، هل تأكلها أم لا؟

- كشري! لا أعرفه لنجربه.

- الكشري هو مكرونة مع أرز مع بصل وطماطم وأشياء أخرى، عمومًا هي لذيذة جدًّا، وشعبية

جدًّا، وستعجبك إن شاء الله، وهذا محل كشري مميز.

- لم يرتح محمد لاختيار جمال، فقال له: جمال هل يعقل أن نعزم ضيفنا من الخارج على كشري، لا يليق بأدب الضيافة.

- لا أبدًا يا محمد فهذا طلبه.. يا جورج محمد يعترض على دعوتك في مطعم رخيص، ويود أن تكون في مطعم غالٍ، فما رأيك؟

- اشكره جدًّا، وقل له هذا طلبي، ومما يسعدني.

- أرأيت مثلما أخبرتك!

- قل له يا جمال بأننا سنستجيب لطلبه، ولكن مع الاعتذار الشديد، فنحن اعتدنا الكرم مع الضيف، هكذا عادتنا وهكذا ديننا.

- كل شيء لديكم بسبب الإسلام أو محمد، يبدو لي أنكم المسلمين أكثر تدينًا منَّا المسيحيين.

- كيف؟ لم أفهم؟

- نحن نكتفي أن نصلي يوم الأحد، وأنتم تصلون كل يوم أكثر من مرة، أنتم معجبون ومهتمون بدينكم ونبيكم، ونحن ليس لدينا في الواقع قدسية حتى لأنبيائنا، أنتم ترون الدين حياة كاملة، ونحن نراها علاقة روحية فقط.

- وهل ما تقوله مدح أم ذم للمسلمين؟

- ههههه، هو توصيف فقط، فأنتم تثورون وتغضبون غضبًا عارمًا على من تكلم على مقدساتكم، يكفي ما فعل الأفغان لما أهان الأمريكان مصحفهم وأحرقوه!

- من لا يهتم بمقدساته ويوقر أنبيائه، فلا يستحق أن يكون شيئًا، ألستم توقرون الملكة في بريطانيا؟ أليس الأمريكان يوقرون رؤساءهم المؤسسين؟ أليس الشيوعيين يوقرون ماركس ولينين؟ والنازيون يوقرون هتلر؟ وغيرهم كثير، ونحن نوقر الأنبياء كلهم، بل نحن نوقر عيسى عليه السلام أكثر مما يوقره حتى المسيحيون، ونحبه أكثر من ما تحبونه، ولا نضعه فوق منزلته؛ فهو عليه السلام عبد ورسول لله.

- نعم صحيح، لكنكم تبالغون!

المبالغة تكون لو قلنا أن محمدًا ﷺ إله كما قلتم!

- أعني تبالغون في ربط الحياة بالدين.

- أما بالنسبة لعلاقة الدين بالحياة، فأعتقد أن من يرى العلاقة بين العبد وبين ربه مجرد علاقة روحية مؤقتة بالصلاة، ثم تبقى الحياة كلها بلا رب فهو لم يفهم الحياة ولا الدين ولا الإله، عذرًا وسيبقى في شقاء وهم وغم الدنيا حتى يصل إلى الانتحار الذي تحدثنا عنه قبل قليل، فليس

للحياة وللدين أو الإله معني ما لم يكونا في رباط دائم.

دخلوا إلى مطعم يقدم الكشري، وجلسوا إلى طاولة صغيرة أثارت عجب جورج، كان المطعم مزدحمًا، والعمّال يعملون بجدّ ويلبّون طلبات الزبائن بسرعة.. طلبوا ثلاثة أطباق كشري، فما هي إلا دقائق حتّى جاءهم النادل بها..

– سم بالله يا سيدي، الكشري وصل.

– ماذا يقول النادل؟

– يذكرني أن أسمي الله قبل الأكل.

– ولماذا؟!

– إكمالًا لحديثنا السابق يفترض أن المسلم حياته كلها لله، فالمسلم يقول قبل الأكل بسم الله؛ أي أبتدئ هذا الفعل مصاحبًا أو مستعينا بـ (اسم الله)؛ ملتمسا البركة منه.

– جميل!

– الإسلام لم يترك شاردة ولا واردة إلا وفيها حكم لله، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

– كل شيء!

ههههه، ذكرتني برواية كانت على عهد النبي ﷺ، حيث جاء رجل غير مسلم، فقال لصحابته مستهزئًا: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة! فقالوا له: نعم، إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، ونهى عن الروث والعظام، وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار.

– وهل ما قاله صاحب نبيكم صحيح؟! أم مجرد جدال وحجة لغير المسلم، هل صحيح أن في الإسلام تفاصيل الآداب؟

نعم صحيح، فلله الحمد أن الله أتم الدين؛ فقد قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فالنبي ﷺ بُعث ليتمم مكارم الأخلاق

– لماذا تعتقدون أنكم تملكون مكارم الأخلاق وحدكم؟

ربما لم تنتبه لما قلت قبل قليل يقول النبي ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فالإتمام يعني أن هناك مكارم أخلاق موجودة في الناس والنبي سيتممها ويكملها، وهذا جزء من روعة الإسلام وتفرده.

– ماذا تعني؟

– أعني أن الإسلام يكمل ويتمم الأخلاق والأديان والشرائع، فهو متمم لرسالة آدم وموسى

وعيسى صلوات ربي عليهم جميعًا، فالخلق في الإسلام ليس شيئًا هامشيًّا، بل قضية أصيلة في ديننا.

– وهل (الكشري) شيئًا أصيلًا في دينكم؟

– ههه، شيء أصيل في مصر، وليس في الإسلام، فهو طعام للفقراء وللأغنياء أيضًا.

– (الكشري) لذيذ.

– بالهناء والعافية، والشكر لمحمد مضيفنا الصامت؛ لكونه لا يتقن اللغة الإنجليزيّة.

– اشكر محمد كثير الشكر، وقل له أنها من أفضل ما أكلت.

– يتبقى المهلبية باللبن وقد طلبتها.

– محمد يقول لك يتبقى المهلبية باللبن وقد طلبها، وهي نوع من أنواع الحلوى المصرية التقليدية.

بعدما أنهوا طعامهم، غادروا إلى فندق المطار؛ حيث حجز جورج، وبعدما انتهت إجراءات الدخول، أخبر جمال جورج بأنه سيأتيه غدًا صباحًا..

دخل جورج الغرفة، رتّب أغراضه، وأخذ حمّامًا سريعًا.. ثمّ فتح بريده الإلكتروني، ووجد ردود زملائه عليه.. فلخصها وأعاد إرسالها..

«لقد كانت إجاباتكم مفاجئة ومفيدة لي وهي على النحو التالي:

حبيب: لا أحب الإسلام رغم أن كثيرًا من أطروحاته علمية، أنصحك بزيارة الكنيسة الأرثوذكسية.

ليفي: عند مناقشة الإسلام لا بد من مناقشة الوحشية والتطرف والتخلف والرجعية والفساد.

كاترينا: لا أدري ما السر الذي يجذب في هذا الدين! ربما من الجيد التأكد من حبهم للمسيح وإكرامهم للمرأة.

آدم: أفضل مرجع هو كتاب الله القرآن، وأتمنى ألا يتحدث عن الإسلام من لم يدرسه ويتعلم منه.

جانولكا: الإسلام بساطة عميقة، وعمق بسيط، لا أدري ما السحر الذي في هذه الأفكار، أفضل قراءة بعض ما كتب المنصفون الغربيون عن الإسلام.

وسأضيف لكم مني أنا جورج: هناك أسرار غريبة في الإسلام: التوحيد ـ الشمول ـ الطمأنينة ـ الروحانية ـ العلمية ـ الإرهاب ـ المرأة ـ المرجعية ـ المصداقية ـ التاريخ.

وأقترح أن تكون الرسالة التي تليها في تجلية الأمور الضبابية التي ذكرتها، فمن لديه رأي يوافينا به؟

جورج».

وبعدما أرسلها.. وجد رسالة من ليفي:

«عزيزي جورج

أتمنى أن تكون وصلت لمصر بصحة وعافية، أشعر بأنك متجه للإسلام بقوة واندفاع بخلاف دراساتك السابقة لليهودية والنصرانية.. انتبه لنفسك من المسلمين؛ فأنا أخاف عليك منهم.

ليفي».

فرد عليها..

«عزيزتي ليفي

أشكر لك مشاعرك الصادقة، وسآخذ حذري وأوافيك بالأخبار أولًا بأول، قد أبدو كما ذكرت لكن ثقي أني لن أندفع لدين أبدًا إلا بعد اطمئناني بالكامل له، وسأتشاور معكم أشكر لكِ حرصك

جورج».

ووجد رسالة من كاخ.. ففتحها..

«عزيزي جورج

سرني ابتعادك عن الشركة، وقبولك بمهمة لم تعرفها قبل موافقتك، أتمنى لك النجاح؛ فقد رتبت كل شيء لك، أما إن فشلت فتحمل نتيجة فشلك، أنتظر نجاحك.

كاخ».

في السابعة صباحًا نزل جورج من غرفته للإفطار في الفندق، أحبّ بوفيه الفندق الذي كان منوعًا بين أطباق فطور عالميّة وأطباق مصريّة، فراح يتذوق ويتعرّف على أصناف جديدة لم يذقها من قبل..

سأله النادل بإنجليزيّة ضعيفة إذا ما كان يريد شيئًا..

– شكرًا جزيلًا..

– من أين أنت سيديّ؟

– من بريطانيا.

– وأنت؟

– من مصر.. من الإسكندرية.

– هل تستطيع أن تحدثني عن الإسكندريّة؟

– الإسكندرية من أكبر المدن المصرية، مدينة قديمة تأسست على يد الإسكندر الأكبر المقدوني عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

تذكر جورج ما قرأه عن هذه المدينة العريقة التي أراد الإسكندر أن تحمل اسمه، وتكون مركزًا للتجارة وللحضارة الهيلينستية، ثم تعاقبت عليها العصور والحضارات، وفيها الكثير من الآثار التاريخية؛ مثل منارة الإسكندرية التي تعد احدي عجائب العالم القديم، ومكتبة الإسكندرية دخلتها المسيحية على يد القديس مرقس الرسول سنه ٤٥ ميلادية، وكانت أحد مراكز التنمية العلمية للمسيحيين. بل كان لها دورها الفلسفي أيضًا؛ فكانت بها أشهر مدرسة فلسفية؛ وهي مدرسة الأفلاطونية المحدثة، كما كان بها مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التي شكلت معالم الفكر واللاهوت المسيحي في العالم. ثم تذكر دورها بعد الإسلام ظلت الإسكندرية قلعة علمية؛ فقد أصبحت المركز العلمي الذي يتلقى فيه علماء المغرب والأندلس علومهم الدينية قبل عودتهم لبلادهم...

قاطعه النادل:

- يبدو أن ذهنك مشغول عني، أستأذنك..

تنبه جورج من شرود ذهنه وقال:

- فقط كنت أفكر في تاريخ الإسكندرية العريق.

- أنا لم أكمل دراستي الأساسية وبالكاد أكتب، لكني أحب مصر والإسكندرية خاصة، والإسكندرية بلا شك بلاد العراقة، هل سبق وأن زرتها يا سيدي؟

- شوقتني لزيارتها، هل أنت مسلم؟

- لا أنا مسيحي...

- كيف العلاقة بين المسلمين والمسيحيين؟ كيف دخل الإسلام مصر؟

- وقعت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين، وكان الأقباط المصريين يحاربون مع المسلمين؟

- الأقباط المسيحيون؟!

- الأقباط هم أهل مصر الأصليون، ولا يعني أنهم كلهم مسيحيون.. وعندما فتح المسلمون الإسكندريّة تمتع أهلها بالحرية الدينية، وحافظوا على الجالية اليهوديّة، ولم يتعرضوا للكنيسة أبدًا.

- ولماذا لم تسلم إذن ما دمت معجبًا بالمسلمين؟

- أنا ولدت هكذا، فلماذا أغير ديني ودين آبائي وأجدادي؟ هل يمكن أن تغير أنت دينك؟

- ربما.. ما الذي يمنع، إن لم يكن الثبات على قناعة؛ فالتغيير بقناعة أولى.

- أما أنا فلا أحب التغيير، ولا أحب شروط الإسلام الصعبة.

- شروط الإسلام الصعبة؟!

- خمس صلوات كل يوم، زكاة المال، صوم شهر رمضان، حج إلى مكة، لا تكذب.. لا تسرق..

لا تغتب.. لا تزنِ.. إلى آخره.

- لكنهم يستمتعون بذلك، ويعتبرونه رقي في الحياة وسعادة.
- ربما هم يستمتعون، أما أنا فلا، وأعتذر أطلت معك الحديث.
- لا أنا انتهيت من تناول طعامي، وأشكرك على وقتك.

صعد جورج الغرفة، وجمع حقيبته؛ استعدادًا للانتقال من الفندق إلى فندق آخر، طلب حامل الحقائب، وأُنزلت حقائبه، ونزل ينتظر جمال في الاستقبال، وبمجرد ما انتهى من إجراءات الخروج وصل جمال لاصطحابه..

- تبدو جاهزًا ومتحمسًا للعمل.
- نعم.. لدي أعمال كثيرة يجب أن أنجزها اليوم.
- سنتجه لوضع حقائبك في الفندق، ثم أوصلك حيث تريد.
- وما الفندق الجديد؟
- فندق في حي اسمه المعادي مطل على النيل.
- قريب من أعمالي؟
- القاهرة كبيرة نسبيًّا، ولا أدري أين أعمالك بالضبط، وإن شاء الله يكون مناسبًا وقريبا من أعمالك، وإذا لم يناسبك فيمكن تغييره.

وصلا إلى الفندق الجديد، وأنهيا إجراءات حجز الغرفة..

- سأنتظرك حتى ترتاح ونخرج بعد ذلك.
- أنا مرتاح، سأصعد للغرفة وسأعود حالًا.

عاد جورج سريعًا مبتسمًا وبحيوية...

- أود أن أذهب لو سمحت إلى هذا العنوان.. هذه شركة توظيف تخاطبت معها.
- الشركة في الجيزة، ليست بعيدة، وهي قريبة أيضا من الأهرامات.
- جيد، كم أتمنى أن أرى الأهرامات!
- أكيد، لا يمكن أن تزور مصر ولا ترى الأهرامات.
- وهل الأهرامات بسبب دينكم؟

الأهرامات بناها الفراعنة، وعصر الفراعنة قبل بعثة النبي ﷺ وقبل بعثة عيسى عليه السلام بعصور طويلة، كثير منها كان على التوحيد، وبعضها كان على الكفر، ألا تعرف فرعون الذي قال لنبي الله موسى عليه السلام: أنا ربكم الأعلى، وعذب بني إسرائيل حتى أغرقه الله؟

- العجيب أني قرأت القصة في العهد القديم «التوراة»، وفي القرآن.

– رائع.. وبصدق: أيهما يقدر ويجل موسى عليه السلام أكثر؟

– بصدق.. القرآن؛ رغم أنه نبي اليهود، لكن...

عذرًا، وبصدق.. أيهما يجل ويقدر نبي الله عيسى عليه السلام أكثر، القرآن أم الإنجيل أم ما تسمونه العهد الجديد؟

– الإنجيل من وجه، والقرآن من وجه.

– كيف؟

– القرآن؛ من حيث التعامل معه، وذكر أخلاقه، وعدم إلصاق النقائص فيه، والعهد الجديد؛ من حيث أنه رفعه وجعله إلهًا!

– أتعتقد أن جعل بشر إلهًا تكريم له أم كذب عليه؟!

– أفهم جيدًا ما تعنيه، وستقول لي: وفي بعض نسخ العهد الجديد أنه عبد وليس إله، وستقول غير هذا كثير، ومعك حق فيما تقول، لكن أنت طلبت رأيي في شيء محدد.

– أظنك اطلعت على بحث: «هل كان المسيح مسلمًا؟» لرئيس قسم الأديان والعقائد في جامعة لوثر في الولايات المتحدة الأمريكية البروفيسور روبرت شيدينغر.

– نعم.. اطلعت عليه اطلاعًا سريعًا، وأظنه مبالغ؛ إذ كيف يكون المسيح مسلمًا والإسلام جاء بعده؟!

– كل من قال غير ما اعتدتم عليه؛ إما مبالغ، أو كافر، أو مخالف للمنهج العلمي، هو رئيس قسم اللاهوت، وفي جامعة عريقة، ولم يغير كلامه والجامعة تؤيده، ألا ترى أن الإنسان يحتاج لتبني بعض القرارات لحرية نفسية وشجاعة عالية؟!

– ربما، أتفق معك في جزء مما قلت.

– جيد، نحن وصلنا هل تريدني أن أصعد معك، أم أنتظرك وتخبرني متى تنتهي حتى آتي لأخذك؟

– لا أدري.. ادخل معي حتى تتضح الأمور لي، ثم أخبرك.

دخلا شركة التوظيف العالمي، وطلبا مقابلة المدير، فأخبرهم السكرتير أن المدير د. جرجس خرج، وسيعود بعد ساعتين تقريبًا.. فاتفقا معه أن يعودا بعد ساعتين لمقابلته..

– لدينا ساعتين، ونحن بقرب الأهرامات، فهل تود أن تزورها في الساعتين أم لديك موعد آخر؟

– لنذهب للأهرامات، ثم نعود بعد ذلك.

– جيد، ثم قال: بالمناسبة مدير شركة التوظيف نصراني مثلكم، إلا أنه أرثوذكسي وليس بروتستانتي.

- كيف عرفت؟ هل تعرفه؟

- لا أعرفه، لكن من اسمه كما أخبرنا السكرتير؛ فاسم جرجس لا يسميه عندنا إلا النصارى، أما أنه أرثوذكسي فكل النصارى لدينا أرثوذكس وليسوا بروتستانت.. أعرف أنكم تكفِّرون بعضكم بعضًا.

- ألا يوجد في الإسلام فرق تكفر بعضها بعضًا؟!

- للأسف يوجد.

- مثل من؟

هناك غلاة ينكرون القرآن ويسبون أصحاب الرسول ﷺ، وزوجاته الطاهرات، ويقومون بكثير من الخرافات.

- أين هم؟

- هم أقلية في العالم الإسلامي، ويتركزون في إيران والعراق وفي دول أخرى.

- تعني الشيعة!

- بل أعني بالأصح الروافض، الذين رفضوا الكتاب والسنة، وغيرهم ممن ينتسبون للإسلام؛ كالبهائية والقاديانية وغيرهم.

- إذن أصبحتم مثلنا فرق متناحرة تكفر بعضها بعضًا؟

- لا لسنا مثلكم، فغالب المسلمون لديهم أن القرآن بسند صحيح في نقله وفهمه ولفظه، لكن أنتم لا يوجد أحد من الفرق لا الأرثوذكس ولا الكاثوليك ولا البروتستانت ولا غيرها لديها إنجيل غير محرف البتة، وأظنكم تعرفون هذا جيدًا.

- أفهم الفرق الذي تقول، ولكني أرى وجه تشابه، المهم هل يوجد شيعة في مصر؟

- تقريبًا لا يوجد، رغم أنهم حكموا فترة من الزمن مصر.

- وهل قتلتموهم بعد ذلك؟

- نحن لسنا مثلكم، ذهب حكمهم، وبقي الناس على السنة والفطرة السوية، وعاد الباقون للسنة وللإسلام.

- وماذا تقصد بـ «نحن لسنا مثلكم»؟

- آمل ألا تفهمني خطأ، على سبيل المثال فقط أين سكان استراليا الأصليين؟ أين سكان أمريكا الأصليين؟!

- هل يمكن أن توضح أكثر؟!

- أنت تعرف كيف ظلمت شعوب كاملة! بل وللأسف أبيدت شعوب كاملة، أما الإسلام فقد

حرم الظلم وأمر بالعدل.. أها انظر هذه الأهرامات بدت لنا من بعيد.

– كم هي ضخمة!

– تتضح ضخامتها وبديع بنائها عندما تقترب منها، سنقف هنا وننزل ونركب عربة بحصان، ولكني أنصحك أن تنتبه لأغراضك الشخصية جيدًا.

– ماذا تعني؟!

– مناطق السياح في أكثر دول العالم هي أماكن السرقة والنهب، وهذا ليس خاصًا بنا نحن فقط، وإن تنوعت أساليب السرقة.

– ألا يفترض أنكم ـ كما تقولون ـ بأن المسلمين لا يسرقون؟

– المسلم ليس كائنًا ملائكيًّا، هو لديه أخطاؤه وضعفه ونقصه كغيره، لكن دينه يمنعه من ذلك، بينما غيره قد يحثه دينه على ذلك.

– كيف؟

– بعض الأديان ـ حتى ولو كان أصلها صحيحًا من تحريفها ـ تحث على ظلم غيرها، وقتلهم وسرقتهم، أما الإسلام فيحرم ذلك تحريمًا قاطعًا، ولكن بقدر بعد الناس عن دينهم بقدر بعدهم عن أخلاق الإسلام وروحه، وعند ذلك توجد كثير من الأخلاق والصفات السيئة التي نهى الشرع عنها؛ كالسرقة والزنا وشرب الخمر والكذب وإخلاف الوعد والأنانية وغير ذلك، تفضل انزل.

– يبدو أنها ستكون رحلة ممتعة.

استأجر جمال حصانين وركبا عليهما؛ ليأخذا جولة في الأهرامات.. وكان الرجلان الممسكان بالحصانين لا يتقنون الحديث بالإنجليزيّة، فطلب جورج من جمال أن يطلب منهما الإسراع لينتهيا من جولتهما خلال ساعتين.. في نهاية الرحلة توجها للسيارة ليلحقا بموعدهما..

– أشكرك جمال من كل قلبي كانت رحلة ممتعة حقًا، هل يمكن أن نرجع للمكتب الذي كنا فيه؟

– ممكن، ويمكنك إن أردت أن تتصل به ليأتيك في الفندق؛ فالساعة الآن الواحدة.

– جيد سأتصل به.

أدخل جورج يده في جيبه ليخرج الهاتف ففوجئ بأن جزءًا من المبلغ الذي في جيبه مفقود! بحث جيدًا فلم يجده..

– يبدو أنني سرقت!

– خيرا إن شاء الله، ربما تكون سقطت منك.

– لا، أظن الذي كان يقود الحصان عندما كنت أنزل من على الحصان أدخل يده في جيبي

وأخذها، لكن الجيد أنه لم يدخلها في الجيب الآخر الذي فيه المحفظة كاملة مع بطاقات الائتمان.

- الحمد لله، ألم أقل لك انتبه واحذر!

- المبلغ لم يكن كبيرًا، المهم دعني أتصل على جرجس مدير شركة التوظيف.

اتفق جورج مع مدير شركة التوظيف جرجس أن يكون لديهما في الفندق في قرابة الساعة الثانية وأخبر جمال بذلك، وعندما وصلا إلى الفندق، طلب جورج من جمال أن يصعد معه إلى الغرفة ليكملا حديثهما..

- لا أريد أن أزعجك وأنت في اجتماع العمل مع جرجس.

- أتوقع أن يكون الاجتماع قصيرًا؛ فهو مجرد تجهيز لاجتماع مطول غدًا، وأنا أريد أن أتناقش معك في مواضيع مهمة، إلا إذا كنت مشغولًا.

- لست مشغولًا تفضل.

صعدا الغرفة، وجهز جورج كوبين من الشاي من طاولة الضيافة الخاصة بالغرفة، وجلسا يتحدثان لدقائق حتى رن هاتف الغرفة، وأخبر موظف الاستقبال جورج بأنّ مدير شركة التوظيف ينتظره في الاستقبال.

أخذ جورج بعض الأوراق سريعًا، واستأذن من جمال لمقابلة د. جرجس، الذي رآه جورج رجلًا متوسط القامة في الخمسينات من عمره، بادره جورج بالتحيّة والترحيب..

- إن رأيته مناسبًا جلسنا نتناقش قليلًا نجهز للقاء الغد.

- مناسب جدًّا.

- كما ذكرت لك في البريد الإلكتروني أنا أحتاج أن أوظف في شركتنا عددًا من التقنيين وإن كانوا سيعملون هنا في القاهرة، لكني أريد كفاءات مميزة.

- جهزت لك عددًا من الناس يمكنك مقابلتهم غدًا لو أردت.

- وماذا يمكن أن تخدموني أنتم في الاختيار؟

- الذين ستقابلهم هم الذين رشحناهم لك، وإلا فالمتقدمون أكثر.

- على أي معايير تم اختيارهم؟

- على المعايير المهنية طبعًا! لم أفهم ماذا تقصد؟

- ألم يكن أحد المعايير أن يكونوا على المسيحية مثلنا؟

بدا على وجه جرجس الغضب..

- أولًا: كيف عرفت أني مسيحي؟ ثانيًا: صاحب الشركة مسلم وأنا مجرد مدير لها، ثالثًا: المرشحون عشرة أشخاص واحد منهم مسيحي فقط والبقية مسلمون، رابعًا...

- عذرًا لم أقصد شيء، ولكن توقعت أن الأمور بينكم متأزمة وفي صراع؛ فأردت أن أستوضح الأمور فقط.
- الأمور بيننا جيدة وليس كما تتصورون في الغرب أو كما تحبون أن تتصوروا، في الحقيقة لم يحمِ الأقليات المسيحية في مصر إلا الحكم الإسلامي، ولذا حتى تاريخيًّا كانوا يقاتلون معه ومن ضمن الجيش الإسلامي.
- جيد، فقط كنت أحب أن أطمئن أن المعايير ليست عنصرية في الاختيار.
- اطمئن.. تم الاختيار بمعايير مهنية، رغم أنه كانت نسبة المسيحيين في المرشحين أكثر من الواقع.
- كيف؟
- واحد من عشرة يعني أكثر من نسبة المسيحيين في مصر، على كل حال غدًا ربما أخبرك بشيء إضافي في هذا السياق.. ولا أدري إن كان سيعجبك ويسعدك أم لا؟
- رائع، أنا مضطر أن أصعد فأحد أصدقائي ينتظرني في الغرفة في الأعلى.. بالمناسبة صديقي هذا مصري مسلم، وموعدنا غدًا الساعة التاسعة في الشركة، وأتمنى أن أقابل أكبر عدد أستطيع ليتم الترشيح منهم.
- جيد اتفقنا أنتظرك غدًا، وستجد - إن شاء الله - ما يسرك، فمصر بلد غني بالكوادر المؤهلة.
صعد جورج الغرفة، واعتذر لجمال على التأخر.. واقترح عليه النزول لتناول الغداء في مطعم الفندق..
- هل يمكن أن أسألك سؤالًا مباشرًا؟
- تفضل.
- اعذرني على الصراحة: ما مصلحتك التي تحصلها من الجلوس معي وتوصيلي ومرافقتي؟
- مصلحتي كبيرة جدًّا وواضحة.
- ما هي؟
- خدمة الناس في ديننا لها شأن مهم؛ فهي من أفضل القربات لله تعالى.
- هل هذه مصلحتك فقط؟!

– لا هناك مصالح أخرى، مثل خدمة صديق أخي، وهناك ما هو أهم من هذا كله؛ وهو دعوتك للإسلام.

– عذرًا؛ أما المصلحة الأخيرة فلا أظن، لكن ما مصلحتك المادية، كم تريد مقابل هذه الأعمال؟

– صدقني لم أفكر في ذلك، حدد المبلغ الذي تريد، ولكن بعد الأيام الثلاثة الأولى التي هي حق لك بحكم أنك ضيف.

– كان اليوم حافلًا مع أن الوقت ما يزال مبكرًا، لكني أود أن أنهي بعض الأعمال في غرفتي وأن أنام مبكرًا، أنا شاكر لك.. موعدنا غدًا الساعة الثامنة حتى ننطلق للشركة، فالموعد مع جرجس الساعة التاسعة.

– جيد، مناسب إن شاء الله.

أدخل جورج يده في جيبه لإخراج محفظته ليدفع الحساب، فلم يجدها..

– يبدو أني نسيت محفظتي في الأعلى، سأصعد وآتي بها وأعود، انتظرني دقائق.

– وماذا تريد منها الآن؟

– أريد أن أعطي النادل الذي خدمنا ولو مبلغًا بسيطًا.

– خذ هذه المائة جنيه، فليس لديك جنيهات مصرية، وغدًا إن شاء الله نصرف وتعطيها لي، حتى يكون صعودك مرة واحدة، والوقت الآن قرابة الخامسة وأنت تريد أن تنجز بعض الأعمال.

– أنا شاكر لك يا جمال.

(٤)

صعد جورج إلى غرفته، وفتح حاسوبه لينجز أعماله، ثمّ تذكّر محفظته، بحث عنها فلم يجدها، فتّش الغرفة جيّدًا، ولم يعثر على أي شيء! وتأكد من أنها غير موجودة؛ فأصابه هم كبير؛ إذ فيها بطاقاته الائتمانية والمبالغ المالية، فكّر كثيرًا، ثم اتصل على جمال..

– أين محفظتي؟

– أنت تقول أنك تركتها في الغرفة.

– أرجو أن تكون أكثر وضوحًا، أنا تركتها في الغرفة وتركتك في الغرفة وعدت ولم أجدها.

– ماذا تعني؟

– لن تخدعني بالمائة جنية التي أعطيتني، أعد محفظتي الآن.

– عذرًا أنا لم آخذها.

– كنت بمفردك في الغرفة وهي كانت في الغرفة، فمن أخذها؟

– أكرر أنا لم آخذها أبدًا.

– وتقول لي: أنال الأجر من الله، وأخدم صاحب أخي، الآن اتضحت الأمور، يبدو أن دينكم دين السرقة، في يوم واحد أُسرق مرتين!

– آمل ألا تتهجم على الإسلام، أنا لم آخذها.

– أين ذهبت إذن؟ هل طارت؟!

– لماذا تتكلم معي هكذا؟!

– إن لم تصلني المحفظة قبل الساعة التاسعة صباحًا فسأبلغ الشرطة عنك، ثم تقول لي: خدمة الناس من الدين، يبدو أنه لديكم سرقة الناس من الدين، حتى لا أطيل الكلام موعدنا الساعة الثامنة ومعك المحفظة، هذا آخر كلام لدي.

قطع جورج المكالمة، وارتمى على فراشه غاضبًا وحائرًا..

– يبدو أن كاخ سينتصر عليّ! ما الذي جاء بي إلى هذه البلاد، أمن أجل التعرف على الإسلام، دين السرقة؟ سُرقت اليوم مرتين.. ويأتي جمال ليقول لي أريدك أن تسلم!! أيّ سخف هذا؟؟!

انطلقت أفكار جورج مسترسلة قرابة الساعة فقد كان متوترًا وغاضبًا جدًّا، كان متأكدًا أن توتره ليس بسبب المبلغ الذي في المحفظة ولا في بطاقات الائتمان التي فيها رغم أهميتها بقدر ما كان يشعر بأنه كان كالطفل يتلاعب به الآخرون باسم الدين، فكر أن يرسل رسالة بتوقيف البطاقات الائتمانية لبطاقاته، لكنه عاد وفكر في أنه سيحتاجها، وكان يرجو أن يعيدها جمال غدًا لينهي هذه المسرحية القذرة.. تذكر موعده غدًا فتمتم..

- من الجيد أن موعدي غدًا مع مسيحي وليس مسلما، فهذا سيجعله أكثر نصحًا لي.. ثم قرر أن يتصل به ويخبره بالذي حدث، اتصل
- مرحبا، هل تغير الموعد؟
- لا أبدًا، لكني سُرقت من صديقي المسلم الذي كان في غرفتي أثناء مقابلتك، وأحببت أن أستشيرك، ماذا أفعل؟
- متأكد أنه سرقك؟
- للأسف نعم، تركته وتركت محفظتي في الغرفة وعدت ولم أجدها.
- ربما يحتاج أن تبحث جيدًا في الغرفة، أو ربما سقطت منك في الفندق.
- أنا متأكد، كم كنت غبيًّا عندما كان يضحك علي باسم الدين، هددته إن لم يحضرها غدًا صباحًا بأن أبلغ للشرطة.
- آمل أن يحضرها، أما الشرطة فلن تنفعك شيئًا؛ إذ لا يوجد أي إثبات عليه كما أفهم من كلامك.
- نعم، لا يوجد أي إثبات، لكن ما الحل؟
- متى موعدك معه غدًا؟
- الساعة الثامنة.
- جيد، هل يمكن أن تعطيني رقم هاتفه لأحاول معه.
- تفضل، هذا رقمه...
- آمل أن ترتاح، وغدًا نبحث ماذا يمكن أن نعمل، وعلى كل الأحوال آمل أن يحضرها معه.

أنهى جورج المكالمة وقد أحسّ بشيء من الهدوء.. ففتح بريده الإلكتروني، فوجد رسالة من جانولكا:

«عزيزي جورج

آمل أن تكون سعيدًا في مصر مثل سعادتي في ليبيا، الشعب هنا ودود جدًّا خلوق جدًّا متدين جدًّا، وربما الفارق بين الطبيعة الغربية وطبيعة هؤلاء العرب، أن الأخلاق لديهم جزء من دينهم لا صفة نفعية ينتظرون نفعها من الناس مثل نمطنا الغربي، طمئنا عن صحتك وأخبارك جانولكا»

فرد عليه:

«عزيزي جانولكا

أسعدتني سعادتك في ليبيا، لكني آمل أن تأخذ حذرك جيدًا من هؤلاء المسلمين، بالنسبة لي سرقت حتى الآن مرتين من المسلمين المصريين، أحدهما من شخص كان يدعوني للإسلام، ولم يقف معي في محنتي إلا مسيحي مثلي، كم أتمنى أن أنهي عملي سريعًا هنا وأعود إلى بريطانيا

جورج»

ثم كتب رسالة لليفي يردّ على رسالتها التي حذرته فيها من المسلمين:

«عزيزتي ليفي

للأسف حصل ما حذرتيني منه؛ سرقت في مصر، رغم ما ذكرتي سابقًا من اندفاعي للإسلام إلا أني أصبحت متيقنًا أنّه دين لا أخلاقي، ربما تكون اليهودية أو المسيحية محرفة والإسلام غير محرف، لكنه دين لا أخلاقي البتة، سأوافيكِ بأخباري الأخرى قريبًا لكنني تذكرت تحذيرك لي وعدم استفادتي من تحذيرك لي.

جورج»

لقي في بريده ردود أصحابه على تساؤلاته السابقة، لكنّه ليست لديه الرغبة في قراءة أيّ منها، فأغلق حاسوبه.. واستلقى على سريره محاولًا النوم فلم يستطع. قام من فراشه وفتح التلفاز على قناة الـ بي بي سي الإنجليزيّة، شاهد الأخبار قليلًا، ثمّ ظلّ يقلّب بين القنوات، حتى وقع على قناة إسلاميّة باللغة الإنجليزيّة.

كان البرنامج يتحدث عن الصفات الحميدة في الإسلام، وأن محمدًا ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق.. فقال لنفسه:

– ربما هذه الشعوب الإسلامية لديها انفصام في الشخصية وازدواجية.. كم أكره هذا الدين الذي يكيل بمكيالين!

لم يستطع من غيظه أن يكمل البرنامج، فقرر أن يحاول النوم مرة أخرى، وظلّ يتقلب على فراشه حتى نام.. وفي حدود الثالثة صباحًا استيقظ من نومه فجأة، قام إلى دورة المياه، وعند خروجه وقعت عيناه على محفظته بجوار المغسلة! تذكر أنّه استخدم الحمّام قبل نزوله لمقابلة د. جرجس ظهرًا، ولعجلته أخذ الأوراق الرسميّة ولم ينتبه إلى أنه قد نسي محفظته إلى أن افتقدها؛ فحدث ما حدث!

جلس على فراشه مصدومًا، وبدأ يشعر بدوار.. كيف يعتذر لجمال على ما بدر منه؟ لقد أساء إليه واتهمه بالسرقة قبل أن يتأكد من فعله، بل المصيبة أنه اتهمّه دون دليل.. لقد حذره آدم كثيرًا من اندفاعه وانفعاله.. ماذا يمكن أن يفعل الآن؟

(٥)

في الثامنة صباحًا.. وصل جمال للفندق وطلب من الاستقبال الاتصال على غرفة جورج وإخباره بوصوله، فقال له موظف الاستقبال:

- جورج البريطاني؟
- نعم.
- لقد حُمل صباح اليوم الباكر للمستشفى في حالة إسعافية بسبب انخفاض حاد في الضغط.
- وهل عاد؟
- نعم عاد منذ ساعتين تقريبًا، ولا أدري إن كان نائمًا أم لا؟
- آمل أن تتصل به الآن، وأخبره أن هناك شخصا اسمه جمال يريد أن يصعد للاطمئنان على صحته.

اتصل موظف الاستقبال على جورج يبلغه بحضور جمال، فطلب منه أن يصعد جمال إلى غرفته.. صعد جمال إلى الغرفة وفتح له جورج الباب والإرهاق والتعب بادٍ على وجهه..

- أعتذر لك جورج، صدقني لم أقصد أن أسيء إليك، وهذه حقيبة ذهب زوجتي، هي عندك أمانة حتى تفتح البنوك وأذهب وأحضر لك المبلغ، فأنا لم أستطع أن أحضر محفظتك ولا أعرف كم فيها!
- هل كل هذا خوف من الشرطة؟
- أنا أتأسف لما حدث، لكن الشرطة لن تستطيع أن تفعل شيئًا.
- إذن لماذا تحضر ذهب زوجتك؟
- أنت ضيف وحقك الإكرام، ثم أنت انقطعت بك السبل وحق علينا أن نساعدك، وأيضًا لا أريد أن أشوه صورة الإسلام في نظرك.
- ما زلت مصرًا أنه ليس أنت الذي أخذتها؟!
- بلا شك ليس أنا، لكن لا أود أن نناقش ذلك الآن حتى لا تتعب.
- لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟

- حقيقة لا أعرف، فهذا ينبني على مقدار أهمية المحفظة بالنسبة لي وحاجتي إليها، وعلى مقدار استقراري النفسي، ربما تخصصي في الرياضيات يجعل كل شيء عندي يتحول إلى حسابات.
- ولو فعلت مثلي، ماذا تتوقع أن أفعل لو كنت مكانك؟
- أعذرني من الإجابة.
- هل تتوقع أن أفعل ما فعلته أنت الآن؟
- حقيقة لا، لكن أنت تستحق ذلك.
- ولو بعدما فعلت ما فعلت وجدت محفظتك، ماذا تقول لصاحبك؟
- هل وجدتها؟!
- مجرد افتراض، حاول أن تستمر معي في افتراضاتي العقلية.
- لا بد أن أعتذر لصاحبي، وأعتقد أن المسألة صعبة جدًّا عليّ وقد تجعلني أنهار.
- ولو اعتذرت له ورفض اعتذارك ولم ينس لك ما فعلت؟
- معه حق، وإن كان الأولى أن يتسامى الإنسان ويغفر ويعفو؛ فالله عفو يحب العفو.
- إذن أنا أعتذر لك؛ فقد وجدت محفظتي.. وبسببها انخفض الضغط عندي وأُخذت للمستشفى ولم أدر ماذا أفعل؟ أكرر اعتذاري لك فاعف عني فالله كما تقول يحب العفو.

مسح جمال الدموع التي ذرفت رغمًا عنه...
- سامحتك، لكن ما أستطيع أن أقوله لك أني لم أستطع أن أنام من أمس حتى هذه اللحظة، لا أنا ولا زوجتي ولا أخي باسم في بريطانيا ولا آدم.
- هل أخبرتهم؟!
- ضاقت عليّ الأرض وأنا أبحث عن حل، واتصل علي جرجس يعظني ويعلمني كيف تكون أخلاق الإسلام، ولم أرد أن أكون فتنة لك، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة:٥].
- أنا آسف جدًّا.
- رغم الجراح لكن اعتبر أن الموضوع قد انتهى ، واعتبر وكأنه لم يحدث، كيف صحتك الآن؟
- أنا بخير، ولكني أخطأت في حقك خطأً كبيرًا.
- أنا سامحتك، لكن لي شرط.
- وما هو؟
- أن تنسى ما حدث وتهتم بنفسك، وإلا لن أسامحك.
- أنا موافق على شرطك، ولكن بشرط أن تنسى أنت إساءتي.

- اتفقنا، هل أفطرت؟
- لا.
- أنا مدعو على مائدة إفطار، ولكن بسرعة حتى لا تتأخر على موعدك مع جرجس، وسأسبقك إلى المطعم وأنتظرك في الأسفل.
- خمس دقائق وأكون عندك.

تناقضات..

١٦ تناقضات..

تناقضات..

(١)

- الساعة الآن الثامنة والنصف، هل ستتمكن من الالتزام بالموعد مع جرجس؟
- لنفطر سريعًا ثم نتحرك إليه، وفي الطريق اتصل به وأخبره أنّنا قد نتأخر قليلًا، وسيتفهم الأمر، جرجس رجل محترم لولا قسوته عليّ بالأمس.
- قسوته؟!
- اتصل علي بالأمس ولم يدع شيئًا يمكن أن يقال إلا وقاله لي من أجلك.
- أكرر أسفي عن كل ما حدث.
- يبدو أنك تريد أن تنقض اتفاقنا!
- لا، شكرًا لك جمال، كم أنا ممتن لك.

وصل جورج وجمال شركة التوظيف العالمي، وسأل جورج عن جرجس، فأخبره السكرتير بأنّه في انتظاره، فدخلا ورحب جرجس بهما..

- بشرني.. هل أحضر صاحبك المحفظة؟!
- دعنا نجلس أولًا، ثانيًا: أعتذر عن التأخير.
- كلمت صاحبك الذي اسمه جمال بالأمس طويلًا، والحقيقة أنه رجل محترم ولا أظنه سرقها، لكني ضغطت عليه كثيرًا.
- آسف لقد أتعبتك وأعتذر لك وآمل أن تسامحني، لقد كان جمال شخصًا رائعًا وسامحني، لقد وجدت محفظتي في حمام الفندق!
- آه، رحمتك يارب، عفا عنك الرب وعفا عني، لقد قسوت على جمال كثيرًا!
- أعرفك بصديقي جمال.
- أعتذر لك أخي عما بدر مني بالأمس.
- عفا الله عنك، لا بأس.. انتهى الموضوع واتفقنا أن نغلقه ولا نتكلم فيه.
- ومتى عرفت أن جورج وجد محفظته؟

- عرفت الساعة الثامنة عندما قدمت له ذهب زوجتي مقابل محفظته.
- غفرانك يارب، أكرر اعتذاري، صدق الله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].
- ما هذا النص؟
- هذا نص من القرآن الكريم.
- هل يحفظ المسيحيون عندكم القرآن أيضًا؟
- ألم أقل لك عندي مفاجأة لك غدًا ولا أدري إن كانت ستعجبك أم لا! أنا أسلمت من ستة أشهر فقط.
- أسلمت وتركت النصرانية؟!
- نعم.. وما الغريب في الأمر؟ كثيرون هم الذين يسلمون، بل الإسلام أسرع الأديان انتشارًا في العالم كله.
- لا غريب، لكني لأول مرة أرى شخصًا غير مسلم وأسلم.

اندهش جمال ووضع يده على رأسه، وقال:

- كنت أستغرب لما تقول لي أخي، وأقول ربما يقصد في الإنسانية، مبارك عليك أخي سعادة الدنيا والآخرة.
- سعادة الدنيا والآخرة! أما الآخرة: فلا أعرف، وأما الدنيا: فسعادتها في الغرب لدينا.
- إن كنت تقصد وسائل الراحة والرفاهية فنعم، وإن كنت تقصد السعادة المعنوية فحالات الشقاء في ازدياد؛ ولذا حالات الانتحار والجنون والانهيار والأمراض النفسية في الغرب في تزايد كبير.
- هل تقصدني يا جمال؟
- لم أفهم! ما علاقتك بما ذكرت.
- أنا جزء من الغرب الذي تتحدث عنه.
- القضية في تحرير معنى السعادة إن كانت الرفاهية أم في الشعور الداخلي، وأظن أن الحياة المادية المفتقدة للروحانية هي سبب الخلط في الفهم، ولذا هي سبب الشقاء.
- الحمد لله أنك وجدت محفظتك، وليست قضيتنا السعادة؛ بل القضية أن الناس ينتظرون المقابلات ولدينا عمل.
- صدقت.. عذرًا، أترككما الآن.. متى أرجع إليك يا جورج؟
- أتوقع أن نتأخر وأقترح أن ترتاح اليوم عندما ننتهي سأوصله للفندق بنفسي.

– شكرًا لك.. جمال هل تشرفني برؤيتك غدًا الساعة الثامنة؟
– اتفقنا استأذنكما، السلام عليكما ورحمة الله وبركاته.
– جمال رجل رائع، كيف تعرفت عليه؟
– عن طريق أخيه في بريطانيا، من المناسب أن أقول لك ما لا تعرفه؛ وهو أنه قبل أن نأتي كان يقول عنك محترم جدًّا، رغم أنه يقول أنك قسوت عليه جدًّا، كما أنه كان يحسبك مسيحيًا.
– في الإسلام نحن مطالبون بالعدل حتى مع أعدائنا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، دعني من هذا الآن نحتاج أن نتناقش في العقود أولًا، ثم تبدأ بالمقابلات، فوقتك حسب ما فهمت ضيق وقصير.
– نعم، ولكني أود أن أتناقش معك في موضوع إسلامك فيما بعد.
– على وجبة الغداء أو أثناء عودتنا للفندق.

في السادسة مساءً غادر جورج وجرجس شركة التوظيف عائدين إلى الفندق، بعد يوم مليء بالمقابلات والعقود والاتفاقات، ركب جورج مع جرجس في سيارته..
– لقد بذلت جهدًا كبيرًا في يوم واحد، وأنهيت جميع المقابلات، فكيف كان من قابلتهم؟
– في الحقيقة أفضل مما توقعت، وأعجبني غير القضايا المهنية طبيعتهم الاجتماعية؛ فمثل هذا لم نعتده في بريطانيا، يبدو أن مهمتي ستكون أسهل بفضل جهودكم.
– وما هي المرحلة القادمة؟
– لا أود أن أستعجل، بقي لدي مقابلتين غدًا وبعد غد في مكتبين آخرين، ثم سأتخذ القرار المناسب.
– جيد؛ فالعجلة ليست جيدة، أليس كذلك؟
– ذكرتني بالمشكلة في الحقيقة.. كم أنا ممتن لجمال، هذا الشخص الرائع.. لكن بما إنك تقول العجلة ليست جيدة، لماذا استعجلت وأسلمت؟!
– ههههه، لا تستعجل في الحكم! ومن قال لك أني استعجلت؟ بل تأخرت كثيرًا جدًّا.
– كيف؟
– أخذت وقتًا حتى اقتنعت بالإسلام، وكان من أقنعني صاحب الشركة، مع أنه لم يضغط علي أو يأمرني أو يضايقني لأسلم، وحتى هذه المرحلة لا يوجد تأخير، لكن بعد ما اقتنعت جلست بعدها ستة أشهر قبل أن أسلم وهذا هو التأخير.
– ستة أشهر قليلة جدًّا واستعجال لقرار خطير كهذا!
– ماذا لو مت فيها، ونلت خزي الدنيا والآخرة؟

- عجيب ربطكم دائمًا بين الدنيا والآخرة، لكن يمكن أن توضح لي ما هو الخزي الذي في الدنيا والآخرة؟

- أما خزي الدنيا؛ فأنا لم أشعر بالطمأنينة والراحة والسعادة حتى أسلمت! ربما تستغرب ذلك لكن هذه هي الحقيقة، فمعاني التوحيد لله والعبودية له واللجوء إليه وحده لا شريك له تشرح الصدور وتبهج النفوس، حتى لو كان في الواقع مشاكل، فقد هجرني بعض أقاربنا بل وحاولوا إيذائي.

- التوحيد والعبودية تشرح الصدور؟!

- نعم.. كما أن الوثنية والشرك والتثليث توغر الصدور، أما خزي الآخرة؛ فأنا لا أود أن أقدم على الله وأنا أشرك معه غيره، فهو رغم كرمه ورحمته لا يغفر الإشراك به ويغفر ما دون ذلك، لكن ربي لطف بي فلم أمت حتى أسلمت.

- غريب كلامك!

- وما وجه الغرابة فيه؟

- بما أننا وصلنا لنكمل نقاشنا في مطعم الفندق.

- آمل أن تعفيني.. فقد تأخرت على البيت، ونتناقش في ذلك فيما بعد.

- هل يعني ذلك أني سأتناول الوجبة وحدي!

- إذا كان ذلك لا يضايقك.

- لا بأس، أستأذنك.

(٢)

صعد جورج إلى غرفته ووضع أغراضه وحقيبته، ونزل مباشرة إلى مطعم الفندق، فقد كان يشعر بجوع شديد.. وفيما كان يتناول عشاءه، وقف بجواره شخص يرتدي ملابس غريبة..

- اسمي رامي هل تأذن لي أن أتحدث معك؟

- تفضل.

- أنت الذي أسعفوك بالأمس إلى المستشفى؟

- نعم.

- انتبه من اللصوص في هذه البلد كثيرًا.

- نعم.. لقد سرقت بالأمس.

- أعرف ذلك، ولهذا حذرتك.

- كيف عرفت؟
- أنا أعرف كلّ شيء عن طريق الأرواح.
- أي أرواح؟
- هذا سر من أسراري.
- وهل تعرف ما سيحصل لي غدًا؟
- نعم.
- ألا يتعارض هذا مع العقل والدين؟
- هل تعرف ديننا أكثر منا، هل أنت مسلم؟
- لا، لكن في قرآنكم: (لا يعلم الغيب إلا الله).
- هذا علم، فدعني من الأديان كلها.
- لست مسلمًا، ولكني أعتقد أن ذلك خرافة وليس علم، وهكذا لدينا نحن المسيحيين، ولا أعرف عنكم المسلمين ذلك!
- ههههه، إيطاليا بلد المسيحية، هل تعرف أن عدد العرافين فيها أكثر من عدد علماء الدين!
- أعرف أن الخرافة لدينا في الغرب تنتشر بسرعة بسبب بحثنا للروحانيات التي نفتقدها، لكني أعتقد أنها خرافة، فهل يمكن أن تقنعني بهذا العلم؟
- نعم.
- سرقت أمس مرتين، فهل تعرف من سرقني؟
- هل يمكن أن تعطيني يدك أنظر فيها؟
- تفضل.
- الذي سرقك في السرقتين شخص قريب منك جدًّا.
- رائع، يبدو أنك تعلم الغيب حقيقة، ماذا سرق مني؟
- سرق أشياء مهمة لديك جدًّا.
- وأين وضعها؟
- في مكان ما قريب.. بعيد، فقط أحتاج منك ١٠ دولارات لأعطيها للروح التي ستخبرني بمكانها.
- إذا أخبرتني أين محفظتي التي سرقت مني سآخذها، وأعطيك منها ١٠٠ دولار.
- أعطني أولًا ١٠ دولارات.
- ليس لدي الآن.
- أخبرتني الروح الطيبة أنه ستواجهك مشاكل كبيرة إن لم تدفع المبلغ الآن.

– هههههه، أنا انتهيت من وجبتي، أخبر الروح الطيبة التي عندك أنها كاذبة، وأن محفظتي معي ولم تسرق مني، كنت أتسلى بك.

صعد جورج إلى غرفته وهو يتندر ويسخر بالعراف الذي جلس معه، ويستغرب حقيقة لماذا العرافين في روما أكثر من رجال الدين؟ هل أفلس الدين وخالف المنطق والعقل والعلم أكثر من الدجالين والمخرفين، فتح حاسوبه لينظر في رسائل البريد الإلكتروني التي لم يرها بالأمس..

وجد رسالة من جانولكا:

«عزيزي جورج

قرأت رسالتك وقد ساءني جدًّا ما حصل لك، ولكن لا بد من بيان أمرين؛ الأول: أنه يجب أن نفصل بين أي دين أو فكر أو مذهب وبين تصرفات بعض أفراده ما لم يكن دينهم يحثهم على ذلك، الثانية: أنا أعايش المسلمين هنا وهم في الجملة أبعد الناس عن السرقة رغم فقرهم وضعف النظام عندهم ورغم خلافاتهم القبلية، فالداعي أكبر ومع ذلك يمتنعون تدينًا لا خوفًا من النظام، لأن دينهم يمنعهم من ذلك، أما نحن فيمنعنا في الغالب النظام لا الأخلاق أو الدين، فإذا كُسر النظام انفرطت الأمور وأنت أعرف مني بالتجارب الغربية، أخيرًا أحب أن أخبرك بأني رغم عنادي أوشكت على أن أسلم لولا بعض الترتيبات والتخوفات. جانولكا»

فرد عليه:

«عزيزي جانولكا

أشكرك على تعاطفك معي، والحقيقة لا أدري ما أقول لك لكني ظننت بأني سرقت، واتهمت صديقي المسلم وظلمته، ثم ظهر معدنه الرائع وأحرجني برجولته وشهامته وأخلاقه، ولا أعرف كيف أعتذر له عن حماقتي! بالنسبة لإسلامي؛ فأنا لا أعرف لماذا؟ لكني أشعر أنه غير ممكن في هذا الوقت بالنسبة لي على الأقل، فلا زالت لدي إشكالات كبيرة فيه؛ مثل وضع المرأة، وحقوق الإنسان، والمستوى الحضاري لهذا الدين، وآمل أن تفيدني بما تتوصل إليه في هذا.

جورج»

ثم فتح رسالة وصلته من ليفي:

«عزيزي جورج

تألمت لما حصل لك، وقد حذرتك ونبهتك، وربما يكون ما حصل خيرًا ليبطئ اندفاعك أنت وخطيبي حبيب للإسلام، هل هناك شيء يمكن أن نساعدك به، بإمكانك أن تأتي إلى تل أبيب وسيكون ذلك قمة السعادة لنا جميعاً وخلاصك من المسلمين الإرهابيين، أنتظر قدومك بفارغ الصبر.

ليفي»

فرد عليها:

«عزيزتي ليفي

اشتقت إليكِ كثيرًا، ولا أستغني عن نصائحك أبدًا، إلا أنني في الحقيقة لا أدري ماذا أقول لك.. لكني ظننت بأنّي سرقت واتهمت صديقي المسلم وظلمته، ثم ظهر معدنه الرائع وأحرجني برجولته وشهامته وأخلاقه، أكرر لك أني لست مندفعًا للإسلام وإن كنت إلى الآن معجب بكثير من أحكامه وعقائده ولم أحسم أمري في بعضها الآخر، ومبارك خطبتكِ من حبيب، وصدقيني لن تجدي مثله في عقله وعلمه وفهمه، تحاوري معه وستجدي لديه ما ليس لدى أحد غيره، كم أتمنى أن آتيك في تل أبيب، وإن كنت أؤكد لك أني ألقى هنا نفس الحفاوة التي لقيتها منك في تل أبيب، ولعله يتيسر لي زيارتكم قريبًا.

جورج»

ثم وجد ضمن الرسائل الواردة رسالة من كاترينا:

«حبيبي جورج

أخبرني آدم بالسرقة التي حدثت لك من أخي باسم لما زرته بالأمس في المستشفى، وكم آلمني ذلك، وأرجو أن تتثبت؛ فمن معرفتي القريبة خلال اليومين الماضيين عند زيارتي لباسم أثناء تعريفه لي بالإسلام، لا أعتقد أن أخاه إن كان مثله يمكن أن يفعل ذلك، طمئنا عنك».

رد عليها:

«حبيبتي كاترينا

ثبت لدي بالدليل القاطع الذي لا شك فيه أنه لم يسرقني؛ فاطمئني، وإنما الذي حدث سوء فهم مني، فاعتذري لباسم عني، وبالمناسبة: هل يعقل أن كاترينا الكاثوليكية المتدينة تريد أن تعرف الإسلام؟! أم أن القرآن أو كتاب «حبي العظيم للمسيح أدخلني الإسلام» الذي كنت خائفة من قراءته أثر فيك؟! اشتقت إليك كثيرًا حبيبتي.

حبيبك جورج».

ظلّ يتصفح الرسائل التي وردت إليه من أصحابه إجابة على تساؤلاته التي أرسلها لهم، ثمّ لخصّها وأعاد إرسالها إليهم جميعًا..

«بخصوص الإرهاب:

حبيب: الإرهاب لا دين له ألبته.

ليفي: إن لم يكن المسلمون الذين قتلوا أبي إرهابيين؛ فلا أعرف معنى للإرهاب!

كاترينا: ليس في الإسلام إرهاب.

آدم: الإرهابي هو الذي يحتل البلاد لنهب خيراتها.
توم: الإرهاب شماعة يستخدمها الإرهابيون للتخويف مما لا يحبون.
جانولكا: أخطر أشكال الإرهاب الإرهاب الفكري؛ وهو التخويف من مجرد التفكير، أما الإسلام فهو يدعو للتفكير.
جورج: لم أر حتى الآن أية علاقة بين الإرهاب والإسلام إلا من خلال وسائل إعلامنا.
أما بخصوص المرأة:
كاترينا: المرأة مكرمة جدًّا في الإسلام، وإن كنت لم أفهم الحجاب حتى الآن.
ليفي: ليس بأسوأ من اليهودية أو المسيحية.
توم: أحتاج أن أبحث أكثر في هذا الموضوع، ففي القرآن: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦].
حبيب: لم يظلمها.
جانولكا: في ثقافتنا نطالب بمساواة الرجل بالمرأة، رغم الاختلافات الظاهرة ورغم كوارث المساواة بل استحالته، أما الإسلام فعاملها بالعدالة وأعطاها حقها.
آدم:لم يكرم المرأة دين كما كرمها الإسلام، وقارنوا إن شئتم مع أي دين سماوي أو أرضي.
جورج: لا يزال في نفسي شيء من الحجاب والمصافحة والمواريث وغيرها، وسأحاول أن أستبينها».
وبما أن إجاباتكم عن الإسلام إيجابية في غالبها، فسيكون سؤالي مباشرًا: ما الذي يمنعكم من الإسلام؟ أجيبوني بعمق وواقعية خلال يومين؟
محبكم جورج».
دخل صفحة الفيس بوك لتوم؛ فلم يجد شيئًا ذا بال، ثم دخل صفحة الفيس بوك لآدم؛ فوجد حلقة جديدة من: «دروس من صديقي الباحث على السعادة ٥»:
«كررت لكم أكثر من مرة بأن صديقي في المراحل الأخيرة، وأعتقد أنه مقتنع إلى حد كبير بأن الإسلام هو طريق سعادته، ولن يجيبه على تساؤلاته الكبرى إلا الإسلام، لكن الهداية تبقى بيد الله وحده. زوجته بالأمس كانت تبكي بكاء شديدًا تأثرًا وحبًا في الإسلام، ولا أدري إن كانت قد أسلمت أم لا؛ فقد رجعت لبيتها وهي تبكي، ولعل الله يدلّها على سعادة الدنيا والآخرة، أما صاحبي فبقدر ثقتي في عقله وفهمه، بقدر خوفي عليه من المسلمين. هو الآن ذهب لمصر للتعرف على الإسلام، لكنه للأسف يقول أنه سُرق من المسلمين، ولم يفهم الفرق بين أن يكون الخطأ والخلل في الإسلام أو في المسلمين، وإن كنت أعتقد أن فيه من الصدق ما يجعله يتجاوز هذه المحنة

ويدخل في الإسلام، وألخص الدروس في التالي:

١ .الإسلام شامل كامل من العيوب، بخلاف المسلمين فما أكثر أخطاءهم للأسف.

٢ .اتخاذ القرار بالدخول في الإسلام يحتاج إلى شجاعة كبيرة وفهم عميق، ربما يحتاجها صاحبي كثيرًا.

٣ .ينبغي ألا نستعجل في دخول الناس للإسلام وسلوكهم طريق السعادة؛ حتى يتم ذلك بقناعة كاملة.

٤ .ليس لدينا في طريق السعادة شيئًا نخفيه؛ فهو كامل من كل وجه، مقنع من كل وجه.

٥ .على كل من شرفه الله بمعرفة طريق السعادة أن يبينه للناس بالحسنى وتبقى الهداية بيد الله وحده.

أتمنى لصاحبي الخير وإن كنت حقيقة لا أدري هل سيفتح الله على قلبه أم لا؟!

انتظروا الدرس السادس..

آدم»

كان حديث آدم عن كاترينا مزعجا جدًّا له، فكان يتساءل: هل يعقل أن كاترينا قد أسلمت؟ مستحيل.. ربّما كانت تجامل آدم وفهمها خطأً، بل ربّما آدم يكذب ويحاول أن يظهر لقراء صفحته أنه استطاع إدخال كاثوليكيّة في دينه، فرسالتها الأخيرة بالأمس لم تخبره فيها بأنّها ستسلم.. راجع تاريخ مقالة آدم فوجدها قبل ساعتين، بينما كانت رسالة كاترينا له بتاريخ صباح الأمس، هل يعقل أنها أسلمت مساءً؟ لماذا لم تخبره إذن؟

رسائل كاترينا الأخيرة كلها تحمل رأيًا إيجابيًّا عن الإسلام، بل إنها فصلت بين الإسلام والمسلمين في حادثة السرقة، أليس هذا دليلًا على إسلامها؟ لكن كاترينا متحمسة دومًا للكاثوليكيّة، وتحب المسيح حبًّا عظيمًا، ولأجله تفانت في خدمة الكنيسة، هل من الممكن أن تترك ذلك كله؟

بات جورج ليلته في صراع عنيف، تارة يرى أن من حق زوجته أن تعتنق ما تشاء، وتارة يجد في داخله حنقًا عليها، وتارة يكذّب خبر إسلامها، كان يتساءل: هل لو أراد الإسلام لابد أن يخبرها أم هذا نوع من التفريق بين الرجل والمرأة! همّ أن يتصل بها أكثر من مرة، لكنه أمسك نفسه، فقد كان بإمكانها هي أن تتصل وتخبره بنفسها، أو على الأقل أن ترسل له بريدًا، لكنه فيما يبدو أن كاترينا لم تتخذ قرارًا مصيريًّا كهذا بعد..

(٣)

استيقظ جورج في السابعة صباحا ثقيلًا متعبًا، فأخذ حمّاما سريعًا ونزل لمطعم الفندق لتناول الإفطار، ثمّ جلس في الاستقبال ينتظر قدوم جمال ليذهبا معًا إلى شركة التوظيف.

وصلا إلى الشركة وطلبا من السكرتير مقابلة المدير..

– دقائق ويمكنكما الدخول على الأستاذ مصطفى.

– جمال، اسم المدير مصطفى، فماذا يعني؟

هو من أسماء النبي محمد ﷺ، أي أن الله اصطفاه واختاره، والمسلمون يتسمون به بعد ذلك.

– أي أنه مسلم!

– نعم، فهذا الأصل.

مرّت دقيقتان، ثمّ أخبرهما السكرتير بأنّ الأستاذ مصطفى في انتظارهما..

– أهلًا وسهلًا بكما.

– إذن أنا أستأذنكما، وسآتيك يا جورج في الثانية عشرة.

– لا أعرف كم من الوقت أحتاج مع الأستاذ مصطفى.

– حسب بريدك الإلكتروني وما جهزناه، أتوقع أن ننتهي في الثانية، أو تأتينا من الغد مرة أخرى.

– إذن أنتظرك جمال ـ إذا سمحت ـ الساعة الثانية.

– لكني أقترح أن نتناول وجبة الغداء سويًّا؛ فأنت ضيفنا اليوم.

– الوالدة طلبت مني أن أحضر جورج لتناول الغداء عندنا اليوم.

– إذن تتناول وجبة العشاء معي.

– اتفقنا، أنتظرك جمال الساعة الثانية.

– والساعة السابعة أمر عليك في الفندق لنخرج للعشاء.

– اتفقنا أستأذنكما إذن.

خرج جمال، فالتفت مصطفى إلى جورج..

– يبدو أنكما صديقان حميمان.

– نعم، فمع أني لم أتعرف عليه إلا من فترة قريبة لكنه رجل بمعنى الكلمة.

– بما إنك لم تتعرف عليه إلا قريبًا، فأنا أحذرك من هؤلاء المتدينين الإسلاميين.

– وما أدراك أنه متدين وإسلامي؟!

– واضح من شكله.

– وتحذرني من ماذا؟

- أحذرك من أن يقتلك أو يسرقك أو شيء مثل ذلك، فهم يرونك كافرًا يجب كرهك، بل ويجب قتلك.
- شكرًا لك على هذه النصيحة، وأنت من أي صنف من المسلمين؟
- أنا مسلم لكني تنويري، عشت فترة من حياتي في أمريكا، وتعلمت كثيرًا من القضايا الحضارية التي يفتقدها الإسلاميون.
- مثل ماذا؟
- تعلمت الديمقراطية، وتعدد الآراء، والقبول بالناس بمختلف أديانهم.. وغير ذلك مما تعرفه أكثر مني؛ فأنت بريطاني.
- هذا تواضع منك، لكني أستغرب من كلامك؛ لأنا نحن المسيحيون نرى أيضًا أنكم كفارًا متخلفون!
- ارتبك مصطفى، ثم قال: لكنا حقيقة متخلفون فنظرتكم لنا صحيحة من هذا الوجه.
- ربما، المهم لنبدأ في عملنا.
- جيد.. لنبدأ في عملنا، لكني أؤكد لك أن التعامل مع أناس أكثر انفتاحًا على الثقافات الأخرى أضمن للنجاح بالنسبة لك، وأبعد لك عما لا تريده.
- بلا شك خاصة إذا كان يحب وطنه ومجتمعه!
- شكرًا لك، أنا جهزت لك عدد من الموظفين بالمواصفات التي جاءتني على البريد.
- جيد، كم عددهم، وما تقييمك أنت لهم؟
- ثمانية أشخاص كعدد أولي، وغالبهم من ذوي العقليات المنفتحة على ثقافات العالم.
- جميل، وماذا عن المهنية والتخصص والاحترافية فيهم؟
- لا بأس.. قابلهم بنفسك، هل تريد أن نبدأ المقابلات؟
- مناسب، آمل أن تعطيني سيرهم الذاتية مرتبة قبل دخولهم علي.
- تفضل، وسأبلغ السكرتير بحيث يدخلون عليك تباعًا في غرفة الاجتماعات حسب ترتيب الأوراق لديك، تفضل لغرفة الاجتماعات، سأوصلك وأعود إلى غرفتي أنتظر انتهاءك.

قابل جورج الثمانية الذين رشحهم مصطفى، ولم ينته إلا في الساعة الثانية إلا الربع..

- أشكرك؛ فقد انتهيت من المقابلات.
- وكيف وجدتهم؟
- جيدين، سأتخذ القرار بعد إنهائي مقابلات الشركة غدًا، ما رأيك أن نكمل كلامنا أثناء العشاء اليوم، خاصة وأنه سيصل جمال بعد دقائق.

– حسنًا، وقد جهزت لك ما يعجبك ويسرك، وحتى يأتي جمال، هل لفت نظرك شيء في الثمانية الذين قابلتهم أو أعجبت بشيء؟

– لفت نظري الكثير، وأعجبت كثيرًا.

– ستجد كل ما يرضيك اليوم.

– كيف؟

– سنكمل نقاشنا على العشاء.

خرج جورج من الشركة ليجد جمال في انتظاره، فركب معه إلى بيت جمال..

– كيف كان لقاؤكم اليوم؟

– لا بأس به.

– كأنك لم تكن مرتاحًا!

– لم أرتح أبدًا!

– لماذا؟

– أحضر لي مجموعة من الخدم ليعملوا عندي، وأنا أريد محترفين مبرمجين.

– ربما لم يفهم ما تريد منه؟

– بل فهم جيدًا، لكنه ظنني أريد فقط أن أشبع شهوتي، تخيل قابلت ثمانية أشخاص، خمس نساء اثنتين منهن مبرمجات فقط، وثلاثة رجال اثنين منهما متخصصان في الحاسب الآلي.

– إذن على أي معيار اختار لك الأشخاص؟

– في الغالب على الجمال والأناقة والنفاق!

– فهمت ما تقصد، وأعتذر لك، لكنا المصريين لسنا كذلك!

– ربما، كم أتمنى ألا أقابله مرة أخرى، وإن كان هناك رجل وامرأة من الذين قابلتهم متميزان جدًّا.

– بما إنك وعدته؛ فتناول معه وجبة العشاء اليوم، واطلب مقابلة من أعجبت بتميزهم.

– هذا ما سيحدث بعد أن أنهي غدًا آخر مقابلات عندي.

– عادة لا تكن كل الأمور ميسرة، بقي قليل ونصل للبيت، وسندخل الآن إلى داخل الحي، وأعتذر لك؛ فنحن نسكن في حي شعبي، وليس فندق خمس أو أربع نجوم.

– هذا أحب إلي، وأكرر شكري وامتناني لك ولوالدتك.

– لا أستطيع الدخول بالسيارة أكثر، فالشوارع كما ترى ضيقة جدًّا، سنكمل مشيًا إلى البيت، هو قريب جدًّا.

وصلا إلى شقة جمال التي كانت في الدور الثالث من عمارة سكنيّة يظهر عليها القدم، رحبّ جمال بجورج في منزله وقاده إلى غرفة صغيرة مرتّبة أعدّت لاستقبال الضيوف..

- تفضل، استأذنك دقائق وأعود.

جلس جورج يتأمّل في أثاث الغرفة البسيط، ورغم أنّه يحب البساطة إلا أنّ شعور الرهبة قد سيطر عليه مذ دخلا الحيّ الشعبي حتى وصلا إلى شقة جمال، هل هذا بيته حقًا؟ أم أنّه أحضرني إلى هنا لغرض في نفسه؟ تذكر حديث مصطفى من أنّ هؤلاء الإسلاميين قتلة وسراقون ولديهم غريزة الانتقام.. ضحك على أفكاره الغريبة وتذكر موقفه الشهم عندما اتهمه بسرقة محفظته، وفيما هو في حالة الترقّب تلك، جاءه جمال مرحّبًا ومعه صحن كبير قد رصّت فيه مجموعة من الأواني فيها أطباق طعام مختلفة، ووضع الصحن أمام جورج..

- أعتذر إن كنت قد تأخرت عليك، تفضل.

- وهو ينظر في الطعام، شكرًا لك، تكلفت كثيرًا.

- لم أتكلف شيئًا، هذا الطعام ليس مني وإنما من الوالدة، فهي مَن دعتك لتناول الغداء عندنا، وستصل بعد قليل للسلام عليك.

- عجيب أن يكون الداعي ليس موجودًا أثناء وصول الضيف.

- المرأة في الإسلام مكرمة أكثر مما يخطر ببالكم؛ فهي ملكة تُخدَم، أنا مستعد أن أفعل كل ما تريد أمي مهما كان.

- مهما كان؟!

- نعم قدر استطاعتي، فالله قرن طاعته بطاعة الوالدين وخاصة الأم.

جاءت أم باسم ووقفت على الباب، طرقت طرقات خفيفة، ثمّ تحدثت بلهجتها المصريّة الدارجة..

السلام عليكم يا ابني شرفتنا ونورتنا وأكرمتنا بحضورك، وباسم يسلم عليك ويوصي عليك.

- أمي تسلم عليك يا جورج وترحب بك، وتقول لك: يا ابني شرفت ونورت وأكرمتنا بحضورك، وأن باسم يسلم عليك ويوصي عليك.

- شكرًا لها، لا أعرف ماذا أقول، لماذا لا تجلس وتتفضل معنا.. تفضلي معنا.

- الوالدة جاءت لترحب بك وتخبرك بأننا جميعًا تحت خدمتك فأنت ضيف عندنا.

- أحرجتموني بكرمكم، عذرًا.. لكن لماذا لم تجلس معنا؟ لماذا لم تصافحنا؟

- النساء لدينا لا يجلسون مع الرجال بدون حاجة، ولا يصافحن الرجال إلا إذا كانوا من محارمهن.

- اليوم كما أخبرتك قابلت خمسًا من النساء أربعًا منهن صافحنني، وتعجبت عندما رفضت واحدة منهن ذلك، وكلهن جلسن معي.
- وماذا قالت لك التي رفضت؟
- اعتذرت بأنها لا تحب مصافحة الرجال.
- وما رأيك أنت فيها؟
- احترمت رغبتها، خاصة بأن اثنتين أخريين منهن كانت مصافحتهما بل ونظراتهما وحركاتها تفتقد للأدب بطريقة فجة.
- هل يمكن أن أسافر لبريطانيا لأصافح الملكة؟
- وما علاقة ذلك! قطعًا هناك سبعة أصناف من الناس يسمح لهم القانون أن يصافحوا الملكة.
- ألم أقل لك أننا في ديننا المرأة ملكة مكرمة، لا يسمح الإسلام أن يصافحها إلا عشرة أصناف محدَّدُون تمامًا، الأب والجد والزوج ووالد الزوج والابن والأخ والعم والخال وابن الأخ وابن الأخت وابن الابن، فكما أنكم تفعلون ذلك احترامًا وإجلالا للملكة، فنحن نفعله احترامًا لملكتنا وبعدًا لها عن مواطن الفساد.
- ههههه، ملكة مكرمة! ولماذا إذن صافحتني النساء في المقابلة؟
- للأسف كثير من المسلمين يفرطون في أمور دينهم، ولكن الدين منهم براء.
- لم يصافح آدم كاترينا ولا مرة! الآن فهمت! هل يضايقك أن نتحدث عن المرأة في الإسلام؟
- هل تتوقع أن أتضايق وأنت تتحدث عن الملكة!
- دعني أسألك سؤالًا مباشرًا، لماذا تعطونها من الميراث نصف ما يُعطى للرجل، ثم تدَّعون أنها ملكة، ساووها بالرجل فقط ولا تجعلوها ملكة.
- هل جميع الموظفين الذين ستوظفهم ستعطيهم نفس الراتب؟
- يبدو أنك تريد أن تخرج من الموضوع!
- أبدًا أنا أتحدث في صلب الموضوع.
- طبعًا لا، هل تتوقع أن أعطي المدير كما أعطي الساعي؟!
- هل تظلم الساعي عندما تعطيه أقل من المدير؟
- لا، أنا أعاملهم بالعدل.
- والإسلام جاء بالعدل بين الرجال والنساء وبين البشر كلهم لا بالمساواة، ولذا تجد أن المرأة لها في الميراث نصف الرجل، وربما يبدو أنه على العكس.. على الرجل النفقة عليها وليس عليها شيء، وكل ذلك هو تمام العدل.

- لماذا.. ألا تدفع زوجتك نصف مصاريف البيت؟
- النفقة على البيت من مهام الرجل وواجباته، وتبقى الملكة يجب أن تُخدم.
- عذرًا.. هذا يقتضي ألا تتعلم المرأة ولا تعمل؟
- من قال ذلك؟! يجب عليها أن تتعلم مثلها مثل الرجل، ومن حقها أن تعمل..
- وماذا بشأن الراتب الذي تستلمه؟
- من حقها وهو لها، وليس عليها النفقة.
- ههههه، إذن اقتصاديًّا النساء هن الرابحات أكثر من الرجال.
- لا ليس أكثر من الرجال بل بالعدل، فكما أن خلقتها تختلف عن الرجل، فأحكامها تختلف بالحد الذي تختلف فيه طبيعتها ووظيفتها.
- توصيف جميل للعدل، لكن على مستوى آخر؛ ألا ترى أن الحجاب ظلم اجتماعي لها؟!
- بل إكرام وإجلال.
- كيف وهي ملفوفة بهذه الملابس التي تحجب جمالها وأنوثتها؟!
- كيف كن الملكات والأميرات عندكم قبل ٥٠ سنة فقط؟!
- ماذا تريد؟!
- أجبني على سؤالي.
- كن بكامل حقوقهن.
- وكيف كان لبسهن؟
- تعني أنهن كن يلبسن مثل هذه الملابس اللاتي يلبسنها المسلمات الآن؟
- نعم، وبلا شك في ذلك، ثم أليس هذا لبس القديسات أيضًا؟
- لكننا تطورنا وتطور مع ذلك لباس المرأة عندنا.
- أولًا: لم يتطور لباس القديسات عندكم وإن كان ـ وآسف لما أقول ـ ارتكس وضعهن في الكنيسة، ولم يتطور لباس المرأة عندكم بل ـ وأكرر أسفي ـ ارتكس وانحدر وانحط، واقرأ نسب التحرش الجنسي والزنا والإجهاض وغير ذلك من الطوام.
- وعندكم مثله!
- نحن بشر وعندنا أخطاؤنا، لكن ما لدينا لا يشكل ولا نسبة صغيرة مما لديكم، وغالبه ـ للأسف ـ تقليدًا لكم.
- كيف؟
- هل تسمح لي أن أستخدم الأرقام والدراسات؛ فأنا أعشقها وأحبها؟

- الأرقام لغة محددة جدًّا ومقنعة بالنسبة لي، تفضل.
- تشير الدراسات إلى أن ٩٠٪ من غير المتزوجات يمارسن الزنا بطلاقة أو من حين لآخر في أوروبا وأمريكا، بل في أمريكا بلغت نسبة التلميذات الحوامل سفاحًا ٤٨٪ من تلميذات إحدى المدارس الثانوية، وتفيد الاستبيانات والدراسات الأمريكية الرسمية بأن نسبة ٨٧,٨٪ من مجموع طلاب المدارس الثانوية مارسوا اتصالا جنسيًّا في حياتهم، نسبة ٢٢٪ منهم قبل سن الثالثة عشرة، بل ٦٠٪ من المواليد الجدد في السويد أبناء زنا لا يرتبط آباؤهم وأمهاتهم بعلاقة زواج!!
- يكفي.. فأنا أعرف هذا وأضعافه من مصائب مجتمعاتنا الغربية، لكن هذا في العالم كله! ألستم مثلنا؟!
- كما ذكرت لك للأسف كثير منا يسيرون في نفس الطريق، وكلما ابتعد الإنسان عن الدين اقترب من مثل هذا الوضع، إلا أن الفارق في الأرقام كبير بل كبير جدًّا.
- هل تريد أن تقول أن رجال الدين عندكم لا يتزوجون ويترهبنون كالقساوسة والباباوات؟
قلت لك مرارًا ليس لدينا رجال دين في الإسلام، بل حتى النبي ﷺ تزوج.
- نعم قرأت واستغربت أن نبيكم تزوج! عذرًا، أين زوجتك إذن؟! ألست متزوجا؟!
- في المدرسة؛ فهي مُدرسة فيزياء في المرحلة الثانوية، ودوامها في المدرسة مساء من الساعة الثانية عشرة وحتى السادسة، ولعلها تصل بعد قليل.
- بصدق، هل أجبرتها على الحجاب؟!
- قطعًا لا.
- ولماذا تلزمون نساء الناس بالحجاب ولا تلزمون نسائكم بالحجاب؟ ما أسوأ استخدام الدين للقضايا الشخصية!
لم أجبرها؛ لأنها محجبة من تلقاء نفسها، وأتفق معك في سوء استخدام الدين في قضايا شخصية، بل نهى النبي ﷺ عن ذلك.
- تعني أنها محجبة بدون إلزام منك؟
- طبعًا.
- وما الذي يدعوها للحجاب؟!
- دينها وأمر ربها، ثم صيانة لنفسها.
- تصون نفسها من ماذا؟
- حتى لا تكون فريسة للإحصاءات السابقة! هههه، إلا إذا كنت تريد أرقام وإحصائيات جديدة فلدي الكثير منها.

– لا.. يكفي، فلدي من هذه الإحصائيات الكثير جدًّا، عذرًا لكن نسمع كثيرًا عندنا في بريطانيا عن راقصات ومغنيات مصريات؟!

– نعم.. قلت لك كلما ابتعدنا عن الدين ـ للأسف ـ قلدناكم.

– ولماذا الأسف؟

– عذرًا.. لا أقصد الإساءة لكم، لكن أظن أن وضع المرأة عندكم من التردي إلى درجة أن كثيرًا من العقلاء عندكم ينادون بأهمية مراجعة الكارثة التي يسير إليها المجتمع.

– ما أكثر الكوارث! أي كارثة تعني؟!

– لماذا يتزوج الرجل ما دام يحصل على ما يريد بدون زواج؟ مما يلغي ويفسد نظام الأسرة ويلغيه، مما يدمر أقوى مجتمع في الدنيا وينهيه.

– وضح أكثر.

– بصراحة تامة أليست تربية كلب أفضل وأقل كلفة من تربية ابن عند كثير من الناس، أليست العشيقة أقل تكلفة وأكثر تنوعًا من الزوجة؟

– عند من فسدت فطرهم فقط.

– صدقت، وهذا ما وصلت إليه بعض المجتمعات، هل تعرف أن نسبة الخصوبة في بعض المجتمعات وصلت إلى أقل من طفل لكل امرأة، هذه المجتمعات تنتهي وتضمحل عاجلًا أو آجلًا.

– ههه، ولهذا سيطرتم بالأعداد حتى على أوربا.

يقول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود».

– حتى في هذه التفاصيل يتدخل الإسلام!

– الإسلام دين شامل لكل جزئيات الحياة؛ ولهذا تتوازن النفس معه وتسعد وترتاح، ولا يطغى جانب على آخر فيتعب.

– ما أكثر تفاصيل الإسلام! لكن أليس هذا عيب وليس ميزة في الإسلام؟!

– كيف؟!

– هذه التفاصيل تتعب الإنسان في تتبعها، فهي قيود إضافية على الحياة!

– أيهما أفضل: بلد فيه قانون مثل بريطانيا أم بلد يعج بالفوضى؟

– فهمت ما تعني، لكن القانون الجيد هو الذي يعطي مساحة كبيرة للإبداع والاجتهاد.

– كأنك تصف الإسلام! لقد فتح لنا آفاقا واسعة جدًّا للإبداع والخيال والتفكر، ولذا كثيرًا ما يأتي القرآن بطلب التفكر والنظر في الآفاق وفي التاريخ والسير وغير ذلك.

– ألا تخافون من أن الناس إذا تفكروا عرفوا نقص وضعف دينكم؟
– هذا عند الأديان الأرضية والمحرفة فقط، أما المسلمون فكلما زادوا تفكرًا زادوا إيمانًا ويقينًا وتدينًا، وللأسف كلما قل التفكر قل الدين.
– تعجبني ثقتكم بدينكم.
– هل من المكن أن أسألك سؤالًا؟
– تفضل!
– ما الذي يمنعك من أن تسلم؟! أنا أشعر بأنك مقتنع بالإسلام!
ارتبك جورج لسؤال جمال، وقبض أصابعه بقوة.. تذكر ما كتبه آدم عن بكاء كاترينا، وعن حاجته للشجاعة ليتخذ القرار، وتذكر ما كتبه جانولكا في رسالته الأخيرة، تنهد بعمق.. وتذكر أن هذا هو سؤاله الذي أرسله لأصدقائه، فلماذا هو خائف من إجابته، هل هو الضعف أم التردد أم الجهل أم التؤدة وعدم العجلة؟! أيا كان السبب فلابد أن يجيب نفسه قبل أن يجيب جمال..
التفت إلى جمال:
– هل تسمح لي بألا أجيب الآن؟
– الأمر إليك، ولم أقل لك ذلك إلا محبة للخير لك.
– شكرًا لك.. سأجيبك خلال يومين أو ثلاثة.
– ليس مهمًا أن تجيبني، الأهم أن تجيب روحك وتساؤلاتها، للأسف حولتنا الحياة المادية إلى آلات إن فكرت تعبت، ولذا تعيش البشرية في شقاء.
تنهد جورج عندما سمع جملة «عندما تجيب روحك»، وتذكر كلمة العجوز الذي قابله، ثم قال:
– كأنك تصفني.
– عذرًا لم أقصد الإساءة، لكن هذا حال البشرية لما تُعرض عن الله، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].
– ما أقسى ما تقوله!
– أعتذر.. لم أقصد القسوة وإنما أنا أصف، بل ما أقسى الإعراض عن الله، عذرًا ليس حاليًا بل طوال حياتك!
– ماذا تعني؟
– يهرب الناس من حياتهم بأساليب مختلفة؛ فمن الناس من يهرب باللهو والخمر، ومن الناس

من يهرب بالموضات الدينية التي تشبع شيئًا من جوعهم الروحي، ومن الناس من يهرب بالفلسفة الجوفاء، ومنهم من يهرب إلى مجهول؛ ليتحاشى التفكير في الموضوع، أقول لك بكل محبة مرة أخرى: ما الذي يمنعك من سعادة الدنيا والآخرة؟

- قلت لك سأجيبك خلال يومين أو ثلاثة.

فيما كانا يتحاوران سمعا صوت باب يفتح، فاستأذن جمال من جورج قليلًا..

- لحظة من فضلك، وصلت زوجتي عائشة.
- هل تمانع أن أتحدث معها قليلًا؟
- دعني أستشيرها وآخذ رأيها.
- في ماذا؟
- أعرف أنها لا تحب أن تتحدث مع الرجال، ولا أحب أن ألزمها بشيء لا تحبه، لحظة من فضلك.

خرج جمال من الغرفة، تاركًا جورج في حالة من الذهول، ما حدث اليوم هزّه بعنف، صار يشعر بنفسه ضائعًا لا يدري ماذا يفعل.. تساءل في نفسه طوال اليوم، ما الذي جاء بي إلى مصر؟ حتى تساؤلاتي رجعت تؤرقني: ماذا أريد؟ لماذا أعيش؟ لماذا هذا العناء.. آآآه..

فيما كان سارحًا في غمار تساؤلاته، دخل عليه جمال ومعه زوجته، فرفع نظره إليها فرآها محجّبة لا يظهر منها إلا جزءًا يسيرًا من وجهها..

- هذه زوجتي، ماذا تريد؟
- أخبرني جمال أنك تود أن تُسلم، وأن لديك تساؤلات عن وضع المرأة في الإسلام.
- لم أقل أني أريد أن أسلم أبدًا، وإن كنت أود أن أتعرف على وضع المرأة في الإسلام.
- إذا لم تكن تريد أن تُسلم؛ فلماذا تريد أن تعرف وضع المرأة في الإسلام؟!!
- مجرد معرفة.
- المعرفة التي لا تفيد الإنسان لا قيمة لها، والعلم الذي لا يرفع من شأن صاحبه ضائع، فالعلم يقود إلى خشية الله؛ ولذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر:٢٨].
- أقصد أريد أن أتعرف فقط، وهل المعرفة والعلم المجرد عندكم عيب وخطأ؟!
- عندنا أن أي علم لا يدعو للعمل ليس له قيمة، وأعتقد أن العبثية وذهاب الأهداف والمقاصد مرض في العقل والدين، تعرفونه جيدًا.
- ماذا تقصدين بعندنا؟!

- أعني عندنا نحن المسلمون، دعني أدخل فيما تريد فأنا متأكدة من أنك لم تسأل إلا وأنت تريد أن تسلم.
- وكيف تأكدت؟!
- آمل ألا أضايقك، يقول الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحِجر:٢]، فلا يوجد شخص ذكي لم يوحد الله ويسلم له إلا وفي نفسه غصة من تعارضات الأهواء والأديان المحرفة.
- وماذا تعنين بذكي؟!
- يستطيع ضعيف التفكير أن يقفز فوق تناقضات حياته وتناقضات دينه وتساؤلات روحه إلى قضايا هامشية يشغل بها نفسه، ولكن...
- ولكن ماذا؟!
- لكن جمال أخبرني أنك ذكي، كما أخبره بذلك أخوه باسم وكما لاحظ هو.
- شكرًا..
- ندخل في موضوعنا «المرأة في الإسلام» فمن أين تريد أن نبدأ؟
- ابدأي من حيث تريدين، وأنا سأسأل كلما أريد.
- جاء الإسلام والعرب يقومون بوأد البنات ويقتلونهن أحياء، ويدفنونهن.
- غاية التخلف والوحشية!
- صدقت، ولكن لم يكن هذا الوضع الذي يبعث على الاشمئزاز خاصًّا بالعرب، فقد كانت مجالس الفلاسفة تعقد ليناقشوا أمرًا مهمًّا! هل للمرأة روح كروح الرجل؟ هل لها روح إنسانية أم حيوانية؟! وينتهون في نقاشهم إلى أن للمرأة روحا ولكنها أدنى بدرجات كثيرة من روح الرجل، وعند الرومان كان للرجل السلطة في أن يبيع زوجته أو أن يطلقها، أن يعترف بولده أو لا يعترف به، والمرأة في اليونان لا ترث أبدًا.
- للأسف صدقت، تاريخ قذر!
- وقد جاءت كل الأديان السماوية بالعدل للمرأة، لكن للأسف حرفت اليهودية ذلك؛ فأصبح كتابها المحرف مليء بالخيالات الجنسية والظلم المرير للمرأة.
- حدثتني ليفي عن هذا كثيرًا، وقرأت عنه كثيرًا.
- ومن هي ليفي؟!
- امرأة يهودية محترمة جدًّا.
- كم أحب لها أن تسعد وتشرف وتكرم بالإسلام.

– لا أظن، على العموم أكملي.
– مفاتيح القلوب بيد الله، نكمل: وحرفت المسيحية أيضًا ذلك، وللأسف أصبحت المسيحية مليئة بالإهانات للمرأة.
– تسلسل جيد.
– جاء الإسلام بعد ذلك؛ فأكرم المرأة كما لم يكرمها دين، ولم يتحرف شيء من الدين؛ فالله هو الذي تكفل بحفظه.
– مقتنع جدًّا بعدم تحريف الإسلام، ولدي أسئلة، لكني أود أن تكملي أولًا.
– لم تشعر المرأة في العالم بالكرامة كما شعرت لما جاء الإسلام، وتعلمت أوربا من احتكاكها بالمسلمين شيئًا من تكريم الإسلام للمرأة، وتعلموا العدالة وتعلموا العلم، لكنها اصطدمت بالتحريفات في كتبهم المقدسة وبتعاليم الكنيسة، فثاروا على الكنيسة ـ وللأسف لم يسلموا، فبحثوا عن نظام لتكريم المرأة فساقهم عقلهم البشري للمساواة.
– إذن ارتقى العقل البشري إلى درجة أعلى من الأديان؟
– وبالطبع لم يستطيعوا أن يغيروا خلقها وطبعها ودورها ليتواءم مع مساواتهم الموهومة، فقرروا أن يكلفوها أن تعمل أعمال الرجل مع أعمالها! والعجيب أنها تعمل أعمال الرجل مع أعمالها وبنصف أو ربع الأجرة والراتب! وليته كفى الرجال بخس أجرتها وتكليفها بما لا تطيق، لكنهم أيضًا استغلوها وأخذوا ما يريدون منها بدون زواج، فتحولت من زوجة محترمة مصونة إلى عشيقة مبتذلة، فهبت مؤسسات المساواة وحقوق الإنسان وحاولت أن تغير هذا الوضع المزري؛ فطالبت بمساواتها في الأجرة والراتب فاستطاعوا ظاهرًا ولم يستطيعوا حقيقة، ووضعوا شروطا حتى لا يأخذ الزوج منها حقوقها؛ فاكتشفوا أن الذي أخذ حقوقها أصبح عشيقًا بلا أي التزام قانوني بدلًا من الزوج.
– ما تقولينه لا ينطبق على كل الغرب وحالاته.
– نعم هو ينطبق على جزء كبير منه فقط، ولازال هناك من تمنعهم أخلاقهم عن مثل هذا، لكن الكارثة أنه كان يدفع بالمرأة دفعًا باسم المساواة وباسم المتعة وباسم التحرر من سيطرة الرجل لتكون أكثر تفسخًا وأكثر انحلالًا حتى وصلت لمستوى تستحي منه الحيوانات ولا ترضاه لنفسها.
– ماذا تقصدين؟!
– أعتذر إن كان كلامي قاسيًا أو فُهم منه الإهانة لكم، لكن ما أعنيه أن المرأة أصبحت للأسف كثيرًا ما تبدو مجرد لعبة للغواية والإضلال والإفساد، باسم المساواة وأخذ حقوقها، وإلا كيف

تفسر قنوات الجنس وأفلام الجنس وتجارة الجنس؟

- يمكن تفسيرها بأنها نوع من الإعجاب بهذا المخلوق الجميل!

- إذن أنت اعترفت بأنه مخلوق جميل يختلف عن الرجل، والمساواة بينهما ظلم لها وله، أما أنا فأفسره بأن الرجل في هذه المجتمعات بعد أن نهب حقوقها المادية، وبعد أن أراح نفسه بأن تعمل عملها وعمله سلب منها حتى حقوق الآدمية وحولها إلى مجرد سلعة يلهو ويلعب بها، وإلا كيف تفسر أن تعرض عارية أو شبه عارية في واجهات المحلات في كثير من الدول، مثلما يعرض أي جهاز أو أثاث أو سيارة!

- هذه الممارسات سيئة جدًّا لكنها لا تمثل مجتمعاتنا قطعًا.

- هي على الأقل ممارسات منظمة وقانونية، بينما الحجاب لمن يعتقد به ممنوع بشكل قانوني ومنظم أيضًا، فالنظام يسمح أن تصبح المرأة سلعة للعرض تباع وتشترى ولا يسمح بأن ترتدي المسلمة حجابها.

- أنا لا أوافق أيضًا على الممارسات القمعية لبعض الدول الأوربية.

- إذن أنت إرهابي حسب معاييركم، أعتذر لكما أطلت ولولا طلب زوجي بأن أحضر لعلي أكون سببًا في إسلامك لما حضرت.

- لكن لدي تساؤلات سريعة سألتها غيرك لكن يهمني أن يكون الجواب من امرأة.

- تفضل.

- أنت متخصصة في الفيزياء، أي في علم مهم من العلوم العصرية التي جاءتكم من عندنا ورفعت مستواكم، ومع ذلك ترتدين الحجاب، فهل أنت مجبرة عليه؟! أم أنه مثل حجاب القديسات عندنا الذي لا يعني العفة ولكنه اللباس التقليدي لهن؟! أم أنكم تعيشون في مجتمع شهواني لا بد أن تلبسي مثل هذا اللبس وإلا لتعرضت للابتزاز والتحرش؟! أم ماذا؟!

- ههه، أولًا: العلوم تراث بشري؛ فقبل أن تأتينا العلوم المعاصرة منكم جاءتكم من عندنا عندما كنتم في ظلام دامس، أما الابتزاز والتحرش فأنت تعرف أنه على علاقة طردية مع السفور والتعري، وإن كنت تريد الإحصاءات التي تؤيد ذلك تحدثنا عنها، أما بالنسبة لي فأنا أتحجب تدينًا وعلمًا مني بأن ذلك أسعد لي في الدنيا والآخرة، فالدنيا راحة وطمأنينة، والآخرة فضل وكرم من الكريم سبحانه.

- دائمًا ترددون السعادة في الدنيا والآخرة.

- نعم.. سعادة لا يعرفها إلا من جربها.

- ربما، لكن ـ بصراحة ـ هل ترضين أن يتزوج عليك جمال زوجة أخرى، كما فعل نبيكم؟!

نظرت عائشة إلى جمال الواقف بجوارها بصمت.. ثمّ تابعت:

– لا أظن جمال يفعلها، وأتمنى ألا يتزوج علي.

– لكن نبيكم عدَّد الزوجات؟

نعم عدَّد ﷺ الزوجات، وأحد زوجاته أمهات المؤمنين اسمها مثل اسمي عائشة.

– ولماذا إذن لا تريدين أن يقتدي جمال بنبيه ويتزوج عليك؟!

– لم يطالبني الإسلام بألا أكون امرأة، فمن حقي أن أغار، ولم يطالبني الإسلام أن أكون ذليلة لا أستطيع أن أعبر عن رغباتي وما أحب، لكني أوقن أن تعدد الزوجات خير من تعدد العشيقات.

– وعدم التعدد بشكل عام هو الأفضل حتمًا..

– أعتقد أنه جزء من الطبيعة البشرية حاجة بعض الرجال لتعدد الزوجات، ولذا فتعدد الزوجات ليس خاصًّا بالإسلام، بل تقريبًا في كل الأديان، إلا أن الفارق الرئيس أنه في الأديان السابقة بلا عدد، تزوج النبي سليمان عندكم ألف امرأة، وتزوج آدم ثلاث عشرة زوجة، وتزوج النبي داوود تسع وستون زوجة، وفي الإسلام التعدد محدد بأربع فقط.

– لكنا لا نقول الآن بتعدد الزوجات، والأنظمة في غالبها تمنعه.

– الكتاب المقدس لديكم مليء بتعدد الزوجات، وقد تعب بعد ذلك رجال الدين عندكم في تفسير ذلك، فقال بعضهم: هذه أخطاء بشرية وتكلموا على الأنبياء، وقال آخرون: بل كان لمرحلة من التاريخ كانت الحروب فيها قاسية فكانت النساء أكثر من الرجال، فخالفوا الواقع الآن ونسوا أن الحروب أقسى الآن، وقال آخرون: بل رجع الله عن ذلك ـ معاذ الله ـ فجعلوا الله قاصرًا لا يعرف الحق تعالى عما يقولون.

– المهم أنا طورنا ديننا وأنظمتنا وقوانيننا؛ لتمنع التعدد.

– جميل «طورنا ديننا» الأصل أن الدين الحق صالح لكل زمان ومكان ولا يحتاج إلى تطوير، إلا الناقص؛ ولذا يقول تعالى عن الإسلام: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة:٣]، فنحن لا نطور ديننا؛ لأنه كامل تام.

– المهم أنا طورنا أنظمتنا وقوانيننا لنمنع التعدد الظالم.

– نعم في غالب دول أوربا وأمريكا منعتم التعدد منعًا واضحًا بينًا، وسمحتم بالعشيقات سماحًا واضحًا صريحًا.

– المهم أننا نمنع تعدد الزوجات.

– وحتى تسير الحياة والطبيعة البشرية والاجتماعية لحاجة بعض الرجال لأكثر من زوجة سمحتم بتعدد العشيقات، بل الأخطر أنه يسمح في بعض الدول بتعدد الأزواج بدلًا من تعدد الزوجات،

ويسمح بمجموعات الزواج، ولا يسمح بتعدد الزوجات، ولا شك أنه أكرم للمرأة أن يعدد زوجها الزوجات من أن يعدد العشيقات أو ـ وآسفة على اللفظة ـ مجموعات الزواج المقرفة المقززة.

– جيد، لكن العلم الحديث الذي تعلمتيه وتعلمينه ربما يخالف دينكم كثيرًا!

– العلم يخالف ديننا! أنت لا تعرف ديننا أو لا تعرف شيئًا عن العلم! على كل حال جمال أعرف مني بعلاقة العلم بالدين، وهو طلب مني مناقشة موضوع المرأة ولم أكن أحب ذلك لولا طلب جمال وقوله أن هذا خدمة للدين، فإن أذنتما لي أكون لكما شاكرة لأني أريد أن أتابع دراسة ابني.

خرجت عائشة.. فالتفت جورج إلى جمال بابتسامة حائرة..

– أهنئك على امرأتك، إلا أنها تصلح رجلًا لا امرأة.

– ههههه.

– ما بك؟ ما الذي يضحكك؟!

إذن أنت تعرف أن الرجل ليس كالمرأة فلماذا تدعو للمساواة؟! وصدقني لا يوجد أرق منها ولا أكثر تبعلًا لرجل منها؛ فهي متدينة والنبي ﷺ أوصاها أن تطيعني.

– عدنا للتمييز، ولماذا لم يوصكَ نبيكم بأن تحسن إليها؟

بل أوصى فقال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)، بل ذكر أنه خير الناس لأهله، أنا سعيد جدًّا بنقاشاتك، لكن أتسمح لي أن أذهب لأصلي العصر.

– الساعة الآن الرابعة والنصف، فإن كان مناسبًا نخرج سويًّا تصلي وأتجول أنا في القاهرة لمدة ساعة، ثم تذهب بي لمصطفى فقد واعدني على العشاء ولا أعرف لماذا؟

(٤)

ظلّ جورج في السيارة ينتظر أن يفرغ جمال من الصلاة، وبعد انتهاء الصلاة راح يتأمل في وجوه الناس الخارجة من المسجد، فرأى شخصًا ذا ملامح أوروبيّة فأشار له، ومضى إليه مرحّبًا..

فأجابه بإنجليزيّة ركيكة:

– أهلًا أنا وليم، من أي البلاد أنت؟

– أنا جورج من بريطانيا.

– وأنا بيتر من ألمانيا.

– لكنك كنت تصلي مع المسلمين!

– نعم أنا مسلم من ألمانيا.

- من ألمانيا أم مصري تسكن في ألمانيا؟
- نصف المسلمون في أوربا من السكان الأصليين وأنا واحد منهم، وعدد المسلمين في ألمانيا أكثر من أربعة ملايين يشكلون قرابة ٥٪.
- أعرف ذلك.. والمسلمون لدينا في بريطانيا أكثر من مليونين يشكلون قرابة ٣٪، لكن سؤالي هل كنت مسيحيًّا؟
- أبي وأمي كانا مسيحيين، أما أنا فقد كنت ملحدًا، ولله الحمد أسلمت فسعدت، وأنا هنا فقط لدراسة الإسلام.
- ما الذي دعاك للإسلام؟!
- سؤال كثيرًا ما أسأله، يمكن أن ألخص دوافعي للإسلام بالبحث عن ثلاث كلمات، هي: الحقيقة، السعادة، العدالة.
- وهل وجدتها في الإسلام؟! وكيف؟
- نعم وجدتها، وإن أردت التفصيل فيسعدني أن تزورني فيها بعد، فأنا أعتذر لك فلدي موعد مع أحد الأصدقاء، وهذه بطاقتي فيها جميع معلوماتي.
- شكرًا لك، وأعتذر عن إشغالك.

عاد جورج للسيارة فوجد جمال بانتظاره..

- متى عدت؟
- رأيتك تتحدث مع الرجل، فلم أحب أن أقاطعك، المهم نحن الآن في الخامسة والنصف فكم بقي لنا قبل موعدك مع مصطفى؟
- ساعة تقريبًا، والحقيقة أني متعب وأتمنى أن أذهب إلى الفندق وأرتاح، لكن مصطفى كان حريصًا لسبب لا أعرفه؛ فأعطيته الموعد ولا أرغب أن أخلفه.

رائع، حث القرآن والنبي ﷺ على الوفاء بالوعد، وربما يكون في ذلك خير، أقترح خلال الساعة الباقية أن أريحك بجولة على قارب في النيل، فالموعد قريب من النيل.

- فكرة رائعة.

مضيا إلى النيل، واستأجرا قاربًا لمدة ساعة، وأخذا جولة هادئة أحسّ جورج فيها بالارتياح والاسترخاء، وأحس فيها أن كمية المعلومات المفاجئة بالنسبة له يعاد ترتيبها، ثمّ مضيا إلى حيث واعد مصطفى جورج..

- أشكرك كانت رحلة رائعة وفي وقتها.
- وإن شاء الله تكون قد ارتحت قليلًا.

- نعم إلا أن عناء وضغط التساؤلات لا يزال يؤرقني كلما استرخيت.
- أي تساؤلات؟
- هل يمكن أن أسألك سؤالًا؟
- تفضل.
- ألا تسأل نفسك لماذا خُلقت؟
- بلى.. كثيرًا..
- وكيف تجيب على نفسك؟ أو كيف تهرب من هذا السؤال؟
- لماذا أهرب وعندي الإجابة واضحة!
- وما هي؟
- يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].
- هل تقصد أني مخلوق؛ لأصلي وأصوم لله فقط!
- لا.. أنت مخلوق للعبادة بكل مفهومها الشامل، وما الصلاة والصوم إلا أجزاء مهمة من العبادة.
- كيف؟

العبادة تشمل كل شيء في حياتنا؛ فليست في يوم مخصص أو في مكان مخصص أو في عمر مخصص، بل علمنا النبي ﷺ أن أحدنا يأتي زوجته ويستمتع بها ويكون له أجر.

- كيف؟

وضح ذلك نبينا ﷺ: (أليس لو كان في حرام كان عليه وزرًا، فكذلك إذا كان في حلال كان له أجرًا مع إخلاص النية لله)، وبذلك تصبح الحياة كلها لله: الصلاة والنسك، بل الحياة والموت؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام:١٦٢].

- ولماذا تعيش؟
- يمكن أن أقول لك نفس الإجابة السابقة وأكون صادقًا، يمكن أن أقول لك: لعمارة الأرض والحياة وتنميتها وأكون صادقًا، والحقيقة أن عمارة الأرض والحياة وتنميتها من أهم العبادات، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]
- للأسف وصلنا.. لكن نكمل غدًا نقاشنا، أنتظرك الساعة العاشرة صباحًا؛ فأنا أود أن أرتاح قليلًا وموعدي الساعة الحادية عشرة مع الشركة الأخيرة.
- اتفقنا.

دخل جورج على مصطفى، فرحب به..

- كل شيء جاهز، والعشاء سيكون في أحد المطاعم المناسبة القريبة في أحد الفنادق، والجميع ينتظرنا هناك.

- جميل..

- يبدو أنك مرهق.. لقد جهزنا لك كل ما ينشطك ويعيد لك حيويتك، للأسف نحن المصريين ننسى عندما يزورنا أحبابنا من أوربا أن حياة المصريين لا تصلح للأوربيين.

- كيف؟

- أنا درست الجامعة في أمريكا وأعرف حياتكم جيدًا، وسترى ما يسرك اليوم.

عند أحد الفنادق أوقف مصطفى السيارة، ومضيا مشيًا إلى مدخل جانبي مُضاء بأنوار ملونة ولافتة، كانت الموسيقى الصاخبة تعمّ المكان، وضع مصطفى يده على كتف جورج واقترب منه ليستطيع أن يسمعه..

- لنا منصة خاصة بنا تتسع لنا.

بلغا المنصة، فلقي أربعة نساء ممّن قابلهن الصباح بانتظاره..

- أظن أنك تعرفت عليهن صباحًا وقد أحضرتهن لتتعرف عليهن عن قرب أكثر.. هذه سميرة وهذه منال وعائشة وديانا.

مدت سميرة يدها مبتسمة، فمدّ جورج يده وابتسم وصافحها، ثم صافح البقية وجلس.

- أذكرك بنفسي أنا منال علي عمري أربع وعشرون سنة، وقد جئت لخدمتك.

- جيد.. هل تعرفن جميعًا أنفسكن كما فعلت منال.

- أنا سميرة نظمي عمري ثلاث وعشرون سنة، وقد جئت لأسعدك.

- أنا عائشة خالد عمري خمس وعشرون سنة، وقد جئت من أجلك.

- وأنا ديانا سامح عمري خمس وعشرون سنة.

- أهلًا.. وأنا جورج وعمري يقترب من الأربعين سنة.

قام مصطفى من على كرسيه..

- استأذنكم سأعود بعد قليل.. استمتع بوقتك يا جورج.

- اللقاء بالنسبة لي مفاجأة، ولم أكن أعرف أننا سنلتقي هنا.

- أخبرنا مصطفى أنه سيقدمنا لك هدية.

- لم أفهم؟

- أنت وحدك هنا، ونحن جئنا لك.

- آها.. فهمت، وإلى أي حد مستعدون لخدمتي وإسعادي؟

- ههههه، إلى أقصى الحدود.
- اطلب ما تريد وسترى حدود الخدمة.

صمت جورج متأملًا في وجوه الفتيات الأربع، كنّ جميلات حقًّا، وابتساماتهن فاتنة إلى حدٍّ مغرٍ.. لكنه كان يشعر بالاشمئزاز منهن ومن تفاهتهن، فقرر أن يقطع سكوته، ويتحدث إليهن..

- سأطلب منكن بعض الطلبات، وسأبدأ بعائشة.
- أنا رهن إشارتك.
- لدي سؤال: أليس اسمك على اسم زوجة نبيكم؟
- نعم، ولماذا تسأل؟
- إذن لا شك أنك تقتدين بها في كل ما تعملين؟!
- لماذا هذا السؤال؟ أطلب ما تريد وسألبى لك طلبك.
- طلبي أن تجيبي..
- التفت إليّ.. أنا سميرة مسيحيّة، ماذا تريد من هذه الأسئلة التي تحرج صاحبتي؟
- تدافعين عنها؟!
- نعم صاحبتي، ومن حقي أن أرفع أسئلتك المحرجة عنها.
- تدافعين عنها الآن لترفعي عنها الإحراج، وأنت ترين أنها كافرة في جهنم لأن المسيح لم يخلصها من ذنوبها!
- أنا مسيحية لكني في الحقيقة علمانية، لا أهتم إلا بالعلم ونتائجه.
- ولأنك تحبين العلم كما تقولين؛ لم تكملي دراستك الثانوية فضلًا عن الجامعية، ومؤهلك الرئيس هو جمالك!
- هل تريد أن تجرب هذا الجمال؟ أو تذوقه أو تستمتع به؟!
- ربما، ولكن لي طلب، أليس ما تفعلينه يتناقض مع المسيحية؟
- قلت لك أني علمانية.
- تقصدين ملحدة؟
- لا بأس، لا أفهم الفرق بينهما.
- لكن أليس تذوق جمالك يخالف الأنظمة والأخلاق؟
- نحن أعرف بالنظام هنا منك، والأخلاق نسبية.
- كيف؟
- ما يشكل مخالفة للأخلاق لدى شخص، قد يشكل قمة الأخلاق لدى شخص آخر.

- ولا يوجد مبادئ أبدًا؟
- مبدأي الوحيد هو مصلحتي فقط.
- هذه مبادئ أغلب الملاحدة المصلحة والبرجماتية فقط!
- والآن هل تريد أن تعرف سعادة تذوق الجمال؟
- سؤالي الآن لمنال.
- لا أحتاج إلى أسئلتك، ما نقوم به عار دفعتنا إليه الحاجة ومصطفى القذر، قومي يا عائشة لننصرف.
- ولماذا تقومن بالعار إذن؟

خرجت عائشة ومنال، وساد صمت على المنصة يتخلله صوت الموسيقى العالي الذي يملأ المكان، ولم يحرّك الصمت إلا مجيء النادل..

- لقد طلب لكم مصطفى بعض المشروبات الروحية، ولكنه قال لنا أن نخيرك فماذا تفضل؟
- عفوًا.. أنا لا أشرب.
- لا تشرب! لماذا حضرت إذن مع هؤلاء الجميلات، على كل حال يبدأ الحفل الراقص بعد نصف ساعة، وطلب مصطفى أن أخبرك بأنه تركَكم لتستمتعوا بوقتكم، وسيأتي الثامنة والنصف ليرى براعتك في الرقص، إن غيرت رأيك وتريد أن تريح نفسك بمشروب روحي فأشر لي لآتيك.
- لا تشرب! أنت لست مسيحيًا ولا أوربيًا! كنت أتوقع أن تصبح أكثر نعومة في التعاطي مع الجمال بعد الشرب!
- لماذا؟ هل من لوازم المسيحية الشرب؟!
- إلى حد ما، فحتى القساوسة يشربونه عبادة ويعدونه شرابًا مقدسًا.
- وهل من لوازم الأوربي أن يشرب؟
- في الغالب نعم، فالأوربيون ليسوا مسلمين متشددين، تعب مصطفى لإقناع عائشة ومنال بأن يأتيا ليكون ردك لهما بهذه الصيغة التي ربما تحولهما إلى مسلمتين متشددتين.
- أوه.. إذن أصبحت داعية للإسلام المتشدد!!

ديانا هي الوحيدة الصامتة التي لم تتفوه بحرف واحد طوال الجلسة، التفت إليها جورج متعجبًا، فهي التي أعجب بها لما قابلها صباحًا، حيث كانت الوحيدة المتخصصة في مجال الحاسب الآلي والمحترفة فيه..

- وماذا عنكِ أنتِ؟ أنتِ النشاز بينهن!
- لماذا أنا النشاز والمختلفة عنهن؟

- متعلمة.. مثقفة.. صامتة!
- لكني مثلهن سلعة هدية مقدمة لك.
- ولماذا وافقت أن تكوني سلعة؟
- لأهرب من نفسي.
- كيف؟
- أنا تعبت من الحياة ومرضت؛ فكانت وصية خالي لمصطفى أن يخرجني من عقدي النفسية بالمرح واللعب.
- وأنتِ ما رأيك؟
- لو عرفت للحياة معنى لكان لي رأي! لكني كالقشة في مهب الريح تقلبني الحياة بلا معنى، وربما كان أسلوب خالي بالتنسيق مع مصطفى هو الأفضل لي!
- الأفضل أن تهربي من حياتك وتضيعي عمرك وتتحولي لسلعة؟!!
- ربما لا تعرف معنى الضياع وفقدان الهدف، وإلا لما قلت لي ذلك، لقد أصبح الانتحار أهون مما أنا فيه.
- لكنكم في دينكم تعرفون لماذا تعيشون؟ ولماذا خلقتم؟
- أنا لا أعرف وأكون شاكرًا لكِ لو أخبرتيني.
- أخبرني صديقي المسلم اليوم أنكم خلقتم لعبادة الله، وبمعنى فلسفي رائع للعبادة.
- لكني مسيحية أرثوذكسية ولست مسلمة.
- المسلمتان انصرفتا، ويمكنك الآن أن تستمتع أكثر؛ فقد اقترب موعد ابتداء الحفل.
- بما أنكما مسيحيتان مثلي فأنا موافق على أن نستمتع في هذه الليلة لكن بشرط أن تقنعني ديانا.
- أقنعك بماذا؟
- تقنعيني أن السعادة في أن أستمتع بجمالكما الباهر، وأن أشرب الخمر وأنسى الدنيا وأهرب من حياة الشقاء إلى نعيم النسيان.
- سميرة أقدر على إقناعك مني.
- شرطي أن تقنعيني أنت يا ديانا.
- سميرة من أجمل الفتيات المصريات، وهي راقصة بارعة تنسيك الدنيا كلها، خاصة إذا شربت معها كأس من المشروبات الروحية، هل اقتنعت؟!
- بدأت أقتنع، لكن لماذا تقولين سميرة، ماذا لو كنت أريدكِ أن تشربي أنتِ أولًا وأرقص معكِ أولًا؟

- مع إني لم أشرب في حياتي لكني موافقة، فأنا أشعر بضيق كبير الآن، وأود أن أخرج من هذه التساؤلات التي دمرت حياتي.
- أي تساؤلات؟!
- تساؤلات مستمرة عليّ منذ فترة طويلة عن سبب الوجود، والخلق، ومعنى الحياة، وما شابه ذلك.
- وهل تعتقدين أن شربكِ ورقصكِ أو حتى ممارستكِ للجنس يمكن أن تنسيكِ تساؤلاتكِ؟
- مؤقتًا على الأقل، أنا جاهزة لما تريد؛ فلا تُطل وتكثر من الأسئلة المتعبة.
- أنا مثلك أتعبتني الأسئلة، لكني مقتنع أن الهروب منها منهج الأغبياء، والأصح هو مواجهتها والإجابة عليها.
- وأنا كذلك! لكني تعبت.
- أنت جميلة في أدبك وفي ثقافتك وفي عقلك، فلا تفسدي كل هذا الجمال من أجل جمال جسدك.
- أنا سأنصرف الآن شكرًا لكل النصائح ولكل الإهانات التي أهديتها لي.. ثم قامت وانصرفت.
- بقي أنا وأنت وأنا جاهزة، هل تحب أن نرقص ونستمتع هنا أم في فندقك؟
- أين مصطفى؟
- مصطفى تركنا لنستمتع ببعض أكثر، هيا.
- هيا بنا..

قام جورج مع سميرة واتجهت هي إلى منصة الرقص، بينما جورج استدار متّجهًا إلى الباب ليخرج.. وعندما همّ بالخروج رأى مصطفى واقفًا وممسكًا بفتاة.. نظر إليه نظرة خاطفة، وأعرض عنه ماشيًا إلى الخارج..

- جورج انتظر.. ماذا بك يا صاحبي؟
- لا شيء.. متعب وأود أن أستريح في الفندق.
- تعال واركب حتى أوصلك.
- حسنًا، وبسرعة لو سمحت.
- ما رأيك في الفتيات؟!
- جميلات جدًّا.
- تركتك لتأخذ راحتك معهن وتستمتع بهن.
- استمتعت بهن بما فيه الكفاية.
- ومن أعجبتك أكثر؟

- كلهن، بالمناسبة هل أنت مسلم؟

نعم، واسمي على اسم الرسول ﷺ.

- يا لعار المسلمين بك!

- ماذا تقول؟

- لا شيء، أنت مسلم مثل صاحبي جمال، لكنك تختلف كثيرًا عنه.

- قلت لك هو متشدد متطرف، وأنا تعلمت في الخارج وتفتحت على الدنيا.

- آمل أن تستعجل أنا متعب، وأود أن أصل الفندق سريعًا.

- موعدنا غدًا الساعة كم؟

- ليس بيننا موعد غدًا؛ فأنا مرتبط لكن سيكون بيننا اتصال.

- وصل جورج إلى الفندق وهو يضرب كفاه ببعضهما من الحيرة والدهشة، كان يومه طويلًا جدًّا، يوم مليء بالتناقضات والمفاجآت.. شعر بثقل في جسمه؛ فارتمى على سريره فور وصوله إلى الغرفة، وشعر بقلق تساؤلاته يعود إليه بعنف وشدّة.. وتذكر ديانا المثقفة المتعلمة التي افترسها الشك مثله، فهربت إلى اللهو والاستمتاع.. تذكر السؤال الذي أرسله لأصدقائه، وسأله إياه اليوم جمال: «ما الذي يمنعك من أن تدخل في الإسلام؟»...

ظلّ يسترسل جورج في أفكاره ولم يشعر بنفسه إلا الساعة الثامنة والنصف صباحًا، عندما استيقظ من النوم فوجد نفسه قد نام بثيابه وهو في حالة يرثى لها.

حديث الروح

١٧ حديث الروح

حديث الروح

(١)

نهض جورج من فراشه متثاقلًا، كان يشعر بسأم ودّ بسببه لو يبقى اليوم كلّه في الغرفة ولا يقابل أحدًا، لكنّه في تحدٍّ مع كاخ، وقد عزم على أن يغلبه ويتفوق في مهمّته الصعبة، لا بدّ له من أن يعزل أموره الشخصيّة وما يعتريه من خوف وتردد وملل، وألا يركن إليها على حساب عمله ومستقبله.

موعده اليوم مع جمال في الساعة العاشرة، إذن ما زال عنده الوقت الكافي لتناول إفطاره وتصفح بريده الإلكتروني،لم تكن لديه الرغبة في النزول من الغرفة، فاتصل على بوفيه الفندق وطلب أن يصل فطوره إليه في الغرفة، ثمّ قام إلى دورة المياه ليأخذ حمّامًا سريعًا ريثما يصل الإفطار..

دقائق معدودة وطرق عليه النادل باب الغرفة، ودخل ومعه أطباق الطعام ووضعها على الطاولة وخرج.. فراح جورج يتناول فطوره وهو يتصفح الرسائل الواردة على بريده، فوجد رسالة من كاترينا:

«حبيبي جورج

لا أدري لماذا رغم قصر المدة على سفرك شعرت بأنني مشتاقة إليك كثيرًا، بل ومحتاجة إليك كثيرًا، ولا أستطيع الانتظار لشهر لقدومك، فلدي مشاكل وحيرة وأنا في حاجة ماسة إليك، ويكفي لأصف لك حيرتي أن أخبرك بأني أنا الكاثوليكية المتدينة بكيت وأنا أسمع ترجمات للكتاب المقدس للمسلمين الذي يسمونه القرآن، أنا أعيش حالة اضطراب شديدة، أنا محتاجة لك.

محبتك كاترينا».

فردّ عليها:

«حبيبتي كاترينا

أعتقد أني سأعود قريبًا، فموعد الأمس كان سيئًا جدًّا، ومثالًا سلبيًا للمسلمين، لا أدري هل المشكلة في المسلمين أم في دينهم؟ لكني أكره مصطفى الذي كان موعدي معه بالأمس، سأحاول أن أعود خلال أيام فصلِّي من أجلي، فأنا لا أريد أن أفشل في التحدي مع كاخ.

محبك جورج»

ولقي رسالة من جانولكا:

«عزيزي جورج

وصلتني رسالتك، وفرحت بأن رأيي في سرقة المسلمين كان صحيحًا، وإياك والتعجل مرة ثانية، وبالنسبة إلى وضع المرأة فليس به أي إشكال، إنما إشكالي الرئيس في الحرية في الإسلام! فإن كان لك رؤية أو رأي فأفدني.

جانولكا»

فرد عليه:

«عزيزي جانولكا

ربما تستغرب أني خلال الفترة القصيرة غيرت رأيي!! نعم ليس في الإسلام ظلما للمرأة، بل جاء الإسلام بما يناسب تركيبتها وطبيعتها، وإن كنا لم نعتد على ذلك في مجتمعاتنا الأوربية فهو نظام مختلف بالكامل، فقد تناقشت في الموضوع كثيرًا وتأكد لي ذلك، ولكني لم أقرأ أو أناقش في موضوع الحرية، فإن كان لديك شيء فأرسله لي وسأرسل لكل المجموعة كذلك، وسأحاول أن أحاور في ذلك وأقرأ أيضًا

جورج».

فيما كان يتابع رسائل بريده، رنّ هاتف الغرفة، كان موظف الاستقبال يخبره بأنّ هناك من ينتظره في صالة الفندق.. نظر في ساعته فوجدها التاسعة والنصف، فتعجب.. هل يعقل أنّ جمال قد أتى قبل موعده بنصف ساعة؟

– عفوًا من ينتظرني؟

– تنتظرك فتاة شابة.

– من هي؟

– أخبرتني بأنّك تعرفها، ولكنها لم تذكر اسمها.

– حسنًا أنا نازل لمقابلتها الآن.

نزل جورج إلى صالة الاستقبال، ليجد ديانا بانتظاره، كانت ترتدي ثيابًا بسيطة، وقد جمعت شعرها إلى الخلف، ولم تضف إلى وجهها أيًّا من مساحيق التجميل، فرق كبير بين شكلها بالأمس وبين اليوم، ومع ذلك فوجهها على طبيعته اليوم يبدو أكثر بهاءً ونعومة ممّا كان عليه بالأمس، وقد برزت عيناها الواسعتان بنظرتها التي تفصح عن ذكاء وحرص..

رحّب بها، ودعاها إلى الجلوس في صالة الضيافة..

– ماذا تشربين؟

- لا شيء، ولن أطيل عليك أريد مناقشة أمر معك.

أشار جورج إلى العامل بأن يحضر لهما كأسين من العصير.. ثمّ التفت إلى ديانا متسائلًا عن سبب زيارتها، وقد لحظ في عينيها دمعات تحاول إخفاءها..

- تفضلي..

- أنا التي كانت بالأمس تريد أن تهرب من الأسئلة التي تدمرها وتقتلها من الداخل! أنا التي أهنتني بالأمس! أنا الأرثوذكسية الهاربة! أنا الصامتة المثقفة كما تقول، أنا متعبة..!

- أتذكرك جيدًا، لكن ما هو المطلوب مني؟

- ألست جميلة؟!

- بلى جميلة جدًّا، بل هو الجمال الشرقي الفاتن! لكن هل جئت لأقول لك أنك جميلة؟!

- ولماذا إذن أهنتني بالأمس؟

- أنا لم أهنكِ، كنت أسألك وأناقشك فحسب.

- لقد ذكرت أنه أتعبتك الأسئلة مثلي! وأنّ الهروب لن يحل مشكلة الأسئلة! فهل لك أن تخبرني عن إجابة هذه التساؤلات المنهكة؟

- هل جئت لذلك؟

- نعم!

- ولو قلت لك أني لم أجد جوابًا، بل كدت أنتحر بسبب هذه التساؤلات!

- إن كان ما قلته صحيحًا فهذا دليل ذكائك.

- كوني لم أجد جوابًا دليل ذكاء!

- بل أعني عدم هروبك هو دليل الذكاء.

- ولماذا تهربين أنت إذن؟

- نحن بشر ونمر بحالات ضعف.

- لكن ألا يوجد إجابة حقيقية لهذه التساؤلات؟

- بلا شك يوجد.

- كم أتمنى أن أصل إليها وأن أعرفها.

- أما أنا فأعرفها لكني أجبن منها.

- تعرفينها؟!

- نعم، لكن لا يحقق الإنسان ذاته ولا يسعد في حياته ولا يغير من نفسه إلا بأن يكون شجاعًا مع نفسه.

– لم أفهم ما تقولينه!
– أحيانًا يبقى الفقير فقيرًا؛ لأنه يخاف أن يخسر لو فتح له تجارة، وأحيانًا يبقى العازب عازبًا؛ لأنه يخاف أن يتزوج، وأحيانًا يبقى الجاهل جاهلًا؛ لأنه يخاف أن يتعلم.
– صحيح وواضح، لكنني لم أفهم عن ماذا تتحدثين!
– أنا أعرف إجابة مريحة جدًّا لهذه التساؤلات لكنني ربما أُقتل أو أُسجن، لذا بقيت كما أنا.
– أما أنا فلن أجبن!.. أخبريني ما هي؟
– أمتأكد أنك شجاع لهذه الدرجة؟
– ربما، أخبريني بلا فلسفة كبيرة لو سمحت.
– كنت أقول مثلك، لكنني في الأخير جبنت، وعدت أفكر في وسائل الهروب.
– دعيني أجرب شجاعتي إن اقتنعت بما تقولين! أين أجد إجابة تساؤلاتي؟
– جئتك لأعرف منك كيف تجيب عن تساؤلاتك، لا لأعرفك كيف تجيب عن تساؤلاتك!
– ولكني انقلبت طالبًا، تفضلي أخبريني.
– ربما ما أقوله لك سيغضبك، لكنني بعد طول تفكير وبحث لم أجد غيره، ما الذي يمنعك أن تكون مسلمًا؟

رفع جورج عينه إلى السماء، وابتسم ابتسامة باهتة لديانا، وراح يستعيد المواقف التي مرّ بها مذ عزم البحث عن طريق السعادة، كاترينا وأورميلا وليفي وحبيب وجانولكا.. ومطيع الرحمن وكريم الله وآدم والشيخ باسم وجمال، مسيرة طويلة قطعها، وعايش تجاربًا عديدة، ناقش وقرأ وتأمل، تُرى هل ستكون نهاية تلك الرحلة الشاقة في الإسلام؟ هل الإسلام هو طريق السعادة؟! ثم أليس هو الذي عادة ما يقول لو وجدت الطريق فسأسلكه مباشرة، هل صحيح ما يقوله آدم من أني أحتاج إلى الشجاعة؟ هل شجاعته التي يبديها مجرد دعوى...

– آسفة يبدو أني أزعجتك، كنت أتمنى أن يكون لديك جوابا آخر، كل ما أتمناه ألا يكون صمتك خوف وجبن مثلي!
– عفوًا.. كنت أفكر فقط!
– في ماذا؟
– في سؤالك.
– أعرف الجواب مقدمًا.. أنت خائف.
– خائف من ماذا؟
– خائف ممن حولك.. خائف من نفسك.

- لا لست خائفًا.. ولكن هل يمكن أن تخبريني أولًا: لماذا كل هذا الخوف عندك من الإسلام؟
- لست خائفة من الإسلام!
- إذن خائفة من ماذا؟
- من أهلي، تُوفي أبي وانتقلت مع أمي للعيش في بيت خالي، وأنا أعرف أني لو أسلمت لجنّ جنونه، ولربما قتلني!
- لماذا؟
- أهلي يعتقدون أن المسلمين يخدوعننا.
- ربما يكون ذلك صحيحًا!
- يحرص خالي على التقائي وجلوسي مع المسلمين المنحرفين، أكثر من جلوسي حتى مع المسيحيين، فقد تناقشت مع كثير من المسيحيين ويقولون أني هززت الدين في نفوسهم، ولذا يحرص خالي أن أجلس مع المسلمين المنحرفين عن دينهم لأنهم أسوأ من المسيحيين.
- مثل مصطفى؟
- نعم، كم أكرهه.
- لكن أليس هو مثال للمسلم؟!
- بل مثال جيد للفاسدين المنحرفين، سواءً أسميت علمانية أو ليبرالية أو شيطانية.. لكن أجبني ما الذي يمنعك من الإسلام؟
- عذرًا، أود أن نكمل أولًا ما سبق، ولماذا قد يقتلك خالك إن أسلمت؟
- حتى لا تتكرر حالات ترك المسيحية!
- هذا متعارض مع أبسط حقوق الحرية الدينية!
- أي حرية! أنا مسيحية مثلك، هل لديك حرية ألا تؤمن بأسرار الكنيسة التي يرفضها العقل؟! هل لديك حرية أن تؤمن بأن المسيح لم يكن إلهًا كما هو في بعض نسخ الكتب المقدسة؟!
- دعيني من هذا الآن، أنا لدي موعد الآن وقد لمحت صديقي من فترة، وهو جالس ينتظرني هناك، لكني أود أن نكمل نقاشنا فيما بعد! وأود أن أعرفك على صديقي المسلم، إن لم يكن لديك مانع.
- أتوقع أنك تهرب من إجابة السؤال الذي سألتك خوفًا ونقصًا في الشجاعة مثلي، لكن الأمر إليك.. يسعدني التعرف على صاحبك.

مضى جورج إلى جمال، واعتذر له على التأخير، وحدّثه بخبر ديانا، وعادا معًا إليها..
- هذه هي ديانا التي تريد أن تسلم.

– مرحبًا يا ديانا أنا جمال من الإسكندرية، ويسعدنا إسلامك.
– وأنا أيضًا من الإسكندرية، لكني أرثوذكسية، ولم أقل لجورج أني أود أن أسلم، بل قلت له أن حلول كثير من تساؤلاتنا المقلقة في الإسلام.
– جيد.. وهذا يعني أنك تريدين الإسلام، لأنه لا يوجد أحد يود القلق والكآبة أو لا يود الإجابة على تساؤلاته.
– صحيح.. ولهذا كنت أسأل جورج: لماذا لم يسلم؟
– وأنا لم أجبها.. لكني تفاجأت من قسوة المصريين، فديانا تقول بأنها لو أسلمت لسجنت أو قتلت!
– تنهدت ديانا بحرقة... آه آه، أرجو ألا تتهم المصريين! أنتم في أوربا وأمريكا أقسى منا بمراحل، هل نسيت ما فعلتم في العراق في «أبو غريب»، إن القسوة والعنف والسادية في أظلم وأسوء أشكالها، وخاصة على النساء لديكم أنتم في الغرب، هل يمكن أن تنكر أن المرأة تتعرض للضرب ستة أضعاف الرجل لديكم، هل تنكر أن ٣٣٪ من النساء في أمريكا يُضربن، هل تنكر أن لديكم في بريطانيا ٧٧٪ من الأزواج يضربون زوجاتهن دون أن يكون هناك سبب لذلك!
– أراكِ غضبتي وانزعجتي من حديثي!
– لا، لكني مصرية أدافع عن بلدي من تهجمك.
– جميل حب الوطن.. جميل جدًّا! لكن حب المبادئ أولى، ورغم قناعتي بساديتنا وقسوتنا في الغرب، إلا أني استغربت أن يوجد ذلك عندكم، ولكننا أفضل منكم في الحرية الدينية، فبإمكانك أن تكوني مسيحيَّة أو مسلمة أو يهوديَّة أو بوذيّة وبلا أي إشكال.
ضحك جمال وقال:
– ههههه، ولهذا منع النقاب في فرنسا!! ولهذا منع الأذان وبناء المنابر في سويسرا!! عن أي حرية تتحدث؟
– صدقت يا جمال، لكننا لا نقتل أحدا أو نحبسه لو أراد أن يسلم؟!
– ولا نحن نقتل من أراد أن يسلم!
– صدقت يا جمال.. أعتقد أن هذا جزء من التعصب المسيحي في بلادنا، لكن أليس الإسلام كذلك انتشر بالسيف والقوة؟
– من هو قائد الجيش الذي أسلمت به إندونيسيا أو نيجيريا أو أثيوبيا أو تنزانيا أو غيرها؟ أكثر الدول الإسلامية أسلمت بالدعوة بلا سيف والتاريخ يثبت ذلك، بل لم يجبروا أحدًا على الدخول في الإسلام.. عذرًا أليس المسيحيين في هذه البلاد تحت حكم المسلمين لقرابة ١٤٠٠ سنة مَن

أجبرهم على الإسلام؟ ألم يكن الهنود تحت حكم الإسلام لأكثر من ١٠٠٠ سنة فهل أجبروا على الإسلام؟ هل أجبروا النصارى في الأندلس أو ما يسمى الآن إسبانيا على الإسلام أم أن النصارى هم الذين أجبروا المسلمين على التنصر أو القتل في محاكم التفتيش بعد ذلك؟!

شعر جورج أن النقاش تطور وخرج عن السيطرة، فأراد أن ينهيه حتى لا يتأخر عن موعده:

– لقد تأخرنا جدًّا، وقد أحببت أن أعرفكما على بعض.. ديانا هذه بطاقتي، وأريد منك رقم هاتفك.

– تفضل بطاقة أعمالي، وهذه لك يا جمال.

– سأتصل عليك إذا لم يكن عندك مانع لنكمل نقاشنا، ربما اليوم أو غدًا.

– المهم ألا يعرف خالي، فأصبح مثل وفاء قسطنطين أو كريستين مصري أو ميرنا عادل أو غيرهن.. وتذكر أنك لم تجب على سؤالي حتى الآن!

– سأتواصل معك اليوم أو غدًا، وسأجيبك رغم صعوبة السؤال! نستأذنك الآن.

(٢)

عندما ركب جورج وجمال السيارة، التفت إلى جمال وسأله متعجبًا..

- ما الأسماء التي ذكرتها ديانا في الأخير؟

- تعني وفاء قسطنطين وكريستين وميرنا وغيرهما؟ هن مسيحيات أسلمن فخطفن وعذبن وبعضهن قتل! فتخاف أن تصبح مثلهن.

- قسوة وعنف، المهم أود أن أنهي عملي في القاهرة غدًا؛ لأعود لبريطانيا لأيام وأعود مرة أخرى للقاهرة فلدى زوجتي بعض الظروف التي أود أن أكون فيها معها.

- جيد، اليوم موعد الشركة الأخيرة، ثم اتخذ قرارك ولو بشكل أولي في ترتيب ما تريد.

- نعم، هذا ما سيكون، لكني أود وضع آلية للمتابعة واستمرار العمل بعد سفري.

- بعد المقابلة مع الشركة الأخيرة قد تكتشف أن أحدهم يصلح لذلك.. قد اقتربنا، متى تريدني أن أعود إليك؟

- ندخل سويًّا ونقرر بعد ذلك.

دخلا إلى مبنى الشركة، وطلبا من السكرتيرة مقابلة المدير، فاتصلت به لتخبره بوصول أصحاب الموعد..

- تفضلا الدكتور خالد في انتظاركما.

رحبّ بهما الدكتور خالد، وأدخلهما إلى غرفة الاجتماعات..

- بناء على المراسلات التي بيننا أتوقع أن هناك عددًا من الأفراد المختصين يمكن مقابلتهم اليوم؟

- نعم هناك أربعة أشخاص اليوم، ويمكن مقابلة غيرهم غدًا إن أردت، فأنا فصلت بين الفنيين التقنيين وبين المختصين في إدارة المعرفة والتكنولوجيا.

- رائع.. ماذا عن المختصين في إدارة المعرفة أو إدارة التكنولوجيا؟

- كما ذكرت لك هم أربعة ستقابلهم اليوم، وأعتقد أن بإمكانهم أن يقابلوا التقنيين نيابة عنك إن اقتنعت بهم، وعمومًا هم تقنيين ومبرمجين أيضًا لكنهم درسوا ومارسوا إدارة العمليات التقنية والبرمجية.

- متى يمكن أن أقابلهم؟

- بعد أن تشرب الشاي يمكنك أن تقابلهم، فرديًّا أو جماعيًّا إن أحببت.

- أريد مقابلة الأربعة سويًّا لو سمحت.

- كما تريد، سأتأكد من جاهزيتهم حتى تشرب الشاي.. تفضل هذه سيرهم الذاتية فمن الجيد أن تتعرف عليهم قبل بدء المقابلة، أستأذنك دقائق.

تصفح جورج السير الذاتية سريعًا، فأعجب بها أيما إعجاب، لكنه لم يحب أن يستعجل حتى يقابلهم، لخص معلوماتهم في ورقة صغيره:

محمد علي – مسلم – ٣٨ سنة – أدار مشاريع الحكومة الإلكترونية في مصر لكنها لم تكمل.

أمير إسحق – ٣٧ سنة – مسيحي أدار مشاريع تقنية للأمم المتحدة مع الحكومة المصرية ولمركز المعلومات المصري.

سلوى حسن – ٣٩ سنة– مسلمة أدارت مشاريع تقنية لشركة تعمل في الأجهزة الذكية.

مازن كمال – ٣٩ سنة – مسلم – أدار شركتين للبرمجة وتصميم المواقع.

وما إن انتهى من الكتابة، حتى دخل عليه د. خالد..

– إن كنت انتهيت، فسأدعوهم للدخول إليك في غرفة الاجتماعات.

– أنا جاهز.

– حسنًا جورج، أنا ذاهب، متى تريدني أن آتي إليك؟

– شكرًا جمال، لا أظن أن الموضوع سيطول أكثر من ساعة، سأكون في انتظارك؛ فلدي مكان أود أن نذهب إليه سويًا.

– حسنًا إلى اللقاء..

طلب الدكتور خالد من أصحاب السير الذاتية الدخول إلى غرفة الاجتماعات، حيث كان جورج جالسًا بانتظارهم..

– لا أود أن أطيل عليكم وعلى المهندس جورج، أنا شرحت لكم ما يريد، وقد نظر في سيركم الذاتية، واختصارًا للوقت سيكون الاجتماع جماعيًا، تفضل جورج.

– أنا معجب بسيركم الذاتية جميعًا، وقد قرأت سيركم الذاتية وهي معي الآن، ليخبرني كل شخص ماذا يمكن أن يقدم لشركتنا، ولماذا وافق عليها؟

استمع إليهم وتناقش معهم، أعجب بهم جميعًا وعرض عليهم المطلوب.. وقرر أن يختار ثلاثة منهم حددهم جيدًا (أمير – سلوى – مازن)، إذ إن محمدًا لا يناسبه العمل كثيرًا، طلب منهم أن يرشحوا مديرًا لهم فأجمعوا أن أمير أنسبهم..

– أليس لديكم مشكلة في أن يكون مديركما مسيحي؟

– وما المشكلة أنت مسيحي أيضًا؟

– أمير صديقي من أيام الثانوية، وسأقولها أمامه هو أحق بالإدارة، أتمنى له الإسلام، ولكن إن لم يسلم فسيظل صديقي.

– ليس لدينا إشكالاتكم الغربية مع المسلمين، وكنت أعتقد أن مازن أقدر مني على الإدارة.

- أنا لدي موعد بعد قليل، أريد منكم أن تكملوا اجتماعكم وتضعوا الخطوط العريضة لخطة متكاملة لتأسيس العمل وإدارته للسنة الأولى، ونتقابل غدًا صباحًا لوضع ومراجعة واعتماد الخطط الأولية وبدء العمل، كما أبشركم بأني قابلت مجموعة جيدة من الموظفين التقنيين المتميزين في مكتب التوظيف العالمي.

- الذي يديره د. جرجس؟

- نعم، أمير... هل تعرفه؟

- د. جرجس صديقي أنا ومازن.. ولديه طاقم عمل مميز.

- كما أني لدي مبرمجة مميزة جدًّا قابلتها في مكتب آخر اسمها ديانا سامح.

- ههه، ديانا سامح المبرمجة؟

- هل تعرفها؟

- بنت أختي.

- هل أنت خالها؟

- نعم.

- غير ممكن!

- ما هو غير الممكن؟!

- لا بد أن أقابلك اليوم مساء، هل تقبل أن أدعوك لوجبة العشاء الساعة السابعة؟

- نحن جميعًا؟

- لا، أريدك في أمر خاص ليس له علاقة بالعمل.

- حسنًا، أين؟

- في الفندق الذي أسكن فيه، تفضل هذا عنوانه.

(٣)

– أريد أن تذهب بي لمكان ولا تعترض عليه؟
– لا بأس.. إلى أين؟
– أريد أجلس مع الفقراء والبسطاء وعامة الناس في البلد وأتحاور معهم.
– طلب غريب جدًّا، لن أعترض ولكن هل لي أن أعرف لماذا؟
– أود أن أسمع منهم بعض الأشياء، وأتعرف على الناس كيف ينظرون للحياة.
– سبب وجيه.
– بالمناسبة: أنا تعرفت على خال ديانا الذي سيقتلها لو أسلمت ولدي فكرة.
– أين تعرفت عليه؟
– هو من رشحته ليكون مدير الشركة!
– قطعًا لا يصلح شخص مثل هذا، لماذا التعصب يا جورج؟
– لم أعرف أنه خالها إلا بعد أن قررت واتفقت معه أن يكون مديرًا.
– هذا عيب ونقص أخلاقي يمكن أن يجعلك تغير رأيك.
– صدقت، وهذا ما سيكون لكن بعد أن أقوم بتجربة ستراها مساء؛ فأنت مدعو للعشاء في الفندق معي.
– ماذا تقصد؟
– سترى مساءً.
– حسنًا، ها قد وصلنا لحي شعبي..
– أريد أن أزور شخصًا في بيته.
– تزور شخصًا في بيته! لا بأس أنا أعرف واحدًا لكن في الجهة الأخرى من الشارع، دعني اتصل به أتأكد من أنه موجود وأنه يقبل زيارتنا.
– حسنًا، وأنا سأتصل بديانا.

اتصل جورج بديانا واتفق معها أن يقابلها الساعة السابعة في الفندق.. واتصل جمال بالعم سعيد يخبره بزيارته له مع جورج..

– لا بد أن نشتري غداء ونأخذه معنا.
– لماذا؟
– لأنه لا يليق أن نأتي وقت الغداء ولا يضيفنا العم سعيد، وأنا أعرف أنه لا يستطيع أن يضيفنا فلماذا أحرجه؟

- جيد، لنشتري غداء فاخرًا جدًّا مع حلويات وكل ما هو مناسب.
وصلوا لبيت العم سعيد، كان بيتًا قديمًا جدًّا، وفي شارع ضيّق غير نظيف.. طرق جمال الباب، ففتح العم سعيد الباب مبتسمًا ومرحبًا، فدخلا ومعهما الغداء والفاكهة والحلويات.. أدخلهم إلى غرفة قديمة جدًّا ونظيفة جدًّا، كان فيها جلسة أرضية بالية، وقد مدّت في الوسط سفرة عليها أرغفة خبز وبعض الخضار وصحن أرز..
- تفضلا.
- تفضل أحضرنا هذا الغداء معنا.
- أنا شاكر لكما، ولكن لم يكن لذلك لزوم؛ فأنا تجهزت لإكرامكما، دقيقة أدخله للداخل ليجهزوه لنا.
دخل عم سعيد فطلب جورج من جمال أن يخبره بما دار بينهما بالضبط، وطلب منه أن يترجم له ما يقول العم سعيد أولًا بأوّل، وألا يترك أيّ كلام دون ترجمته.. دقائق وعاد العم سعيد بصحن كبير رصّت عليه أطباق الغداء التي أحضرها جورج وجمال معهما..
- تفضلا، شرفتمونا.
- جمال.. اسأله ماذا يتمنى من هذه الدنيا؟
- الستر والعافية يا ابني.
- وهل هو سعيد في حياته؟
- يا بني فضل ربنا علي كبير، أنا في بيت وعندي أولادي، وأجد كل يوم لقمة عيشي، عاوز إيه أكتر من كده.
- ألا يتمنى المال والغنى؟
- يا رب ارزقنا وزدنا، ولكن ليس المال فقط، ربنا يزيدنا في المال والصحة والطمأنينة.
- اسأله ماذا يريد بالطمأنينة وماذا يعني؟
- يا جمال اسأل صاحبك كيف يعيش؟ من لم يفهم الطمأنينة فحياته نكد.
- إذا سمحت أعد سؤالي، كيف ومتى تشعر بالطمأنينة؟
- أجد الطمأنينة لما أشرب الشاي مع أولادي في العصر، ولما أحط جنبي على الفراش بالليل وأنا لم أعص ربي وقمت بالحقوق التي علي، ولم أؤذ أحدًا، قل له يا بني: ألا يحس بالطمأنينة بعد أن يصلي؟
عندما ترجم جمال الكلام لجورج، سكت طويلًا وهو ينظر للأسفل..
- أنا آسف أخشى أني تجاوزت في الكلام وأنتم ضيوفي، ومن حقكم الإكرام.

- ليس بالضرورة أن يعتذر، بل أنا الذي أعتذر عن الجواب وإن سمح لي فليعذرني عن الجواب، وأود أن أسأله سؤالًا أخيرًا، اسأله لماذا يعيش؟
- أسألتكم غريبة! هل هناك أحد لا يعرف لماذا يعيش؟! يا ابني نحن خلقنا ربنا للعبادة، وهو الذي يرزقنا وبيده الفضل والكرم كله، لكنني لم أفهم لماذا شرفتموني بالزيارة.
- قل له لنستفيد منك ونتعرف عليك.
- ربنا يبارك فيكم.

لاحظ جورج أن العم سعيد يأكل من أكله أكثر مما يأكل من الأكل الفاخر الذي أحضراه..

- جمال اسأله لماذا لا يأكل من الأكل الذي أحضرناه؟
- حتى أتركه لكم فأنتم ضيوفي.. رغم أنكم أنتم الذين أحضرتموه، والحقيقة أنا أجد نفس متعة ما تجدونه في طعامكم في طعامي البسيط، إذا كان الإنسان سعيدًا معافى فكل أكل لذيذ وكل الحياة سعيدة ولله الحمد.

أنهوا غداءهم، فودعا العم سعيد وشكراه على الضيافة، وخرجا..

- يبدو أني أتعبتك، لكني أود زيارة كنيسة أو مواطن بسيط مسيحي!
- إذن لننزل فجار العم سعيد مسيحي، هل تريدني أن أخبره أن يستأذن منه؟
- جيد.

اتصل جمال على العم سعيد وأخبره، وما هي إلا دقائق حتى خرج العم سعيد وهو مبتسم..

- تفضلا.
- أين؟
- عند جاري.. كلمته وأخبرته أنكم عند الباب فرحب.

طرق العم سعيد الباب ففتحت عجوز كبيره مغطية رأسها بوشاح ساتر لا يبدو منها إلا وجهها..

- تفضلوا صابر يغسل وجهه أيقظته من النوم وسيأتي الآن.
- دقيقة سأذهب إلى بيتي لأحضر شيئًا.
- جمال هل أنت متأكد أنه بيت نصارى؟
- نعم، حسب كلامهم.
- ولماذا إذن تغطي المرأة رأسها؟
- رغم معرفتي الإجابة لكن أفضل أن تسمعها منهم.

عاد العم سعيد ومعه القهوة، وبعض المأكولات ووضعها أمامها..

- أخبرت جاري ألا يجهز شيئًا فكل شيء جاهز عندي، ونحن فاجأناه بالزيارة، وضيوفي ضيوفه.

- شكرًا لك على الأكل والقهوة وعلى إحضار الضيوف.
- جمال، اسألهما أنتما جيران منذ متى؟
- سعيد صاحبي منذ كان عمري ١٢ سنة، عندما كان أبي وأبوه جيران.
- لكنكما لستما على دين واحد!
- صحيح لكننا جيران وأصدقاء.. كل يوم ينصحني سعيد ويريدني أن أسلم.
- اسأله: ما رأيه بالإسلام والمسيحية والعلاقة بينهما؟
- يا بني اليسوع ومحمد كلهم رسل من الله، وأنا وأبويا مسيحيين وسعيد وأبوه مسلمين من زمان والعلاقة بيننا حلوة من زمان.
- اسأله ولماذا لم يسلم؟ بما أنه يؤمن أن محمدا رسول من الله؟
- ههههه، وسعيد أيضًا يؤمن بأن عيسى رسول الله فلماذا لا يتنصر؟!
- لأن المسلم يؤمن بأن عيسى رسول الله، لكن المسيحي لا يؤمن بأن محمدًا رسول الله.
- نفس كلام سعيد، تريد الحقيقة يا بني؟ أنا خائف أترك ما كان عليه أبي وجدي، وإلا فأنا مقتنع بما يقوله سعيد، وهو أحب إلي من أولاد عمي، لكن عندي سؤال هو أنت مسيحي أو مسلم؟
- ممكن أحتفظ بالإجابة لنفسي من أجل الوقت، لدي سؤال آخر، زوجتك لماذا لبسها كالمسلمين؟
- لبس زوجتي كلبس كل المصريات مسيحيات ومسلمات!!
- المسيحيات عندنا في أوربا لا يغطين رؤوسهن.
- الذي أعرفه أن عندكم في أوربا النساء يغطوا رؤوسهم بل وأحيانًا وجوههم، ولم يحدث التغيير إلا في القرون الأخيرة، وإلا فانظر في جداتك أو أمهاتهم! ونحن كذلك، لكن البنات الصغار وخاصة المسيحيات يحبون تقليدكم وليته كان في شيء جيد.
- لماذا وخاصة المسيحيات؟
- لأن الدين عند المسلمين يصبغ ويغير الحياة، والمعصية والخطأ لا يذهبها إلا التوبة، بينما عندنا المسيحيين يغير حياة الإنسان لما يكون في الكنيسة.. ويكفي عندنا أن عيسى خلصنا من جميع ذنوبنا، فالمسألة سهلة.
- اشكرهما لا بد أن ننصرف حتى لا نتأخر على الموعد في الفندق.

ودعا العم سعيد والعم صابر.. ومضيا إلى السيارة..

- هل حققت ما تريد؟
- نعم.. فذهني يكاد ينفجر الآن، لا أعرف.. أشعر أن بداخلي بركان ينفجر، ولولا الموعد مع

ديانا وخالها لحاولت أن أطيل الجلوس مع هؤلاء البسطاء؛ فهم يعبرون عن الحياة ببساطة عميقة، جمال اسمح لي.. أشعر بعدم الرغبة في الحديث.

- حسنًا.

كان رأس جورج يكاد أن ينفجر بسؤال واحد فقط «ما الذي يحول بينك وبين طريق السعادة؟»، هل أنت جبان؟ أم أن الطريق لم يستبن لك بعد؟! أم أنك تعرف ما لا تريد ولا تعرف ما تريد! تمنى لو تخف حدة السؤال على ذهنه المضطرب من كمية ونوعية المعلومات التي عرضت عليه..

(٤)

- اقتربنا من الفندق، وقد دعوت ديانا وخالها إلى العشاء.
- وماذا تريد أن تفعل؟
- سأجعل المرأة تدخل في الإسلام، وتتجاوز مشكلة خالها.
- رائع لقد أصبحت داعية للإسلام، ولكن أنت متى ستسلم؟
- مثلما قلت للعم صابر.. أنا أحتفظ بالإجابة لنفسي، فرأسي يكاد ينفجر من السؤال، أو ربما أريد أن أهرب منه، لا أدري....
- وكيف ستدعوها للإسلام أيها الداعية؟!
- شكرًا لسخريتك مني! هي تريد أن تدخل في الإسلام لكنها خائفة من خالها، ولذا سأزيل هذا الخوف.
- كيف؟
- سترى، فقد وصلنا.
- المهم ألا تثير مشكلة لديانا مع خالها.
- وصلنا في الوقت سأصعد أضع حقيبتي في الأعلى، وأنزل لكم سريعًا في المطعم.

دخل جمال المطعم، فلقي ديانا جالسة مع خالها على طاولة واحدة بانتظار جورج، فجلس معهما..

- لقد صعد جورج ليضع حقيبته وسينزل الآن.
- أنا لا أعرف ماذا يريد، فبمجرد أن عرف أني خال ديانا أصر علي أن أتعشى معه، فهل تعرف ما يريد؟
- ربما ديانا تعرف..!
- أنا لا أعرف شيئًا، أخبرني في الصباح أنّه سيتصل بي ليجيبني عن سؤالي لماذا لم يسلم؟ وفوجئت بأنه دعاني للعشاء!

وصل جورج إلى مطعم الفندق، رأته ديانا فأشارت إليه من بعيد، فتقدم نحو الطاولة التي يجلسون عليها..

- أعرفكم على بعض.. أمير المدير الإقليمي لشركتنا في مصر، وهذه ديانا مبرمجة شركتنا المتميزة، وهذا صاحبي المسلم ليس مبرمجًا لكن تخصصه هو أبو البرمجة، أعني الرياضيات.
- خالي مدير شركتكم؟!
- هو مدير الشركة وبكفاءة، وبشهادة كل زملائه، رغم أنهم مسلمين.
- أشكرك على حسن ظنك بي.

– لكني لا زلت مستغربًا من أن زملاءه مسلمين ومع ذلك هم الذين رشحوه!

ابتسمت ديانا وقالت:

– وما الغريب في ذلك؟!

– الغريب أن بعض المسيحيين يمنعون الناس من الإسلام.

أمير بتعجب:

– لأنهم لم يفهموا الإسلام جيدًا!

– هل تعني يا أمير أنك لا ترى بأسًا في أن يدخل المسيحي في الإسلام؟!

– سأقول لك ما أنا مقتنع به، وربما ما لا تحب أن تسمعه، أنا لا أرى أي بأس في أن يدخل في الإسلام أي مسيحي، بل ربما ما لا تعرفه عني أني منذ ثلاثة أسابيع وأنا أتردد على أحد مراكز التعريف بالإسلام، ومن يدري ربما أسلم قريبًا!

– خالك ربما يدخل في الإسلام فما الذي يمنعك أنت..؟

– هههه، الآن فهمت، هههه.

– ماذا فهمتِ؟ ماذا بكِ؟

– خالي أمير ليس خالي الذي حدثتك عنه.

– كيف؟ إذن هو شقيق خالك الذي حدثتيني عنه؟

– لا، ربما تستغرب ما أقول، لكن جدي متزوج من أكثر من زوجة.

– مسيحي ومتزوج أكثر من زوجة؟! لا أعرف مسيحيًّا يقول بتعدد الزوجات!

– من قال ذلك؟ لدينا من كان يقول أن الإنجيل لا يحرم تعدد الزوجات، بل سجن البابا مرقس الخامس؛ لأنه رفض تعدد الزوجات والناس تريده، وأيدهم بعض المطران، فسواءً كان ذلك من التأثر بالمسلمين كما يقول أعدائهم أو لأن العهد الجديد لا يحرم ذلك كما يقول بعض المطران المؤيدين للتعدد، أو كان تعدد الزوجات أفضل من تعدد العشيقات كما تقول الزوجات، وعلى كل الأحوال جدي توفيت زوجته فتزوج أخرى، فأمير خالي ولكنه ليس شقيق خالي مرقص الذي حدثتك عنه لكنه أخ له من أبيه.

– عجيب! الناس تريد تعدد الزوجات؟!

– الآن فهمت لماذا دعوتني لوحدي كنت تظن أني أنا الذي منعت ديانا من الدخول في الإسلام.

– نعم.

زمت ديانا شفتيها وقالت بحزم....

– لكني فهمت أن الدعوة لأجل أن تخبرني لماذا لم تدخل أنت في الإسلام؟

جمال باستغراب..

– اسمحوا لي أن أتدخل، صحيح، بالمناسبة إذا كان هذا حرصك على أن تسلم ديانا؛ فلماذا أنت لم تدخل في الإسلام؟

– لقد سألته هذا السؤال فكان يهرب من الإجابة، وظننت أن الدعوة ليخبرني، هل يمكن أن تجيب الآن؟

– سأجيب مضطرًا، وإن سمحتم لي أكون شاكرًا لكم.

ابتسم أمير وهو يقول...

– إذن لا تجب، نريد الإجابة ولكن عندما تكون بدون إحراج.

نظرت ديانا لأعلى..:

– أنا أعرف الإجابة وأحتفظ بها لنفسي ما دمت لا تود أن تقولها.

– شكرًا لكم جميعًا.. ولكني لا أظن أحدًا يعرف ما بداخلي!

– أنت بشر وإنسان وتريد السعادة، وأنا وخالي أمير كذلك وما يمنعنا هو الذي يمنعك، سواءً كنا شجعانًا وعبرنا عنه أم جبناء واختبأنا من الإجابة حتى لأنفسنا، فأنا مثلًا أكذب على نفسي وأتعلل بالظروف عندما أقول خالي مرقص هو السبب؟! لو كنت أمتلك الشجاعة والحرية لاتخذت القرار.

– حيرتيني! وما الذي يمنعك إذن؟

مسحت ديانا بيدها على شعرها وقالت..

– يمنعني حقيقة ما يمنعك أنت ويمنع أمير، وكما سمحنا لك ألا تخبرنا حتى لا تبرز تناقضاتك أمام نفسك من الداخل فلماذا لا تسمح لنا أيضًا، فكل شخص في داخله تناقضاته وتطلعاته وشهواته، فالصدق مع النفس كثيرًا ما يكون صعبًا، خاصة إذا كان في معنى أصل حياة الإنسان ومعنى وجوده وحياته، ولذا يهرب الناس من ذلك بالخمر واللهو.. كما فعلت أنا جبنا وخورًا!!

ظهر على أمير تعجبه وتأثره بكلام ديانا ونظر إلى الأسفل وقال...

– أفهم جيدًا ما تقولين، فلا بد للإنسان أن يعيش سعيدًا ويكتشف نفسه؛ ليتعرف على ربه وينعم بحياته لكنه قرار يحتاج لكمية كبيرة من الحرية والشجاعة، وأنتِ يا ديانا أشجعنا ولذا قلت ما قلت.

جمال وهو يتلفت بينهم ولا يعي شيئًا...

– أنا لم أفهم شيئًا أي شجاعة؟!

ديانا بحزم رغم صوتها الهادئ العميق...

- شجاعة التخلص من أمراض النفوس، والتعالي على ظروف الحياة وشهواتها وشبهاتها ومكرها، حرية أن تتخذ القرار الذي يتجاوز ما اعتدت عليه، ويتجاوز كل الشبهات التي تثار والمكر الذي يدار، شجاعة أن تصدق بما يجحد به لسانك ولو كان قلبك يعرفه جيدًا.

- ما زلت أحاول أن أفهم!

- ربما يصعب عليك الفهم لأنك ولدت مسلمًا، أما أنا فقد فهمت ما تعني ديانا وأظن جورج كذلك.

دمعت عينا ديانا، وهي تقول...

- إلا إن كان لا يريد أن يفهم، أو لا يريد أن يُظهر أنه يفهم، فكثير من الناس تهرب من نفسها لتوهمها أنها تشعر بالسعادة.

مرت بعقل جورج جميع مراحل رحلة البحث أمام عينيه في فلم سريع، وتذكر كل الآيات التي قرأها من القرآن، وكل المواقف التي مرت به، وكل التناقضات التي حاول أن يجد جوابًا لها، كانت نظرات جورج الحائرة تنبئ عن بركان يتحرك بداخله، يحاول أن يخفيه بكل الطرق فلم يستطع، فقرر أن يقتصد في الكلام..

- نعم فهمت.

- وأنا فهمت أنكم تتكلمون بالألغاز، والذي أحبه لكم من الخير أن تسلموا لتنالوا سعادة الدنيا والآخرة، ولتحوزوا كل خير في كل دين وصدق الله القائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فقد كملت النعمة وكمل الدين بهذا الإسلام.

- أظن أني فهمت جيدًا ما كنت أبحث عنه من فترة طويلة.

- ما هو الذي كنت تبحث عنه؟

- كنت أبحث عن نفسي، وعن معنى لحياتي ولوجودي.. أبحث عن نور التوحيد وجمال الحياة.. أبحث عن متعة الروح والعقل والنفس

مسحت ديانا دموعها وهي تقول...

- نفس ما أبحث عنه!

- لقد وجدت الخيط الرفيع الذي ينظم خرزات حياتي لتكون عقدًا جميلًا، الآن أعرف جيدًا لماذا خلقت؟! ولماذا أعيش؟!

- أنا لم أفهم شيئًا؟ هل يمكن أن تقول لي ما الذي فهمت؟!

أشرق وجه ديانا بابتسامة عريضة وقالت...

- كم أشعر بمشاعرك! أنت أكثرنا حرية وشجاعة، ما أجمل فترات الصدق مع النفس.
- فهمت ما أريد، وفهمت آدم ومطيع الرحمن وفهمت ليفي، وتوم وكاترينا وحبيب وأروميلا ومايكل وجانولكا وكاخ، والأهم فهمت جورج.. لقد فهمت معنى الحياة!
- لم أفهم شيئًا!! ما هذه الأسماء التي تذكرها؟
اغرورقت عينا أمير بالدمع وقال...
- أنا الآن فهمتك يا جورج، كم أنت رائع!
- وفهمت كلام العجوز عن طريق السعادة..
- عجوز؟! هل يمكن أن تدلنا على طريق السعادة؟!
- لقد أجابتني روحي، لقد سمعتها للتو.. كم أنا مدين لكم جميعًا!
- أجابتك روحك؟!
- نعم لقد كنت منفصلًا عن روحي، عرف عقلي وعلمي الطريق لكن روحي كانت بعيدة.
فتح أمير عينيه تعجبًا، وقال:
- يبدو أنك تصفني، وماذا قالت لك روحك؟
- قالت لي: كيف تستقيم الدنيا مع الآخرة، وكيف تستقيم النفس بالتوحيد الذي يعطي معنى للحياة؟
كان التأثر عند ديانا وصل غايته وهي تمسح دموعها..
- تستقيم الدنيا والآخرة؟!
- وتلتقي الروح بالعلم والعقل والنفس فتتعانقا بدلًا من أن تتصارعا، كم كان صراعها يشقيني!
- رائع، ما أجمل أوقات الصفاء! كيف التقت روحك معه الآن؟
كان وجه جورج يضيء ويشرق وهو يقول...
- التقت متعة الجسد والروح... التقت البساطة بالعمق... التقت الدنيا بالآخرة... التقت المبادئ مع المصالح...
- رائع... رائع...
- أنا مسافر غدًا مساءً إلى لندن؛ لأبشره أني فهمت ووجدت طريق السعادة، كم كنت ظالم لنفسي ومضيع لعمري.
- من هو الذي ستخبره؟
- العجوز الذي أكد لي أن روحي هي التي ستجد طريق السعادة.
- وماذا عن الشركة التي ستفتحها هنا؟

– سأنهي إجراءاتها غدًا صباحًا، وطائرتي الساعة الثامنة مساءً، بعد غد الجمعة، وأريد أن أخبر العجوز أني سمعت لروحي وحياتي وعرفت؛ فانتظمت حياتي وروحي.. كم أود أن أتواصل مع كل أحبابي الآن، فأنا سعيد الآن، أنا فعلًا سعيد! وجدت الطريق.

– أهنئك يا جورج.

– استأذنكم وأعتذر لكم، أود أن أصعد لغرفتي الآن حالًا.

صعد جورج لغرفته وكتب لمجموعته البريدية:

«أحبتي يا مَن سرتم معي في البحث عن طريق السعادة.. لقد وجدته.. لقد وجدته.. لقد وجدته... كم أنا سعيد.. لقد عرفت إجابة تساؤلاتي المقلقة..

أنتم جميعًا تستحقون شرح الصدر ونور القلب...

أنتم جميعًا تستحقون راحة الضمير وإشراقة التوحيد...

أنتم جميعًا تستحقون متعة الروح وأشواقها...

أنتم جميعًا تستحقون استقامة الدنيا وجمال الحياة...

أنتم جميعًا تستحقون سعادة الدنيا والآخرة...

أحب لكم الخير وطريق السعادة فقد وجدته، نعم وجدته، التقت فيه روحي مع عقلي ونفسي، والتقت فيه الدنيا بالآخرة، والتقت فيه متعة الجسد والروح، لقد اجتمعت نفسي بعد تفرق، لقد أجاب على كل تساؤلاتي.... إنه طريق السعادة.

لك الحمد يا رحيم يا كريم

محبكم/ جورج نيسون»

فهرس المحتويات

الفهرس

العجوز	٧
تساؤلات حائرة!	١٥
شكّ الخيانة..	٣١
الهند.. بلاد العجائب	٤٧
ضعف..!	٦٧
موعد مع الإرهاب..	٨٥
القدس بلاد الأديان والملاحم	١١١
رغبات ومبادئ..	١٥١
بين الحياة والموت..	١٧١
تفاؤل وترقب	٢٠١
إلى بلاد الكنائس..	٢٢٧
مع القس	٢٦١
تساقط الأقنعة	٢٩٣
تحولات وتغيرات	٣٢٣
السرقة..	٣٥١
تناقضات..	٣٨٣
حديث الروح	٤١٧
فهرس المحتويات	٤٣٩

مواقع صديقة

أكاديمية شيخ الإسلام ابن تيمية

Imam Academy
أكاديمية الأئمة والخطباء

أكاديمية البلدة الطيبة
Balda Tayiba Academy

Al-Huda Academy
2025
www.alhudaa-academy.net

الهدى اكيدمى
Alhudaa academy
2025
https://alhudaa-academy.com/

أكاديمية حواء

ইলম একাডেমি
2024
www.elmacademy-bn.com

AIA
African Islamic Academy

AIA
African Islamic Academy

KAP
Knowledge Academy
PHILIPPINES
2024

أكاديمية الإمامين
علم
ابن باز - ابن عثيمين رحمهما الله

جامعة ابن كثير الدولية
Ibn Kathir International University
of Humanities and Islamic Sciences

تدارس
tadarus-quran.com

[redacted] — [redacted].